

سنة النبوة
رسول الله
صلى الله عليه وسلم

د. محمود علی مراد

سيرة رسول الله ﷺ

(لابن إسحاق / ابن هشام)

الفترة المكية

تحليل نقدي للنص

بقلم

د . محمود علي مراد



دار الهلال

الغلاف للفنان
محمد ابو طالب

إهداء..

إلى أرواح الأعزاء الثلاثة :

الطبيب الدكتور زكى على (المهاجر فى سويسرا)

سليمان على السيد - الإسكندرية

أحمد طه على حسن (المهاجر فى كندا)

الذين اختارهم الله إلى جواره ، الواحد بعد الآخر، عام ١٩٩٩م.

تصديير

هذا الكتاب هو - مع تعديلات طفيفة - ترجمة لرسالة علمية نُوقشت في جامعة السوربون الجديدة بباريس في ٢٩ سبتمبر ١٩٩٧ ، لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ .
وقد استُقيت مادة الهيرة هنا مباشرة من سيرة ابن إسحاق ولم تنقل من الترجمة الفرنسية الواردة بالرسالة .

تمهيد

كان المفروض، بداية، أن يتناول بحثى هذا ما كتب بأقلام الكتّاب العرب المعاصرين عن سيرة رسول الله محمد ﷺ، غير أنى لاحظت، منذ المراحل الأولى فى بحثى، عددا من السمات التى بدت لى غريبة فى عشرات كتب السيرة التى رجعت إليها، وبخاصة:

(أ) قلة مادة حديث الفترة المكية إذا ما قورنت بحديث الفترة المدنية، رغم أن الفترة الأولى كانت أطول أمدا من الفترة الثانية، وأن ما نزل من القرآن الكريم فى مكة، من حيث الكم، أضخم بكثير (حوالى الثلثين أو الثلاثة أرباع) مما نزل منه فى المدينة.

(ب) كون الرسول ﷺ يُقدّم للقارىء، فى الفترة المكية، أكثر ما يُقدّم، على أنه رجل محمى أو ينشد الحماية، على الرغم من أنه كان، ولابد، بفضل الهيبة التى أضفاها عليه القرآن، ذا هامة تعلو كثيرا هامات جميع رؤساء مكة والجزيرة العربية.

(ج) ضالة الحيز المخصص، سواء فى الفترة المكية أو فى الفترة المدنية، لحالات اعتناق الإسلام والاضطهاد، على الرغم من كون هاتين الظاهرتين تشكلاان ركنا أساسيا لسيرة كل نبي.

(د) عدم وجود أية بيانات، فى الفترة المكية، عن انتشار الإسلام خارج حدود مكة والمدينة، علما بأن مكة، باعتبارها عاصمة دينية وتجارية لشبه الجزيرة العربية كلها، كانت، كل عام، ملتقى عشرات الآلاف من الحجاج، وأن دعوة محمد ﷺ لا بد أن تكون قد أدت إلى هداية بعضهم إلى الإسلام.

هـ) حديث الجزء الأكبر من الفترة المدنية ينصرف إلى غزوات النبي ﷺ ، على الرغم من أن القتال لم يكن ، ولا شك ، يمثل إلا واحدة من المسائل التي كانت تشغل الرسول ، وأن فقرات القرآن الكريم التي انصبت على القتال لا تشكل إلا جانبا صغيرا من القرآن الذي نزل في الفترة المذكورة.

وقد أقنعني ما لمست من تشابه بين كتب السيرة المختلفة بشأن هذه السمات أن مؤلفيها استمدوا معلوماتهم من ذات المصادر المخصصة للسيرة . ولم يقتض بي الأمر جهدا كبيرا لاكتشف أن أولى مصادرهم هي السيرة القديمة التي تحمل اسم ابن هشام ، الذي راجعها واختصرها ، والتي كان مؤلفها هو ابن إسحاق .

وبعد أن قمتُ بفحص هذه السيرة وجدتُ أنها بالفعل هي الأصل في معظم السمات التي استوقفتني فيما أُلّف في العصر الحديث من كتب السيرة النبوية .

ولكى أقف على ردود المؤلفين الذين توقعت أن يكونوا قد درسوا هذه السيرة على ملحوظاتي وأية ملحوظات أخرى تكون قد عنت لهم بصددتها بحثت عن دراسات نقدية لهذا العمل في المكتبة العربية ، وكان يخيل إلي أن عملا بهذه الأهمية كتبت عنه ، بلا شك ، خلال القرون الاثني عشر التي انقضت منذ ظهوره ، دراسات لا تحصى من هذا النوع ، وكم كانت دهشتي حين أُلْفيت أن كتابا نقديا واحدا لم يكتب بالعربية عن هذه السيرة ، وأن كل ما هو موجود من نقد بشأنها هي ملحوظات سريعة في جمل أو فقرات قليلة في مقدمات طبعات كتب السيرة أو في دراسات نادرة تناولت مصادر سيرة الرسول ﷺ .

وقد وجه النقد إلى ابن إسحاق في بعض الجوانب من سيرته، فأخذ عليه مثلاً كونه لا يوثق بعض الأشعار التي يوردها أو أنه يصنع الشعر ويضعه في كتابه، وأنه لا يذكر سلسلة الإسناد في بعض رواياته، مكتفياً بأن يقول: «فيما بلغني» أو «كما ذكر لي» أو «فيما يزعمون» أو «حدثني من لا أتهم»، وأنه لم يكن يمارس، بالنسبة لبعض المعلومات التي يوردها، حداً أدنى من نقد المصادر التي اعتمد عليها، وأنه كان لا يتحرّج من قبول معلومات خاطئة أو غير واقعية هي أقرب إلى الخيال الأدبي منها إلى التاريخ. ولاحظ البعض أيضاً تحامله على بنى أمية.

وقد أبدت هذه الملاحظات معظم الوقت في عبارات عامة لا تستند إلى أمثلة. ولم تكن نزاهته وحسن نيته أبداً موضع شك. ولئن قيل إن الإمام مالك، أحد أئمة المذاهب الأربعة المعتمدة في الإسلام، وغيره من العلماء، لم يثقوا في روايته، واتهموه بالدجل، فهناك دائماً من يبادر إلى تبرئة ساحته باستخدام الحجج التي ساقها الخطيب البغدادي، وابن سيّد الناس، وفندوا بها، الواحد تلو الآخر، المطاعن التي وجهت إليه، والتذكير بأن علماء كالزُّهري كانوا يولونه ثقتهم الكاملة، وأن أئمة المُحدِّثين كالبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه شهدوا له واستشهدوا به في مصنفاتهم في بعض مسائل الحديث.

وهناك اتفاق بين الجميع على أن له القِدْحَ المُعَلَّى فيما يتعلق بمغازي الرسول ﷺ، وأنه كان حجة في هذا الباب، والمصدر الذي اغترف منه كل من تحدّث عن غزوات الرسول في عصره أو بعد عصره، خلا الواقدي (١٣٠ - ٢٠٧ هـ / ٧٤٧ - ٨٢٣ م) مؤلف تاريخ المغازي، وكاتبه ابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ - ٨٤٥ م) صاحب كتاب «الطبقات»، وهو قاموس لتراجم الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين.

وفيما عدا هذه التحفظات القليلة، كان ابن إسحاق موضعاً لثناء جم، بل في إمكانى القول إنه ما من كتاب ظفر في العالم العربي والإسلامي بالنجاح مثلما ظفرت به سيرته للنبي ﷺ منذ ظهورها في منتصف القرن الثاني الهجري. وما من كتاب ككتاب ابن إسحاق ذاك كان موضع التعليق والشرح والتبسيط والاختصار، وما من كتاب ككتابه نظم شعرا وتوفّر الناس على قراءته ورجعوا إليه وأعيد طبعه مرات ومرات. فهو يعد تراثاً عربياً اشتهر خلال القرون الاثني عشر التي انقضت منذ ظهوره.

وخلال كل هذه القرون الاثني عشر كان الناس ينظرون إلى الرسول ﷺ، في جميع أنحاء العالم الإسلامي، إن جاز لي هذا التشبيه، بنظارة إحدى عدستها القرآن الكريم والأخرى سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام.

لكن حدث عام ١٩٤٨ أن مؤلفاً - هو الأستاذ محمد عزة دروزة - لاحظ أن «العدسة» غير القرآنية تشوه صورة الرسول، وأن هناك بونا شاسعاً بين هذه العدسة والعدسة القرآنية. وقد ألف دروزة كتاباً أشبه بالسيرة النبوية اعتمد في الجانب الأكبر منه على القرآن الكريم. لكنه، هو الآخر، لم ينقد سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام نقداً متعمقاً، واكتفى بأن ذكر في مقدمة كتابه «أن الروايات والآثار المتعلقة بالسيرة ظلت تحتفظ بها الصدور وتتناقلها الأفواه مدى غير قصير ربما زاد على القرن من بعد وفاة النبي ﷺ، وأنه من المعقول الذي يؤيده الواقع أن يكون قد طرأ على كثير منها زيادة ونقص وتبديل وتغيير، كما أن منها ما يمكن أن يكون قد لُفّق تلفيقاً ونُحِلّ نُحْلاً، وأن منها ما يتناقض مع النصوص والقرائن والملهمات القرآنية»، وقال إن ذلك كله يدعو إلى الشك في صحتها ومصداقيتها.

كما لاحظ دروزة أيضا أن سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد الكبرى، وهما أقدم ما وصل إلينا من كتب السيرة، ربما كانا أوثق ما فى أيدي الباحثين وأكثره دقة واحتياطا، وأنهم مع ذلك يستطيعون أن يروا فى كل فصل من فصولهما دليلا يؤيد ما يقوله بشكل من الأشكال.

ويضيف دروزة عن ابن هشام خاصة أنه «استشهد على كثير مما نقله من حوادث، أو دَوَّنه من وقائع، أو أوردته من روايات، بالآيات القرآنية، يوردها كسبب للنزول، ويشرح الحوادث .. غير أن تلك الآيات لم تكن كل شواهدة فيما نقل وروى ودون، كما أن فى بعض المواقف التى يستشهد فيها بآيات القرآن ما يوحى بأنه كان يقصد التوفيق، وفى بعضها ما يسمح بالتوقف فى أخذ تلك الآيات دليلا على الحادثة أو الرواية وشاهدا صحيحا عليها» (*).

هذا هو الوضع فيما يتعلق بنقد سيرة ابن هشام باللغة العربية، فى الوقت الحاضر. فكيف يمكن تفسير هذا القصور؟.

إن الأساتذة المحققين الثلاثة: مصطفى السقا، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وإبراهيم الإبيارى، مدير إدارة إحياء التراث القديم، وعبدالحفيظ شلبى، مدير المكتبات الفرعية بدار الكتب المصرية، الذين قاموا على نشر ما نعتبرها أفضل طبعة محققة لكتاب ابن إسحاق صدرت حتى الآن، يفسرون هذا القصور بأن النظر إلى «السيرة»، شأنها فى ذلك شأن تراث السالفين كله، لاسيما ما يتصل منه بعلم السير وغزوات الرسول ﷺ، نظرة فيها الكثير من التقديس، هو الذى حال دون نقدها.

(*) الأرجح أن دروزة يعنى هنا ابن إسحاق كاتب سيرة ابن هشام التى أشار إليها فى الفقرة السابقة.

ويلاحظ هؤلاء الأساتذة المحققون أن هذا ليس معناه أن كُتِّب «السيرة» المحدثين يقبلون كل ما يجدونه في كتب التراث على علاته، لكنهم يفضلون أن يستبعدوا المعلومات التي لا يؤمنون بصحتها، دون أن يأتوا على مواضع الضعف منها، ولا يقفون إلا عند ما يبدو لهم صحيحا.

ورأى آخر يقول إن في الإمكان تفسير هذه الظاهرة بالمحبة والتوقير اللذين يكتنهما المسلمون لنبيهم والذين يجعلانهم على استعداد لتقبل ما يتعلق به ﷺ من معلومات ما دامت لا تنطوي على إساءة إليه.

ويمكن إضافة تعليل ثالث إلى هذين التعليلين هو خشية المسلمين من أن يترتب على الإسراف في نقد «السيرة»، في أجزائها الأساسية، هدم لتاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام وتاريخ بدايات الإسلام.

أما في الغرب فقد خضعت كتب السيرة القديمة، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر لنقد المستشرقين وأبرز بعضهم فيها سمات عديدة، لا سيما: تأثرها بالتراث اليهودي والمسيحي، وأن كتب السيرة لا تصور، في الروايات المتعلقة بإسلام الرعيل الأول من المسلمين، ما حدث بالفعل، وإنما تصور استباقا لوضع متأخر بكثير للعناصر الواردة في السير، وأن تاريخ بدايات الإسلام قد عدل وأضفى عليه طابع مثالي تمجيذا لأسر وشخصيات لعبت أدوارا مهمة في تاريخ الإمبراطورية العربية، وأن «السيرة» ما هي إلا مجموعة من «الأحاديث» تسرد حكايات لا تختلف طريقة تكوينها، في كثير، عن طريقة تكوين «الأحاديث» النبوية التي تقرر أحكاما فقهية لا ينطوي النص فيها على سرد تاريخي بقدر ما ينطوي على صياغة فقهية أو مسألة جدلية، وأن كل ما يروى فيها عن ظروف الحال والواقع وكل تفصيل يقال إنه تاريخي

إنما هو تفسير ذاتي لهذه الآية القرآنية أو تلك لُفِّقَ تلفيقاً بقصد إعلاء قدر الرسول أو للتدليل على صحة مقولة دينية أو سياسية معينة، وأن إجلال المسلمين لنبيهم أدى إلى نشوء أسطورة ذات طابع «هاجيوغرافي» (أي ما يكتب عن القديسين لإبرازهم في أجمل صورة)، نجد فيها بعض الذكريات التاريخية المشوهة إلى حد كبير أو صغير، إلى جانب بعض الأحداث العرضية المنقولة عن التراث الديني اليهودي والمسيحي، وأن علم التفسير في مدارس المحدثين بالمدينة كان يحلو له، لدى وصف تاريخ الفترة المكية، أن يكتشف في بعض فقرات القرآن إشارات إلى أحداث محددة وقعت في حياة الرسول. على أن هناك إقراراً لدى المستشرقين بأن مشكلة النقد التاريخي للسيرة لم تُحل بصورة نهائية وأنها لا تزال بعيدة عن الحل حتى الآن.

اعتبارات عامة إذن عن سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام وعن غيرها، لكن ما من كتاب أفرد لها بالكامل سوى كتاب ج فوك J.Fuck الذي صدر في فرانكفورت/ مين عام ١٩٢٥ (*) .

ما العمل أمام مثل هذا الموقف؟ هل أستمِر في الاهتمام بكتب السيرة النبوية التي ظهرت في العصر الحديث دون توضيح مشكلة النقاط الخمس الأساسية التي صادفتني، أم أتغلب على الحواجز الفكرية وأغامر بولوج هذه الأرض المجهولة، أي - بعبارة أخرى - آخذ على عاتقي مهمة القيام بتحليل نقدي متعمق للسيرة موضوع هذا البحث؟

ترددت طويلاً قبل الإقدام على هذه المخاطرة، وكان التحدي مخيفاً، لكنني وجدت من شجعني على قبوله، وقد قبلته!

(*) هذا الكتاب. الذي أتيج لي أن أحصل على نسخة منه بعد تقديم الرسالة، هو في الواقع دراسة مكتوبة بخط اليد تقع في ٤٦ صفحة عن محمد بن إسحاق، وليس فيه تحليل نقدي للسيرة التي كتبها.

وقد اعتمدت في بحثي هذا على الطبعة الثانية لسيرة رسول الله ﷺ بعنوان «السيرة النبوية لابن هشام» الصادرة عن دار مصطفى البابي الحلبي للنشر عام ١٩٥٥م. في قسمين: القسم الأول يشمل الجزئين الأول والثاني، والقسم الثاني يضم الجزئين الثالث والرابع، والتي قام بتحقيقها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها الأساتذة:

مصطفى السقا، وإبراهيم الإياري، وعبدالحفيظ شلبي.

وسيرة ابن هشام تُرجمت إلى الألمانية والإنجليزية، لكنها لم تترجم بعد إلى الفرنسية. وقد ترجمت في هذا البحث، مع الاختصار، تحت عنوان «النص»، أجزاءها التي تناولتها بالتحليل والتعليق.

وفيما يتعلق بالاستشهادات القرآنية اخترت لعملى ترجمة «ريجي بلاشير» الصادرة عام ١٩٨٠ عن دار ج. ب. ميزونيف ولاروز للنشر بباريس.

وعلى الرغم من أن هذه الترجمة ليست أحدث ترجمات القرآن، إلا أنه كان فيها بالنسبة لى ميزة هي أنها تمت في إطار دراسة متعمقة للقرآن الكريم أسفرت عن تأليف كتاب قيم بعنوان «مقدمة القرآن»، وترتيب لآيات القرآن حسب أوقات نزولها. وأفادتني أيضا فى عملى ملحوظات الأستاذ بلاشير الواردة فى الفصل الأول من كتابه «مشكلة محمد»، وعنوانه: «المصادر والمواد التكميلية: المشكلة الزمنية».

وقد ذكرت فى البليوغرافيا المرفقة بيانات عن بعض المصنفات العربية التى تعالج مصادر السيرة، وبعض كتب السيرة التى وردت فى مقدماتها آراء عن مشكلة المصادر.

وأخيرا فإن الإشارة إلى مواد «دائرة المعارف الإسلامية» فى البليوغرافيا تعطى بدورها فكرة عن حالة البحوث الراهنة فى السيرة النبوية والموضوعات والشخصيات الرئيسية التى تناولها هذا العمل.

المقدمة

أولاً

إحدى الطرق الممكنة لتحليل سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام تحليلاً نقدياً هي فحص كل ما ورد في هذه السيرة لمعرفة ما إذا كانت سلسلة الرواه التي ذكرت فيها سليمة، وما إذا كانت الأحاديث الصحيحة أو غيرها من المصادر تؤكد ما أورده ابن إسحاق/ في سيرته من أخبار وموضوعات، ولكن هذا لم يكن النهج الذي اخترته. ذلك أن قراءاتي الأولى للسيرة أقنعتني بأنه من المناسب أن يعلو بحثي هذا درجة وأن أحاول معرفة ما إذا كانت هذه السيرة ترجمة حقيقية للرسول صلى الله عليه وسلم، وما إذا كانت تصور التاريخ الحقيقي لشخصه وعمله.

ومن جهة أخرى فإنني، بعد أن كان في نيتي، في البداية، دراسة هذه السيرة بأكملها، وجدت، كلما قطعت شوطاً في بحثي هذا، أن مثل هذا المشروع ضخيم للغاية وأن من الصواب أن يقتصر بحثي على دراسة الفترة المكية.

وقد استخدمت في عملي وثيقة، كما استخدمت معلومات عن المؤلف والمصادر التي كانت متاحة له وعن الإطار التاريخي الذي أعد فيه كتابه.

والوثيقة التي استخدمتها هي القرآن الكريم. إنه الوثيقة الوحيدة التي رجع إليها المؤلف. وعلى الرغم من أن الآيات التي تضمنت إشارة إلى أحداث معينة قليلة في هذا الكتاب، إلا أنه يوفر للباحث ميزتين: كونه معاصراً للرسول عليه الصلاة والسلام، وكونه يشكل أساس رسالته.

وقد خيل إلى حين نظرتُ إلى مجموع السور التي أنزلت خلال فترات معينة، أن فيها عناصر تسمح بالتحقق من صحة بعض ما ورد في نص ابن إسحاق من مواد.

والمعلومات التي انتهت إلينا عن ابن إسحاق جد قليلة. لقد ولد في المدينة في حوالي سنة ٨٥ هـ (٧٠٤ م)، وتوفي في بغداد بين سنتي ١٥٠ و ١٥٣ هـ (٧٦٧ م و ٧٧٠ م). وقد أسر خالد بن الوليد جدّه سنة ١٢ هـ (٦٣٤ م) في عين التمر وهي بلدة عراقية صغيرة كان ملك الفرس حبسه فيها. وأرسله خالد مع غيره من الأسرى إلى المدينة وبيع فيها كرقيق إلى قيس بن مخزومة بن المطّلب بن عبد مناف. وأعتقه سيده حين أسلم. وأنجب ابنه إسحاق (والد محمد صاحب السيرة) في حوالي عام ٥٠ هـ (٦٧٠ م)، من أم كانت هي الأخرى جارية أعتقت. وكان إسحاق وأخوه موسى محدّثين معروفين.

وصاحب مؤلفنا ابن إسحاق الجيل الثاني من محدّثي المدينة، لاسيما الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبدالله بن أبي بكر. ورحل ابن إسحاق في سن الثلاثين إلى مصر وتدد فيها على محدّثي هذا البلد، ثم عاد مرة أخرى إلى المدينة في تاريخ غير معروف ورحل بعدها إلى العراق. وفي العراق أقام في الكوفة والجزيرة على نهر دجلة، وفي الرّى، والحيرة، وبغداد.

وقد كلفه الخليفة المنصور بتأليف كتاب عن تاريخ العالم منذ آدم لابنه المهدي. وحين قدّم ابن إسحاق كتابه إلى الخليفة وجده مطولا فطلب منه أن يختصره. وقام ابن إسحاق باختصار الكتاب وقدمه إلى الخليفة فأضافه إلى مكتبته.

وقد توفي مؤلفنا ودفن في بغداد.

وكان ابن إسحاق مُحدثًا ومؤرِّخًا اختلفت حوله الآراء. ويروى عن الزُّهرى أنه قال: إن العلم باقٍ في المدينة ما بقى فيها ابن إسحاق، وقد استقى منه أخبار غزوات النبي صلى الله عليه وسلم. أما الإمام مالك فكان لا يحسن الظن بابن إسحاق واتهمه بالتشيع.

وقد علق ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣م) على سيرة ابن إسحاق واختصرها ونقد بعض ما ورد فيها.

ماذا كانت المصادر التى رجع إليها ابن إسحاق فى كتابة سيرته غير القرآن؟

تنحصر هذه المصادر فى ثلاثة أنواع:

- الأحاديث النبوية بشأن أمور قالها الرسول عليه الصلاة والسلام أو فعلها أو أقرها.

- أشعار.

- الأخبار المتداولة فى عصره.

أ) وفيما يتعلق بالأحاديث قال البخارى، المحدث الكبير (المتوفى عام ٨٧٠م) إنه وجد ٦٠٠,٠٠٠ حديث، منها ٤٠٠٠ لا أكثر بدت له صحيحة. وقال آخر من كبار المحدثين هو أبو داود (المتوفى عام ٨٨٨م) أنه وجد ٥٠٠,٠٠٠ حديث لم يصدق منها سوى ٤٨٠٠ حديث. وبلغ من كثرة الأحاديث الموضوعية أن الأحاديث الصحيحة كانت تبدو بينها كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود على قول الدارقطنى.

لماذا كثر الوضع فى الحديث؟

أُرجعت هذه الظاهرة إلى أسباب عديدة، منها: الخلافات السياسية والفقهية، والتقرب للخلفاء، والعصية للجنس والقبيلة واللغة والبلد،

ورغبة الرواة والقصاص ومن تولوا مهمة الوعظ في استمالة وجه العوام إليهم بتقديم حكايات عجيبة... إلخ. وكان كل فريق يحاول بوضع الأحاديث أن يجعل الرسول ﷺ إلى جانبه. كذلك قام أعداء الإسلام بوضع الأحاديث للإساءة إلى هذا الدين.

وقد اختفى كثير من الأحاديث الموضوعية منذ أن نشرت في القرنين الثالث والرابع من الهجرة كتب السنة المحتوية على الأحاديث التي صحّت عند كبار المحدثين، لكن عددا من الأحاديث الموضوعية لا يزال باقيا. ومن أمثلة الوضع فيما يتعلق بمسألة الخلافة، ما يلي:

- أن النبي ﷺ، أثناء رجوعه من حجة الوداع، أمسك يد عليّ رضي الله عنه ووقف به أمام جميع صحابته وقال: «هذا وصي وأخي والخليفة من بعدى فاسمعوا له وأطيعوا».

- «إذا رأيتم معاوية على منبر فاقتلوه».

- «الأمناء ثلاثة: أنا وجبريل ومعاوية».

- «أنت مني يا معاوية وأنا منك».

- «العباس وصي ووارثي».

- «إذا كانت سنة خمس وثلاثين ومائة فهي لك ولولدك، السفاح والمنصور والمهدي».

- «ما في الجنة شجرة إلا مكتوب على كل ورقة منها لا إله إلا الله محمد رسول الله، أبوبكر الصديق، عمر الفاروق، وعثمان ذو النورين».

ومن أمثلة الأحاديث الموضوعية لعصية الجنس واللغة والبلد:

- «إن الله إذا غضب أنزل الوحي بالعربية وإذا رضى أنزل الوحي بالفارسية».

- «إن الله إذا غضب أنزل الوحي بالفارسية وإذا رضى أنزل الوحي بالعربية».

وقد أدى بعض هذه الأحاديث الموضوعية، التي كانت تتناقلها الألسن، إلى خلق حالة من البلبلة والاضطراب في النفوس بلغ من خطرهما أن أمر الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز (٧١٧ - ٧٢٠م) بجمع الأحاديث وتدوينها، وأرسل إلى ولاية الأمصار كلها وكبار علمائها يطلب منهم ذلك، لكن هذا المشروع لم يقيض له أن يتم إلا بعد قرن من الزمان في خلافة الخليفة العباسي المأمون (٨١٣ - ٨٣٣م)، بعد نصف قرن من وفاة ابن إسحاق. وقد أنجزت الخطوة التالية، التي تقوم على التوثق من هذه المجموعة الضخمة من الأحاديث وتقسيمها وتمييزها من حيث صحتها، في القرنين الثالث والرابع الهجريين.

ب) لم يبذل مثل هذا الجهد للتأكد من صحة قصائد الشعر التي تنسب إلى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد رجع ابن هشام، للتحقق من صحة الأشعار التي أوردها ابن إسحاق في كتابه، إلى أهل العلم بالشعر، دون أن يذكر أسماءهم. واكتشف هؤلاء أن بعض تلك القصائد أو أبياتا منها لم ينظمها من نسبت إليهم، لكن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الوسائل التي كانت متاحة لهم لم تكن تسمح لهم باكتشاف كل القصائد المتحلة.

ج) أما عشرات - أو مئات - ألوف الأخبار والحكايات التي كانت تتناقلها الأفواه عن الرسول عليه الصلاة والسلام وعن أصحابه وخصومه، وعمن لعبوا دورا في الأحداث أو المواقف التي كان على

مؤلفنا أن يستخدمها، فإن وسائل التحقيق والنقد لم تكن تسمح على الإطلاق، بعد أكثر من قرن بعد وفاة الرسول، بفرزها وبذل أدنى قدر من المراجعة للحكم على صحتها.

ونظرا إلى أن اسم عمر بن الخطاب سورد كثيرا في هذا البحث فمما لا يخلو من طرفة أن نورد هنا قصة من القصص التي كانت تروى بشأنه في زمن ابن إسحاق: أرسل عمر المدعو قنفذا إلى بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فضربها بالسوط. وضغطها عمر من ناحيته بين الباب والجدار، فصاحت: يا أبتاه! وجعل عمر في عنق زوجها على حبل يقاد به، وفاطمة خلفه تصرخ، وابناه الحسن والحسين يبكيان.

والسؤال الأخير الذي أردت أن أجلو به عملي هو السؤال الآتي:

هل كانت الحقبة التي عاش فيها المؤلف ملائمة لاكتشاف الحقيقة فيما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام بصورة موضوعية؟

للإجابة عن هذا السؤال كان عليّ أن استعرض الأحداث والاتجاهات الكبرى التي سجلها تاريخ الإسلام منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام في سنة ٦٣٢م إلى وفاة المؤلف في سنة ٧٦٩م. وفيما يلي لمحة سريعة عن هذه الأحداث والاتجاهات:

بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام انقسم المسلمون بشأن اختيار خليفته. وكان العباس، عم الرسول، وعليّ، ابن عمه وزوج ابنته، يريان أن أولى الناس بالخلافة هو شخص من قبيلته أي من بنى هاشم. واجتمع الأنصار، من جهتهم، في سقيفة بنى ساعدة، حول سعد بن عبادة وأرادوا أن يكون سعد هو الخليفة. وكانوا على استعداد، إن اقتضى الأمر، لاقتسام السلطة مع المهاجرين. وأخيرا وقع الاختيار على أبي بكر، بناء على اقتراح من عمر، ليكون خليفة للمسلمين.

وبعد انتخاب الخليفة بقليل أعلنت جماعات من العرب في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية خروجهم على الخلافة وارتدادهم عن الإسلام فسير الخليفة إليهم جيوشا قضت على حركاتهم. ثم سير أبوبكر جيوشا إلى خارج الجزيرة استمرت فتوحاتها تحت خلافة عمر (١٣-٢٣هـ/ ٦٤٤-٦٥٦م) وعثمان (٢٣-٣٥هـ/ ٦٤٤-٦٥٦م).

وقد اغتيل عمر وعثمان، وكان الذي اغتال عمر عبد فارسي. أما عثمان فقد اغتيل بيد ثوار قداموا من مصر ومن عدة مدن عراقية. وبعد موت عثمان ببيع علي خليفة (٣٥-٤٠هـ/ ٦٥٦-٦٦١م) إلا أن نفرا من المسلمين - لا سيما معاوية بن أبي سفيان والي الشام من قبل عمر - والزبير، أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، اعترضوا على هذه البيعة. وذهب الزبير، الذي كان يطمع في الخلافة، مع واحد من مؤيديه هو طلحة، إلى مكة، وانضم إليهما فيها ولادة الأمصار من قبل عثمان، الذين عزلهم علي، وبعض اتباعهم، ثم نقلوا مركز حركتهم التمردية إلى العراق.

وفي سنة ٦٥٧م، أي بعد أقل من ربع قرن بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، كانت الخصومات والعداء بين المسلمين محتدمة بدرجة أدت إلى نشوب معركة بين علي وخصومه في جنوب العراق استمرت سبعة أيام حضرتها عائشة في معسكر الزبير. وقتل في هذه المعركة من الجانبين المتحاربين عشرة آلاف مسلم (وهو عدد جيش الرسول عليه الصلاة والسلام عند فتح مكة في عام ٦٣٠م).

وبعد أن انتصر علي على طلحة والزبير سار إلى معاوية. ونشبت معركة بين الجيشين في صفين وانتصر علي في البداية، لكن معاوية طلب التحكيم. وقبل علي ذلك رغم احتجاج بعض المتحاربين في

صفه. واتفق الحكمان على خلع طرفى النزاع، على ومعاوية. وأعلن ممثل على فى التحكيم هذا القرار، إلا أن عمرو بن العاص، ممثل معاوية فى التحكيم، أعلن أن الخليفة هو معاوية.

ورفض على هذه الخدعة، لكن خروج جانب من جيشه وانشقاقهم وتكوينهم حزبا مستقلا، هم الخوارج، معارضا للعلويين ولبنى أمية جميعا، واضطرار على لمحاربتهم، فضلا عن عدااء أنصار الزبير القدامى فى العراق، كانت عوامل أضعفت مركز على.

أما معاوية فقد كان، على النقيض، يستند إلى جيش موحد وإلى بلد، هو الشام، استطاع أن يحظى بولائه بفضل سياسته الحكيمة ودبلوماسيته وحسن إدارته.

وقتل الخوارج على فى المسجد المثلّى بالمصلين عام ٤٠ هـ (٦٦١م)، لكن شيعته واصلوا الكفاح تحت قيادة ابنه الحسين بعد تخلى ابنه الحسن عن الخلافة وموته.

وكان معظم الخلفاء الثلاثة عشر الذين أعقبوا معاوية حكاما غير أكفاء أو متهاكين على اللذات. وكان عنفهم متزايدا فى قمع حركات التمرد التى نتجت فى مختلف ولايات الإمبراطورية عن الظلم والضرائب الباهظة، وعن التمييز الذى كان من ضحاياهم المسلمون من غير العرب أى الموالى. ذلك أن الخلفاء كانوا يعتبرون هؤلاء الموالى مسلمين فى مرتبة أقل من مرتبة المسلمين العرب وكانوا يحرمونهم، فى الجيش وفى الحياة المدنية، من بعض الحقوق التى كان يتمتع بها العرب إخوانهم فى الدين.

على أنه كان هناك عامل آخر أدى إلى إضعاف الخلفاء الأمويين وهو الخصومات فى معسكرهم ذاته بين أعوانهم من العرب ممن يسمون بالقيسيين المضربين، الذين كانت قبائلهم تعيش فى شمال الجزيرة

العربية، ومن يسمون باليمنيين، الذين كانت قبائلهم تعيش فى جنوبها. وكانت أهواء الخلفاء الأمويين مع هؤلاء تارة ومع أولئك تارة، ولم يراع هؤلاء الخلفاء مبدأ التوازن فى معاملتهم لهاتين المجموعتين من القبائل.

ولم يكن أهل الحجاز فى المدينة وفى مكة بمأمن من اضطهاد الأمويين. وقد سير هؤلاء إليهم قوات مسلحة مرتين للقضاء على الثورات التى كان يؤججها خصومهم ممن كانوا لا يعترفون بشرعية حكمهم أو التى كانت تنشأ عن ظلم الولاة المعينين من قبل دمشق وعن سوء إدارتهم: مرة فى عهد يزيد بن معاوية، فى سنة ٦٣ هـ (٦٨٣م)، ومرة أخرى فى عهد عبدالملك بن مروان الذى أرسل إليهم «رجله القوى»، الحجاج بن يوسف الثقفى، وعينه حاكما على الحجاز خلال الفترة من ٦٩٢ إلى ٦٩٥م. وكان تنكيل بنى أمية بخصومهم شنيعا، ولقى عديد من أبناء صحابة رسول الله حتفهم أو لحقهم الإذلال على أيديهم، كما قذفت جيوش الخلافة الكعبة، بيت الله الحرام، بالمجانيق مرتين.

كذلك عانى الشيعة فى العراق من اضطهاد الأمويين. وفى مساجد جميع ولايات الإمبراطورية كان الأئمة، عملا بالتعليمات الصادرة إليهم، يلعنون عليا وذويه فى خطبة الجمعة. وقد قُتل الحسين بن على حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم غدرا فى كربلاء هو وذووه، فى خلافة يزيد، وأثارت هذه المذبحة مشاعر الناس واستهجانهم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وأتاحت للمذهب الشيعى، الذى كان حتى ذلك الوقت وقفا على العرب، أن ينتشر، لاسيما فى بلاد فارس.

وبلغ عدم الاستقرار ذروته فى خلافة آخر الخلفاء الأمويين، مروان ابن محمد (٧٤٤ - ٧٤٩م) الذى قتل سلفه للاستيلاء على السلطة، وصلبه وقتل من ماله. كما بلغ من حدة الخلافات بين قبائل الشمال

وقبائل الجنوب أن أعلن بعضها الثورة المسلحة على الدولة فى كل ولايات الشام والعراق. وفى هذا البلد الأخير كانت الحالة قد تدهورت إلى أقصى حد، فقد سار الخوارج بقيادة رئيسهم الضحّاك بن قيس، الذى كان يسعى للخلافة، إلى الموصل، لكن قوات الخليفة هزمتهم فى معركة كبرى. على أن ثورة الخوارج تلتها بقليل ثورة مسلحة فى خراسان الواقعة شرق بلاد الفرس، كانت جذوتها تضطرم بين الأهالى منذ وقت طويل.

واستغل آل هاشم مشاعر العداء ضد الأمويين التى اجتاحت موجاتها معظم الأقطار فعقدوا مؤتمرا ضم أقطاب العلويين والعباسيين لمناقشة الوسائل التى يمكن أن تؤدى إلى القضاء على النظام الأموى القائم واتفقوا على تعيين الشخص الذى سيتولى الخلافة متى نجحت جهودهم وهو محمد المعروف بالنفس الزكية، حفيد على. وبذل زعيم خراسانى، هو أبو مسلم، جهودا كبيرة لإنجاح المخطط الهاشمى، ولم يدخر وسعا لإذكاء نيران الفتنة بين الموالى ضد الأمويين، وتدفق مؤيدوه من كل جانب على خراسان، والتف تحت رايته مائة ألف من الموالى. كذلك تمكن أبو مسلم من بذر بذور الشقاق بين أنصار بنى أمية المقيمين فى خراسان ومن استمالة «اليمنية» أعداء الأمويين فى ذلك الإقليم، واستولى على مدينة «مرو» عاصمة خراسان وقتل رؤساء القبائل الذين كانوا يعارضونه.

وفى هذه الأثناء عمل العباسيون على إقصاء العلويين من السعى إلى السلطة، واختاروا الكوفة مركزا لحركتهم، وسار أبو العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الكوفة ومعه كبار بنى هاشم من ولد العباس. وبعد ستين هزمت قواتهم جيش قائد الكوفة الأموى.

وأخيراً، فى عام ١٣٢هـ (٧٥٠م)، بايع أشباع العباسيين أبا العباس «السفاح» بالخلافة ورُفِع علم العباسيين الأسود على حصون دمشق، وكان رفعه إعلاناً بسقوط الخلافة الأموية نهائياً. وسارت الجيوش الموالية للعباسيين بعد ذلك من خراسان إلى العراق واستولت على مدنها الكبرى الواحدة تلو الأخرى. وتقهقر الخليفة الأموى مروان بن محمد منهزماً فى جيش منقسم على نفسه. وعهد أبو العباس إلى عمه عبدالله بتعقبه فحارب مروان فى عدة معارك خسرها مروان فاضطر إلى الفرار بقلوب جيشه إلى الأردن وفلسطين، ثم إلى مصر، وأخيراً قتل فى مصر فى بلدة تقع بين مصر العليا ومصر السفلى، وأُرسل رأسه إلى الخليفة العباسى فى الكوفة.

وفى صبيحة اليوم التالى لخلافته، خطب أبو العباس، أول الخلفاء العباسيين، خطبته الأولى فى مسجد الكوفة. وأشاد فى هذه الخطبة بآل محمد وندد بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ولما اقترفوه من آثام وذنوب وظلم، وأثنى على أهل الكوفة لولائهم لبيت العباس وقال: «وبنا هدى الله الناس»، كما قال إن ذويه كانوا الوسيلة التى انتقم الله بها من بنى أمية: «انتقم منهم بأيدينا»، وأنه تعالى رد إلى العباسيين حقهم: «ورد علينا حقنا».

وطبق أبو العباس سياسة التنكيل بالأمويين دون هوادة. ووقعت، بناء على تعليماته، مذابح عديدة ضدهم فى الكوفة وفلسطين وفى مكة والمدينة. ونبش قبور معاوية وابنه يزيد وعبد الملك بن مروان، ومثل بجثثهم وأحرقها وضرب جثة الخليفة هشام بن عبد الملك بالسياط وذراها فى الهواء. وصودرت كل أموال الأمويين.

ولم يكتف هذا الخليفة باضطهاد أعدائه ، بل انقلب بعد ذلك على كبار القوم والقواد الذين تبَّنوا قضية العباسيين وساعدوهم على تولي الحكم . وكانت هذه سمة من سمات خلافته سار عليها الخلفاء العباسيون الذين جاءوا بعده . كما كان من سمات خلافته الأخرى الثقة التي أولاها والمزايا التي منحها للفرس ، مفضلا إياهم على العرب .

وأوغرت قسوة هذا الخليفة وسفكه للدماء وغدره وتفضيله للفرس على العرب ضده قلوب الناس في عديد من ولايات الخلافة ، لاسيما في بلاد الشام والجزيرة وعمَّان وفي السند وخراسان . وشبت اضطرابات وقلقل لكنه أخمدتها بيد من حديد .

وبعد وفاة أبي العباس في سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤م) تولى الخلافة بعده أخوه المنصور . واهتم هذا الخليفة بتقوية دعائم الدولة وجمع بين يديه جميع مقاليد السلطة ، وأضفى على الخلافة طابعا قدسيا فأشاع أنه يحكم بتفويض من الله . وكان التخلص من عمِّه عبدالله إحدى أولوياته ، وكان هذا الblem قد تلقى من أبي العباس وعدا بأن يتبوأ الخلافة بعده إذا نجح في دحر آخر الخلفاء الأمويين . وحين علم - أي عبدالله - بأن المنصور اغتصب منه الخلافة رفض مقابلته واتجه بجيشه إلى الجزيرة في العراق ، فأوفد إليه المنصور أبا مسلم الخراساني على رأس جيش تغلب عليه ، ثم دبر المنصور قتله بعد ذلك . وفي العام التالي جاء الدور على أبي مسلم الذي كان المنصور يخشى من نفوذه في الامبراطورية على نفسه . وبدأ الخليفة بأن عزل أبا مسلم من منصبه كوال خراسان وعينه واليا على مصر والشام ، فرفض ذلك أبو مسلم ، لكنه رأى بعد فترة أن ينهى سوء التفاهم بينه وبين المنصور فطلب مقابلته . وأحسن المنصور استقباله ثم أبدى رغبته في رؤيته إذا كان الغد . وحين دخل أبو مسلم خيمة الخليفة

فى اليوم التالى أوسعه الخليفة تويخا وتقرىعا ثم أوما إلى حراسه بإشارة فضربوه بالسيف حتى لقى مصرعه . كان هذا فى سنة ٧٥٥م . وتم بهذا قتل رجلين كانا من دعائم الخلافة كما كانا من أخلص الأعوان للعباسيين . وانقض المنصور بعد ذلك على منافسيه من العلويين فقتل محمدا النفس الزكية الذى كان بنو هاشم قد وعدوه بالخلافة ، ثم قتل أخاه إبراهيم الذى كان يطالب بالخلافة بعد موت أخيه .

هذا هو الخليفة أبو جعفر المنصور الذى تقول كتب التاريخ إنه كلف مؤلفنا بتأليف كتاب عن تاريخ العالم وسيرة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام .

فهل كان باستطاعة ابن إسحاق أو أى مؤرخ غيره أن يكتب سيرة للرسول فى هذه الفترة على أساس الحقيقة التاريخية وحدها؟ هل كان فى إمكان أحد أن يصور الرسول عليه الصلاة والسلام بصورة تختلف عن تلك التى كان يراه بها الخليفة؟ هل كان بمقدور مؤلف من المؤلفين أن يشكك فيما قاله السَّفَّاح فى خطبته الأولى بالكوفة ويقول - على سبيل المثال - إن من هَدَى الله بهم الناس ليسوا بنى هاشم وإنما نبيه وقرآنه ، وأن شيئا فى القرآن الكريم لا يسمح للعباسيين بادعاء الخلافة لأنفسهم ، وأن أحد مبادئ الإسلام الكبرى هو إلغاء الأفضلية القبلية لا سيما وأن الخليفة لم يشر فى خطبته أية إشارة إلى تأييد ما أو حماية ما تلقاهما الرسول عليه الصلاة والسلام من قبيلته ، ولا إلى أية مقاطعة قررتها قريش ضدها ، وأن ثلاثة لا غير من بنى هاشم أسلموا طوال الفترة المكية ، وأن أحد هؤلاء الثلاثة ، وهو جعفر ، نفته قبيلته ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام ، الذى زوج اثنتين من بناته لعثمان ، وهو من بنى أُمَيَّة ، كما تزوج من نساء ينتمين إلى قبائل عديدة ، بل ومن

يهودية، كان فى حالة قطيعة كاملة مع العقلية القبلية؟ أكان باستطاعته، مستمسكا بسلسلة إسناد قوية، أن يقول إن بنى هاشم كانوا ضالعين مع قبائل قريش الأخرى فى العداء للمسلمين؟

هذه هى التساؤلات التى عنت لى بصدد سيرة ابن إسحاق / ابن هشام. وكانت الإجابة التى خيلَ إلىَّ أننى قرأتها عنها بوضوح فى صفحات التاريخ الإسلامى منذ وفاة الرسول حتى بداية خلافة المنصور إجابة سلبية.

إن كتابة سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام كتابة موضوعية فى العصور الأولى من الخلافة العباسية كانت - بالتأكيد - غير ممكنة، وليس فى الأمر غرابة فإن من الأمور المطردة فى التاريخ أن نظم الحكم التى تتولى زمام الأمور بعد صراعات طاحنة على السلطة أودت بأرواح عشرات الألوف، والتى تقوم على أنقاض نظم باغية كانت لعشرات السنين تضطهد خصومها وتنكل بهم وتفرض أفكارها الخاصة على الناس، تضيق ذرعا بحرية الرأى.

إن الحاكم الجديد يعتمد بكل الوسائل، بعد انتصاره العسكرى، إلى تشويه سمعة العدو المغلوب وتصويره على أنه شيطان وتقديم نفسه على أنه المنقذ وصاحب الحق القانونى الوحيد.

وفى مثل هذه الظروف فإن شدة اضطرام المشاعر وكثرة المخاطر التى تهدد استمرار النظام الجديد لا تفسح مجالا للموضوعية التاريخية متى تعلق الأمر بإرساء الأسس الفكرية التى يريد النظام أن يبنى عليها مشروعيتها.

ولما كان الأساس الفكرى للخلافة العباسية أساسا قبليا فقد كان الأمر يوجب إظهار الرسول عليه الصلاة والسلام بصفة مستمرة فى إطاره

القبلى . كان لابد من تصويره عليه الصلاة والسلام على نحو يسمح دائما بإقامة توازٍ بينه وبين الخليفة العباسى ، وبين عصره صلى الله عليه وسلم وعصر هذا الخليفة .

كان من الضرورى إذن على من يكتب سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام أن يصف محمدا لا كما يراه هو ، أو كما تراه مصادره ، بل كما يراه الخليفة . وإن لم يفعل اعتبرته السلطة عدوا للنظام ومنعت نشر كتابه أو قامت بإعدام هذا الكتاب ، بل إن المؤلف ذاته كان معرضا لدفع حياته أو حريته ثمنا لجرأته .

غير أن ابن إسحاق لم يكن لديه ما يخشاه من هذه الناحية . ولئن صح ما قيل عنه من أنه كان شيعيا فى المدينة ، فقد كانت لديه بالقطع دوافعه الشخصية وبواعثه المتعلقة بالقومية نظرا لأصله الفارسى .

والحاصل أن الأمور تغيرت ، فالأمويون الذين شبَّ تحت حكمهم لم يعودوا سادة العالم : كذلك فإن العرب ، فى ظل الخلافة العباسية ، لم يعودوا موضع الرضا والإعزاز . أما الفرس ، الذين كانوا محل الازدراء فى ظل الخلفاء الثلاثة الأول وتحت حكم الأمويين ، فقد غدوا وزراء ومستشارين وأعوانا مقربين للنظام الجديد . وهو نفسه ، محمد بن إسحاق بن يسار ، أصبح باب الخليفة مفتوحا له يدخل منه متى شاء .

وإذا كان الخليفة قد أثره على غيره من علماء مملكته واختاره ليكتب تاريخ الرسول فذلك لأنه كان يثق فى شخصه وفى ولائه للعباسيين ثقة كاملة ، وياله من شرف لحفيد رجل وامرأة من الأرقاء الذين أعتقوا ! ، وأى انتقام لذكرى جده الذى أسر وهو طفل على يد خالد بن الوليد تحت خلافة أبى بكر !

ولما كان ابن إسحاق، من جهة أخرى، قد ولد ونشأ في المدينة، فإنه لم يكن باستطاعته أن ينظر الى قريش وأهل مكة إلا من خلال آراء مواطنيه المسبقة.

ونظرا إلى أن عصره كان عصر الفتوح التي جعلت حدود العالم الإسلامي تمتد من الصين إلى المحيط الأطلسي وأسبانيا، وإلى أن انتصار العباسيين على الأمويين كان انتصارا عسكريا فقد كان من المستغرب ألا تسود النظرة العسكرية الوصف الذي يصف به نصه حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وعمله.

ثانيا

لا تنقسم سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام إلى فصول. إنها خليط من الحكايات القصيرة والمعلومات والأشعار والاقتراسات القرآنية. حقيقة فيها عناوين تشير إلى الموضوعات والعناصر البروية، لكن المادة التي يعالجها النص كثيرا ما تتجاوز العنوان الذي اندرجت تحته. ومن السمات التي أطراها دارسو هذه السيرة أن الأحداث قد جمعت فيها حسب ترتيبها الزمني. وقد استفدت من هذه السمة في دراستي هذه إذ أنها سمحت لي بتقسيم الحقبة المكية، التي تمتد من بدء بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام في عام ٦٠٩م حتى الهجرة إلى المدينة عام ٦٢٢م، إلى خمس فترات متميزة:

- فترة أولى يذكر النص إنها كانت فترة استخفاء، ومدتها ثلاث سنوات.

- فترة تالية لفترة الاستخفاء لم يحدد النص مدتها، جهر فيها الرسول عليه الصلاة والسلام - فيما يقول النص - بدعوته متفاديا نقد قريش ومعتقداتها.

- فترة ثالثة تنتهى بموت أبى طالب عم الرسول عليه الصلاة والسلام.

- فترة رابعة، مدتها سنة، يقول النص إن الرسول عليه الصلاة والسلام اتصل خلالها بثقيف (فى الطائف) وبحُجاج قبائل غير مكية ممن كانوا يقدون إلى مكة.

- فترة خامسة تبدأ بقاء فى العقبة بين الرسول عليه الصلاة والسلام ومجموعة تتكون من ستة من أهل المدينة، وتنتهى، بعد سنتين من اللقاء، بهجرة المسلمين والرسول إلى المدينة.

وقد جعلت من هذه الفترات أساس عملى. ولم أر أنه من المفيد تخصيص فصل لحياة الرسول عليه الصلاة والسلام قبل البعثة، فإن المادة الواردة عن هذه الفترة جد قليلة. كذلك فضلتُ ألا أتعرض لمعجزة الإسراء والمعراج التى حدثت فى نهاية الفترة الثالثة، إذ أن ما ورد بشأنها فى النص لا يكاد يتعدى شرح طبيعة هذه الرحلة والعالم الغيبى الذى تكشف للرسول خلال فترتها القصيرة.

وقد سرت فى هذه الدراسة على قاعدة عدم التعرض لعنصر ما وراء الطبيعة فى «السيرة» إلا بالقدر الذى يبدو لى التعرض له مفيدا أو ضروريا.

هذا وقد خَصَّصْتُ الفصل الأول من هذه الدراسة لعبدالمطلب جد الرسول عليه الصلاة والسلام الذى أضفى النص عليه من الأهمية، وأفرد له من المساحة، ما لم يصفه أو يفرد لشخصية أخرى خلال الفترة المكية بأكملها.

الفصل الأول عبد المطلب الف - النص

تُستخلص الصورة التي يعطيها النص عن عبدالمطلب، جد الرسول ﷺ، وسيد القبيلة التي يقول النص إنها أيدت الرسول ﷺ وحمته خلال الجزء الأكبر من الفترة المكية، من حديث أبرهة، وزمزم، والفداء، ومن بعض الأشعار.

١- أبرهة (١)

شن أبرهة، حاكم اليمن الحبشى، حملة عسكرية ضد مكة. وحين اقترب من هذه المدينة فى جيش ضخم وفيل، استولى أحد قواده على ما وجده من جمال فى طريقه ومنها مائتا بعير لعبدالمطلب بن هاشم. وبعث أبرهة حنّاطة الحميرى إلى مكة وقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها، ثم قل له: إن الملك يقول لك: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب، فلا حاجة لى بدمائكم، فإن هو لم يردّ حربى فأنتى به. فلما دخل حنّاطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها، فقليل له: عبد المطلب ابن هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبدالمطلب: والله ما نريد حرب، وما لنا بذلك من طاقة. هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة، وإن يخلّ بينه وبينه، قوالله ما عندنا دفع

(١) السيرة النبوية لابن هشام، الطبعة الثانية، القاهرة، مصطفى البابى الحلبي، ١٩٥٥، القسم الأول، ص ٤٧ - ٥٥.

وسيشار إلى هذا الكتاب فى الهوامش التالية باسم «السيرة».

عنه، فقال له حُناطة: فانطلق معي إليه. فانطلق معه عبدالمطلب، ومعه بعض بنيته حتى أتى العسكر.

وكان عبدالمطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم، فلما رآه أبرهة أجَلَّه وأعظمه وأكرمه عن أن يُجلِّسه تحته وكره أن تراه الحبشةُ يجلس معه على سرير مُلكه، فترل أبرهة عن سريرهِ، فجلس على بساطه، وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال: حاجتي أن يرُدَّ عليَّ الملكُ متى بعير أصابها لي، فقال أبرهة: أتُكَلِّمُنِي في متى بعير أصبَتْها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تُكَلِّمُنِي فيه! قال له عبدالمطلب: إني أنا ربُّ الإبل، وإن للبيت ريا سيمنه. قال: ما كان ليمنع مني. قال: أنت وذاك. وردَّ أبرهة على عبدالمطلب الإبل التي أصاب له.

وانصرف عبدالمطلب إلى قريش، ثم قام فأخذ بِحَلْقَةِ باب الكعبة، وقام معه نَقَرٌ من قريش يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبدالمطلب وهو آخذ بِحَلْقَةِ باب الكعبة:

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَاَمْنَعُ حِلَالَكَ

لَا يَغْلِبُنَّ صَلَاتُهُمْ وَمِحَالُهُمْ غَدَاً مِمْحَالَكَ

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهياً فيله وعبي جيشه، وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهة مُجمع لهدم البيت، ثم الانصراف إلى اليمن. فلما وجهوا الفيلَ إلى مكة، أقبل نُقَيْل بن حَبِيب حتى قام إلى جَنَبِ الفيل، ثم أخذ بأذنه، فقال: ابرك محمود، أو ارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه. فبرك الفيلُ. وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطَّبْرَزين (وهو آلة معقفة

من حديد) ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن (والمحجن عصا معوجة) لهم في أسفل بطنه فبرزوه بها (أي أدموه) ليقوم فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، فأرسل الله تعالى عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان (ضربان من الطير)، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في متقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعذس، لا تُصيب منهم أحدا إلا هلك، وخرجوا هاربين يتدرون الطريق الذي منه جاءوا، يتساقطون ويهلكون بكل مهلك، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم تسقط أنامله أنملة أنملة كلما سقطت أنملة أتبعته منها مدة تمت قبحا ودماء، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه.

فلما بعث الله تعالى محمدا ﷺ قال تبارك وتعالى في ذلك:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)﴾

[الفيل: ١-٥]

وقال تعالى:

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾

[قريش: ١-٤]

٢- زمزم (١)

ظَمِيَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَهُوَ صَغِيرٌ، فَالْتَمَسَتْ لَهُ أُمُّهُ مَاءً فَلَمْ تَجِدْهُ، . فَقَامَتْ إِلَى الصَّفَا تَدْعُو اللَّهَ وَتَسْتَغِيثُهُ لِإِسْمَاعِيلَ، ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ فَفَعَلَتْ مِثْلَ ذَلِكَ. وَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَهَمَزَ لَهُ بِعَقْبِهِ فِي الْأَرْضِ، فَظَهَرَ الْمَاءُ. وَسَمِعَتْ أُمُّهُ أَصْوَاتَ السَّبَاعِ فَخَافَتْهَا عَلَيْهِ، فَجَاءَتْ تَشْتَدُّ نَحْوَهُ، فَوَجَدَتْهُ يَفْحَصُ بِيَدِهِ عَنِ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ نَحْدِهِ وَيَشْرَبُ (٢).

ودفنت زمزم بعد ذلك ومر على دفنها وقت طويل.

قال عبدالمطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال: احفر طيبة. قلت: وما طيبة؟ ثم ذهب عني. فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعي فَنِمْتُ فيه، فجاءني فقال: احفر برة، قال: وما برة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعي فَنِمْتُ فيه، فجاءني فقال: احفر المَضْنُونَةَ فقلتُ: وما المَضْنُونَةُ؟ قال: ثم ذهب عني. فلما كان الغد رجعتُ إلى مضجعي فَنِمْتُ فيه، فجاءني فقال: احفر زمزم؟ قال: قلت: وما زمزم. قال: لا تُتْرَفُ أبدا ولا تُدَمَّ. تسقى الحجيج الأعظم، وهي بين الفَرث والدم، عند نُقْرَةِ الْغُرَابِ الْأَعْصَمِ، عند قرية النَّمْلِ.

فلما بَيَّنَّ لَهُ شَأْنُهَا، وَدُلَّ عَلَى مَوْضِعِهَا، وَعَرَفَ أَنَّهُ صَدَقَ، غَدَاَ بِمَعُولِهِ وَمَعَهُ ابْنُهُ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِالمطلبِ، فَحَفَرَ فِيهَا. فلما بدا لعبدالمطلب الطِّيَّ (أي الحجارة) كَبُرَ فَعَرَفَتْ قَرِيشٌ أَنَّهُ أَدْرَكَ حَاجَتَهُ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: يَا عَبْدَالمطلبِ، إِنَّهَا بَثْرُ أَيْنَا إِسْمَاعِيلَ، وَإِنْ لَنَا فِيهَا حَقًّا فَأَشْرِكْنَا مَعَكَ فِيهَا، قَالَ: فَاجْعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ شَيْءٍ، أُحَاكِمُكُمْ إِلَيْهِ، قَالُوا:

(١) السيرة، القسم الأول، ص ١٤٢ - ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ص ١١١ .

كاهنة بنى سعد هُذَيم، وكانت بأشراف الشام. فركب عبدُ المطلب ومعه نَقَرٌ من بنى أبيه من بنى عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نَقَرٌ. فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض المفاوز بين الحجاز والشام، قَتَى ماءُ عبدالمطلب وأصحابه، فظموا حتى أيقنوا بالهلكة، فاستسقوا مَنْ معهم من قبائل قريش، فأَبَوْا عليه.

فلما رأى عبدالمطلب ما صنع القومُ وما يتخوَّف على نفسه وأصحابه، قال: أرى أن يَحْفِرَ كُلُّ رجلٍ منكم حُفْرَةً لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلُّما مات رجلٌ دفعه أصحابه في حُفْرته ثم واروه حتى يكون آخرُكم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركبٍ جميعاً، فقام كُلُّ واحد منهم فحفَرَ حُفْرته، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً. ثم قال عبدالمطلب لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت، لا نُضْرِب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا، لَعَجْزٌ، فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد، ارتحلوا فارتحلوا. حتى إذا فرغوا، وَمَنْ معهم من قبائل قريش ينتظرون إليهم ما هم فاعلون، تقدَّم عبدالمطلب إلى راحلته فركبها. فلما انبعثت به، انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكَبَّرَ عبدالمطلب وكَبَّرَ أصحابه، ثم نزل فشربَ وشرب أصحابه واستَقَوْا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش، فقال: هلُمَّ إلى الماء، فقد سقانا الله، فاشربوا واستقوا، فجاءوا فَشَرِبُوا واستَقَوْا. ثم قالوا: قد والله قُضِيَ لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه القلعة لهُ الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً. فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة. وحدث عن عبدالمطلب أنه قيل له حين أمر بحفر زمزم:

ثم ادعُ بالماء الروى غير الكدرِ يَسْقَى حَجِيجَ اللهِ في كل مبرِّ

ليس يُخَاف منه شيء ما عَمَرَ

فخرج عبدالمطلب، حين قيل له ذلك، إلى قريش، فقال: تعلّموا أنى
قد أمرت أن أحفر لكم زمزم، فقالوا: فهل بينك أين هي؟ قال: لا،
قالوا: فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت، فإن بك حقاً من
الله بينك لك، وإن بك من الشيطان فلن يعود إليك. فرجع عبدالمطلب
إلى مضجعه فنام فيه، فأتى فقيل له: احفر زمزم، إنك إن حفرتها لم
تندم، وهى تراث من أهلك الأعظم، لا تتزف أبداً ولا تذم، تسقى
الحجيج الأعظم، مثل نعام حافل لم يقسم، ينذر فيها ناذراً لمنعم، يكون
ميراثاً وعقداً مُحكماً، ليست كبعض ما قد تعلم، وهى بين الفرت
والدم.

وحين قيل له ذلك، قال: وأين هي؟ قيل له: عند قرية النمل، حيث
ينقر الغراب غداً.

فعدا عبدالمطلب ومعه ابنة الحارث، وليس له يومئذ ولدٌ غيره، فوجد
قرية النمل، ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنيين: إساف ونائلة،
اللذين كانت قريش تتحر عندهما ذبائحهما. فجاء بالمعول وقام ليحفر
حيث أمر، فقامت إليه قريش حين رأوا جدّه، فقالوا: والله لا نترك
تحفر بين وثنيين هذين اللذين نتحر عندهما، فقال عبدالمطلب لابنه
الحارث: ذُدْ عني حتى أحفر، فوالله لأمضين لما أمرت به. فلما عرفوا
أنه غير نازع (نزع عن الأمر إذا كف وانتهى)، خلّوا بينه وبين الحفر،
وكفوا عنه، فلم يحفر إلا يسيراً، حتى بدا له الطى (الحجارة) فكبر
وعرفوا أنه صدق. فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب،
ووجد فيها أسيافاً قلعية وأدراعا، فقالت له قريش: يا عبدالمطلب، لنا
معك فى هذا شركٌ وحقٌّ؟ قال: لا، ولكن هلُمّ إلى امرٍ نصف بيني
وبينكم: تضرب عليها بالقِداح (الأسهم التى كانوا يستقسمون بها). ثم

أعطوا القِدَاحَ صاحب القِدَاح الذي يضرب بها عند هُبْل (وهبْل صنم فى جوف الكعبة، وهو أعظم أصنامهم) وقام عبدُالمطلب يدعوا الله عز وجل، فضرب صاحبُ القِدَاح، فخرج الأصفران على الغزَّالين للكعبة، وخرج الأسودان على الأسياف، والأدراعُ لعبدالمطلب، وتخلَّف قِدْحا قريش، فضرب عبدالمطلب الأسياف بابا للكعبة، وضرب فى الباب الغزَّالين من ذهب، فكان أول ذهب حلَّيته الكعبة. ثم إن عبدالمطلب أقام سقاية زمزم للحُجَّاج.

٣- نَذْر عبدالمطلب ذَبْح وَلَدِهِ

كان عبدُالمطلب قد نَذَرَ حين لَقِيَ من قريش ما لَقِيَ عند خُفَرِ زمزم، لئن وُلِدَ له عشرة نَفَر، ثم بلغوا معه حتى يَمْنَعُوهُ لَيَنْحَرَنَّ أَحَدَهُمْ لله عند الكعبة. فلما توافى بنوه عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه، جَمَعَهُمْ ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف نَصْنَعُ؟ قال: ليأخذ كُلُّ رجلٍ منكم قِدْحًا ثم يكتب فيه اسمه، ثم اتنوني، ففعلوا، ثم أتوه، فدخل بهم على هُبْل فى جَوْف الكعبة. فقال عبدالمطلب لصاحب القِدَاح: اضرب على بنى هؤلاء بقِدَاحهم هذه وأخبره بنذره الذى نَذَرَ، فأعطاه كُلُّ رجلٍ منهم قِدْحَهُ الذى فيه اسمه، وكان عبدالله بن عبدالمطلب أصغر بنى أبيه، وأحبُّ وَلَدِ عبدالمطلب إليه، وهو أبو رسول الله صلى عليه وسلم. فلما أخذ صاحبُ القِدَاح القِدَاحَ ليضرب بها، قام عبدُالمطلب عند هُبْل يدعوا الله، ثم ضرب صاحبُ القِدَاح، فخرج القِدْحُ على عبدالله، فأخذه عبدُالمطلب بيده وأخذ الشَّفْرَةَ، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه، فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ماذا تريد يا عبدالمطلب؟ قال: أذبحه، فقالت له قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبداً حتى تُعْذِرَ فيه. لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجلُ

يَأْتِي بَابَهُ حَتَّى يَذْبَحَهُ، فَمَا بَقَاءَ النَّاسِ عَلَى هَذَا! وَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ :
وَاللَّهِ لَا تَذْبَحُهُ أَبَدًا حَتَّى تُعْذِرَ فِيهِ، فَإِنْ كَانَ فِدَاؤُهُ بِأَمْوَالِنَا فَدَيْنَاهُ. وَقَالَتْ
لَهُ قَرِيشُ وَيَنُوءُ: لَا تَفْعَلْ، وَانْطَلِقْ بِهِ إِلَى الْحِجَازِ، فَإِنَّ بِهِ عَرَّافَةَ لَهَا
تَابِعَ، فَسَلَّهَا، ثُمَّ أَنْتَ عَلَى رَأْسِ أَمْرِكَ، إِنْ أَمَرْتُكَ بِذْبَحِهِ ذَبَحْتَهُ، وَإِنْ
أَمَرْتُكَ بِأَمْرِ لَكَ وَلَهُ فِيهِ فَرَجٌ قَبْلَتَهُ.

فَانْطَلَقُوا حَتَّى قَدَمُوا الْمَدِينَةَ، فَوَجَدُوهَا بِخَيْرٍ. فَرَكِبُوا حَتَّى جَاءُوهَا،
فَسَأَلُوهَا، وَقَصَّ عَلَيْهَا عَبْدُ الْمَطْلَبِ خَبْرَهُ وَخَبَرَ ابْنِهِ، وَمَا أَرَادَ بِهِ وَنَذَرَهُ
فِيهِ، فَقَالَتْ لَهُمْ: ارْجِعُوا عَنِ الْيَوْمِ حَتَّى يَأْتِيَنِي تَابِعِي فَأَسْأَلَهُ. فَرَجَعُوا
مِنْ عِنْدِهَا، فَلَمَّا خَرَجُوا عَنْهَا، قَامَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ يَدْعُو اللَّهَ، ثُمَّ غَدَا
عَلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُمْ: قَدْ جَاءَنِي الْخَبَرُ، كَمْ الدِّيَّةُ فِيكُمْ؟ قَالُوا: عَشْرٌ مِنَ
الْإِبِلِ، قَالَتْ: فَارْجِعُوا إِلَى بِلَادِكُمْ، ثُمَّ قَرُّبُوا صَاحِبَكُمْ، وَقَرُّبُوا عَشْرًا
مِنَ الْإِبِلِ، ثُمَّ اضْرِبُوا عَلَيْهَا وَعَلَيْهِ بِالْقَدَاحِ، فَإِنْ خَرَجْتَ عَلَى صَاحِبِكُمْ
فَزِيدُوا مِنَ الْإِبِلِ حَتَّى يَرْضَى رَبُّكُمْ، وَإِنْ خَرَجْتَ عَلَى الْإِبِلِ فَانْحَرُوهَا
عَنْهُ، فَقَدْ رَضِيَ رَبُّكُمْ، وَنَجَا صَاحِبُكُمْ.

فَخَرَجُوا حَتَّى قَدَمُوا مَكَّةَ، فَلَمَّا أَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَمْرِ، قَامَ
عَبْدُ الْمَطْلَبِ يَدْعُو اللَّهَ، ثُمَّ قَرُّبُوا عَبْدَ اللَّهِ وَعَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ، وَعَبْدُ الْمَطْلَبِ
قَائِمٌ عِنْدَ هُبَلٍ يَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فَخَرَجَ الْقَدَحُ عَلَى
عَبْدِ اللَّهِ، فَزَادُوا عَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ، فَبَلَغَتْ الْإِبِلُ عَشْرِينَ، وَقَامَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ
يَدْعُو اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فَخَرَجَ الْقَدَحُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَزَادُوا
عَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ، فَبَلَغَتْ الْإِبِلُ ثَلَاثِينَ، وَقَامَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ يَدْعُو اللَّهَ، ثُمَّ
ضَرَبُوا، فَخَرَجَ الْقَدَحُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَزَادُوا عَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ، فَبَلَغَتْ
الْإِبِلُ أَرْبَعِينَ، وَقَامَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ يَدْعُو اللَّهَ، ثُمَّ ضَرَبُوا، فَخَرَجَ الْقَدَحُ عَلَى
عَبْدِ اللَّهِ، فَزَادُوا عَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ، فَبَلَغَتْ الْإِبِلُ خَمْسِينَ، وَقَامَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ

يدعو الله، ثم ضربوا فخرج القِدْح على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل ستين، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرج القِدْح على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل سبعين، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرج القِدْح على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل ثمانين، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرج القِدْح على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل تسعين، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرج القِدْح على عبدالله، فزادوا عشراً من الإبل، فبلغت الإبل مئة، وقام عبدالمطلب يدعو الله، ثم ضربوا، فخرج القِدْح على الإبل، فقالت قريش ومن حضر: قد انتهى رضا ربك يا عبدالمطلب، فقال عبدالمطلب: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات، فضربوا على عبدالله وعلى الإبل، وقام عبدالمطلب يدعو الله، فخرج القِدْح على الإبل، ثم عادوا الثانية، وعبدالمطلب قائم يدعو الله، فضربوا، فخرج القِدْح على الإبل، ثم عادوا الثالثة، وعبدالمطلب قائم يدعو الله، فضربوا، فخرج القِدْح على الإبل، فَنُحِرَتْ، ثُمَّ تَرَكْتُ لَا يُصَدَّ عَنْهَا إِنْسَانٌ وَلَا يُمْنَعُ.

ثم انصرف عبدالمطلب آخذاً بيد عبدالله حتى أتى به وهب بن عبدمناف وهو يومئذ سيد بني زُهْرَةَ نسباً وشرفاً، فزوجه ابنته أمنة بنت وهب. وحملت أمنة برسول الله ﷺ. ثم لم يلبث عبدالله بن عبدالمطلب، أبو رسول الله ﷺ، أن هلك، وأم رسول الله ﷺ حامل به. فلما وضعت أمه ﷺ، أرسلت إلى جده عبدالمطلب: أته قد وكد لك غلام، فأته فانظر إليه، فأتاه فنظر إليه. فأخذه عبدالمطلب فدخل به الكعبة، فقام يدعو الله، ويشكر له ما أعطاه، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها، والتمس لرسول الله ﷺ الرضعا. وتوفي عبدالمطلب بن هاشم ورسول الله ﷺ ابن ثمانين سنين.

٤- الشعر (*)

- لما حضرت عبدالمطلب الوفاة وعرف أنه ميت جمع بناته، وكن ست نسوة: صفية، وبرّة، وعاتكة، وأم حكيم البضا، وأميمة، وأروى، فقال لهن: ابكين علىّ حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت.

وفى النص القصائد التى قالتها بنات عبدالمطلب الست، وهن يعبرن فيها عن حزنهن لوفاة أبيهن ويطرين مناقبه: الكرم الفياض، كونه طلق اليدين، رفيع البيت والذؤابة، ذو الحسب التليد، ذو المجد والعزّ والمفتخر، ذو المكرمات، عظيم الحلم، ماجد الجدّ، وارى الزناد، وفى الذمام، طويل الباع، خير من ركب المطايا، جميل الحيا، منير يلوح كضوء القمر، الغمر فى النائبات، ذو المعالى، الوصول للقراية، ذو البأس حين تنسكب الدماء، مروى المخاصم عند الخصام، سهل الخليفة، ساقى الحجيج، من يؤلف الضيف الغريب بيوته، زين العشيرة كلها، الذى سجيته الحياء، إلخ..

- قصيدتان إحداهما من ٤١ بيتا لحذيفة بن غانم، والأخرى من سبعة أبيات لمطروود بن كعب. يبكى حذيفة فى أولى القصيدتين عبدالمطلب «ساقى الحجيج»، كما يشيد بهاشم وبعدد من رجال قبيلته البارزين مثل حمزة وعبد مناف «أبا طالب» وعبدالعزى «أبا لهب» أبناء عبدالمطلب.

ويقول النص فى تقديم هذه القصيدة إن الشاعر أخذ بغرم أربعة آلاف درهم بمكة فوقف بها فمر به أبولهب عبدالعزى بن عبدالمطلب فافتكّه.

وفى القصيدة الثانية يمدح مطروود بن كعب كذلك عبدالمطلب وآل عبد مناف ويثنى بصفة خاصة على ما يتصفون به من جود وكرم، فهم المنعمون إذا النجوم تغيّرت، والمطعمون إذا الرياح تناوحت.

(*) السيرة، القسم الاول، ص ١٦٩ - ١٧٨

باء- التحليل

الصورة التى تستخلص من مجموع هذه الأحاديث والأشعار هى صورة رجل يُعد سيد قريش وشريفها، وهو أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم، كان يعرف أن إبراهيم خليل الله، وأنه بنى الكعبة، ويعرف ربَّ إبراهيم، وأن الكعبة بيته، يدعو الله على أبرهة وصليبه فتُستجاب دعوته، له دور فى قصة الفيل التى ورد ذكرها فى القرآن، أتاه آت دله على موضع زمزم فحفرها وأقام سقايتها للحجاج، وانفجرت من تحت خف راحلته عين ماء عذب، يوقر الكعبة والمسجد الحرام توقيرا يجعله يختلف إليهما فى جميع المناسبات ليدعو الله. وأخيرا فقد كاد هذا الرجل يذبح ابنه، شأن إبراهيم عليه السلام، وفاء بنذر نذره. رجل كان، فى كلمة، رئيسا عظيما، ورجلا تقيا ورعا، يتصف بالفضائل جميعها، ويكاد أن يكون وليا من أولياء الله الصالحين.

ووصفُ عبدالمطلب على هذا النحو يثير الملاحظات الآتية:

١- حديث أبرهة يصوره على أنه سيّد قريش وشريفها، والواقع أن هذه صفة (أو وظيفة) لا يتحدث عنها النص على الإطلاق. وحين يتحدث النص عن سيد ما، فالمقصود هو سيّد عشيرة أو قبيلة، لا سيد قريش باعتبارها مجموعة من القبائل.

٢- جملة «هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام»، فى حديث عبدالمطلب مع حنّانة مندوب أبرهة، جملة لا يمكن أن يكون عبدالمطلب قد قالها، فإن إضافة عبارة «عليه السلام» بعد أسماء الأنبياء استعمال إسلامى بحت. ومن جهة أخرى فإن وصف سيدنا إبراهيم بأنه «خليل الله» وصف ورد مرة واحدة فى القرآن فى الآية ١٢٥ من سورة النساء المدنية، التى قال الله تعالى فيها:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾
[النساء: ١٢٥]

ولم يكن عبدالمطلب يعلم هذه الصفة.

٣- لو أن عبدالمطلب كانت لديه أدنى فكرة عن إبراهيم عليه السلام
لعلم أن تحطيم أو ثان قومه كان، طبقا لما ورد في القرآن، عملا من أهم
الأعمال التي قام بها. والحاصل أن الكعبة التي كان يعبدها عبدالمطلب
كان يحيط بها، حسبما يقول النص، ٣٦٠ وثنا.

٤- إن كان عبدالمطلب مؤمنا حقا، لما أطلق على أحد أبنائه اسم
عبدالعزى، والعزى هو أحد آلهة الجاهلية الثلاثة الكبرى.

٥- لم تشر واحدة من بنات عبدالمطلب اللاتي يكنه في أشعارهن أية
إشارة إلى أحداث أبرهة أو زمزم أو الفداء، كما لم تُشِرْنَ إلى عين الماء
التي انفجرت من تحت خف راحلة عبدالمطلب.

٦- لم يذكر أبوطالب بن عبدالمطلب، الذي خصص أكبر جانب من
أشعاره للفخر بأمجاد قبيلته ورجالها البارزين، أيا من هذه الأحداث،
بل إن اسم أبيه لم يرد قط في قصائده.

٧- لو أن عبدالمطلب كان مؤمنا حقا وكان من تابعى إبراهيم عليه
السلام، للقن إيمانه لأبنائه، الذين أثبتوا بقبولهم التضحية بأنفسهم وفاء
بنذر أبيهم أنهم على حظ غير عادى من الوفاء والتقوى، ولكان هؤلاء
الأبناء أول من يؤمن بالدين الذى جاء به حفيده، ابن أخيه. والحاصل
أن أحدا من أبنائه التسعة الذين بقوا على قيد الحياة بعد وفاة ابنه عبدالله
لم يسلم خلال ثلاث السنوات الأولى من البعثة، بل إن أحدهم، وهو

عبدالغزى، كان، فيما يبدو، أكبر خصم لحمد، إذ أن القرآن جعله،
بالاسم، من أهل النار.

٨- حين نذر عبدالمطلب أن ينحر أحد أبنائه لله عند الكعبة، لا بد أنه
كان يعلم أن مثل هذا النذر شيء منكر حتى عند الوثنيين، وليس هناك
أى وجه للمقارنة بينه وبين ما هم به إبراهيم عليه السلام من ذبح ابنه.

٩- الإشارة إلى صليب قوم أبرهة ومخالهم، أى قوتهم وشدتهم
المتثلة فى جيشه، مستحيلة، وهى تحمل طابع الفترة التى كتب النص
خلالها.

١٠- أخيراً، ويغض النظر عن معجزة الفيل الذى يفهم أنه فى بلد
الله الحرام ومعجزة الماء الذى انفجر تحت راحلة عبدالمطلب، فإن
الحكايات التى يرويها النص عن عبدالمطلب فيها من الإسهاب وكثرة
التفاصيل ما يصعب معه تصديقها كأخبار صحيحة عن الفترة المذكورة،
وهى فترة كانت المادة التاريخية بشأنها شديدة الندرة غير واضحة
المعالم. ويكفى للتدليل على ذلك أن نقارن محتوى هذه الحكايات بالمادة
التي يتضمنها النص^١ عن السنوات الأربعين الأولى من حياة الرسول
ﷺ. وفيما يلى ملخص لهذه المادة:

- ثديا حليلة السعدية، مرضعة الرسول ﷺ، اللذان لم يكن فيهما
ما يغنيه، أقبلأ عليه بما شاء من لبن حين أخذته. كذلك فإن إتانها التى
كانت ما تَبْضُ بقطرة - أى ما ترشح بشيء - أصبحت حافلاً، شرب
زوج حليلة منها ما شرب حتى انتهى ربا وشبعاً، كما أن هذه الأتان،
التي كانت بطيئة، سبقت غيرها، وأرض المرضعة التى لم يكن هناك
أجذب منها أصبحت مرعى تروح عليها حين قدموا به ﷺ معهم شباعاً

لَبْنَا فَيَحْلِيَانِ وَيَشْرِيَانِ وَمَا يَحْلِبُ إِنْسَانٌ قَطْرَةَ لَبَنٍ وَلَا يَجِدُهَا فِي ضَرْعٍ (١).

- حين كان الرسول ﷺ عند هذه المرضعة، أخذه رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوءة ثلجاً، ثم أخذاه فشقاً بطنه، واستخرجا قلبه فشقاه، فاستخرجا منه علقمة سوداء فطرحاها ثم غسلا قلبه وبطنه بذلك الثلج حتى أنقيا. (٢).

- لما قدمت حليلة بالرسول ﷺ مكة أضلها في الناس وهي مقبلة به نحو أهله، فالتمسته فلم تجده، فأتت عبدالمطلب فأخبرته بذلك فقام عبدالمطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده. (٣).

- نفر من الحبشة نصارى رأوا محمداً ﷺ مع مرضعته حليلة حين رجعت به إلى أمه بعد فطامه وقلبوه، ثم قالوا لها: لناخذن هذا الغلام، فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا، فإن هذا الغلام كائن له شأن نحن نعرف أمره. (٤).

- تُوِّفِّت أم الرسول ﷺ وهو ابن ست سنين بالأبواء، بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار - قبيلة أم عبدالمطلب بن هاشم - تُزَيِّرُهُ إِيَّاهُمْ (٥).

- وكى أبوطالب أمر رسول الله ﷺ بعد جدّه (٦). وخرج أبوطالب مع رسول الله ﷺ في ركب تاجرا إلى الشام، فلما نزل الركب بصرى

(١) السيرة، القسم الأول، ص ١٦٢ - ١٦٤ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٤ - ١٦٦ .

(٣)، (٤) المرجع السابق نفسه، ص ١٦٧ .

(٥) المرجع السابق نفسه، ص ١٦٨ .

(٦) المرجع السابق نفسه، ص ١٧٩ .

من أرض الشام وجدوا بها راهبا يقال له بَحِيرَى فى صومعة له، وكان إليه عِلْمُ أهل النصرانية. ونزلوا ذلك العام بِحِيرَى. وجعل بِحِيرَى يسأل الرسول ﷺ عن أشياء من حاله وأموره فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، وتنبأ بأن يكون له شأن عظيم (١).

- لما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة أو عشرين سنة هاجت حربُ الفِجَارِ بين قريش، ومن معهم من كِنانة، وبين قَيْس عَيْلان: وكان رسول الله ﷺ يُنبَلُ على أعمامه فى هذه الحرب أى يرد عليهم نَبَلُ عدوهم إذا رمَوْهم (٢).

- لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة عرضت عليه خديجة بنت خُوَيْلِد، التى كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال، أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا. وخرج معه غلامها مَيْسرة حتى قدم الشام. فنزل رسول الله ﷺ فى ظل شجرة قريبا من صَوْمعة راهب من الرهبان فقال الراهب للغلام مَيْسرة الذى خرج مع الرسول ﷺ إلى الشام: ما نزل تحت هذه الشجرة قطُ إلا نبى. وكان ميسرة يرى ملكين يظلان الرسول ﷺ خلال الرحلة إذا كانت الهاجرة واشتد الحر (٣). وعرضت خديجة نفسها على الرسول ﷺ فتزوجها وولدت له ثلاثة أولاد وأربع بنات. ومات أولاد الرسول المذكور الثلاثة فى الجاهلية (٤).

- كان لخديجة ابن عم نصرانى اسمه وَرَقَة بن نوفل تتبّع الكتب وعِلْم من عِلْم الناس. وذكرت خديجة لورقة ما ذكر لها غلامها ميسرة

(١) السيرة، القسم الاول ص ١٨٠ - ١٨٣ .

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٤ - ١٨٧ .

(٣) ، (٤) المرجع السابق نفسه، ص ١٨٧ - ١٩٠ .

من قول الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يُظلاته، فقال ورقة :
لئن كان هذا حقاً يا خديجةُ، إن محمداً نبيُّ هذه الأمة (١).

- أعادت قريش بناء الكعبة حتى بلغ البنيان موضع الركن أي الحجر
الأسود، فاختصموا فيه، كل قبيلة تُريد أن ترفعه إلى موضعه دون
الأخرى، حتى تحاوزوا (انحازت كل قبيلة إلى جهة) وتحالفوا وأعدوا
للقتال. ثم اتفقوا على أن يجعلوا أول من يدخل من باب المسجد يقضى
بينهم فيه. وكان أول داخل عليهم رسولُ الله ﷺ، فلما انتهى إليهم
وأخبروه الخبر، قال ﷺ: هلم إلى ثوبا، فأتى به، فأخذ الركن
فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه
جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده، ثم بنى
عليه (٢).

سنة أخبار إذن عن محمد ﷺ رضيعاً أو طفلاً، وعن رحلة قام بها
إلى الشام وهو صبي، وعن حضوره في سن المراهقة في نزاع بين قريش
وقبيلة أخرى، وعن اشتغاله بالتجارة لحساب خديجة ثم زواجه منها،
وأخيراً عن تحكيمه في نزاع ثار بين قبائل قريش بشأن وضع الحجر
الأسود في مكانه من الكعبة.

مجرد لحظات خاطفة في حياة النبي ﷺ السابقة على الرسالة، يغلب
ذكر الأعاجيب فيها ذكر الواقع، في قصص ساذجة لا تشبه في شيء ما
ورد في النص من أحاديث محكمة البناء غنية بالتفاصيل عن
عبدالمطلب.

(١) السيرة، القسم الأول، ص ١٩١-١٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٦-١٩٧.

جيم - النتيجة

أغلب الظن أن صورة عبدالمطلب التي يريد النص أن يرسمها لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وأن فيها قدرا لا يستهان به من الاختلاق. وقد أعرب ابن هشام عن تحفظات بشأن صحة القصائد التي عزاها ابن إسحاق، مؤلف النص، إلى بنات عبدالمطلب الست. ومثل هذا الشعر المنحول كثير في النص، وهو جزء من الجهود الظاهر أنها بذلت لتمويه الحقيقة.

وهذه الملاحظات تُحْمَلْنِي على الظن بأن شبهة الاختلاق لا تقتصر على القصائد الست المذكورة، بل تتجاوزها إلى ما ورد في النص من أخبار. بقی أن یوضح السبب الذى جعل مؤلف النص أو المصادر التى استقى منها معلوماته يرسمون عن عبدالمطلب الصورة النموذجية السابق وصفها.

والراجع فى ظنى هو أن المؤلف ومصادره أرادوا بهذه الصورة إعلاء شأن قبيلة بنى عبدالمطلب التى كان یتسمى إليها الخليفة العباسى الحاكم فى الفترة التى كتبت فيها السيرة، وتعزيز مشروعیه خلافته.

وهذا الافتراض مطروح كتفسير مؤقت. وسيتبين ما إذا كانت هناك دلائل أخرى تؤيده فى بقية هذه الدراسة.

الفصل الثانى

الفترة المكيّة الأولى

الف. النص (*)

لما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين، وكافةً للناس بشيراً، وكان الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه. يقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

[آل عمران : ٨١]

وجاء جبريل رسول الله ﷺ فى شهر رمضان وهو يجاور فى غار حراء، فقال:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾

[العلق : ١ - ٥]

حدّث رسول الله ﷺ خديجة بالذى رأى فانطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٣٣ - ٢٦٣.

التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع.

وقال ورقة لرسول الله ﷺ حين لقيه بعد ذلك: والذي نفسى بيده، إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبه وتؤذيه وتخرجنه وتقاتله (١).

وابتدى رسول الله ﷺ بالتزويل فى شهر رمضان (٢)، بقول الله عز وجل:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾
[البقرة ١٨٥]

وقال الله تعالى:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)﴾
[القدر: ١ - ٥]

وقال الله تعالى:

﴿حَمْدٌ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥)﴾
[الدُّخَان: ١ - ٥]

وقال الله تعالى:

﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ﴾
[الأنفال: ٤١]

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

وأسلمت خديجة. ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة من ذلك، حتى شق ذلك عليه فأحزنه، فجاءه جبريلُ بسورة الضحى.

قال تعالى:

﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ۝ ﴾ [الضحى: ١ - ١١]

وذات يوم، أتى جبريل الرسول ﷺ، فهمز له بعقبه في ناحية الوادى، فانفجرت منه عين وعلم الرسول ﷺ كيف البطهور للصلاة وكيف يُصَلَّى (*).

وكان أولَ ذَكَرٍ من الناس آمن برسول الله ﷺ، وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى: على بن أبى طالب، رضوان الله وسلامه عليه، وهو يومئذ ابن عشر سنين. وكان على رضى الله عنه فى حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام. وكان الرسول ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى شِعَابِ مَكَّة، وخرج معه على بن أبى طالب مُستخفياً من أبيه أبى طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا. فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا.

وعثر أبوطالب عليهما يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: يا بن أخى! ما هذا الدين الذى أراك تدين به؟ قال: أى عم، هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رُسله، ودين أبينا إبراهيم، بعثنى الله به

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٤٤.

رسولا إلى العباد، وأنت أي عمّ، أحقّ منّ بذلتُ له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحقّ منّ أجابني إليه وأعانني عليه؟ فقال أبو طالب: أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، لكن والله لا يُخلّص إليك (أي: لا يوصل إليك) بشيء تكرهه ما بقيتُ.

وقال أبو طالب لعليّ: أي بنيّ، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبت، آمنتُ بالله ورسول الله، وصدّقته بما جاء به، وصلّيت معه لله واتبعته، فقال له: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه^(١).

ثم أسلم زيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ، وهذه قصته: قدم ابن أخ خديجة من الشام برقيق، فيهم زيد بن حارثة، فدخلت عليه عمته خديجة، وهي يومئذ عند رسول الله ﷺ، فقال لها: اختاري يا عمة أي هؤلاء الغلمان شئتِ فهو لك؟ فاختارت زيدا فأخذته، فراه رسول الله ﷺ عندها، فاستوهبه منها، فوهبته له، فأعتقه رسول الله ﷺ وتبنّاه، وذلك قبل أن يُوحى إليه. وكان أبوه حارثة قد جزع عليه جزعا شديدا، وبكى عليه حين فقده، ثم قدم عليه وهو عند رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: إن شئتِ فأقم عندي، وإن شئتِ فانطلق مع أبيك، فقال: بل أقيم عندك. فلم يزل عند رسول الله ﷺ حتى بعته الله فصدّقه وأسلم^(٢).

وأسلم أبي بكر رضى الله عنه وأظهر إسلامه، ودعا إلى الله وإلى رسوله^(٣).

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٤٧

(٢) المرجع السابق، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٢٤٩.

أخيراً، يذكر النص أسماء ثلاثة وخمسين شخصاً أسلموا خلال هذه الفترة (١).

وأخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به ثلاث سنوات من مبعثه إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه، ثم قال الله تعالى له:

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩٤)

[الحجر: ٩٤]

وقال تعالى:

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢١٤) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢١٥)

[الشعراء: ٢١٤ - ٢١٥]

وقال تعالى:

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ (٨٩)

[الحجر: ٨٩]

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلُّوا ، ذهبوا في الشُّعَابِ ، فاستخفُّوا بصلاتهم من قومهم ، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شِعْبٍ من شِعَابِ مَكَّةَ ، إذ ظهر عليهم نفرٌ من المشركين وهم يصلُّون ، فناكروهم ، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى بغير (اللحى: العظم الذى على الفخذ)، فشجّه ، فكان أول دم هُريق فى الإسلام (٢).

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٥٠ - ٢٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٣.

باء- التحليل

البيانات التي ينتظر المرء أن يقرأها في حديث يسرد مراحل حياة نبي
كمحمد ﷺ في ثلاث السنوات الأول من دعوته هي أساسا:

- آيات القرآن الكريم التي نزلت على رسول الله ﷺ والتي تشكل
أساس رسالته، مع بيان ترتيب نزولها أو، على الأقل، فكرة عامة عن
هذه الآيات تسمح للقارئ بالوقوف على ما كانت تتناوله الدعوة خلال
هذه الفترة.

- فكرة عن الناس: الأقارب والأصدقاء والمعارف والحجاج
والموالي، الذين كان رسول الله ﷺ يتجه إليهم، والوسائل التي كان
يستخدمها لدعوتهم إلى دينه: الاتصالات الفردية في البيوت، والخطب
في السوق أو في المسجد الحرام.

- معلومات عن ردود الفعل، إيجابية كانت أو سلبية، لمختلف
الأشخاص والجماعات الذين كان رسول الله ﷺ يدعوهم إلى
الإسلام، والصعوبات التي كان يصادفها، وأبرز حالات نجاح الدعوة
وفشلها، والأسباب التي من أجلها آمن بعض الناس بالإسلام ورفضه
بعضهم.

- ما حققه الإقناع الشخصي وما حققه القرآن الكريم في ذلك.
- حالات الدخول في الإسلام التي ترجع إلى الرسول ﷺ، وتلك
التي ترجع إلى أصحابه.

- الأثر الذي أحدثته إذاعة آيات متوالية من القرآن الكريم وانتشار
الإسلام بين الناس، في المجتمع المكي، ولدى «السلطات العامة».

- الأثر الذي أحدثه الإسلام بين الحجاج وغيرهم من الأشخاص الوافدين إلى مكة.

لكن كل ما أورده النص عن هذه الفترة هو أنها كانت فترة استخفاء، وأن أبا طالب، عم الرسول ﷺ، رغم رفضه الإسلام، قال لابن أخيه: «والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت»، وأن من أسلموا كانوا هم الذين ذكر أسماءهم. كما أورد النص أيضا بعض آيات من القرآن الكريم.

وستكون هذه العناصر الأربعة موضوع الجزء الأول من تحليل النص، وسأبحث في الجزء الثاني من هذا التحليل ما إذا كانت المعلومات التي يمكن استخلاصها من سور القرآن الكريم التي نزلت خلال هذه الفترة تتفق أو لا تتفق مع تلك التي جاءت في النص. وسأختتم هذا الفصل بجزء ثالث أحاول الخروج فيه بنتائج هذا التحليل.

١- الاستخفاء

هذا الاستخفاء ناتج، بصورة ضمنية من الوقائع الآتية:

أن رسول الله ﷺ كان يؤدي الصلوات الخمس خارج مكة، وأن عليا رضي الله عنه كان يخرج معه مستخفيا من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، وأن أبا طالب عثر عليهما يوما وهما يصليان.

وقد ذكر الاستخفاء صراحة فيما يتعلق بأصحاب الرسول ﷺ في الجزء الأخير من الرواية الذي أشير فيه إلى فترة ثلاث السنوات.

ويشير موضوع الاستخفاء الملاحظات الآتية:

(أ) النص لا يوضح أسباب هذا الاستخفاء كما لا يوضح الظروف التي دفعت إليه.

ب) يتناقى الاستخفاء وطبيعة الدعوة ذاتها التي ترمى إلى نشر الدين .
وإذا كان مما يقبله العقل أن يستخفى بعض الأشخاص بإسلامهم بخشية
التعرض للعقاب، فإن من الصعب تصور أن يلزم رسول الله ﷺ نفسه
بالاستخفاء دون داع من بداية دعوته .

ج) لم يوضح النص ما إذا كان الاستخفاء قد اقتصر على أداء
صلوات الجماعة أو امتد إلى إذاعة القرآن الكريم أيضا . والشئ المؤكد
هو أنه منذ اللحظة التي كانت تبلغ فيها أية آيات من القرآن ولو لحفنة
من الناس، لم يكن بوسع شئ أو شخص ما أن يوقف إذاعتها على
الملا .

د) تعليمات الاستخفاء تعطى في العادة كإجراء وقائي إزاء معارضة
قوية من الرأي العام أو إزاء إجراءات قمع شديدة من جانب أولى الأمر
والنهي . لكن النص لا يتحدث في هذا الخصوص عن أية معارضة أو
قمع . وهو، فيما خلا الواقعة، التي يبدو أنها كانت حالة فردية، التي
جرَّح سعد بن أبي وقاص فيها أحد المشركين، لا يتحدث إلا عن
مسلمين . ومن المفارقات أننا نجد أنفسنا هنا أمام مسلمين لم يكن لهم،
فيما يتضح من النص ، تحُصوم، يستخفون بدينهم، في الوقت الذي
نراهم فيه بعد ذلك بعشر سنوات، وسط اضطهاد أجبرهم على الهجرة
إلى المدينة، يؤدون شعائر دينهم علنا بل يصلُّون في المسجد الحرام .

هـ) الاستخفاء في النظام القبلي ليس له إلا معنى واحد هو عدم
وثوق المرء إلا بأفراد عشيرته . وواقع الأمر أن قائمة المسلمين التي يوردها
النص تتضمن، باستثناء شخصين لا أكثر، أسماء أشخاص لا يمتون إلى
رسول الله ﷺ بصلة قري .

(و) من غير المعقول، في مدينة مكة، يعرف جميع الناس فيها بعضهم البعض كان رسول الله ﷺ يتمتع فيها، حتى قبل مبعثه، بقدر من الشهرة باعتباره تاجرا، وحفيدا لعبد المطلب العظيم، وابن أخ لعدد من سادة قريش وأشرافهم، وزوجا لامرأة من نبلاء مكة، أن يظل نشاطه الديني مجهولا، سواء حين كان يخرج من بيته أو من حانوته لأداء الصلاة في الشعاب، أو حين كان يلقي أصحابا أو معارف أو زبائن ليحدثهم عن الإسلام. وفي الإمكان أن يقال الشيء نفسه، وإن يكن بدرجة أقل، عن سائر المسلمين.

(ز) حتى إذا كان المسلمون قد تلقوا توجيهات بمراعاة السرية والخفاء في ممارسة شعائر دينهم وفي اتصالاتهم بالآخرين، فلا بد أن قريشا قد وصلتها أنباء نشاطهم في الدعوة لدينهم.

(ح) أفراد العشائر التي لم يعد أعضاؤها الذين دخلوا في الإسلام يشتركون في طقوس عباداتهم الوثنية لا يمكن أن يكونوا قد غفلوا عن تحولهم إلى الإسلام أو سكتوا عن التحدث في أمرهم.

(ط) الأشخاص الذين عرض عليهم الإسلام فرفضوه - والأرجح أن عددهم كان كبيرا - لابد أنهم، بدورهم، رأوا من واجبهم أن يتحدثوا عنه إلى أقاربهم، أو إلى رؤساء عشائرتهم، أو إلى أصدقائهم أو إلى أولى الأمر.

(ي) من الجائز أن منظر بضع عشرات - أو ربما بضع مئات - من الأشخاص وهم يغادرون بيوتهم أو محال عملهم في ساعات محددة، خمس مرات يوميا، ويتجهون إلى مكان معين في شِعْب من شِعَاب مكة

لم يثر شكوك الناس خلال أيام أو أسابيع لكن من غير المتصور ألا يكون قد استلقت أنظار الناس خلال ثلاث سنوات .

ك) ويلاحظ أخيرا أن النص يصور رسول الله ﷺ وهو يخرج مع على لأداء الصلوات في شعاب مكة، لكنه لا يصور المسلمين وهم يؤدون الصلوات مع رسولهم ﷺ، وهو يتحدث عنهم كأنهم كيان قائم بذاته .

والشيء المتصور، على العكس ، هو أن الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمين ، لأن مجلس مكة الحاكم قد منعهم من دخول المسجد الحرام بسبب دينهم الذي كان يعتبر بدعة وهدما، ولأنه لم يكن في مكة ذاتها مكان يستطيع الرسول عليه الصلاة والسلام أن يؤدي فيه الصلوات مع عدد كبير نسبيا من المسلمين، ولأن السلطة الحاكمة رفضت أن يبنوا فيها مسجدا خاصا بهم، أقول إن الشيء المتصور هو أن الرسول والمسلمين وجدوا أن الحل الوحيد أمامهم هو الخروج إلى شعب من الشعاب الواقعة خارج حدود مكة لأداء الصلوات .

٢. حماية أبي طالب للرسول

أرسيت خلال ثلاث السنوات الأولى من بعثة الرسول ﷺ - كما سيرد بعد قليل - أسس هذا الدين الذي أدى، بعدها بسنوات قليلة، إلى هجرة ثمانين مسلما من مسلمي مكة (أو تفيهم) إلى الحبشة، والذي - كما يقول النص - دفع جميع مسلمي مكة بعد ذلك إلى الهجرة إلى المدينة، وكان سببا، خلال جانب كبير من الفترة المدنية، في إشعال حروب تعد من أكبر الحروب في تاريخ شبه الجزيرة العربية. فما هي الأحداث الهامة التي سجلها النص عن هذه الفترة التي لا بد أن ظهور

الإسلام فيها كان أشبه بزلزال مستمر؟ حديث قصير بين أبي طالب ورسول الله ﷺ اعتذر فيه العم لابن أخيه عن اتباع دينه وأقسم ألا يُخلص إليه بشيء يكرهه ما بقى! والوعد الذى ينطوى عليه هذا القسم جوهرى فى النص، إذ أنه يثبت فضل فرد من أفراد قبيلة بنى عبدالمطلب فى حماية الرسول ﷺ، وبالتالي فى حماية الإسلام ذاته.

وأول ما ينبغى ملاحظته فى هذا الصدد هو أن النص لا يحدد الوقت الذى صدر فيه هذا الوعد. هل صدر فى بداية الفترة الأولى، أم فى وسطها، أم فى نهايتها؟، ذلك أن موقف محمد ﷺ لم يكن واحدا فى السنة الأولى، وفى السنة الثانية، وفى السنة الثالثة من دعوته. كذلك فإن الجملة التى صيغ فيها هذا الوعد تبدو غريبة إذا راعينا أن النص لا يتحدث عن أى داع أو نزاع يحتمل معهما أن يخلص أحد إلى الرسول عليه الصلاة والسلام بشيء يكرهه.

على أننا إذا أمعنا النظر فى النص وجدنا معلومتين تشيران، خلافا للظاهر، إلى أن أحوال الرسول ﷺ لم تكن تسير إلى بر الأمان:

الخبر الذى مؤداه أن عليا كان يخرج مع الرسول ﷺ للصلاة مستخفيا من أبيه ومن جميع أعمامه وسائر قومه، من جهة، وقائمة من دخلوا فى الإسلام، من جهة أخرى.

ونظرا إلى ما ثبت من تهافت دعوى الاستخفاء، فللمرء أن يرى أن أول من بادروهم الرسول ﷺ بدعوته كانوا أعمامه أبناء عبدالمطلب، وأبناء أعمامه، وكذلك أحفاد وأبناء أحفاد هاشم بن عبد مناف، أبى عبدالمطلب.

وللمرء أن يتساءل في هذا الصدد: كم كان عدد بنى عبدالمطلب وبنى هاشم آنذاك؟

ليس فى النص إجابة عن هذا السؤال، لكن هناك دلائل تسمح بتقدير هذا العدد. ففيه إشارة إلى أن هاشم بن عبد مناف كان له أربعة نفر: عبدالمطلب، وأسـد، وأبو صيـفى، ونـضلة، وأن ولد عبدالمطلب الذكور كانوا عشرة نفر: العباس، وحمزة، وعبدالله، وأبوطالب، والزبير، والحارث، وحـجـلا، والمقوم، وضـرار، وأبولهب^(١).

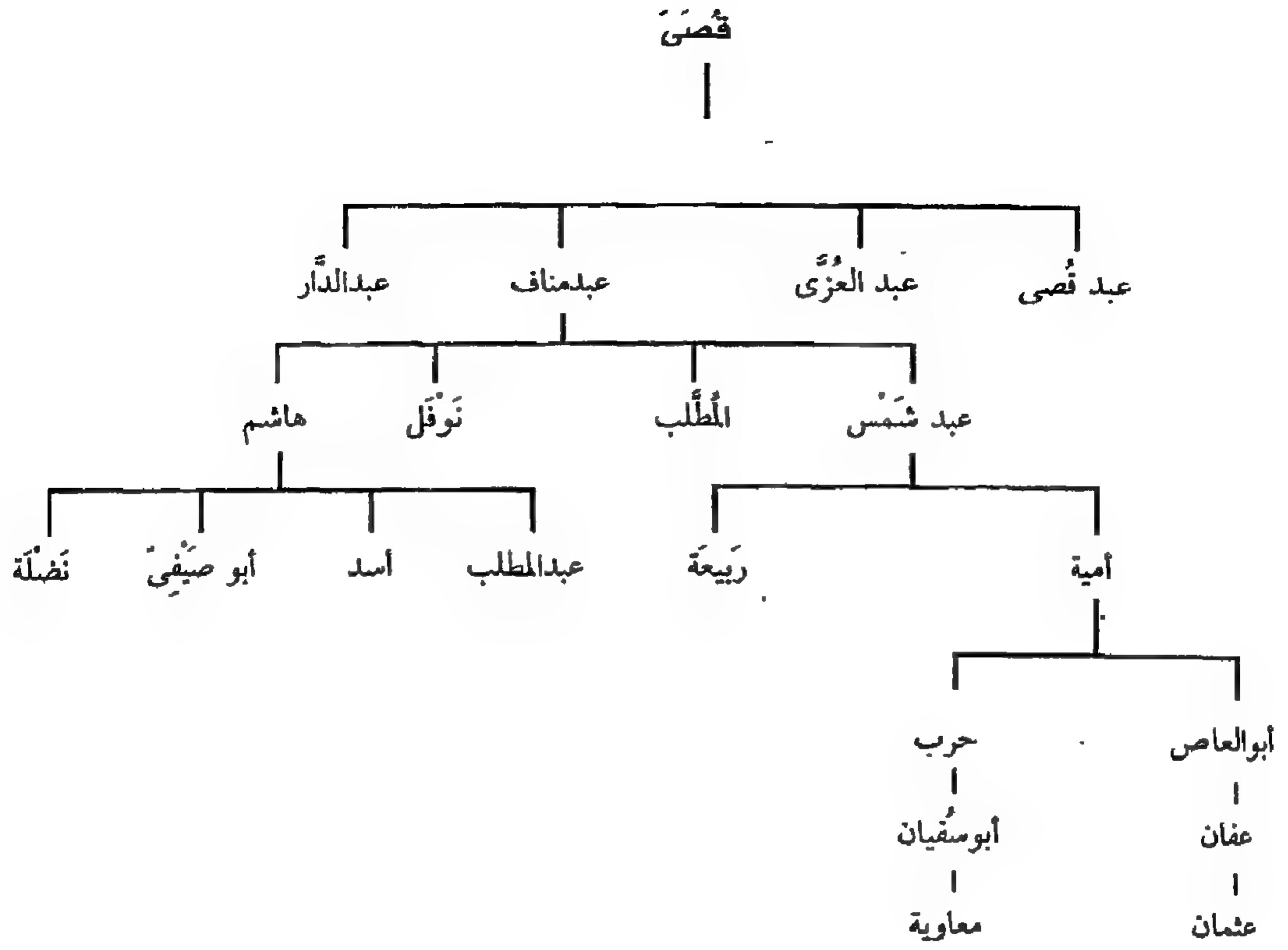
فإذا افترضنا أن كلا من أسد، وأبى صيـفى، ونـضلة أبناء هاشم^(٢) كان له سبعة أولاد ذكور، أى متوسط عدد أبناء هاشم وابنه عبدالمطلب، وأن كل ولد ذكر من أولادهم، وكل ولد كذلك من أولاد عبدالمطلب (الذين أصبحوا تسعة بعد وفاة عبدالله)، كان له أيضا سبعة أولاد - وهو تقدير مرتفع جدا نظرا لمعدل الوفيات الذى لا بد أنه كان وقتها عاليا للغاية، وإلى أن هؤلاء لم يكونوا جميعا يملكون من المال ما يسمح لهم باتخاذ عدة زوجات، وأن ذريتهم لم تكن تتكون من الأولاد الذكور فحسب، لكان عدد أفراد القبيلتين مجتمعتين من الذكور ٢١٠ أفراد، وعدد أفراد قبيلة بنى عبدالمطلب وحدهم ٦٣ فردا . [انظر الشكلين (١) و(٢)].

إذن فإن هؤلاء الأشخاص البالغ عددهم مائتان وعشرة هم، عدا النساء، الذين لا بد أن رسول الله ﷺ بادرهم، بادىء ذى بدء، ليعلن عليهم دعوته وليتلو عليهم القرآن. والواقع أنه من الصعب تصور أن يكون الرسول ﷺ قد أبـلـغ دعوته إلى القبائل الأخرى قبل أن يبلغها إلى أفراد قبيلته الذين كانوا، بمقتضى النظام القبلى السائد، أقرب الناس إليه.

(١) السيرة، القسم الأول، ص ١٠٨.

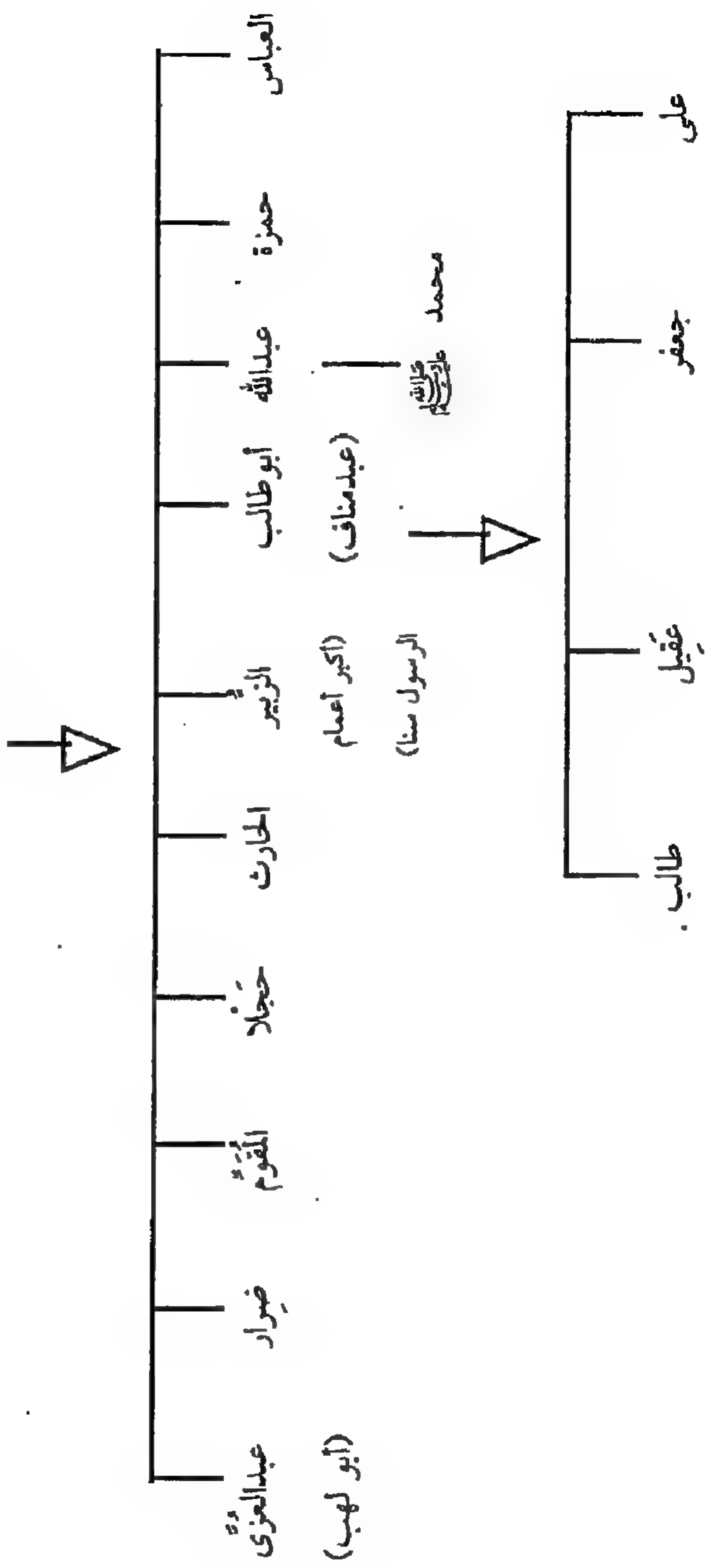
(٢) المرجع السابق، ص ١٠٧.

شكل (١)
ذرية قصي



شكل (٢)
أقارب الرسول ﷺ

عبد المطلب
ابن هاشم بن عبد مناف



ومن السهل جدا أن تتصور مشهد محمد ﷺ وهو يتقدم إلى أعمامه وإلى سادة بنى عبدالمطلب وبنى هاشم وأشرافهم، ويحدثهم عن جبريل الذي رآه، وعن الرسالة التي تلقاها منه، ويقرأ عليهم آيات من القرآن الذي أوحى إليه، وهو يظن، لأنهم يعرفون أمانته وسلامة عقله، أنهم سيصدقونه وسيحملون أفراد القبيلتين على اتباعه.

ولابد أن اجتماعات عديدة قد عقدت للاستماع إليه ﷺ ولتناقشته، وأن الآيات القرآنية التي تلاها عليهم كانت موضع بحث وتمحيص، وأن أسئلة محددة وُجِّهَتْ إليه بشأن جبريل، وأنهم سألوا الرسول ﷺ أن يدعو لحضور اجتماعاتهم، وطلبوا منه ﷺ الإدلاء بتفاصيل عن رسالته، وتقديم أدلة محسوسة على وجود حياة بعد الموت ووجود جنة ونار. ولابد أن محمدا ﷺ لم يتمكن من تقديم هذه الأدلة، وأن اجتماعات أخرى عقدت بين سادة القبيلتين وأشرافهما في غير حضور محمد ﷺ، وأن أقواله وماتلا عليهم من آيات حُلَّت بدقة، وأن هؤلاء السادة والأشراف انتابتهم الحيرة: لقد عاش محمد ﷺ بينهم حتى سن الأربعين عيشة هادئة كغيره من الناس، فما الذي انتابه وجعله يقول إنه نبي، وأنه على صلة بملكٍ من الملائكة؟ يا ترى قد جن، أو أن أرواحا شريرة تقمصته، أو أن وراءه أحد، أم الذي يحركه هو الطموح؟.

ولابد أن بعض من استمعوا إليه كانوا تجارا لهم معارف من اليهود والنصارى الذين كانوا يصادفونهم في الشام وفي العراق وفي اليمن، وأنهم لمسوا شيئا بين ما كانوا يعلمونه عن ديانتى هؤلاء المعارف وما كان محمد ﷺ يقول إنه تلقاه من وحي، وأنهم تصوروا أن محمدا ﷺ، لم

يفعل سوى أن تقل ما تعلمه خفية من كتاباتهم بعد تعديل فيه .
والمداولات فى الاجتماعات المذكورة كانت تنتهى ولابد إلى نتيجة
واحدة، هى أن دين محمد، شأنه فى ذلك شأن اليهودية والنصرانية، لم
يكن يناسب قبيلتهم ولا مجموعة العبادات والمعتقدات التى ورثوها عن
أسلافهم والتى كانت فى رأيهم أفضل بكثير من الدين الجديد الذى قدمه
إليهم .

وكان محمد ﷺ إذا تلقى سورة أو سوراً جديدة يطلب، ولابد،
الاجتماع مع رؤساء القبيلتين ويبدل قصاراه لإقناعهم بأنه لم يكن مريضاً
ولا طموحاً، وأن القرآن الذى يدعو إليه كلام الله المنزل، وأنه لا يريد
إلا الخير لجميع البشر . ولابد أنه نجح فى إقناع بعضهم بما يقول، لكن
رؤساء قومه نبهوه ولا شك إلى اعتبارات ذات طبيعة أخرى هى أن دينه
دين ثورى وأنه يهدد وجود قبيلتهم ذاته . ذلك أن :

(أ) مكة هى المركز الدينى للجزيرة العربية بأكملها . وإذا كان أصل
ديانتهم وتعاليمها قد ضاع فى عصور الظلام، فقد بقيت الكعبة، بيتها
المقدس، كما بقيت الطقوس التى كان يؤديها الحجاج الذين يفدون إلى
مكة كل عام، فى مواعيد محددة، من كافة أنحاء الجزيرة للحج أو
للعمره مرة أو أكثر، ولعبادة أوثانهم التى كانت مكة تضعها طوعية فى
الكعبة، وتقديم الأضاحى والقرايين لها .

(ب) مكة تستمد مكانتها عند العرب من كونها حامية للحرم، وكونها
توفر لزائريها خلال أربعة أشهر الحرم كل عام ظروفاً من السلم المطلق،
وتهىء لهم فى الوقت ذاته مكاناً مناسباً للالتقاء وعقد الأحلاف وفض
الخلافات عن طريق التحكيم .

ج) مكة تستمد جانباً كبيراً من ثروتها من هؤلاء الحجاج؛ وكان موسم الحج بالنسبة لها شيئاً، في أيامنا هذه، بمواسم السياحة في بعض البلدان، ويكل الأنشطة الاقتصادية والخدمات التي تتبعها، مثل نشاط الفنادق، والأسواق، والمطاعم، ومحلات الخمور، وأماكن اللهو التي كان الحجاج في المساء يستمعون فيها إلى الغناء والشعر ويرون الرقصات، وبيوت الرذيلة، ولعب الميسر.

د) خلال هذه المواسم وغيرها كانت تتم الصفقات التجارية في هذه البلدة التي كانت قوافلها تذهب إلى شمال الجزيرة وجنوبها وتجنّب أنحاءها الداخلية المتفرقة للتجارة ولتشتري من بعض القبائل منتجاتها من تمر، وخيام، وبُسط، وجلود، وخراف وجمال للتضحية بها، ولتبيع منتجات مستوردة، أو أخرى مشتتة من القبائل في الداخل. وكانت هناك قبائل أخرى ترسل قوافلها الخاصة إلى مكة لتبيع منتجاتها وتشتري غيرها. أما كبار التجار أو الأسر الغنية في مكة فكانوا يتولون تمويل تجارة الاستيراد والتصدير والتجارة الداخلية.

وكان مخالفو محمد ﷺ يشرحون له ولا شك أن دينه الذي يتمسك بإله واحد ولا يعترف بأى من آلهة قريش وغيرها من القبائل يهدد - بصفة جدية وخطيرة - هذا النظام الذي ترتبط فيه المصالح الدينية بالمصالح المالية والتجارية، وأن هذا الدين - أيضاً - يجعل الأسس التي كان يقوم عليها النظام القبلي ذاته في خطر، لأنه يجعل لله الواحد المكانة العليا في حياة من يؤمن به، ويقيم بين المسلمين روابط تعلو على الروابط التي تربط أعضاء قبائلهم بعضهم ببعض.

لقد استند الرؤساء والتجار ورجال المال الأغنياء أصحاب الامتياز في توريد السلع والخدمات للحجاج، ولابد، إلى هذه الحجج لرفض دعوة

محمد ﷺ. ونظرا إلى مكانتهم وكونهم فى الوقت ذاته أصحاب العمل والمحسنين الذين يمد فقراء قبائلهم أيديهم إليهم فى طلب المعونة، فقد كان نفوذهم كبيرا فى قبائلهم، وكان فى وسعهم بالتالى أن يفرضوا كلمتهم على أفرادها.

وكان أبولهب، عم الرسول ﷺ، ضمن هؤلاء. ومن المحتمل جدا، رغم أن النص لا يقول ذلك صراحة، أنه كان سيد قبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، إن لم يكن سيد قريش كلها لو كان لقريش سيد.

وإذا كان القرآن قد لعنه فى سورة من سور الفترة الأولى، فهذا مرجعه ولا شك شدته على الرسول ﷺ واستخدامه كل سلطانه فى مكافحة الإسلام. ولا يبعد عن أبى لهب أنه يكون قد هدأ بفصل أى فرد من أقربائه يعمل فى تجارته يؤمن بدين الإسلام، أو بقطع ما كان يقدمه من إعانات لفقرائهم، وليس يبعد أيضا، حين أوعده القرآن وحكم عليه وامراته بنار ذات لهب، أن يكون ذلك قد ضاعف من ضراوته فى محاربة دين ابن أخيه.

وللمرء أن يتساءل فى هذه المرحلة: هل كانت هذه المقاومة أو هذا العداء للإسلام أمرين سلبيين أو إيجابيين؟

من غير المستبعد أن يكون أبوطالب، أحد الأخوين الشقيقين لوالد رسول الله ﷺ، والعم الذى كفل الرسول وحذب عليه، قد أظهر تفهما بل تعاطفا مع الدين الذى جاء به. كذلك فإنه ليس من الصعب على المرء أن يفهم أنه لم يكن من اليسير عليه فى سنة أن يتبع الدين الجديد وأنه تمسك بمعتقدات آبائه خشية القيل والقال، بل ربما يكون قد دافع عن محمد ﷺ، لكن الشواهد تدل على أنه لم يلق أذنا صاغية، لأن الأمر

بالنسبة لبنى عبدالمطلب وبنى هاشم لم يكن أمر رعاية مصالح القبيلة فحسب، بل كان أمر حمايتها من نقد القبائل الأخرى فى مكة.

ومن المفيد أن أذكر هنا بأن قائمة من أسلموا التى أوردتها النص تشير إلى إسلام عدد كبير من أفراد العشائر والقبائل الأخرى. ولا بد أن إسلامهم نشأت عنه فى قبائلهم مشكلات لا تختلف عن تلك التى نشأت فى قبيلتى الرسول ﷺ. وهذه القبائل أتحت ولا بد باللائمة على بنى عبدالمطلب وبنى هاشم. ولا بد أن المسألة أثرت عدة مرات فى اجتماعات مجلس المدينة، وأن هاتين القبيلتين قد اتخذتا كوسيلة لدفع هجوم القبائل الأخرى ضدهما إجراءات مشددة لمنع محمد ﷺ من كسب تابعين فى صفوفهما، وأيضاً فى صفوف العشائر والقبائل الأخرى، ومن ثم فإن عدااء قبيلتى الرسول ﷺ له ما كان يمكن إلا أن يكون إيجابياً، كما أن المتاعب التى تعرض لها لم تنأت فقط من القبائل الأخرى، بل من قبيلتيه ذاتهما.

وإذا كان الأمر كذلك فهل كان فى مقدور أبى طالب أن يتكفل بحماية محمد ﷺ فى مواجهة قبيلتيه فضلاً عن قبائل قريش الأخرى؟.

كى يتمكن أبو طالب من حماية محمد ﷺ، كان لابد من توافر ثلاثة شروط: أن يكون ذا نفوذ كبير فى قبيلته وبين القبائل الأخرى، وأن يكون بوسعه أن يحمى ابنه، وأن يكون محمد ﷺ بحاجة إلى حمايته، والحاصل:

(أ) أن أبا طالب لم يكن، فيما يبدو، رئيس بنى عبدالمطلب. والنص، على أى حال، لم يرد فيه أنه خلف أباء فى هذا المنصب، ولا أنه كان أكبر إخوته. لقد كان أبو طالب رجلاً رقيق الحال، بلغ من فقره ومن

كثرة عياله أن ضم الرسول ﷺ عليا إليه وأن أخذ العباس جعفر فضمه إليه^(١). ومن ناحية أخرى فبالرغم من كونه تكفل بأمر محمد بعد وفاة عبدالمطلب، فلم يكن هو، بل كان أخوه حمزة، الذي خطب إليه خديجة^(٢). وأخيرا فليس هو، بل أخوه العباس، الذي ورث من أبيه ولاية زمزم والسقاية عليها^(٣).

(ب) كان جعفر بن أبي طالب - كما سترى فيما بعد - ممن هاجروا إلى الحبشة وكان الغرض الوحيد من هذه الهجرة هو الفرار من الاضطهاد. الاضطهاد الذي لحق بالمسلمين - حسبما ورد في النص - والذي تم بأيدي قبائلهم ذاتها، وكان ما يخشاه جعفر هو اضطهاد بنى عبدالمطلب للمسلمين. فإذا كان جعفر قد اضطر للهجرة إلى الحبشة فمعنى ذلك إذن أن أباه كان عاجزا عن حمايته من قبيلته ذاتها.

(ج) محمد ﷺ - شأنه في ذلك شأن جميع الأنبياء - كان يعلم ولا شك أنه تحت حماية من هو أقوى من عمه ومن قبيلته. وكان يعلم أيضا - وهذا مبدأ أساسي من مبادئ الدين الذي كان يدعو إليه - أنه ما كان يجب أن يخشى أحدا غير الله. وقد نهى القرآن عن اتخاذ أولياء سوى خالقه. وإذا كان ﷺ بحاجة إلى حماية بشرية، فقد كان أمامه المسلمون، الذين كانوا يكونون له من الحب أكثر من محبتهم لأبنائهم، والذين كانوا على استعداد للتضحية بأنفسهم فداء له. يضاف إلى ذلك أن هامة الرسول ﷺ في نهاية الفترة التي تعيننا، كانت تعلو هامة عمه،

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ١٧٨.

وأن خوفه على مصير عمه في الآخرة كان يفوق خوفه على نفسه في الدنيا.

لهذه الأسباب فإن صحة حديث أبي طالب مع الرسول ﷺ بشأن حمايته تبدو، من الناحية التاريخية، محل نظر.

٣- قائمة من أسلموا

وردت في هذه القائمة أسماء ثلاثة وخمسين مسلما من الرجال والنساء، وأسماء عشائريهم، ويلاحظ فيها:

- أنها لا تضم من بنى عبدالمطلب سوى اثنين هما علي وجعفر.
- أن بنى عبد شمس، قبيلة أبي سفيان، والد معاوية، الخليفة الأموي فيما بعد، الذي يظهر في مجال السيرة كلها بمظهر سيء، أسلم منها ثلاثة أفراد.
- أن قبيلة خويلد - التي كانت تنتمي إليها خديجة زوجة الرسول ﷺ، لم يسلم منها سوى فرد واحد.
- أن قبيلة بنى البكير أسلم منها أربعة إخوة.
- ورد في القائمة أيضا أسماء خمسة أشخاص، منهم عثمان بن عفان، أسلموا بدعوة أبي بكر، هذا بالإضافة إلى مولاه عامر بن فهيرة وإلى ابنتيه أسماء وعائشة (التي تزوجها الرسول ﷺ فيما بعد).
- كما ذكرت في القائمة أسماء ثلاثة أو أربعة من الموالى.

وتشير هذه القائمة أيضا للملاحظات الآتية:

(أ) النص، الذي يضخم من أهمية جملتين أو ثلاث يدعى أن أبا طالب قالها، يسرد أسماء من أسلموا دون تعليق وكأنها شيء عادي،

وهو لا يشير فى هذا الصدد إلى الصلة الواضحة التى تربط إسلام هؤلاء الصحابة بالآيات من سورة الواقعة فى قوله تعالى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ ۝۱۱ ۚ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝۱۲ ۚ ﴾

[الواقعة : ١٠ - ١٢]

هذا على الرغم من أننا هنا بصدد حالات إسلام حقيقى ووقائع تاريخية ذات أهمية كبرى للدين، إذ أنها تمثل حصيلة ثلاث سنوات من الدعوة لا مجرد عبارات افتراضية. والآيات المذكورة تشيد بهؤلاء الرجال والنساء الذين آمنوا بربهم ورسوله ﷺ. كذلك فلإنها تشجع الآخرين على أن يحذوا حذوهم.

وأهمية حالات الدخول فى الإسلام المذكورة كانت تقتضى أن يذكر النص :

- الظروف التى جعلت هؤلاء الأشخاص أو بعضهم يهتدون إلى الإسلام.

- الأشخاص الذين دَعَوْهُم إلى الإسلام (ونحن إذا كنا نعرف من هداهم أبوبكر إلى الإسلام لانعرف من هداهم الرسول إليه فيما عدا خديجة، وعلى، وزيد بن حارثة).

- فى أى مكان علموا بالإسلام: فى المسجد الحرام، أم فى اجتماع عام، أم فى السوق، أم فى مكان عملهم؟ (والنص لا يذكر أبدا مهنة الأشخاص الذين يتحدث عنهم، سواء تعلق الأمر بالرسول ﷺ، أو بأفراد قبيلته أو بأصحابه أو بخصومه).

- الأسباب التى حملتهم على ترك دين آبائهم واتباع محمد: هل لأنهم كانوا يثقون فى شخص من يحدثهم عن الإسلام، أم لأنهم كانوا

غير مستريحين للمعتقدات التي ورثوها، أم لفساد الأخلاق في مجتمعهم وللظلم المتفشى فيه، أم لأن مضمون القرآن وبلاغته خلبا ألباهم؟.

- الفترة التي استغرقتها عملية دخولهم في الإسلام: هل كانت قراراتهم قرارات فورية، أم أنها جاءت بعد أيام أو أسابيع أو شهور من التفكير والتدبر؟.

- هل تحدثوا عن رغبتهم في اعتناق الإسلام مع من حولهم ومع رؤساء قبائلهم؟

- هل كان هؤلاء الأشخاص على وعى بالمخاطر التي كانت ستواجههم بعد دخولهم في الإسلام؟.

- هل حاولوا أن يدعوا إلى الإسلام أفراد أسرهم وأصدقائهم ومعارفهم، وإذا كانوا قد فعلوا فكم منهم استجاب لدعوتهم؟.

- كيف تلقت أسرهم وأصحاب عملهم خبر إسلامهم، وأي تغير أحدثه دخولهم في دين الله في حياتهم، وفي من يخالطونهم؟.

- هل كانوا يذهبون بانتظام لتأدية صلاة الجماعة؟.

- هل أصابهم أذى على يد قبائلهم، وفي حالة حدوث ذلك، هل فاتحوا الرسول ﷺ بشأنه؟.

- هل مدَّ لهم إخوانهم في الدين يد المساعدة؟.

لقد أهمل النص تماما أمر هؤلاء السابقين الذين يقول القرآن إنهم مقربون إلى الله تعالى. وكل ما تعلمه عنهم هو أنهم كانوا يصلون في شعاب مكة وأن واحدا منهم شجَّ رجلا من المشركين في شجار حدث بين الفريقين.

ب) للمرء أن يتساءل عما إذا كانت هذه القائمة كاملة.

والملاحظة الأولى التي يمكن إيداعها في هذا الصدد هي أن دعوى إجراء حصر لمسلمي مكة دعوى باطلة. ولو أن النص ذكر أن الأسماء الواردة في قائمته هي أسماء أبرز المسلمين، أو أكثرهم نشاطا في الدعوة إلى الدين، أو من كانوا يؤدون صلاة الجماعة بانتظام لصدقناه دون عناء. لكن أحدا لم يكن في مقدوره أن يعرف جميع المسلمين حتى في وقتها، دع عنك بعدها بقرن ونصف، في الوقت الذي لم يذكر فيه النص رقما، ولو تقريبا، لأهل مكة، أو لأفراد أية قبيلة من قبائل قريش أو أية عشيرة من عشائرها، أو للقيلتين اللتين تتحدث عنهما السيرة أكثر ما تتحدث، وهما: بنى عبدالمطلب وبنى هاشم.

وإذا أردنا أن نشير إلى أمر واحد غريب في هذا التعداد فيكفي أن نقول إنه لا يورد إلا أسماء تسع من النساء، أي ما يعادل ١٧ في المائة من مجموع من أسلموا. ومن هؤلاء النسوة سبع زوجات لمسلمين وابتتان هما ابتا أبي بكر. فهل يعنى ذلك أن السبعة والثلاثين رجلا الآخرين كانوا كلهم أعزّابا، أو أن زوجاتهم رفضن الإسلام بالرغم من السلطة التي كان يمارسها أزواجهن عليهن، أو من الثقة التي كانوا يرحون بها إليهن؟.

وهل يعنى ذلك أيضا أن أبا بكر كان الوحيد الذي استطاع أن يقنع ابتيه باعتراف الإسلام (رغم أن صغراهن، أي عائشة لم يكن عمرها يزيد وقتها على سنة أو سنتين)؟ وإذا كانت جميع بنات الصحابة الذين أسلموا قد رفضن بدورهن الإسلام، هل رفضه كذلك أخواتهم وخدمهم وإماؤهم؟ ثم ألم يكن هناك نساء لسن بزوجات ولا بنات ولا بأخوات أحد من المسلمين اعتنقن الإسلام بمحض إرادتهن لأنهن كن يترددن على

قرية لمسلم، أو لأنهن، حين كن يشترين حاجاتهن من السوق، سمعن من حَدَّثهن عن الإسلام؟

ألم تكن هناك حالات لنساء أو فتيات أسلمن محبة في رجل من الرجال، كما يحدث أحيانا، أو لأنهن كن، بكل بساطة، يرغبن في الزواج من مسلم؟ .

أخيرا ألم تحاول زوجات المسلمين السبع اللائي أسلمن أن يبلغن رسالة الإسلام إلى أمهاتهن أو أخواتهن أو صديقاتهن؟ .

ج (أيا كان من قوة ذاكرة الأفراد الذين تناقلوا هذه القائمة، في غياب أى أثر مكتوب فمن المرجح أن بعض الأسماء قد سقطت منها.

د) القائمة، كما هو واضح، لا تضم سوى أسماء من أعلنوا إسلامهم. وهى لا تأخذ فى الاعتبار حالات الأفراد - رجالا ونساء، أحرارا أو عبيدا - الذين نطقوا بشهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله فدخلوا فى دين الإسلام دون أن يعلنوا ذلك كى لا يتعرضوا لاضطهاد قبائلهم أو ساداتهم.

هـ) القائمة لا تتضمن إلا أسماء أفراد مقيمين فى مكة، وليس فيها أسماء لأحد من أعضاء القبائل الخارجية الذين استطاع محمد ﷺ أو أحد من أصحابه أن يتصلوا بهم حين وفدوا إلى مكة للحج أو للتجارة أو لزيارة أقاربهم المقيمين بهذه المدينة. والنص لا يتحدث عن مثل هذه الاتصالات.

ومع ذلك فليس هناك ثمة سبب يمنع من تصور أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينتهزون فرصة مواسم الحج وغيرها من الفرص

التي كانت تتيحها لهم أنشطتهم اليومية في السوق، وعلاقاتهم العائلية مع القبائل المذكورة أو رحلاتهم خارج مكة لنشر الإسلام.

كذلك فإن الحجاج والتجار والزوار «الأجانب» ذاتهم كانوا ولا شك، حين يصلون إلى مكة، يسمعون عن هذا الرسول الذي يدعو إلى دين جديد، وعن الضجة والخلافات التي أحدثتها دعوته في هذه المدينة.

ولابد أن بعضهم حاولوا، إن لم يكن لشيء فمن باب الفضول، أن يعرفوا المزيد عن هذا الدين، أو أن يروا رسول هذا الدين، وأن المسلمين كانوا دائما على استعداد لإجابة رغبتهم.

وليس هناك أيضا ما يمنع من تصور أن عشرات أو مئات من هؤلاء الأفراد قد أدركتهم عناية الله وأسلموا للأسباب ذاتها التي أدت إلى إسلام بعض الناس في مكة أو لأسباب أخرى.

لهذه الأسباب جميعا، فإن قائمة الأسماء التي وردت في النص تبدو ناقصة. وهي لا تعكس في الواقع سوى جانب من حالات الدخول في الإسلام التي حدثت في مكة وغيرها خلال الفترة التي تعيننا.

٤. آيات القرآن التي أوردتها النص

تثير هذه الآيات الملحوظات الآتية:

أ) الآية ٨١ من سورة آل عمران التي تتحدث عن الميثاق الذي أخذه الله تعالى على النبيين تتعلق بأمر غيبي لا بسيرة حياة تتحدث عن مسائل دنيوية. والمؤلف، على العموم، لم يفعل سوى أن ردد ما يقوله القرآن.

ب) الآيات ١-٥ من سورة العلق وردت في سياق أول لقاء، يذكر النص تفاصيله، بين رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام. وليس من

شأننا هنا أن نبدي رأياً في مدى صحة ما ذكره النص في هذا الشأن، لكن من الممكن أن نصدق الخبر الذي جاء فيه والذي مؤداه أن هذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن.

(ج) الآية ١٨٥ من سورة البقرة تفرض صيام شهر رمضان وتحدد قواعد الصيام. وبالإضافة إلى كونها تتعلق بموضوع ديني بحث فإن الحكمة في إيراد هذه الآية - التي هي فوق ذلك آية مدنية - في حديث يتصل ببداية الإسلام غير مفهومة.

(د) سورة القدر، والآيات ١-٥ من سورة الدُّخَان التي تتعلق بليلة القدر تشير إلى أمور غيبية ليس لها صلة بسيرة حياة الرسول ﷺ الدنيوية.

(هـ) ذكر آية من سورة الأنفال - وهي سورة مدنية - تتعلق بغزوة بدر، التي حدثت خلال الفترة المدنية، لمجرد الإفادة بأنها وقعت في شهر رمضان، أمر من الغرابة بمكان.

(و) النص ، حين أورد سورة الضحى، لم يعط أى بيان عن الفترة التي فتر الوحي فيها عن رسول الله ﷺ ، وكل ما فعله هو أن فسر آيات السورة.

يتضح من هذه الملحوظات أن الآيات القرآنية التي أوردتها النص في جزئه الأول تتعلق في معظمها بمسائل دينية وليس لها طابع تاريخي.

أما الاقتباسات التي وردت عن آخر الفترة أى قوله تعالى:

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩)....﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعْ

بِمَا تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾ [الحجر: ٨٩ - ٩٤]

وقوله تعالى:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]

فتستحق أن تدرس بعمق لأنها وردت في النص دون تعقيب باعتبارها نهاية فترة وبداية فترة جديدة: نهاية فترة الاستخفاء وبداية فترة مباداة رسول الله ﷺ قومه.

ر) الأمر الوارد في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾. وذلك الوارد في قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾. ، هل يمكن اعتبارهما تكليفا جديدا للرسول ﷺ ، ومرحلة جديدة في دعوته ، أم أنهما تكرار لأوامر سابقة في قرآن التكرار إحدى سماته المعروفة؟. إن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على معرفة ما إذا كانت آيات قرآنية تشبه الآيتين المذكورتين قد أنزلت أم لم تنزل قبل وبعد هذه السورة.

- لقد رأينا أن الأمر الذي يتضمن تكليفا في كلمة «اقرأ» كان أول أمر صدر لمحمد ﷺ ، وأول كلمة في أول سورة أنزلت عليه. و«اقرأ» في هذا السياق تؤدي المعنى نفسه الذي تؤديه عبارة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ - هذا التكليف يؤديه أيضا استخدام كلمة «أنذر» في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)﴾ [المدثر: ١-٢]

والمعنى ذاته وارد في عدد من الآيات التي نزلت قبل سورة الحجر، مثل قوله تعالى:

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤)﴾ [الليل: ١٤]

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ۝٤٠ ﴾ [النبا : ٤٠]

وقوله تعالى :

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝٥٠ ﴾ [الذاريات : ٥٠]

وهو وارد كذلك فى عديد من الآيات اللاحقة على تلك التى أوردها

النص ، مثل :

قوله تعالى :

﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ ﴾

[يس : ١٠]

وقوله تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ
مَنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ﴾ [السجدة : ٣]

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ [هود : ١٢]

وبناء على ذلك فإن الآيتين ٨٩ و ٩٤ من سورة الحجر لا يصح ،
تحت أى تفسير ممكن ، اعتبارهما النقطة التى تنتهى عندها مرحلة وتبدأ
مرحلة أخرى .

أما آية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ من سورة الشعراء، فإن النص لا يوضح بشأنها ما إذا كان المقصود بعبارة «عشيرتك الأقربين» هم قبيلتا بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، أم المقصود عشائر وقبائل قريش الأخرى. والذي يخطر على البال لأول وهلة هو أن المقصود هم قبيلتا الرسول ﷺ أو حتى قبيلة بنى عبدالمطلب وحدها. ومع ذلك فإن هذا ليس هو الموقف الذى يقفه النص، إذ أن من سيتجه إليهم رسول الله ﷺ فى الفترة التالية، كما سيتضح فى دراسة الفترة الثانية، إنما هم وفقا له، قريش فى مجموعها.

٥ - النتيجة

يتضح من التحليل إذن أن النص لا يعتد به فى أى موضوع من الموضوعات التى تناولها بشأن أحداث ثلاث السنوات الأولى من الدعوة، باستثناء قائمة من أسلموا (مع التحفظات التى ذكرناها). وسنرى فى الصفحات التالية ما إذا كان تحليل سور القرآن الكريم التى نزلت خلال هذه الفترة ذاتها يلقي أضواء جديدة على الأحداث التى وقعت فيها وعلى ما ورد بشأنها فى النص من أنباء.

جيم - ما نزل من القرآن

يعطى ما نزل من القرآن خلال الفترة صورة أقرب بكثير إلى التصديق من تلك التى يعطيها النص عن دعوة الرسول ﷺ وعن ردود الفعل التى أحدثتها، فإننا نجد فيها أكثر المعلومات دلالة على أن معظم أسس الإسلام أرسيت خلال هذه الفترة.

وقد استخرجت هذه الآيات من السور من ١ إلى ٤٩ التى اعتبر بلاشير، فى مقدمة ترجمته للقرآن، أنها نزلت أثناء الفترة الأولى من

الدعوة، وتبلغ آياتها ١٢١٣ آية، أى ربع ما نزل من الآيات فى الفترة المكينة وهذه السور هى: العلق ١- ٥، والمدثر ١- ٧، وقريش، والضحى، والشرح، والعصر، والشمس، والماعون، والطارق، والتين، والزلزلة، والقارعة، والعاديات، والليل، والانفطار، والأعلى، وعبس، والتكوير، والانشقاق، والنازعات، والغاشية، والطور، والواقعة، والحاقة، والمرسلات، والنبأ، والقيامة، والرحمن، والقدر، والنجم، والتكاثر، والعلق ٦- ١٠، والمعارض، والمزمل، والإنسان، والمطففين، والمدثر ٨- ٥٥، والمسد، والكوثر، والهَمْزة، والبلد، والفيل، والفجر، والبروج، والإخلاص، والكافرون، والفاتحة، والفلق، والناس.

١- الله سبحانه وتعالى

قرآن هذه الفترة، حين يذكر الله، يتحدث عن سمّيه الرئيسيتين: تلك التى تتعلق بصفاته، وتلك التى تتعلق بقدراته سبحانه وتعالى.

أ) صفاته

الرحمن، المتقّم، الرحيم، الأكرم، الأعلى، رب السموات والأرض وما بينهما، رب المشرق والمغرب، ما من إله غيره، التواب، رب العرش، العظيم، الواحد، الأحد، رب العالمين، واسع المغفرة، العليم، الحكيم، أهل التقوى وأهل المغفرة، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ذو الجلال والإكرام... إلخ

ب) قدراته

عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم، يضل من يشاء ويهّدى من يشاء، له الآخرة والأولى، خلق الإنسان فسواه فعدله، فى أى صورة ما شاء ركبّه، الذى قدر فهدى، خلق الإنسان من علق، هو أمات وأحيا، صَبَّ الماء صباً،

ثم شق الأرض شقا، فأثبت فيها حبا وعنبا وقضبًا وزيتونا ونخلا
وحدائق غلبا، الذى أخرج المرعى، رفع السماء، أغطش ليلها وأخرج
ضحاهها، دحا الأرض وأرسى الجبال، جعل النوم سباتا، جعل الليل
لباسا، جعل النهار معاشا، خلق الزوجين الذكر والأنثى، علم القرآن،
وضع الميزان، خلق الجان، مَرَجَ البحرين يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان،
له الجوار المنشئات فى البحر، هو أضحك وأبكى، هو أغنى وأقنى،
يدخل من يشاء فى رحمته، إن بطشه لشديد، فعال لما يريد، كل من
عليها فان ويبقى وجهه، يسأله من فى السموات والأرض.. إلخ.

ولا بد أن صورة الإله الذى اجتمعت له كل هذه الصفات والقدرات
قد أحدثت أثرا شديدا عند العرب الذين كانوا يعبدون أصناما وآلهة من
كل نوع، نقلوها أحيانا عما كان الناس يعبدون فى بلاد مجاورة (*)
وكلما أضافت آيات قرآنية جديدة صفة أو قدرة جديدة إلى صفات
وقدرات هذا الإله الواحد الذى لا تدركه الأبصار والقادر على كل
شئ، كان ذوو الأحلام من الناس يعقدون ولاشك فى أنفسهم مقارنات
بينه تعالى وبين أصنامهم وآلهتهم، ويتحدثون عنه فى بيوتهم ومع
أحلائهم وفى الأماكن العامة، وكانوا يتبادلون الرأى فى شأنه،
ويتساءلون عن الموقف الذى كان ينبغى اتخاذه إزاء رسوله ﷺ .

٢- الرسول

لم يرد فى أية آية من آيات القرآن تتعلق برسول الله ﷺ أو برسائلته
إشارة مباشرة أو غير مباشرة إلى سرية الدعوة، بل العكس هو

(*) أفرد النص ست أو سبع صفحات لذكر أصنام العرب والقبائل وأصنامها وسدنتها والبيوت
التي تعظمها، والتماثيل والحجارة التي كانت بالكعبة والتي كان يتخذها أهل كل دار فى
دارهم.

الصحيح، فإن الله تعالى بعد أن قال لرسوله ﷺ بصيغة الأمر: «قُمْ فَأَنْذِرْ» فى الآية الثانية من سورة المدثر، قال له: «سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى» فى الآية السادسة من سورة الأعلى، ثم قال: «فَذَكِّرْ» فى الآية التاسعة من سورة ذاتها. والآية ٤٥ من سورة النازعات تصفه بقولها «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا». والآية ٢١ من سورة الغاشية تصفه بأنه «مُذَكِّرٌ». والآية ٨ من سورة المزمل، أخيراً، تأمره بأن يذكر اسم ربه. ونظراً إلى أن فعلى: «فأنذر»، و«فذكر» لم يقتربا بأى قيد أو تحديد فيما يتعلق بالأشخاص أو المجموعات التى كان على الرسول ﷺ أن يوجه إليها دعوته، فأغلب الظن، خلافاً لما يقوله النص، أن رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت من اليوم الأول موجهة إلى الكافة. وكون آيات القرآن التى أنزلت خلال هذه الفترة تتضمن عناصر تشير إلى وجود معارضة للرسول ﷺ، وعناصر أخرى تواسيه وتقرر له أن الله يؤيده، يؤكد هذا الاستنتاج. فهناك، من جهة:

- تأكيد موجه إلى معارضى محمد ﷺ فى قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ ..

- وتأكيد آخر فى قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ .. وما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿.

مما يدل على أن هؤلاء المعارضين كانوا يجادلون الرسول ﷺ بشأن ما كان يراه، ورد على قولهم.

وهناك من جهة أخرى خطاب موجه إلى محمد ﷺ يقول له الله تعالى فيه: «فَمَا أَنْتَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ»، وتوصية بأن يصبر على ما يقول معارضوه وأن يهجرهم هجراً جميلاً.

والآيات المذكورة ليس فيها أية إشارة إلى حماية أبى طالب أو أية حماية بشرية أيا كانت للرسول ﷺ . إن محمدا ﷺ لم يكن بمفرده أمام معارضيهِ بل كان الله تعالى معه : «فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا» . وإذا كانت الحماية مطلوبة فإن الله هو الذى يجب الاتجاه إليه فى طلبها . لذلك فإن القرآن يخبره بأن يتخذ كوكيل له ، رب المشرق والمغرب الذى لا إله إلا هو . ومحمد ﷺ ليس هو الذى كان يحتاج إلى حماية . إن الذى كان يحتاج إليها هم خصومه . وبعد أن قال له الله تعالى : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ فإنه لم يكن يشعر ، ولا ريب ، بكثير قلق على سلامته الشخصية . وهذه الآيات ليست الآيات الوحيدة التى تدل على أن دعوة الرسول ﷺ كانت دعوة عامة وعلى الحماية الربانية التى كان يتمتع بها . وهناك فيما يلى من أجزاء هذه الدراسة شواهد أخرى على ذلك .

٣- القرآن الكريم

قال تعالى :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) ﴾ [الطارق : ١٣ - ١٤]

وقال تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) ﴾ [عبس : ١١ - ١٦]

وقال تعالى :

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) ﴾ [التكوير : ٢٥ - ٢٨]

وقال تعالى:

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) ﴾

[الواقعة: ٧٥ - ٨٢]

فى هذه الآيات وفى غيرها، لا سيما فى سورة الحاقة وسورة الإنسان، نجد عددا غير قليل من شواهد معارضة الكفار لدعوة الإسلام. فبالإضافة إلى أوصاف الجنون والضللال والغواية والكهانة التى رُمى بها رسول الله ﷺ والتى سجلت فى الآيات القرآنية التى نزلت بشأنه، نجد أيضا وصفه بأنه شاعر. كذلك فإننا نعلم من الآية ٢٥ من سورة التكويد أن القرآن قد وُصفَ بأنه «قَوْلُ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ».

وكون القرآن قد شجب مثل هذه الأقوال شجبا علنيا، معناه أنها لم تُقل فى الخفاء فى لقاءات خاصة بل قيلت على لسان كفار كانوا يعبرون عن آرائهم فى اجتماعات تضم عدة أفراد.

٤- التبعث والحساب

ورد فى كثير من السور التى نزلت فى هذه الفترة أن الموت ليس نهاية الحياة، وأن الناس بعد أن يدفنوا فى القبور ويصبحوا عظاما وترابا سيعثون ويحاسبون.

وفى السور المذكورة وصف بالغ الدلالة ليوم القيامة الذى يتم فى إطاره الحساب. وصف عبثت فيه كل الوسائل لإحداث أكبر تأثير ممكن

ولإثارة مشاعر الخوف والجزع والفرع في نفس المستمع الكافر ، وذلك على النحو التالي :

(أ) بالجمع بين تأثير الصوت : «إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ» ، «الْقَارِعَةُ» ، ما الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ» ، «يَوْمَ تُرْجَفُ الرَّاجِفَةُ» (والراجفة هي الصيحة الهائلة) ، وتأثير الصورة .

(ب) باستخدام جميع عناصر الكون المعروفة في الصور الموصوفة : السماء والأرض والجبال والنجوم والقمر والكواكب .

(ج) بعرض العناصر والظواهر التي يسمح استقرارها وانتظامها للإنسان في الدنيا بأن يحيا حياة طبيعية ، وهي في حالة هائلة من الانفجار والتحول والانهيـار والاضطراب والاختلال : حالة الأرض التي تهزها الزلازل وتخرج البراكين فيها أثقالا ثقيلة ، والكواكب التي تتشر ، والبحار التي تُسَجَّر ، والشمس التي تكدر (أي التي تُلَف وتُطوى) ، والنجوم التي تُطْمَس ، والجبال التي تُسَيَّر ، والسماء التي تُنْفَطِر ، والقمر الذي يُخْصَف ، والشمس والقمر وهما يلتقيان .

(د) بالتنويع في الأوصاف :

- فيوم الحساب يسمى أيضا بيوم الفصل ، وبالיום الحق ، والميعاد ، وبالواقعة ، وبالطامة الكبرى .

- والسماء التي تمور ، وتنشق ، وتُشَقَّق ، وتصبح وردة كالدهان .

- والأرض التي ترج رجًا ، وترجف ، وتُمور ، وتُسَوَّى ، وتُخْرِجُ أثقالها ، وتُدَك دكا .

- والجبال التي هي كالعهن المنفوش ، والتي تُسَيَّر ، والتي تصبح هباء مُنبثًا ، والتي تنسف ، والتي تكون سرايا .

- والبحار التى تُفَجَّر وتُسَجَّر -

هـ) وإلى انهيار النظام العام الذى كانت تدور فيه الحياة السابقة للإنسان الذى يبرز من باطن الأرض يضيف القرآن مناظر مرعبة للجحيم، الذى يسميه أيضا بالنار الموقدة، ويجهنم، التى تملأ مجرد لمحة خاطفة منها بالذعر والهلع قلب أشجع الشجعان، هذا الجحيم الذى سيكون للمجرمين دار الخلود.

و) باستخدام عدة مستويات لتصوير فزع الإنسان وقد وقع بين كارثة ماضيه وبين المستقبل الموثس الذى ينتظره:

- المستوى الجسدى، فنراه وقد علت وجهه غيرة ترهقها قفرة، قلبه واجف، ويصره خاشع، وقد ألقت ساقه بالساق.

- مستوى آخر، هو مستوى الذكريات، فنحن نراه يعرض بنان الندم على ماضيه: «إنه كان فى أهله مسرورا»، «إنه ظن أن لن يحورا»، «يوم يتذكر الإنسان ما سعى»، «يسأل أيا ن يوم القيامة»، «آثر الحياة الدنيا»، «فلا صدق ولا صلى، ولكن كذب وتولى»، ثم ذهب إلى أهله يتمطى، «يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى»، «يقول ياليتنى قدمت لحياتى».

- مستوى ثالث، يتعلق بالحاضر. ونحن نراه فيه وهو يقول «ياليتنى كنت ترابا»، وهو ينبأ بما قدم وأخر، وهو يود «لو يفتدى من عذاب يومئذ بينه وصاحبه وأخيه». وفصيلته التى تؤويه. ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيّه.

- مستوى رابع نراه فيه تحت المحاكمة. إنه لا يسأل عن ذنوبه ولكنه يُعرف بسيماء، وهو يخبر بما أحضر وقدم وأخر. إنه لا ينطق. ولا يؤذن له فيعتذر. لقد أوتى كتابه وراء ظهره. ويقال إنه من أصحاب الشمال،

أى أنه مجرم، يؤخذ بالتواصى والأقدام، فى الأغلال، ويطوف بين جهنم وبين حميم آن، وهذا وسط صيحات: «أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى». «فيومئذ لا يُعَذَّب عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ».

(ز) ومما يزيد فى مأساوية الصورة التى يصور بها مآل الكفرة، الصورة المقابلة التى يصور بها مصير المؤمنين. فالمؤمن يبدو مسفر الوجه، ضاحكا مستبشرا، وهو ينظر إلى ربه. وسوف يحاسب حسابا يسيرا وسيؤتى كتابه يمينه ويُعلن أنه من أصحاب اليمين. وسيكون من المقربين إلى ربهم وسينقلب إلى أهله مسرورا لأنه كان يخاف مقام ربه، وكان ينهى نفسه عن الهوى. وستكون الجنة مأواه، وسيسمع من يحييه بتحية «سلام لك».

(ح) إن الكون المادى، والإنس الذين يخرجون من الأجداث، والجن (الذين سيحاسبون بدورهم)، والجنة والنار، لن يكونوا وحدهم أمامه. إن ربه سيُشاهد فى ذلك اليوم، كما أن الملائكة سيكونون حاضرين، على أرجاء السماء، وقد وقفوا صفًا صفًا. ولن يتكلموا إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا. ونُصِصِل الرسل فى الساعة التى أُقِتت لهم.

فالعربى الذى كان يسمع أن هناك حياة بعد الموت وأن الجسد، بعد أن كان عظاما وترابا، سيعاد تكوينه، وأنه سيخرج من قبره لبدأ حياة جديدة، وأن أسلافه الذين ماتوا وجميع من ماتوا ويموتون من البشر على وجه الأرض منذ بداية الخلق سيبعثون بدورهم من جديد، كان ولاشك يندهش غاية الاندهاش، فإن شيئا فى ديانة الجاهلية التى كان يؤمن بها، سواء فى ذلك توقير الكعبة أو الأوثان التى كانت تحيط بها، أو فى كلام حكماء العرب وكهائنهم وشعرائهم لم يكن ينبث بهذه الحياة الجديدة، وإذا كان قد بقى له شىء من دين إبراهيم - خليل الله الذى

ذكره عبدالمطلب في حديثه مع مبعوث أبرهة - فليس هو بالتأكيد حياة ما بعد الموت .

ولعل العرب وجدوا من الصعوبة في تقبل هذا الجزء من دين محمد صلى الله عليه وسلم أكثر مما وجدوه في جزئه الذي يحدثهم عن الله، الذي كان يقسم به، طبقا للنص، كثير من الناس في الجاهلية، والذي جاء في عديد من آيات القرآن أنهم كانوا يقرون بقدرته، ويصفته كخالق. ولا بد أن أصواتا كثيرة ارتفعت لتقول باستحالة ظاهرة البعث. ولا بد أن هذا الاعتراض هو الذي تشير إليه الآيتان ٣ و ٤ من سورة القيامة في قوله تعالى:

﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۚ ﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ
نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ . [القيامة : ٣ و ٤]

هل يستفاد من هذا أن الغالبية العظمى من أهل مكة أصغت إلى هذه الأصوات المعارضة؟ أيا كان الأمر فإن كثيرين منهم لابد أنهم شذوها لوصف القيامة ويوم الحساب في القرآن. ومن المستحيل أن يتصور المرء عربيا لا تتحرك نفسه لهذا الوصف الذي لا يبارى في قوته وتركيزه. ولكي يقاوم العربي تأثيره كان لابد له من ثقافة واستعداد بلغا من العقلانية شأوا بعيدا، أو من حضارة مادية بلغت أقصى درجاتها، أو أن يكون على علم بنصوص أدبية أو دينية أعلى درجة من الآيات القرآنية التي تحدثه عن يوم الحساب هذا.

وواقع الأمر أن المستمع العربي وقتها لم يكن هذا الشخص ولاذاك. كان كقاعدة عامة، أميا لا يعرف القراءة والكتابة. وحتى إذا كان لبعض كبار التجار المكيين إلمام بالقراءة والحساب والمحاسبة، فمن غير الممكن أن

يتحدث المرء عن «ثقافة» حتى بين أولئك ممن أتاح لهم تجارتهم فرصة السفر إلى خارج الجزيرة العربية والاختلاط بمجتمعات متقدمة.

لقد كانت ديانة العرب ديانة وثنية قوامها الأساطير والخرافات التي بقيت منها آثار حتى بعد الإسلام. ولم يكن لدى العرب حضارة متقدمة، ولم يكن شعراؤهم يحدّثونهم إلا عن الصحراء وعن ديارهم الخالية وجمال المحبوبة وأمجاد الآباء والأجداد.

ومن الصعب أن يتصور المرء أن تكون هذه الآيات التي تتحدث عن البعث والحساب قد اقتصرت إذاعتها على دائرة محدودة من الأشخاص. وإذا كان نص ابن إسحاق لم يشر إليها ولم يصف ما لا بد أنها ولّدته في قلوب العرب من مخاوف وآمال، فليس معنى هذا أنها لم تحرك وجدان كثير من الناس وأن هذا التحريك لم يُقْضَ إلى دخول عديد منهم في الإسلام.

٥- الخير والشر

الآيات القرآنية التي تتعلق بالخير والشر يمكن أن تقسم إلى أربعة عناوين:

عنوان يتعلق بالمبادئ العامة، وعنوان يبين على وجه التحديد الأعمال التي يجب القيام بها (أى الأوامر) والأعمال المحظورة (أى النواهي)، وعنوان يتعلق بالمحاسبة عن الأعمال، وعنوان يتعلق بمسئولية الفرد.

أ) المبادئ العامة،

يمكن تلخيص فلسفة الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع كالآتي:

- الإنسان مفطور على حب الحياة الدنيا العاجلة . أما أولئك الذين يفضلون الحياة الآخرة، التي هي أطول وأفضل، فهم قلة قليلة.

- الإيمان والعمل الصالح شرطان لا غنى عنهما للنجاة من النار واستحقاق الجنة.

- الظلم والتكاثر والطغيان خطايا كبرى.

- التواضع مأمور به والرياء منهي عنه.

- لا بد من التواصى بالحق والصبر والرحمة.

- الأعمال الصالحة تزكى النفس والآثام تدنسها، وأولئك الذين يزكون نفوسهم بها سيسعدون في الحياة الآخرة. أما الآخرون فسيشقون.

- المؤمن الذى يمنع الماعون، سيكون هو أيضا من الأشقياء فى الآخرة.

الحق، والصبر، وتركية النفس بصالح الأعمال، والرحمة، والعدل، هذه هى الكلمات الأساسية فى الدين الذى كان يدعو إليه محمد ﷺ فى مكة خلال الفترة الأولى من بعثته. ولم يكن لدى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم وسواهم من قبائل قريش قطعا اعتراض على هذه الفضائل طالما بقيت مثلا أعلى لكل امرئ أن يأخذ به نفسه أو يتركه. أما إسباغ قيمة دينية عليها وجعلها إجبارية، وتهديد من لا يلتزم بها بنار جهنم، وإقناع المرء أيضا بالإيمان بآله واحد، وحمله على العدول عن فخره بنفسه، وعن تغنيه بأمجاد قبيلته، وإعلانه أن قومه هم أقوى الناس وأكثرهم جودا وأعظمهم شجاعة فى القتال وأوفرهم عددا، فذلك مالا يمكن قبوله، فإن التقوى والتواضع لم تكونا قط بين الفضائل العربية كما يصورها الشعر الجاهلى.

ويلاحظ في هذا الصدد أن الآيتين ١ و ٢ من سورة التكاثر توحيان بأن نفرا من الناس دفعهم التكاثر والتنافس إلى زيارة المقابر . وهذه واقعة تاريخية هامة بدليل أن القرآن تحدث عنها . ولما كانت قد حدثت في الفترة التي تعيننا ، فقد كان طبيعيا أن يذكر مؤلف السيرة الظروف التي أحاطت بها والأشخاص الذين اشتركوا فيها ، لكن النص ، الذي استطاع أن يتقصى تاريخ زمزم منذ أن ذهبت أم إسماعيل عليه السلام تبحث عن ماء لابنها إلى أن تَلَقَّى عبدالمطلب الأمر بحفرها ، لم يقدم أى شرح بشأنها .

أخيرا ، فإذا كانت هناك عبارة تلخص فلسفة الخلاص في الإسلام فإن هذه العبارة التي تتردد عشرات المرات في القرآن - هي تلك التي نجدتها في سورة العصر ، والتي تتحدث عن «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» .

(ب) الأوامر والنواهي

للنجاة من النار ودخول الجنة لا بد ، طبقا لما يقوله قرآن هذه الفترة ، من الإيمان ، والإنفاق ، والتناهي عن الفجور ، وعن وأد البنات ، ومن مراعاة الأمانة .

(١) الإيمان

الإيمان بالله وبدينه وباليوم الآخر هو أول شروط النجاة . والآيات القرآنية التي نزلت في هذه الفترة تتضمن عنصرا تاريخيا لا جدال فيه هو الموقف السلبي الذي وقفه بعض من اتجه إليهم الرسول ﷺ بالخطاب . إن القرآن يسجل منذ سورته الثانية ، أقوال الخطاة الذين اعترفوا بكفرهم . فسورة الطور مثلا تحدثت عن المكذبين «الذين هم في خَوْضٍ يلعبون» . وفي سورة الواقعة يعجب القرآن من كونهم ، بدلا من شكر الله على

قرآنه ، يدهنون ويجعلون رزقهم أنهم يكذبون . وفى سورة الحاقة يسجل القرآن أن منهم مكذبين ينكرون أنه لحق اليقين . وفى سورة المطففين أخيرا يكرر القرآن إنذاره بالويل لأولئك الذين لا يظنون أنهم مبعوثون ، والذين اذا تليت عليهم آيات الله قالوا «أساطير الأولين» . والحاصل أن نص ابن إسحاق لا يذكر أية واقعة أنكر فيها شخص أو أشخاص من قريش وجود الله تعالى أو كذب بالبعث .

(٢) الإنفاق

اهتم القرآن بمصير الفقراء طوال الفترة المذكورة . وهذا ثابت من تعاقب السور التى تتحدث عنهم . ولا بد أن من تتكون منهم هذه الفئة من الناس فى مكة كانوا يشكلون أغلبية السكان . ولم يكن هؤلاء الفقراء أفراد قبائل قريش وحدهم ، بل كانوا أيضا من الأجانب الذين يرى المرء أمثالهم اليوم فى مكة وفى كثير من مدن العالم : رجال ونساء وأطفال جاءوا مع جماعاتهم للحج ثم قرروا البقاء أو تركهم ذووهم وراءهم ، وآخرون جاءوا بوسائلهم الخاصة من مناطق أشد فقرا ، وقد جذبهم رخاء هذه المدينة الظاهر فعاشوا على التسول أو على الفسق أو الجريمة ، أو كانوا يكسبون لقمة عيشهم من القيام بأعمال يزدريها أهل البلد .

إن القرآن يذكر أن الله تعالى قد تولى قضية هذه الفئة العريضة من الناس . وهو يبصر الناس بمشكلتهم ويخصص لهذا الداء من الآيات أكثر مما يخصص لكل الأدواء الأخرى التى اهتم بها . وتتكون فلسفة القرآن فيما يتعلق بالفقراء من أربعة أجزاء :

(أ) رد كرامتهم إليهم بقوله إن المعونة التى تقدم إليهم ليست تبرعا وإنما وفاء بدين ، وذلك بتقرير أن الصدقة التى تعطى لهم ليست دون

مقابل وأنها تزكى المال الذى أخذت منه، وبإبلاغ من يؤدونها أنهم لا يقدمونها إلى الفقراء وإنما يقدمونها لوجه الله، وبالتشديد على أنها قرض مقدم لله، وأن هذا القرض سيرد إليهم فما سيجدونه عند الله هو خير وأعظم أجرا.

ب) جعل مشكلتهم مسئولية جماعية، وذلك بإلزام كل مسلم بدفع جزء من ماله الحلال كقرض دينى للفقراء سواء كانوا من ذوى قرباء أو من غيرهم.

ج) اعتبار أداء أو عدم أداء هذا القرض مسألة تتعلق بالدين لا مسألة اجتماعية، وجعل مصير الإنسان فى الآخرة يتوقف إلى حد كبير على موقفه من الزكاة، واعتبار البخل خطيئة حقيقية.

د) إظهار الكبراء من أصحاب المال والجاه الذين كانوا يعيشون فى الأبهة والحبوحة، والذين كانوا لا ينفقون إلا القليل من أموالهم على الفقراء وقد ذُلُّوا يوم القيامة: «ما أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ. هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ: «فليس له اليومَ هَا هُنَا حَمِيمٌ».

وأغلب الظن أن وقع الآيات القرآنية التى تتحدث عن هذا الموضوع على الفقراء الذين كانوا يعيشون فى مكة وحولها كان كبيرا. ولعل هذا الجانب من جوانب الإسلام بالنسبة لهذه الطبقة المغبوتة، التى كانت ترزح تحت وطأة المشكلات المادية اليومية، كان أهم من كل ما عداه.

ولابد أن قلة من هؤلاء الفقراء هى التى استطاعت أن تقاوم إغراء اتباع هذا الرسول الذى كان ربه يحبهم ويعترف بكرامتهم ويمنحهم حقا على ثروة الأغنياء.

وعلى العكس ، فلا بد أن هجوم الإسلام المتكرر على الأغنياء ومن كانت بيدهم مقاليد الأمور أو غر صدور الطبقة الحاكمة في مكة على رسول الله ﷺ ، وأنه قضى على كل أمل في التوصل لحل وسط بين الطرفين ، فقد كان من شأن تقرير حقوق للفقراء في الواقع تعريض سيادة هذه الطبقة للخطر ، وكان هذا سببا إضافيا يدعوها لمحاربة محمد ﷺ والدين الذي أتى به .

(٣) تحريم الفسق

قال الله تعالى :

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) ﴾

[الأنفطار: ١٤ - ١٥]

وقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) ﴾

[المعارج: ٢٩ - ٣١]

وهذا التحريم يوحى بأن الفجور كان متفشيا في زمن الرسول ﷺ ، بكل ما يجره من شرور على المجتمع: البغاء والأمراض التناسلية (التي لم تكن هناك في وقتها سبل لمعالجتها)، وولادة أطفال غير شرعيين، والخيانة الزوجية... إلخ. وكانت الفئة التي تعاني من هذه المشكلة أكثر من غيرها هي، بطبيعة الحال، النساء: البغايا أولا، ثم النساء اللاتي كن ينجبن أطفالا من الزنا ويتكفلن وحدهن بإعالتهم، وكذلك الزوجات الشرعيات اللاتي يخونهن أزواجهن أو اللاتي كن يتولين منهم بالأمراض التناسلية.

والقرآن، حين ألزم الرجال بالاعتصام على زوجاتهم وما ملكت أيمانهم، حمى المرأة والطفل. كذلك فقد خلق حافظاً على الزواج في وقت لم يكن للنساء فيه عمل ولم يكن باستطاعتهم التطلع إلى حياة تصون كرامتهم وتكفل لهن وضعاً اجتماعياً محترماً إلا في الزواج. لهذا فلا بد أن هذا التحريم هياً ظروفاً مواتية لدخول النساء في الإسلام.

(٤) تحريم وأد البنات

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ [التكوير: ٨ - ٩]

وكان العرب يعتبرون البنات، كما يتضح من آيتي:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩]

ومن آيات غيرها في القرآن، عارا ومسبة. وكان إنجاب البنات، بالنسبة للفقراء خاصة، عبئاً ثقيلاً في معظم الأحيان. لذلك لم يكن من الغريب أن يعمد الآباء، كما هو الحال اليوم في عدد من بلدان آسيا الفقيرة، إلى قتل بناتهم في طفولتهن (أو إلى دفعهن إلى البغاء).

وقد جاء تحريم هذه العادة في الإسلام موازياً للأحكام القرآنية التي تهدف إلى تحسين مصير الفقراء. ولا بد أنه كان له وقع حسن في قلوب جميع النساء، وعند الرجال الذين كانوا يستنكرون هذه العادة اللاإنسانية.

قال الله تعالى :

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا

الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن : ٨ - ٩]

وقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ

قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ

مُكْرَمُونَ (٣٥) ﴾ [المعارج : ٣٢ - ٣٥]

هذه الآيات التى تأمر برد الأمانات وباحترام العهود، وتنهى عن الغش بجميع صورته، كما تنهى عن شهادة الزور، توحى بأن الغش كان يمارس بكثرة فى مكة وفى غيرها من أنحاء الجزيرة، وبأن تدابير مراقبة صحة الموازين والمكاييل كانت منعدمة أو غير كافية. ولابد أن الأمناء من الناس حين علموا، إزاء هذه الظاهرة، بأن القرآن يقدر أمانتهم حق قدرها وأنه يعدهم بمكان فى الجنة شعروا بميل إلى الدين الجديد.

كذلك فإن ضحايا الغش فى المعاملات، بدورهم، لابد قد أسعدهم أن يعلموا أن من غشَّوهم سوف يعاقبون على فعلتهم فى الآخرة. أخيرا فإن كل من كانوا يشترون أو يبيعون، أى الناس كافة، لابد أنهم سرُّوا حين علموا أن الله بالمرصاد للغشاشين، وأن ذلك قريبهم إلى الإسلام.

ج) المحاسبة عن الأعمال

قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

﴿ (٨) [الزلزلة: ٧ - ٨]

وقال تعالى:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥)﴾ ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠)﴾

﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ [الانفطار: ٥ و ١٠ - ١٢]

إن العدالة الإلهية - بخلاف عدالة البشر التي تعتمد على الظاهر والتي قد تزل أو تُخدع - عدالة لا تشوبها شائبة.

هذه العدالة، التي لا تغفل عن شيء، سمة أخرى لا بد أنها جذبت إلى الإسلام قلوب كثير ممن يتطلعون إلى مثل أعلى للعدالة أو ممن وقعوا ضحية للعدالة القبلية أو القبائلية السائدة.

د) المسئولية

قال الله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)﴾ ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾

﴿ (٤٨) [المدثر: ٣٨ و ٤٨]

وقال تعالى:

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨)﴾ ﴿وَأَنَّ لِّإِنْسَانٍ إِلَّا مَّا سَعَى﴾

﴿ (٣٩) [النجم: ٣٨ - ٣٩]

هذه الآيات ترسى قاعدتين أساسيتين:

- مسئولية كل إنسان، مسئولية كاملة شاملة، عن أعماله.

- رفض كل شفاعاة لصالح المجرم.

فسواء كان المجرم غنيا أو فقيرا، سيدا أو شحاذا، وسواء كان ينتمى إلى قبيلة قوية أو ضعيفة، وسواء كان مكيا أو عربيا أو أجنبيا، رجلا حرا أو عبدا أو امرأة، فالبشر جميعا متساوون أمام العدالة الإلهية. وليس بينهم أى تمييز.

والعدالة التى تستند إلى تعريف دقيق للأعمال التى سيطلب من المرء أن يقدم حسابا عنها، وإلى معرفة كاملة وتفصيلية بجميع الجوانب الظاهرة والباطنة للأعمال موضع الحساب، والمساواة المطلقة أمام القانون، والحيدة المطلقة من جانب القضاة. العدالة التى يعلم المرء إجراءاتها سلفا والتى لا تكتفى، شأن العدالة البشرية، بمعاينة المرء عن جرائمه، بل تكافئة عن أعماله الصالحة والتى لا تعرف الظلم، كل هذا ما كان يمكن إلا أن تقر به عينا كل إنسان لديه إلمام بأحوال عدالة البشر. ولا بد أن هذه الأحكام قد أدت إلى اعتناق نفر كثيرين للإسلام. وفى هذا المجال أيضا فإن الاستخفاء لا يمكن تصوره.

(٦) الثواب والعقاب

القرآن يقدم فى سور كثيرة وصفا، من جهة، لجهنم التى يُعاقب فيها الكافرون والضالون والمجرمون، ومن جهة أخرى، للجنة التى يكافأ فيها المتقون والذين آمنوا والطيبون والأطهار.

(أ) النار،

جحيم، نار مُوقدة، ترمى بشرر كالقَصْرِ، كأنه جِمَالَاتٌ صُفْرٌ، نَزَّاعَةٌ للشَّوَى، لا تُبْقَى ولا تَذَرُ، والذين يؤتون كتبهم بشمالهم سيؤخذون

فَيُغْلَوْنَ ثُمَّ الْجَحِيمَ يَصْلَوْنَ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا يَسْلَكُونَ، يَلْبِثُونَ فِيهَا أَحْقَابًا، شَارِبِينَ مِنَ الْحَمِيمِ شُرْبَ الْهَيْمِ، لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا. لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ، يَسْتَظِلُّونَ بِظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ، لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ، ظِلٌّ لَا ظَلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَهَبِ. وَسَوَاءٌ صَبَرُوا أَوْ لَمْ يَصَبِرُوا فِسْوَاءٌ عَلَيْهِمْ. وَسَيَذُوقُونَ وَلَنْ يَزِيدَهُمُ إِلَّا عَذَابًا.

(ب) الجنة،

يمكن تقسيم وصف الجنة في سور هذه الفترة إلى خمسة أجزاء: الخارج، والداخل، والأسرة، وملأذ المأكّل، والرضا.

(١) **الخارج**: جنة عالية، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ، ذَاتُ أَفْنَانٍ، سِدْرٌ مَخْضُودٌ وَطَلْحٌ مَنُضُودٌ، وَارِفَةُ الظَّلَالِ، فِيهَا مَاءٌ مَسْكُوبٌ، عَيْنٌ جَارِيَةٌ، تَخْلُ وَرِمَانٌ، وَحِدَاقٌ وَأَعْنَابٌ، لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا.

(٢) **الداخل**: سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ، وَأَرَائِكُ، وَنَعَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَوَاقِي مَبْثُوثَةٌ، مُتَكِّينَ عَلَى فُرَشٍ بِطَائِنَتِهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ، مُلْكٌ كَبِيرٌ، لِبَاسٌ مِنْ حَرِيرٍ وَسُنْدُسٌ وَإِسْتَبْرَقٌ، وَأَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ.

(٣) الأسرة،

أ- الزوجات: «إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا»، حُورٌ عِينٌ، قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ، «لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ»، كَوَاعِبُ، حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ، كَالْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ.

ب- الذرية: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ».

ح- الولدان: «ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون».

د- ملاذ المأكّل: يُطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير، قوارير من فضة قَدَّرُوهَا تقديرًا، فاكهة كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، ذُلَّتْ قُطُوفُهَا تذليلًا، لحم طير بما يشتهون، كأس لا يَصْدَعُونَ عنها ولا يَنْزِفُونَ، كان مِرَاجُهَا كاقورا وزنجبيلًا، شراب طهور، يُسْقَوْنَ من رحيق مختوم.

هـ - الرضا : النعيم، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم، كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون، «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون». قالوا إنا كنا قَبْلُ في أهلنا مشفقين. فمن الله علينا. «لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما، إلا قِيلًا سلامًا سلامًا»، عيشة راضية، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذأبا، لَقَّاهُمْ نضرة وسرورا، جزاهم بما صبروا جنة وحريرا.

ولا بد أن وصف الجنة والنار في القرآن، الذي يتكرر في عشرات الآيات، كان له في مُخَيِّلَةِ المُشْرِكِينَ العرب وقع أشد حتى من وقع وصف يوم القيامة. ولا بد أن قرائن أحدهم كانت ترتعد حين كان يتصور نفسه، مدى الدهر، مقيدا في سلاسل وأغلال إلى جحيم فزاعة للشوى، يتمنى الموت ولكن بغير طائل، ولا يجد للترويح عن نفسه سوى ظل من يحموم ولينقع غلته سوى ماء كالمهل.

كانت القشعريرة تصيب أبدان هؤلاء المكيين وهؤلاء البدو الذين كانت أعينهم تنفتح للمرة الأولى على أهوال هذا العالم المريع الذي ينتظر الكفار.

وعلى النقيض من ذلك فإن تصور قضاء الأبدية بين ذوبهم في فردوس تقدم فيه بوفرة كل الملاذ وكل المتع الجسدية والمعنوية التي يهنا

بها الناس ويستعمون، أى كل ما هو شهى من المأكّل والمشرب، وحوار
عين عذارى كزوجات بارعات الحسن، وأبناء كاللؤلؤ المكتون، والكل
جالسون راقدون على أرائك وثيرة فى ظل ممدود قريبا من مياه جارئة،
وسط الأشجار والزهور والرياحين، لا يسمعون لغوا ولا تأثيما، فى جو
من السلام لا يعكر صفوه شىء...

أقول إن تصور هذه النعم كلها كان ولا بد شيئا تخفق له القلوب، فقد
كانت أغلبية العرب يحيون حياة شاقة فى بيئة طبيعية قاسية شديدة الحر،
وكان الفقر وشظف العيش فيها تضاعف منهما فترات من القحط
والجفاف كان لا بد للعرب خلالها من الكفاح المرير للبقاء على قيد
الحياة.

ما الذى كان يجب فعله لدخول هذه الجنة وللنجاة من هذه النار؟ كان
يجب، بكل بساطة، الإيمان وعمل الصالحات. إن باب الفردوس مفتوح
دائما أبدا. ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبا: ٢٩]

ولا بد أن الإغراء بسلوك هذا السبيل كان كبيرا عند أولئك الذين كان
يتصل علمهم بالآيات القرآنية المشار إليها. ولا بد أن منهم من كانوا
يقولون فى أنفسهم: «إن أحدا لا يدرى ما إذا كان ما يقوله محمد عن
البعث بعد الموت وعن يوم القيامة والحياة الآخرة صحيحا أو غير
صحيح، وما من أحد يستطيع أن يدرى، إذ أن أحدا من الأموات لم
يعد ليخبرنا بالحقيقة. لكن ماذا إذا كان على حق؟ إن ما يقوله لنا ليس
أبعد عن التصديق من الحكايات التى يقصونها علينا منذ طفولتنا. وما
يطلبه منا وما ينهانا عنه ليس فيه، آخر الأمر، شىء سيئ، بل العكس
هو الصحيح. فلنولى ثقتنا، ولنكن فى الجانب الأمثل، ولنؤمن!».

من المتصور أيضا أن البعض كانوا يتحفظون. والعرب الذين كان محمد ﷺ وأصحابه يتجهون إليهم بدعوة الإسلام كان من بينهم من لم يعتادوا على التفكير الشخصي في مسائل الدين. وكان لابد لهم ، في هذا الأمر كما في غيره من الشئون الهامة، من الرجوع الى رؤسائهم. لكن الرؤساء، كما سبق القول، كانوا يعادون محمدا صلى الله عليه وسلم ويعادون دينه، ولا بد أنهم، بعد أن تناقشوا طويلا في الأمر، وبالاتفاق قطعا مع بنى هاشم وبنى عبدالمطلب، اتخذوا قرارا بمحاربته بكل الوسائل لاسيما، في البداية، بالهزم والمجادلة، ووصف محمد ﷺ بأنه كاذب، أو ساحر، أو شاعر، أو مجنون، أو اتهمه بالطموح، وبالتشكيك في نبوته، وفي صحة قرآنه وما جاء فيه من حديث عن البعث والحساب والجنة والنار. ولا بد أنهم جندوا لهذا الغرض كل خطبائهم وشعرائهم.

لقد رأينا في بعض ما أوردناه من استشهادات قرآنية، إشارات إلى رفض الكفار رسالة الإسلام. وفيما يلي أمثلة أخرى على ذلك:

قوله تعالى:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣)﴾

[الانشقاق : ٢٠ - ٢٣]

وقوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَّبِصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ

(٣٤) أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يَوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ
(٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ
الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ
عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ
الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِنْ
يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) فَذَرَهُمْ حَتَّى
يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) [الطور: ٢٠ - ٢٣ و ٣٥ - ٤٥]

وقوله تعالى:

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ
تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ
بِمُسْبِقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ
عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ
تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ
(٦٥) إِنَّا لَمَغْرُمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي
تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ
لَجَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ
أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا
لِّلْمُقَرَّبِينَ (٧٣) ﴾ [الواقعة: ٥٧ - ٧٣]

إن هذه الآيات، وغيرها مما ورد في سورة المدثر وسورة النجم ،
وسورة التكاثر، وسورة العلق، وسورة المعارج، وسورة الإنسان، وسورة
الكافرون، وفي سورة أخرى عديدة، تتضمن أمثلة للانتقادات التي
وجهها الكفار لمحمد ﷺ وللقرآن، وتورد رد القرآن على هذه
الانتقادات. والمرء يجد فيها:

(أ) حالة رجل جعل الله له مالا ممدودا ويطمع أن يزيد قال، بعد أن
علم بالقرآن، وفكر وقدر، إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول
البشر، ثم أدبر واستكبر وكان لآيات الله عنيدا.

(ب) حالة رجل آخر - أو الرجل ذاته - نهى عبدا إذا صلى ثم كذب
وتولى عن الصراط المستقيم.

(ج) حالة نفر من الكفار ذهبوا إلى الرسول ﷺ مهطعين، عن اليمين
وعن الشمال عزيزين، يطمع كل منهم أن يدخل جنة نعيم.

(د) حالة نفر من الكافرين حاول رسول الله ﷺ أن يجعلهم يعبدون
ما يعبد وحاولوا هم أن يجعلوه يعبد ما يعبدون.

(هـ) دعوة مستمرة للمكذبين إلى التفكير والتدبر: «هل خلقوا من غير
شيء؟»، «هل عندهم خزائن ربك؟»، «أم لهم سُلَّمٌ يستمعون فيه؟»،
«أم عندهم الغيب؟»، ألا يرون أنه لو شاء لجعل ما يحرثون حطاما؟
والماء الذي يشربون، أهم أنزلوه من المزن أم الله تعالى هو المنزل؟ أهم
الذين أنشأوا شجرة النار التي يُورُون؟

(و) آيات تعلن غضب الله الشديد على أولئك الذين يرفضون دينه
ويديرون ظهورهم ويكذبون: تنريع وتهديد وتحذير: «ذرني ومن...»،
كلا، «سأرهقه صعُودا»، «فَقُتِلَ كيف قَدرٌ، ثم قُتِلَ كيف قدر»،

«سَأُصْلِيهِ سَقَرَ»، «فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ»، «قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ»، «فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ»، «ثُمَّ لَتَرُونَهَا (أى الجحيم) عَيْنَ الْيَقِينِ»، «إِنَّا لِقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نَبْدَلَ خَيْرًا مِنْهُمْ»، «فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ».

ز) تسجيل لأقوال الكفار ومواقفهم: «فمالهم لا يؤمنون، وإذا قرء عليهم القرآن لا يسجدون»، «بل الذين كفروا يكذبون»، «أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون»، «أم يقولون تقوله»، أم لهم إله غير الله، «أفرايتُم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى»، «الكم الذكرو له الأنثى»، «إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس»، «أفمن هذا الحديث تعجبون، وتضحكون ولا تبكون».

يتضح من كل هذه الأمثلة أن ثلاث السنوات الأولى من البعثة لم تكن، بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فترة هادئة تمكن خلالها من الدعوة إلى دين الله دون إزعاج، وأنه كان عليه أن يواجه حملة ضارية للقضاء على اعتباره، وأن حرب التكذيب أعلنت ضده منذ أيام دعوته الأولى.

كذلك نرى مما تقدم أن القرآن تولى مهمة الدفاع عنه ونقل المناقضة إلى معسكر خصومه. ونرى أخيرا أن الرد على ادعاءات الكفار اتخذ غالبا شكل النقد اللاذع والتقريع. تقريع من يثق بنفسه ولا يبدى أى استعداد لتقديم تنازلات.

(٨) المؤامرات

قال الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا

[الطارق: ١٥ - ١٧]

﴿ (١٧)﴾

وقال تعالى :

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ (٤٢) [الطور: ٤٢]

وقال تعالى :

﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴾ (٢٩) [المرسلات: ٢٩]

ولابد أن السلطة الحاكمة في مكة، وقد أدركت الخطر الذي تمثله الديانة الجديدة، وتبين لها فشل الجهود التي بذلتها للقضاء على اعتبار الرسول ﷺ على المستوى الفكري، رأت منذ البداية ضرورة الالتجاء إلى وسائل غير وسيلة الهمز والنقد.

هذا، على أي حال ، هو ما يتضح من الآيات المقدمة. وما يلفت النظر أن لهجة الخطاب القرآني هنا أيضا لهجة قاطعة وأن القرآن يتحدث بقوة وسلطان، وأنه ليست هنا بادرة ضعف، بل هناك تحد وثقة في النصر والغلبة.

(٩) الأنبياء السابقون

في آيات من سورة الشمس، وسورة الأعلى، وسورة النازعات، وسورة الحاقة، وسورة النجم، وسورة الزمل، وسورة الفجر، وسورة البروج، نجد أن القرآن أضاف إلى التهديدات المباشرة الموجهة إلى الكفار تذكيرا بالمصير الذي حاق في الماضي بقوم فعلوا ما فعلوه هم حين أداروا ظهورهم لرسالات أنبياء الله. وتقص هذه الآيات قصص ثمود وعاد وإبراهيم وموسى ونوح.

لقد كذبت ثمود بطغواها واتبعت أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها، وأهلكهم

بالنار. أما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

وقد نادى موسى ربه بالوادي المقدس واستجاب لأمره فذهب الى فرعون وعرض عليه أن يتركه وأن يهديه إلى ربه فيخشى، وأراه الآية الكبرى فكذب فرعون وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فتادى أنا ربكم الأعلى، فأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى. وقوم نوح، الذين كانوا أظلم وأطغى، أهلكهم الله بالطوفان.

وبلاحظ في هذا الصدد:

(أ) أن حديث هؤلاء الأقوام وأنبيائهم جاء هنا موجزا ولم يوضح تفاصيل الرسالات التي بعثوا بها لشعوبهم.

(ب) أن إبراهيم عليه السلام - الذي انتمى إليه عبدالمطلب في حديث أبرهة - لم يرد له ذكر إلا في سورة المدثر، في آيتين ليس إلا، هما :

﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩) ﴾

[الأعلى: ١٨ - ١٩]

كذلك فقد أشير إلى نوح مرة واحدة. وموسى هو النبي الذي ذكر أكثر عدد من المرات. ولم يذكر في سور هذه الفترة سوى هؤلاء الأنبياء الثلاثة بالإضافة إلى نوح.

(ج) من المحقق أن القرآن قصَّ قصص هؤلاء الأنبياء لحمل المنكرين على التفكير: «وإنه لتذكرة للمتقين»، «لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية»، «هذا نذير من النذر الأولى».

(د) حديث القرآن عن هؤلاء الأنبياء السابقين دليل آخر على أن النزاع بين كفار مكة ورسول الله ﷺ بدأ بعد وقت قصير من مبعثه. ذلك أن أول ذكر لشمود في القرآن جاء في سورة الشمس. وكلام القرآن الذي

يشير إلى الأمم التي عوقبت في مواقف مماثلة لذلك الذي كان فيه رسول الله ﷺ في مكة كان سلاحا في يد الرسول ﷺ ضد خصومه ووسيلة لإثبات أنه لم يكن وحيدا أمامهم، وأن الله تعالى، الذي أرسله، هو ذاته الذي أهلك أمم الأنبياء السابقين الذين تحدثت عنهم الآيات. ولأن محمدا ﷺ كان يستند إلى هذا التأييد الإلهي، فقد كان إزاء خصومه في مركز قوة. ولم تكن به من ثم حاجة إلى حماية عمه.

(١٠) أصحاب الأخدود

قال تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدَ وَمَشْهُودٍ (٣) قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتَ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)﴾

[البروج: ١ - ٩]

ليس في هذه الآيات ذكر لنبي لم تلق دعوته أذنا صاغية، ولا لقوم أهلكوا لأنهم رفضوا رسالة نبيهم. إنها حدث لم تحدد أشخاصه وركزت كل الانتباه فيه على منظر رهيب: أناس يلقيهم في النار أناس آخرون يرونهم وهم يحترقون، كل جريمتهم هي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد. ولا يقيم نص ابن إسحاق أية علاقة بين هذه الآيات ونزاع القبائل مع المسلمين، ولا بينها وبين اضطهاد المسلمين على أيدي قبائلهم. ومؤلفنا حين يتحدث عن هذه الآيات إنما يتحدث عنها في أول كتابه ويشرح أن ملكا يهوديا في الزمن الخالي اسمه ذو نواس غزا نجران، بجنوب الجزيرة العربية، وأنه خير أهلها، الذين كانوا نصارى، بين

اعتناق اليهودية والقتل فاختاروا القتل، فَخَدَّ لَهُمِ الْأَخْدُودَ، فحرق من حرق بالنار، وقتل بالسيف وَمَثَّلَ به حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفا(*) .

غير أنه يبدو لنا من غير المعقول أن تكون هذه الآيات منقطة الصلة بحدث وقع في مكة قبل نزولها بزمن قصير. وليس من المستحيل تصور أن تكون قبيلة من القبائل قد عذبت بعض أفرادها لمجرد أنهم آمنوا بالله. ومن المحتمل جدا أن تكون هذه القبيلة هي قبيلة بنى عبدالمطلب، وأن يكون الأمر بإحراق المسلمين أو بتعذيبهم بالنار قد صدر عن عبدالعزى بن عبدالمطلب وأن تكون هذه الواقعة هي مصدر تسميته بأبى لهب. ومن الممكن أن تكون خطورة هذه الواقعة، التى لا يشير إليها نص ابن إسحاق بكلمة، هي السبب الذى من أجله حكم القرآن على أبى لهب وعلى امرأته بالنار، وهو حكم لم يصدره القرآن قط على شخص غيرهما فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

دال - النتيجة

كان نزول سور القرآن الكريم فى الفترة التى تعيننا حدث الأحداث فى حياة رسول الله ﷺ وفى ظهور الإسلام وانتشاره. وكانت آيات القرآن المتتالية هي التى تخلق الأحداث وتقرر سير الأمور. ومنذ أن بدأت هذه الآيات تذاغ على الناس، بدأت عملية تحول عميق فى الأسس التى بنيت عليها حياة الأفراد والمجتمعات البشرية التى كانت تقيم فى مناطق مختلفة من شبه الجزيرة.

وآيات القرآن التى استشهدت بها تشير إلى ضخامة هذا التحول: الديانة القديمة، المتمثلة فى مكة وفى تقديس الكعبة وتقديس بعض

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٥.

الحجارة والأصنام والتمائيل، وطقوس الحج التي لم تكن تتصل بأية قاعدة من قواعد الحياة أو الأخلاق، ولا بأى نص دينى، والآلهة، وأكثرها من الإناث، التي كانوا يسهلون إليها، والخرافات بأنواعها، والحكايات البدائية التي كانت الأرواح أو الجن فيها تظهر فى أشكال مختلفة وتمارس سلطانا خفيا على بنى البشر، والاحتكام إلى الكهنة والكاهنات، الذين لهم فى معظم الأحيان أصحاب من الجن، لحل المشكلات المستعصية أو لفض المنازعات...

هذه الديانة - إن جازت تسميتها كذلك - حلت محلها ديانة أخرى ليس فيها إلا إله واحد، خلق الإنسان والكون، يعلم كل شىء ويحوز كل السلطات والقدرات، ولها كتاب ينشئ قوله صلة مباشرة بين الإله الواحد الأحد والإنسان. كتاب تحدد آياته وتوضح كل ما يقتضى توضيحه من شئون الحياة والموت، وقواعد للسلوك تتفق وقواعد الخير والشر التي يشعر بها كل إنسان يعيش فى مجتمع شعورا غريزيا، وحياة أخرى بعد الموت فيها ميزان لأعمال الإنسان بكل ما فيها من حسنات وسيئات، ويجازى فيها كل إنسان وفقا لنتيجة هذا الميزان بعذاب أبدى ليس فى مثل إيلامه عذاب إذا رجحت كفة السيئات كفة الحسنات، أو بسعادة أبدية ليس فى مثل إمتاعها سعادة إذا رجحت كفة الحسنات كفة السيئات.

إن نزول ما يناهز ١٢٠٠ آية جاء للجزيرة العربية بدين مختلف تماما عن دياناتها القديمة، رغم أنه كان يعترف بقدسية الكعبة، والأشهر الحرم، ويشعائر الحج، وجاء كذلك بتنظيم للمجتمع يستند ليس فقط إلى وشائج الدم، بل إلى وشائج الدين وينظام للقيم يعتمد اعتمادا كليا على مسئولية الإنسان.

دين ربط الإنسان بالله تعالى فأعطى الإنسان شعورا بأهميته فى الكون، كما بثّ، بتأكيد وجود حياة بعد الموت تأكيدا قويا، الأمل فى نفوس المعذبين فى الأرض، وبشر بعذاب النار أولئك الذين ظلموهم وأولئك الذين لم يكونوا يبالون بآلامهم وأوجاعهم. دين كان هدفه، وهذه عبارة يكثر القرآن من استخدامها، أن يخرج الناس من الظلمات إلى النور.

إن القرآن، الذى يشكل جوهر رسالة الرسول ﷺ، لم يكن كتابا عاديا. ولم يكن فيما عرفه العرب قبله شىء يشبهه. إنه لم يكن شعرا، كذلك لم يكن قول حكيم من الحكماء، ولا خطيب من الخطباء ولا سجع كاهن من الكهنة، ولا تهاويم كتهاويم السحرة.

كان كتابا واضح القول فى متناول الناس جميعا تشبّع، بالإضافة إلى طلاوته التى لا تبارى، بوقع موسيقى ييسر حفظه واستظهاره.

والمسلم الذى يتلوه فى صلاته أو خارجها يدخل فى اتصال مع ربه وينفذ فى الوقت ذاته إلى عوالم الآخرة الذى لم يكن لعرب مكة أو لغيرهم أدنى معرفة به. هذا العالم - أى يوم الحساب والجنة والنار - الذى يدعو القرآن الناس إلى الإيمان به وإلى جعله ماثلا أمامهم لا يغفلون عنه طرفة عين.

وما من شك فى أن أى صفحات هذا الكتاب، التى تقرب من المائة، التى أنزلت خلال الفترة الأولى كانت الشغل الشاغل لمكة والجزيرة العربية أثناء هذه الفترة. كانت كالموجة العاتية التى تجتاح الناس جميعا. وما من أحد كان باستطاعته أن يتجاهلها، لأن أحدا من الناس لم يكن بإمكانه أن يتجاهل مصيره الشخصى. كان على كل فرد أن يتخذ موقفا

إزاء هذا الكتاب والنبى الذى يدعو إلى الإيمان به. الإيمان أو عدم الإيمان، هذا هو السؤال الذى كان مطروحا على كل شخص بلغته آيات من القرآن.

وكانت المسألة، بالنسبة لكل رجل وكل امرأة، ذات أهمية قصوى، فقد كان عليهم أن يختاروا بين الله والقبيلة. وإذا اختار أحدهم الله فإنه كان يتعرض فى معظم الأحيان لغضب قبيلته ولاضطهادها. لكنه إذا لم يسلم كان يفقد فرص دخول الجنة ويتعرض، إذا كان يعتقد أن ما يقوله له القرآن صحيح، للحكم عليه يوم الحساب بالخلود فى نار جهنم.

والقرار الذى كان عليه أن يتخذه كان بالتالى قرارا نتائجه خطيرة، ولم يكن هناك سبيل للفرار من اتخاذه، وما كان يمكن تأجيل اتخاذه إلى وقت لاحق لأن الموت كان له بالمرصاد. ولم يكن فى الوسع الاعتماد فى اتخاذه على شخص أو أشخاص آخرين، فإن مهمة الاختيار ومسئولية كل فرد فى شأنه، طبقا للقرآن، مسئولية شخصية بحتة.

ومن هنا فإن ما كان يتزل من القرآن كان يخلق، فى كل مكان يصل إليه، حالة من الاضطراب الشديد. ولا بد أن سؤال اليوم - سؤال كل يوم - كان : «مع محمد أو ضده؟»، ولا بد أن هذا الأمر كان مطروحا للمناقشة فى البيوت، وفى السوق، وفى الزيارات بين الأصدقاء، وفى الاجتماعات التى كانت كل قبيلة تعقدتها لبحثه، وفى اجتماعات رؤسائها مع رؤساء القبائل الأخرى، وفى المحادثات التى كان الناس يتبادلونها مع الحجاج والتجار أو العملاء الوافدين من الخارج، وفى مجلس الحكومة.

ولابد أنهم طلبوا مشورة الحكماء والكهان والنصارى واليهود الذين كانوا يقيمون فى مكة وأولئك الذين كانوا يلقونهم خلال رحلاتهم للمدينة ولخير وللشام، لأغراض تجارتهم وأعمالهم.

ولابد أن البعض كانوا يرون استحالة أن يؤلف أمى مثل محمد كلاما رائعا كالقرآن وأنه كان يتعلمه من غيره.

ولابد أن آخرين كانوا يدافعون عن محمد ﷺ: إن أحدا لم يعرف عنه الكذب، وإذا كان غيره هو الذى يلقنه القرآن فمن هو، ولماذا لا يسفر عن وجهه بدلا من التحدث بلسان محمد؟.

ولابد أن مناقشات دارت أيضا بشأن القرآن ذاته، وأن بعض الناس كانوا يعجبون به وأن آخرين، لاسيما الشعراء، سواء كانت الهيئة الحاكمة تكافئهم أو لا تكافئهم على ذلك، كانوا يدعون أن به عيوباً.

ولابد أن الصداقات الخاصة، أو صداقات القبيلة، والحزازات، ومشاعر الحسد بين العشائر والقبائل، والمصالح، والمودة، والكراهية، والجهل، وسوء النية، والسذاجة، والخوف، والجرأة، والتحيز، والرغبة فى المحافظة على القديم، ورغبة التغيير، والأحلاف، والمركز الاجتماعى، والسن، والوضع، وكون الشخص رجلاً أو امرأة، حراً أو عبداً، مكيًا أو غير مكي، عربياً أو أعجمياً، غنياً أو فقيراً، أمياً أو عمن يعرفون القراءة..

لاريب أن كل هذه العوامل لعبت دوراً فى توجيه الآراء والمواقف. ولابد أن التفكير والمناقشة والاقتناع الشخصى أو تأثير الآخرين جعلت البعض يسلمون ويعملون على إدخال غيرهم فى الإسلام. وفى وقت معين، حين أخذت الظاهرة تتفاقم، لابد أن المحافظين من جميع القبائل

هاجوا وماجوا، وأن السخط على أقاربهم الذين خرجوا على دين آبائهم وأجدادهم تحول إلى قمع واضطهاد.

ولابد أنهم لم يروا من الدين الجديد سوى جانب الهدام، وأنهم تساءلوا: «إذا ألغى تعدد الآلهة وألغيت القبيلة فما الذى ينول إليه أمر مكة؟ ما الذى سيُنول إليه أمر العرب؟» وأنهم قالوا لبعضهم البعض: «إن الدين الجديد يتجاوز الحدود، وهو لا يقترح نظاما للحكم يمكن أن يحل محل النظام القائم، الذى استقر منذ آلاف السنين. إن إحلال الأخوة فى الدين محل الأخوة القبلية وهم لأنه يخالف طبيعة الأشياء. يجب أن تضرب أعداء المجتمع هؤلاء دون هوادة ولا رحمة، فالتسامح معهم معناه نهاية مكة، والكعبة، وقريش، والعرب، ووجودنا ذاته».

هذا، دون شك هو الأثر الذى أحدثه نزول الآيات الألف والمائتين الأولى من القرآن. والحاصل أن النص لا يقول عنه شيئا، أى شيء، وكل الهياج الذى هز نفوس الناس وضمائرهم فى مكة وفى غيرها، وكل المناقشات والمشاورات والاختلافات فى رأى التى انتهت إما إلى دخول بعض الناس فى الإسلام، وإما إلى مواقف عدائية لهذا الدين، وكل ردود فعل القبائل فيما يتعلق بإسلام بعض أفرادها، كل هذا زال وانمحي بجانب الواقعة الوحيدة الهامة التى عرفتها الفترة فى رأى مؤلف السيرة، أى الحوار الذى أكد أبوطالب لمحمد ﷺ خلاله أنه سيحميه!

لكن ما الذى آل إليه أمر محمد ﷺ فى نهاية الفترة التى نزلت فيها صفحات القرآن المائة الأولى؟.

لقد أصبح ﷺ، ما فى ذلك رب، أهم شخصية فى مكة، بل فى الجزيرة العربية كلها.

أصبح كذلك أولا بالقرآن: لقد كانت الصفحات المائة التي أنزلت في ثلاث السنوات الأولى من الدعوة، إذا قيست بكل ما قاله العرب أو نظموه أو ألفوه خلال تاريخهم كله، من الجلال بحيث أن أحدا من الناس ما كان يملك أن يقارن نفسه بمن نزلت عليه، لا فيما يتعلق بالبلاغة، ولا فيما يتعلق بالحكمة، ولا - إن جاز هذا القول - فيما يتعلق باكتشاف الحقائق المجهولة. وتفرق القرآن في هذه الأمور بصورة قوله تعالى:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا

صَادِقِينَ ﴿ (٢٤) [الطور: ٢٣ و ٢٤]

وهو تحدّ لم يقبله أحد.

وأصبح محمد ﷺ كذلك ثانيا بالآيات التي ذكرناها التي تطمئنه إلى أنه مشمول برعاية ربه. ولا بد أن هذه الآيات، حتى في أعين أعنى خصومه، خلعت عليه شموخا يفوق قامات البشر. والآيات الأولى التي تطلب منه ﷺ أن يذر ربه والمكذبين، والتي تأمره بأن يقول لهؤلاء بلهجة التحدي أن يتربصوا فإنه معهم من التربصين، وتلك التي يقول الله تعالى فيها لأعدائه إن كيدهم لن يجديهم شيئا وإنهم هم المكيدون، كانت تجعل قامة محمد ﷺ فوق قامات الكفار جميعا وتجعله يبدو، بالقياس إليهم، إنسانا ليس كمثله إنسان.

وأصبح كذلك أخيرا بالأشخاص الذين دخلوا في الإسلام والذين كانوا بكل تأكيد أكثر عددا بكثير مما ذكره النص، وبالتفاني الذي كانوا يظهرونه لرسوله.

فهل يعقل أن رجلا وأن رسولا له مثل هذه العظمة كان محميا من أبى طالب؟ هذا شيء يبدو مستحيلا تمام الاستحالة.

ويتضح مما تقدم أن الخبرين الأساسيين اللذين وردا فى النص عن هذه الفترة الأولى، أى الاستخفاء وحماية أبى طالب للرسول ﷺ، لا أساس لهما من الصحة. لكن هذا ليس عيب النص الوحيد، فالنص يحمل فى الواقع علامات واضحة لنية التزييف والاختلاق. والتزييف ناتج من حقيقة أن نص ابن إسحاق حين تحدث عن الاستخفاء إنما أراد، على الأرجح، تفادى التعرض لموقف بنى هاشم وبنى عبدالمطلب، أقارب الخليفة العباسى، حيال رسول الله ﷺ وحيال أفراد قبيلتهم المسلمين. ولا بد أن هذا الموقف، كما ذكرت فيما سبق، كان موقفا عدائيا صريحا، وهو أمر كان فى ذاته مما يتعين إخفاؤه.

على أنه كان هناك سبب آخر يستوجب إخفاء هذا الأمر، هو أن هذا الموقف كان يشكك فى صحة الأخبار المتعلقة بالأعاجيب والخوارق التى يقول النص إنها حدثت فى طفولة الرسول ﷺ وفى صباه، ويشكك أيضا فى صحة الإرهاصات والتنبؤات المتعلقة ببعثته. ذلك أن هذه الأعاجيب والإرهاصات لو كانت صحيحة لكان المفروض أن يكون أول من عرفها هم أفراد قبيلة رسول الله ﷺ ولكان المفروض أن هؤلاء الأقارب، الذين كانوا على علم بها، أول من يؤمن برسالته. فإذا كانوا لم يؤمنوا فمعنى ذلك أنه لم يكن هناك ثمة أعاجيب أو إرهاصات، وأن الحديث المتعلق بها محض اختلاق، وهى نتيجة تسمح مقولة الاستخفاء بتفادى استخلاصها.

وهناك شبهة أخرى للتزييف هى تلك التى تنتج عن كون النص لا يتعرض لأى من الأحداث (المناقشات الكبرى، وحالات الدخول فى

الإسلام، والاضطهاد)، التى أثارته الدعوة إلى دين الله، ولا لنزول سور القرآن. والسر فى ذلك، على الأرجح، هو رغبة صاحب السيرة فى جعل حديث أبى طالب مع رسول الله ﷺ يبدو الحدث الرئيسى للفترة، ولاختلاق صورة لأبى طالب تجعل منه حاميا للرسول.

وشبهة التزييف فى قائمة من أسلموا ناتجة من حقيقة أن هذه القائمة معروضة على أنها كاملة مع أنها جزئية إلى حد كبير. والسبب الذى يكمن وراء هذا التخفيض فى عدد المسلمين، فى رأى، سبب مزدوج. فقد أراد مؤلف السيرة أولا إخفاء الدور الذى قام به المسلمون فى حماية الرسول عليه الصلاة والسلام لكى يمكن إبراز بنى عبدالمطلب وبنى هاشم فى مرحلة لاحقة، خلال الفترة الثالثة، وراء أبى طالب، على أنهم الحماة الوحيدون لرسول الله ﷺ. كذلك - وهذا افتراض أطرحه بصورة مؤقتة - فإن مؤلف السيرة متحيز لأهل المدينة ضد المكين عموما تحيزا جعله يظهر هؤلاء فى مجموعهم بمظهر من لم يلبوا نداء الإسلام إلا قليلا، بخلاف أهل المدينة.

وسنرى فيما بعد ما إذا كان فى هذه الدراسة عناصر أخرى تؤيد أو تنفى هذا الافتراض.

أما المآخذ التى يمكن إبدائها على تجاوزات النص فيما يتعلق بالقرآن فهى أربعة مآخذ:

١- فالنص لا يورد الآيات التى هى من أم الكتاب والتى تشكل فى آن واحد جوهر رسالة الرسول والسبب الرئيسى لعظمته ﷺ. والنص إذ يجرد الرسول من القرآن إنما يزيّف صورته صلوات الله وسلامه عليه ويخفض حجمه إلى حجم مجرد رجل من بنى عبدالمطلب وبنى هاشم

تشمله فيلتاه بحمايتهما بصفته هذه لا باعتباره نبيا لله سبحانه وتعالى
خرج على قومه وعلى عقائدهم.

٢- والنص إذ لا يورد من القرآن إلا شذرات لا صلة بينها وبين
الواقع الحى ويهمل ذكر الضجة التى هزت مكة ومناطق الجزيرة الأخرى
بنزول السور، الواحدة إثر الأخرى، زيف أيضا تاريخ بداية الإسلام.
وجعل النص محادثة أبى طالب المزعومة مع رسول الله ﷺ تلالا
وتشغل الحيز الذى كان المفروض أن يشغله القرآن الكريم والأحداث التى
ترتبت على نزوله.

٣- والنص حين يستخدم آية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، وآية:
﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾، وآية: ﴿فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ﴾ من سورتى الشعراء والحجر، لتحديد نهاية فترة الاستخفاء،
التي لم توجد إلا فى خيال مؤلفه، يتلاعب بالقرآن ويسخره لخدمة قضية
سيئة.

٤- وهناك، كما سيتضح من فحص الآيات القرآنية التى ساقها النص
فى حديث الفترة الثالثة، عشر مجموعات آيات نزلت، وفقا للترتيب
الزمنى لسور القرآن الذى اعتمده بلاشيز، فى الفترة الأولى. وقد نُقلت
مناسبات هذه الآيات من فترتها إلى فترة لاحقة، فيما يبدو لى، لتأييد
الدعوى التى مؤداها أن النزاع بين محمد ﷺ وبين قريش لم ينشأ خلال
السنوات الأولى من البعثة، وإنما فى الفترة الثالثة التى كان رسول الله
ﷺ يتمتع فيها بحماية أبى طالب ووراءه بنو عبدالمطلب وبنو هاشم،
وهى دعوى باطلة كما رأينا. وهذه النقلة تشكّل، بدورها، تلاعبا
بالتزويل القرآنى واستخداما غير أمين لآياته.

الفصل الثالث

الفترتان الثانية والثالثة

الفرع الأول - الفترة الثانية

ألف - النص (١)

ثم دخل الناس فى الإسلام أرسالا من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به. (٢)

فلما بادر رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خيلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون. (٣)

باء - التحليل

النص يدلى بهذه الأخبار تحت عنوان «مباداة رسول الله ﷺ قومه، وما كان منهم». وقد جاء ذكرها بعد عبارة يقول فيها إنه كان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه، ثم قال الله تعالى له: ﴿فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين﴾. وتشير هذه الأخبار الملحوظات الآتية:

١ - النقطة التى تبدأ فيها هذه الفترة هى إذن، فيما يقول النص، الأمر الذى تلقاه الرسول عليه الصلاة والسلام بالآيتين ٩٤ و ٨٩ من سورة الحجر، والآيتين ٢١٤ و ٢١٥ من سورة الشعراء. وقد أوضحت

(١) ، (٢) ، (٣) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٢ - ٢٦٤.

بصدد تحليل هذه الآيات أنها لا تأتي بتكليف جديد وإنما تكرر ما سبق أن ذكره القرآن عدة مرات، وأن آيات في معناها نزلت بعدها.

٢- النص حين تحدث عن «الناس الذين دخلوا في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء» لا يوضح ما إذا كان يعنى الثلاثة والخمسين الذين ذكر أسماءهم في نهاية الفترة الأولى أو أشخاصا آخرين. وكلمة «ثم» في بداية الجملة، ترجح الافتراض الثانى. لكن، إذا كان الأمر كذلك، من كان هؤلاء المسلمون الجدد، وكم كان عددهم، وفي أية ظروف غيروا ديانتهم الأصلية، وماذا كانت ردود الفعل التى أحدثها دخولهم فى الإسلام؟ النص لا يقول شيئا عن هذه الأمور.

٣- النص لا يوضح المقصود بعبارة : «حتى ذكر آلهتهم وعابها». هل المقصود هو عيوب ذكرها القرآن ورددها الرسول ﷺ، أو عيوب ذكرها الرسول خارج القرآن:

ونظرا إلى أن محمدا ﷺ لم يكن يملك، فى مسائل الدين، أن يذهب إلى أبعد مما يقوله له القرآن، فالأرجح أن الإشارة فى العبارة المذكورة إنما كانت إلى القرآن.

والحاصل هو أن القرآن سبق له، فى الآيتين ١٩ و ٢٠ من سورة النجم، أن عاب آلهة العرب الكبرى، أى اللات والعزى ومناة الثالثة.

ومن جهة أخرى، ألا يُعتبر تأكيد أنه لا إله إلا الله الواحد، فى حد ذاته، عيبا لآلهة قريش والعرب؟

أخيرا، هل كان لجميع السور التى نزلت خلال الفترة الأولى من غاية غير تغيير الديانة القائمة بكل آلهتها واستبدال الإسلام بها؟ لقد كان عيب الآلهة الذى يتحدث عنه النص إذن شيئا تم الإقدام عليه بالفعل، صراحة وضمنا، منذ بداية البعثة.

٤- ولأن النص لم يذكر ما ذكره الرسول ﷺ في حق آلهة قومه، فإنه - أى النص - لم يذكر ماذا كانت ردود قريش على نقده لآلهتهم.

٥- وكما أن النص لم يذكر بنى عبدالمطلب وبنى هاشم بين من وجه إليهم الرسول ﷺ رسالته في حديثه عن الفترة الأولى، فإنه لا يوضح ما إذا كانت كلمة «قومه» التى وردت فى هذه الجملة تنطبق أو لا تنطبق على هاتين القبيلتين. أى - بعبارة أخرى - ما إذا كان بين أفراد قبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، هم أيضا، أغلبية خالفته وعادته، وأقلية عصمها الله بالإسلام.

ومن هذا يتبين أننا نجهل، حتى نهاية هذه الفترة الثانية، ماذا كان موقف أقرب الناس إلى الرسول ﷺ من محمد ومن دينه.

٦- النص لا يعطى أية فكرة عن المدة، بالشهور أو بالسنوات، التى استغرقتها هذه المرحلة من مراحل البعثة، ولا عن الأحداث التى دارت فيها، ولا عن الأشخاص أو العشائر أو القبائل التى اتصل بها الرسول ﷺ والمسلمون أثناءها، ولا عمن رفضوا الإسلام وعمن آمنوا به.

٧- لم يسرد النص عن هذه الفترة أية آيات نزلت من القرآن ولا أى شعر قيل خلالها.

٨- لم يتحدث النص عن هذه الفترة المفروض أن الإسلام خرج فيها من دائرة السرية، وأصبح يُدعى إليه بلا عائق، ويصل إلى جمهور أعرض لا مانع يمنعه عن الاستجابة لدعوة الرسول ﷺ لأن ذوى الأمر والنهى كانوا يتسامحون فى شأنه، ويَجذب إليه نفرا كبيرا نسبيا، إلا فى جمل قليلة. وعدم التناسب بين قصر النص وأهمية الحدث الذى يصفه ملفت للنظر.

جيم-النتيجة

المعلومات التي يسورها النص عن هذه الفترة توحى بأنها لا تختلف في كثير أو قليل عن الفترة التي سبقتها. ومعنى هذا هو أنه لم تكن هناك، في الواقع، فترة ثانية.

الفرع الثانى. الفترة الثالثة

تبدأ هذه الفترة فى تاريخ غير محدد، إذ أن النص لا يشير إلى الوقت الذى انتهت فيه الفترة الثانية، وهى تنتهى بموت أبى طالب، الذى يفهم من النص أنه حدث قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنوات. وإذا اعتبرنا أنه لم تكن هناك فترة ثانية، فإن الفترة الثالثة تكون قد دامت سبع سنوات، علما بأن الفترة المكية كلها امتدت، طبقا للنص، على ثلاث عشرة سنة.

ألف. النص (*)

حديث هذه الفترة الثالثة فى النص هو أطول حديث ورد فيه عن أية فترة من فترات الحقبة المكية الخمس. ويتخلل الحديث أشعار واستشهادات قرآنية عديدة. وسأتناول فى هذا الفصل ما ورد عن الفترة المذكورة من حديث وصفى. أما الشعروالاستشهادات القرآنية، فسأتعرض لها فى الفصل التالى.

ويتكون الحديث الوصفى - شأن كل أحاديث هذه السيرة - من مجموعة مختلطة من الأخبار والملحوظات القصيرة. غير أن فيه موضوعين عالجهما المؤلف بقدر كبير نسبيا من التفصيل، نظرا لأنهما يتعلقان بعدد كبير من الناس، هما الهجرة إلى الحبشة والمقاطعة التى فرضتها قريش على بنى عبدالمطلب وبنى هاشم.

وفيما يلى موجز لما جاء فى النص (إلا ما يتعلق بدخول عمر فى الإسلام، الذى سيعالج على حدة).

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٤ - ٤١٨.

١- أبو طالب، وقريش، ومحمد، والمسلمون، والحجاج

- حَدِّبْ (١) أبو طالب على محمد ﷺ، ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله على أمر الله، مظهرًا لأمره، لا يردّه عنه شيء. فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يرضيهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعَيَّبَ آلهتهم، ورأوا أن عمه قد حَدِّبَ عليه، وقام دونه، فلم يُسلمه لهم، مشى ستة رجال من أشرف قريش إلى أبي طالب، منهم أبوسفیان ابن حرب (أبو معاوية أول الخلفاء الأمويين)، والوليد بن المغيرة (أبو خالد بن الوليد الذي فتح العراق في خلافة أبي بكر وأسر جد ابن إسحاق)، والعاص ابن وائل (أبو عمرو بن العاص، الذراع الأيمن لمعاوية)، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفّه عنّا، وإما أن تخلّى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافة، فنكفيكّه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً، وردّهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه (٢).

ومضى رسولُ الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه. ثم إنهم مشّوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا، وإنا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفّه عنّا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحدُ الفريقين (٣).

(١) عطف عليه ورقاً له.

(٢) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

وعظم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم، ولم يَظب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه، فبعث إلى رسول الله ﷺ، فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، فأبقى على وعلى نفسك، ولا تُحمِّلني من الأمر مالا أُطيق: فظنَّ رسول الله ﷺ أن عمه خاذله ومُسلمه، وأنه قد ضَعُف عن نصرته والقيام معه، فقال: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته». ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكى ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: «اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً»^(١).

وفي محاولة ثالثة، مشيت قريش إلى أبي طالب بعمارة ابن الوليد بن المغيرة، فقالوا له: «يا أبا طالب، هذا عمارة ابن الوليد، أنهد (أشد وأقوى) فتى في قريش وأجمله، فخذ فلك عقله ونصره، واتخذ ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل»، فقال: «والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبداً». وحقب الأمر، (أى زاد واشتد)، وحميت الحرب، وتنابد القوم، وبأدى بعضهم بعضاً^(٢).

ثم إن قريشا تدامروا بينهم على من في القبائل من أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا معه، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ومنع الله رسوله ﷺ منهم بغمه أبي طالب.

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

قام أبو طالب، حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون فى بنى هاشم
وبنى المطلب، فدعاهم إلى ما هو عليه، من منع رسول الله ﷺ،
والقيام دونه، فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه،
إلا ما كان من أبى لهب، عدو الله الملعون^(١).

- ولما حضر موسم الحج، تشاورت قريش فى شأن ما ينبغى قوله إلى
الحجاج عن محمد ﷺ. أيقولون كاهن؟ أيقولون مجنون؟ أيقولون
شاعر؟ واستقر رأيهم بعد المناقشة على أن يقولوا للحجاج إنه ساحر،
جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء
وزوجته، وبين المرء وعشيرته^(٢).

وصدّرت العربُ من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، فانتشر ذكره
فى بلاد العرب كلها^(٣).

- فلما انتشر أمرُ رسول الله ﷺ فى العرب، وبلغ البلدان، ذكر
بالمدينة، ولم يكن حىّ من العرب أعلم بأمر رسول الله ﷺ حين ذكر،
وقبل أن يُذكر، من هذا الحى من الأوس والخزرج، وذلك لما كانوا
يسمعون من أخبار اليهود، وكانوا لهم حلفاء، ومعهم فى بلادهم^(٤).

- وأغرت قريش برسول الله ﷺ سفهاءهم، فكذبوه وآذوه، ورموه
بالشعر والسحر والكهانة والجنون، ورسول الله ﷺ مُظهر لأمر الله لا

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٢٧٢.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص ٢٨٢.

يَسْتَخْفِي بِهِ، مُبَادٍ لَهُمْ بِمَا يَكْرَهُونَ مِنْ عَيْبِ دِينِهِمْ، وَاعْتَزَالِ أَوْثَانِهِمْ،
وفراقه إِيَّاهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ. (١)

- اجتمع أشرف قريش يوماً في الْحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ،
فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سَفَهَ أَحْلَامَنَا،
وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، فبينما هم في
ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ مَرَّ
بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ الْقَوْلِ، ثُمَّ مَضَى فَلَمَّا مَرَّ
بِهِمُ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، ثُمَّ مَرَّ بِهِمُ الثَّالِثَةَ فغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فوقف، ثُمَّ
قال: أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ
بِالذَّبْحِ. فَأَخَذْتُ الْقَوْمَ كُلَّهُمْ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا كَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ
طَائِرٌ وَقَعَ، حَتَّى إِنْ أَشَدَّهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ لِيَهْدِيَهُ وَيُسَكِّنَهُ بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ
الْقَوْلِ (٢).

- حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْر، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:
ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ، وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا بَادَاكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ
تَرَكْتُمُوهُ. فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا إليه
وِثْبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَأَحَاطُوا بِهِ، يَقُولُونَ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا، لَمَّا
كَانَ يَقُولُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ، فيقول رسول الله ﷺ: نَعَمْ: أَنَا
الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ. فَأَخَذَ أَحَدَهُمْ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
دُونَهُ، وَهُوَ يَبْكِي وَيَقُولُ: «أَتَقْتُلُونِ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ؟» ثُمَّ
انصرفوا عنه. وَرَجَعَ أَبُو بَكْرٍ يَوْمَئِذٍ وَقَدْ شَقُوا فَرَّقَ رَأْسَهُ، نَمًّا جَبَاؤُهُ
بِلَحِيَّتِهِ وَكَانَ رَجُلًا كَثِيرَ الشَّعْرِ (٣).

(١)، (٢) السيرة، القسم الأول، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٨٩ - ٢٩٢.

- مر أبوجهل برسول الله ﷺ عند الصفا فأذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ. ثم انصرف أبوجهل عنه فعمد إلى مجلس القوم من قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبدالمطلب أن أقبل متوشحا قوسه، راجعا من قنص له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة. وعلم حمزة بما حدث فاحتمله الغضب فخرج يسعى معدا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجّه شجة منكرا، ثم قال: «أَتَشْتِمُهُ وَأَنَا عَلَى دِينِهِ أَقُولُ مَا يَقُولُ؟ فَرُدَّ ذَلِكَ عَلَى إِنْ اسْتَطَعْتَ». فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: «دعوا أبا عُمارة، فَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ سَبَّيْتُ ابْنَ أَخِيهِ سَبًّا قَبِيحًا». وتمّ حمزة رضى الله عنه على إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله. فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّز وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه (١).

- وجعل الإسلام يَفْشو بمكة في قبائل قريش، في الرجال والنساء، وقريش تَحْبِس من قَدَرَتْ على حَبْسِهِ، وَتَفْتِن من استطاعت فتنته من المسلمين (٢).

- اجتمع نفر من رؤساء قريش بعد غروب الشمس ذات يوم عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٨٩ - ٢٩٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

وخاصموه حتى تُعذِّروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلِّموك، فأتهم، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدء، وكان عليهم حريصا يحب رشدهم، ويعزُّ عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفَّهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جثته فيما بيننا وبينك. فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِيًّا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رِيًّا - فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطبِّ لك حتى نُبرِّئك منه، أو نُعذِّرَ فيك، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلبُ أموالكم، ولا الشرفَ فيكم، ولا الملكَ عليكم، ولكنَّ الله بعثنى اليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحتُ لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به، فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم (*).

وهنا أخذوا يطلبون من الرسول ﷺ طلبات مستحيلة، فطلبوا منه أن يسأل ربه أن يسيرَ عنهم الجبال التي ضيقت عليهم، وأن ييسطَ لهم بلادهم، وأن يفجر لهم فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وأن يبعثَ نهم من مضى من آبائهم، وأن يكون فيما يبعث لهم منهم قُصَى بن كلاب

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

ليسألوه عما يقول: أحق هو أم باطل. وطلبوا منه كذلك أن يسأل ربه أن يبعث معه ملكا وأن يجعل له جنانا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيه بها عن القيام بالأسواق والتماس المعاش. وتحدوه أن يسقط السماء عليه كسفا، وادعوا أنه قد بلغهم أنه إنما يعلمه رجل باليمامة يقال له: الرحمن. وقال قائلهم: «نحن نعبد الملائكة، وهى بنات الله». وقال قائلهم: «لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا» (١).

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ، قام عنهم، وقام معه عبد الله ابن أبي أمية بن المغيرة وهو ابن عمته، فهو لعاتكة بنت عبدالمطلب، فقال له: «فوالله لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيتها، ثم تأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله، لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك» (٢).

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ، قال أبوجهل: «يا معشر قريش إني أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حملة، فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم». قالوا: «والله لا نسلمك لشيء أبدا، فامض لما تريد. فلما أصبح أبوجهل، أخذ حجرا كما وصف، ثم جلس لرسول الله ينتظره. وغدا رسول الله كما كان يغدو، وقام يصلى وقد غدت قريش فجلسوا فى أنديتهم ينتظرون ما أبوجهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبوجهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه مرعوبا قد يئست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لى دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته (عنقه) ولا أنيابه لفحل قط، فهم بى أن يأكلنى» (٣).

(١)، (٢)، (٣) السيرة، القسم الأول، ص ٢٩٧ - ٢٩٩.

- اجتمع يوما أصحاب رسول الله ﷺ ، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قطُّ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمْ؟ فقال عبدالله بن مسعود: أنا؟، قالوا: «إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه» قال: «دَعُونِي فَإِنَّ اللَّهَ سَيَمْنَعُنِي»، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضُّحَى، وقريش في أُنْدَيْتِهَا، حتى قام عند المقام ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم» رافعا بها صوته «الرحمن عَلم القرآن» ثم استقبلها يقرؤها. فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: «هذا الذي خشينا عليك»، فقال: «ما كان أعداءُ الله أهونَ علىّ منهم الآن» (١).

- خرج أبوسفیان وأبوجهل والأخنس بن شريق ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلى من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا. وتكرر ذلك ثلاث ليال. وذهب الأخنس إلى أبي جهل وسأله عن رأيه فيما سمع من محمد فقال: ماذا سمعتُ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الرُّكْب، وكُنَّا كَفَرَسَى رَهَان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى نُدْرِكُ مثل هذه، والله لا نُؤْمِنُ به أبدا ولا نصدقه. (٢)

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٣١٥ - ٣٢٠.

- ثم إنهم عَدَوْا عَلَى مَنْ أَسْلَمَ، وَاتَّبَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَوُثِّبَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَجَعَلُوا يَحْبِسُونَهُمْ وَيُعَذِّبُونَهُمْ بِالضَرْبِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ، وَبِرَمَضَاءِ مَكَّةَ إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ، مَنْ اسْتَضَعَفُوا مِنْهُمْ، يَفْتِنُونَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُفْتِنُ مِنْ شِدَّةِ الْبَلَاءِ الَّذِي يُصِيبُهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْلُبُ لَهُمْ، وَيَعْصِمُهُ اللَّهُ مِنْهُمْ. وَكَانَ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ لِبَعْضِ بَنِي جُمَحَ، كَانَ مُسْلِمًا، وَكَانَ أُمِيَّةُ بْنُ خَلْفٍ مِنْ بَنِي جُمَحَ يُخْرِجُهُ إِذَا حَمَيْتِ الظَّهِيرَةُ، فَيَطْرَحُهُ عَلَى ظَهْرِهِ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِالصَّخْرَةِ الْعَظِيمَةِ فَيَتَوَضَّعُ عَلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: «لَا وَاللَّهِ لَا تَزَالُ هَكَذَا حَتَّى تَمُوتَ، أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ وَتَعْبُدَ اللَّاتَ وَالْعِزَّى»، فَيَقُولُ وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْبَلَاءِ: «أَحَدٌ أَحَدٌ».

وَمَرَّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَوْمًا وَهُمْ يَصْنَعُونَ ذَلِكَ بِهِ وَحَاوِلَ، دُونَ جَدْوَى، أَنْ يَتَدَخَلَ لِمُصَالِحِهِ، لَكِنْ أُمِيَّةُ بْنُ خَلْفٍ قَبْلَ أَنْ يَسْتَبْدِلَهُ بِغَلَامٍ لِأَبِي بَكْرٍ عَلَى دِينِهِ (١). وَقَدْ اشْتَرَى أَبُو بَكْرٍ بِلَالًا ثُمَّ أَعْتَقَ سِتَّةَ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ مِنْهُمْ وَاحِدَةً كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُعَذِّبُهَا لِتَرْكِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ يَوْمئِذٍ مُشْرِكٌ (٢).

- وَكَانَتْ بَنُو مَخْزُومٍ يَخْرُجُونَ بِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، وَبِأَيِّهِ وَأُمِّهِ، وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتِ إِسْلَامٍ، إِذَا حَمَيْتِ الظَّهِيرَةُ، يُعَذِّبُونَهُمْ بِرَمَضَاءِ مَكَّةَ، فَأَمَّا أُمُّهُ فَقَتَلُوهَا وَهِيَ تَأْبَى إِلَّا الْإِسْلَامَ. (٣)

- وَكَانَ أَبُو جَهْلٍ إِذَا سَمِعَ بِالرَّجُلِ قَدْ أَسْلَمَ، لَهُ شَرَفٌ وَمَنْعَةٌ، أَنَّهُ وَأَخْزَاهُ، وَقَالَ: «لَنُسَفِّهَنَّ حِلْمَكَ، وَلَنُفِيلَنَّ رَأْيَكَ» (٤) وَلَنَضَعَنَّ شَرَفَكَ، وَإِذَا كَانَ تَاجِرًا قَالَ: «وَاللَّهِ لَنُكْسِدَنَّ تِجَارَتَكَ، وَلَنُهْلِكَنَّ مَالَكَ»، وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا ضَرَبَهُ وَأَغْرَى بِهِ. (٥)

(١) ، (٢) ، (٣) السيرة، القسم الأول ، ص ٣١٥ - ٣٢٠.

(٤) لنفيلن رأيك: أي لنقبحنه ونخطئنه

(٥) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ ..

- ومشى رجال من بنى مَخْزُوم إلى هشام بن الوليد، حين أسلم أخوه الوليدُ بن الوليد بن المغيرة، وكانوا قد أجمعوا على أن يأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلموا، فقالوا له: «إنا قد أردنا أن نُعَاتِب هؤلاء الفُتية على هذا الدين الذى أحدثوا» قال: «هذا، فعليكم به، فعاتبوه وإياكم ونفسه، احذروا على نفسه، فأقسم الله لئن قتلتموه لأقتلنَّ أشرفكم رجلاً». فتركوه (١).

٢- الهجرة إلى الحبشة

لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد (٢).

وحدثت نتيجة لذلك هجرة كبيرة بين مسلمي مكة. ويذكر النص أسماء أصحاب الرسول ﷺ الذين اشتركوا في هذه الهجرة وأسماء عشائرتهم. وكان عددهم ثلاثة وثمانين ما بين رجال ونساء.

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمّنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، اتّمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جَلْدَيْن إلى النجاشي فيردّهم عليهم، ليفتنوهم في دينهم، ويُخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبدالله بن ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل (٣).

ووصل هذان الرجلان إلى الحبشة محمّلين بهدايا ثمينة للنجاشي ولبطارفته ودفعاً إلى كل بطريق هديته وقالوا له: إنه قد ضوّى (لجأ) إلى

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢١.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٣٣٣.

بَلَدَ الْمَلِكِ مَنَّا غُلْمَانٌ سَفَهَاءٌ ، فَارْقُوا دِينَ قَوْمِهِمْ ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي دِينِكُمْ ، وَجَاءُوا بِدِينٍ مُّبْتَدِعٍ ، لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتُمْ ، وَقَدْ بَعَثْنَا إِلَى الْمَلِكِ فِيهِمْ أَشْرَافُ قَوْمِهِمْ لِيَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ، فَإِذَا كَلِمَتَا الْمَلِكِ فِيهِمْ ، فَأَشِيرُوا عَلَيْهِ بِأَنْ يُسَلِّمَهُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَكَلِّمَهُمْ . فَقَالُوا لَهُمَا : نَعَمْ . ثُمَّ إِنَّهُمَا قَدَمَا هَدَايَاهُمَا إِلَى النِّجَاشِيِّ فَقَبَّلَهَا مِنْهُمَا ، وَالتَّمَسَا مِنْهُ بِاسْمِ أَشْرَافِ قَوْمِهِمَا وَعَشَائِرِهِمْ أَنْ يَرُدَّهُمْ إِلَيْهِمْ ، وَأَيَّدَ الْبَطَارِقَةُ هَذَا الطَّلِبَ ، لَكِنِ النَّجَاشِيُّ كَانَ لَهُ رَأْيٌ آخَرٌ ، وَلَمْ يَرِدْ أَنْ يَتَّخِذَ قَرَارًا فِيمَنْ نَزَلُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَدْعُوهُمْ فَيَسْأَلُهُمْ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُبْعُوثَانِ فِي أَمْرِهِمْ (*) .

وَلَمَّا قَدِمَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى النَّجَاشِيِّ ، دَعَا أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ . وَسَأَلَ النَّجَاشِيُّ الْمُسْلِمِينَ : مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي قَدْ فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ ، وَلَمْ تَدْخُلُوا بِهِ فِي دِينِي ، فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنَسِيءُ الْجَوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مَنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعِفَاقَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحَسَنِ الْجَوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، لَا نَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ ، وَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ مَضَى يَقُولُ : فَصِدَّقْنَاهُ ، وَاتَّبِعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللَّهِ . . . فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا ، فَعَذَّبُونَا ، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا ، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

تعالى ، وأن نستحلُّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورَجَوْنَا ألا نُظلم عندك أيها الملك ، فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشي : فاقرأه عليّ . فقرأ عليه صدرا من : «كهيعص» فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته (ابتلَّت) وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما . غير أن عمرو بن العاص لم يرض بالهزيمة ، فغدا على النجاشي من الغد فقال له : أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما ، فارسل إليهم فسلمهم عما يقولون فيه فأرسل إليهم ليسألهم عنه . فلما دخلوا عليه قال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نينا عليه السلام ، يقول : هو عبدُ الله ورسولُه وروحه وكَلِمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول . فتناخرت البطارقة حول النجاشي ، أما النجاشي ذاته فقد رضى بهذا الشرح وقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم الأمنون ، من سبَّكم غَرِمَ ، ثم قال : من سبَّكم غَرِمَ ، ثم قال : من سبَّكم غَرِمَ ، ما أحبُّ أن لي دبرا (جبلا) من ذهب ، وأنى أذيت رجلا منكم ، وردَّ الهدايا إلى مبعوثي قريش ، فخرجنا من عنده مقبوحين مردودا عليهما ما جاءا به ^(١) .

- ونازع رجل من الحبشة النجاشي في ملكه ونشبت معركة بين جيشه وجيش النجاشي . ودعا المسلمون الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه . وظفر النجاشي وفرح المسلمون بنصره على عدوه ^(٢) .

(١) ، (٢) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٣٦ - ٣٣٨ .

- ولم يكن لأبى النجاشى ولد غيره. وكان للنجاشى عم له من صلبه اثنا عشر ولدا. ورأت الحبشة أنهم إذا قتلوا أبا النجاشى وملكوا أخاه فتوارث أبناؤه ملكه بعده، بقيت الحبشة بعده دهرا، فغَدَّوا على أبى النجاشى فقتلوه، وملَّكوا أخاه، فمكثوا على ذلك حينا، ونشأ النجاشى مع عمِّه، وكان ليبيّا حازما من الرجال، فغلب على أمر عمِّه، ونزل منه بكل منزلة. فلما رأت الحبشة مكانه منه قالت بينها: والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمِّه، وإنا لتتخوَّف أن يُملِّكهُ علينا، وإن ملكه علينا ليقتلنا أجمعين، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه. فمشوا إلى عمه فقالوا: إما أن تقتل هذا الفتى، وإما أن تخرجه من بين أظهرنا. ورفض العم أن يقتل ابن أخيه، فخرجوا به إلى السوق، فباعوه من رجل من التجار بست مائة درهم، فقفه فى سفينة فانطلق به، حتى إذا كان العشى من ذلك اليوم، هاجت سحابة من سحاب الخريف فخرج عمُّه يَسْتَمطر تحتها، فأصابته صاعقة فقتلته. ففرغت الحبشة إلى ولده، فإذا هو محمَّق، ليس فى ولده خير.

وبعد أن تداولوا فى الأمر وجدوا أن ابن النجاشى القديم هو خير من تؤهله صفاته للملك. فخرجوا فى طلبه ثم جاءوا به فعقدوا عليه التاج، وأقعدوه على سرير الملك، فملَّكوه. وجاءهم التاجر الذى كانوا باعوه منه، فقال: إما أن تعطونى مالى، وإما أن أكلمه فى ذلك. قالوا: لا نعطيك شيئا. فجاء النجاشى وشكا إليه أن الحبشة منعه دراهمه، فقال لهم النجاشى: لَتُعْطَنَّهُ دراهمه، أو ليضعنَّ غلامه يده فى يده، فليذهبنَّ به حيث شاء.

قالوا: بل نُعطيه دراهمه. فلذلك يقول: ما أخذ الله مني رشوة حين ردّ عليّ ملكي، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيع الناس فيه. ولما مات النجاشي كان يرى على قبره نور (١).

- اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي: إنك فارقت ديتنا، وخرجوا عليه. فأرسل إلى جعفر وأصحابه، فهبأ لهم سفنا، وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هُزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شتم، وإن ظفرت فاثبتوا. ثم عمد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة، وصرخوا له، فقال: فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديتنا، ورعمت أن عيسى عبدٌ، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول: هو ابن الله، فقال النجاشي، ووضع يده على صدره على قبائه: هو يشهد أن عيسى بن مريم، ولم يزد على هذا شيئا، وإنما يعنى ما كتبت، فرفضوا وانصرفوا عنه (٢). فبلغ ذلك النبي ﷺ، فلما مات النجاشي صلى عليه واستغفر له (٣).

٣. المقاطعة

لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة ابن عبدالمطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفسر في القبائل، اجتمعوا واتمروا بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطلب، على ألا ينكحوا إليهم ولا

(١)، (٢)، (٣) السيرة، القسم الأول، ص ٣٣٩ - ٣٤١.

يُنكحهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم. ويقول ابن إسحاق إن كاتب هذه الصحيفة كان منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف، لكن ابن هشام يقول إن كاتبها هو النضر بن الحارث. فدعا عليه رسول الله ﷺ، فسلّ بعض أصابعه (١). فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو عبدالمطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شيعه واجتمعوا إليه، وخرج من بنى هاشم أبو لهب، عبدالعزى بن عبدالمطلب، إلى قريش، فظاهرهم (٢). ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك يدعرو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، مبادياً بأمر الله لا يتقي فيه أحداً من الناس.

فجعلت قريش حين منعه الله منها، وقام عمه وقومه من بنى هاشم، وبنى المطلب دونه، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به، يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه (٣).

وكان هشام بن عمرو، من أصهار بنى هاشم، وكان ذا شرف في قومه، يأتى بالبعير قد أوقره طعاماً، حتى إذا أقبل به قم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه، فيدخل الشعب عليهم، ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية، وكانت أمه عاتكة بنت عبدالمطلب، ثم إلى المطعم بن عدي، ثم إلى البخترى بن هشام، ثم إلى زمعة بن الأسود بن المطلب وأقنعهم بالعمل على نقض الصحيفة. وأقبل زهير بن أمية على الناس فقال: يا أهل مكة، أناكل الطعام وتلبس الثياب، وبنو هاشم هلكنى لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة

(١)، (٢) السيرة، القسم الأول، ص ٣٥٠ - ٣٥١.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٥٤.

الظلمة . ولما اعترض أبوجهل ، وكان فى ناحية المسجد ، على شق الصحيفة ، كذبه الأربعة الآخرون ، وأبو طالب جالس فى ناحية المسجد ، فقام المُطعم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد الأرضة قد أكلتها ، إلا «باسمك اللهم»^(١) .

٤- أخبار أخرى

- جعلت قريش حين منع اللهُ رسوله ﷺ منهم ، يحذرون الناس ومن قدم عليهم من العرب ويقولون إنه فرق جماعتهم وشتت أمرهم ، وإنما قوله كالسحر ، ويشيرون عليهم بألا يكلموه ولا يسمعوا منه شيئاً^(٢) .

- تلقى الطفيل بن عمرو الدوسى ، وكان رجلاً شريفاً ، شاعراً لبيباً ، هذه النصيحة حين قدم مكة . ومازالوا به حتى أجمع ألا يسمع من محمد ﷺ شيئاً ولا يكلمه ، وغدا إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة . واقترب منه وسمع بعض قوله ووجده كلاماً حسناً ، فمكث حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتبعه ، حتى إذا دخل بيته دخل عليه وأخبره بما قاله له قومه عنه ، وطلب منه أن يعرض عليه أمره . فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، وتلا عليه القرآن ، فأسلم الطفيل على الفور . وخرج إلى قومه وأقنع بالإسلام أباه وصاحبه ثم دعا دوساً إلى الإسلام فأبطنوا عليه . ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ بمكة فقال له : يا نبي الله ، إنه قد غلبنى على دوس الزنا ، فادعُ الله عليهم . فقال : اللهم اهد دوساً ، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

قال الطفيل : فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام ، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، ومضى بدر وأحد والخندق ، ثم قدمتُ على رسول الله ﷺ بمن أسلم معى من قومى ، ورسول الله ﷺ بخير ، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس ، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخير ، فأسهم لنا مع المسلمين^(٣) .

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٧٤ - ٣٧٦ .

(٢) ، (٣) المرجع السابق ، ص ٣٨٢ - ٣٨٥ .

- قدم رجل من إراش بإبل له مكة، فابتاعها منه أبوجهل، فمطّله بأثمانها، فأقبل الإراشى حتى وقف على ناد من قريش، ورسول الله ﷺ فى ناحية المسجد جالس فقال: يا معشر قريش، مَنْ رجلٌ يؤدّينى على أبى الحكم بن هشام، فإننى رجل غريب، ابن سبيل، وقد غلبنى على حقى؟ فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل الجالس - لرسول الله ﷺ، وهم يهزءون به لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة - إذهب إليه فإنه يؤدّيك عليه. فأقبل الإراشى حتى وقف على رسول الله ﷺ وسأله أن يأخذ له حقه من أبى جهل فقام معه الرسول وخرج حتى جاء بيت أبى جهل فضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ قال: محمد، فاخرج إلىّ، فخرج إليه، وما فى وجهه من رائحة (أى بقية روح)، قد انتقع لونه، فقال: أعط هذا الرجل حقه، قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذى له، فدخل، فخرج إليه بحقه، فدفعه إليه. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأقبل الإراشى حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيرا، فقد والله أخذ لى حقى. ثم لم يلبث أبوجهل أن جاء، فقالوا له ويلك! مالك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط. قال: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب على بابى، وسمعت صوته، فمُلئت رعبا، ثم خرجتُ إليه، وإنّ فوق رأسه لفحلا من الإبل، ما رأيت مثل هامته، ولا قصّرتة (أصل العنق) ولا أنيابه لفحلٍ قط، والله لو آبيتُ لأكلنى (*).

- أقام رسولُ الله ﷺ على أمر الله تعالى صابرا محتسبا، مؤديا إلى قومه النصيحة على ما يلقي منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء. وكان عظماء المستهزئين خمسة نفر من قومهم، وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم: الأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث ابن الطلائة. وأتى

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٨٩ - ٣٩٠.

جبريل رسول الله ﷺ ، وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه ، فمر به الأسود بن المطلب فرمى في وجهه بورقة خضراء ، فعمى . ومر به الأسود بن عبد يغوث ، فأشار إلى بطنه ، فاستسقى بطنه فمات منه حبنا ، ومر به الوليد بن المغيرة ، فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله ، كان قد أصابه قبل ذلك بسنين ، وليس بشيء فانتقض به (أى تجدد الجرح بعدما برىء) فقتله . ومر به العاص بن وائل ، فأشار إلى أخمص رجله فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتلته . ومر به الحارث ابن الطلائة فأشار إلى رأسه ، فامتخص قيحا فقتله (١) .

- كان بعض جيران الرسول ﷺ يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى ، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له ، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه الأذى ، يخرج به على العود ، فيقف به على بابه ، ثم يقول : «يا بنى عبد مناف ، أى جوار هذا!»، ثم يلقيه فى الطريق. (٢)

- ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد ، وذلك قبل مهاجرة الى المدينة بثلاث سنين . فلما هلك أبو طالب ، نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب (٣) .

- لما اشتكى أبو طالب ، وبلغ قريشا ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد فى القبائل كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبى طالب ، فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليعطه منا ، والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا (ابتزاه أمره : سلبه إياه وغلبه عليه) . فمشوا إلى أبى طالب فكلّموه ، وهم أشراف قومه فقالوا : يا أبا طالب ،

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٤٠٨ - ٤١٠ .

(٢) ، (٣) المرجع السابق ، ص ٤١٥ - ٤١٦ .

إنك منّا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك ، فادعُهُ ، فخذْ له منّا ، وخذْ لنا منه ، ليكفّ عنا ، ونكفّ عنه ، وليدعنا وديننا ، وندعه ودينه ، فبعث إليه أبو طالب ، فجاءه ، فقال : يا بن أخى ، هؤلاء أشرافُ قومك ، قد اجتمعوا لك ، ليعطوك ، وليأخذوا منك . فقال ﷺ نعم ، كلمة واحدة تُعطونها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم . فقال أبو جهل : نعم وأبيك ، وعشر كلمات ، قال : تقولون : لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه ، فصفقوا بأيديهم ، ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلها واحدا ، إن أمرك لعجب ! ثم قال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمُعطيكم شيئا مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتى يحكم الله بينكم وبينه . ثم تفرقوا ، وقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والله يا بن أخى ، ما رأيتك سألتهم شططا . (١)

- وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين خرجوا إلى أرض الحبشة ، إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك ، حتى إذا دنوا من مكة ، بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلا ، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوارٍ أو مُستخفيا .

ويورد النص أسماء المهاجرين الذين عادوا إلى مكة وعددهم . وقد كانوا ثلاثة وثلاثين رجلا (٢) من بينهم عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ . وقد حبس أربعة من هؤلاء العائدين إلى مكة ، حبسهم ذووهم ، هم : سلمة بن هشام بن المغيرة ، وعياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل ، وعبدالله بن سهيل بن عمرو . أما جعفر بن

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٤ - ٣٦٩ .

أبى طالب، فلم يعد إلا بعد ذلك بكثير، بعد غزوة خيبر فى الفترة المدنية، مع سائر المسلمين الذين بقوا فى الحبشة.

باء- التحليل

سيتناول تحليل هذه الفترة الثالثة المادة المتعلقة بستة موضوعات:

١- أقارب الرسول الكفار. ٢- على وجعفر وحزمة، أعضاء عشيرة النبی الوحيدون الذين أسلموا، ٣- المسلمون عموماً، فيما يتعلق على الأخص بإسلامهم وما تعرضوا له من اضطهاد ٤- الهجرة الى الحبشة والهجرات الأخرى التى من الممكن أن تكون حدثت قبل الهجرة الكبرى إلى المدينة، ٥- المقاطعة الاجتماعية الاقتصادية ٦- الخلفاء الثلاثة: أبوبكر وعمر وعثمان (باعتبار ما سيكون).

أما المادة المتعلقة بقریش، فإن تحليلها داخل، جزئياً، فى تحليل الموضوعات أعلاه. وسيعالج الجزء الآخر فى الفصل التالى.

١- أقارب الرسول الكفار

(أ) أبوطالب

هذا العم من أعمام الرسول ﷺ هو الشخصية المهيمنة فى هذه الفترة الثالثة، فإن اللقاءات الثلاثة بين رؤساء قریش وبينه هى التى تبدأ بها الفترة، واللقاء الرابع الذى تم قبل موته بقليل هو الذى تُختتم به. كذلك فإن موضوع هذه اللقاءات وردود فعل أبى طالب هى التى تتقرر بمقتضاها معظم الأحداث الكبرى للفترة.

وأول هذه اللقاءات كان موضوعه شكوى مجموعة من رؤساء قریش ضد محمد ﷺ. ولم يتخذ أبوطالب أى إجراء بشأن هذه الشكوى. وفى اللقاء الثانى، اشتكى رؤساء قریش من جديد من محمد ﷺ

وشفعوا شكواهم بتهديد بالحرب ضد أبى طالب وابن أخيه «حتى يهلك أحد الفريقين» إذا لم يكف محمد عن شتم آبائهم، وتسفيه أحلامهم، وعيب آلهتهم. وبعث أبو طالب عقب هذا اللقاء إلى ابن أخيه يستدعيه وأبلغه شكوى قريش. لكن محمدا أظهر إصرارا على مواصلة رسالته وبكى لأنه ظن أن عمه خاذله ومُسلمه إلى قريش. وتأثر أبو طالب فقال لابن أخيه أن يقول ما يحب وأقسم ألا يُسلمه لشيء أبدا. وفى اللقاء الثالث، طلبت قريش من أبى طالب أن يسلم إليهم ابن أخيه فيقتلونه وعرضوا عليه فى مقابل هذا أنهد فتى فى قريش وأجمله، فرفض عرضهم. وأخيرا، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم رفض صفقة عرضتها قريش على عمه فى اللقاء الرابع الذى تم بينهم وبينه قبل وفاة أبى طالب بقليل.

وحديث هذه اللقاءات يشير الملحوظات الآتية:

١- النزاع بين محمد ﷺ وقريش الذى هو، فيما يقول النص، موضوع شكوى قريش لدى أبى طالب لا يرجع، كما أوضحت فى الفصل السابق، إلى هذه الفترة، بل الى البداية الأولى لبعثة الرسول ﷺ.

٢- حماية أبى طالب للرسول ﷺ، التى تشهد بها لقاءات أبى طالب الأربعة مع رؤساء قريش، إنما هى تجسيد للوعد المزعوم الذى وعده أبو طالب لمحمد خلال فترة الاستخفاء والذى يعرضه النص على أنه أهم أحداث الفترة المذكورة.

٣- يعتبر النص حماية أبى طالب لمحمد من قريش الحدث المركزى فى هذه الفترة الثالثة أيضا، فإن هذه الحماية هى التى جعلت قريشا تتصل بأبى طالب كلما أرادت أن تشكوه أو تتفاوض معه. وهى أيضا

التي دفعت أبا طالب إلى دعوة بنى عبدالمطلب وبنى هاشم لحماية ابن أخيه . وهي أخيرا التي جعلت قريشا تقاطع هاتين القبيلتين .

٤- أبوطالب، الذي يبدو في حديث هذه الفترة الشخصية الرئيسية، وقد التفّ حوله بنو عبدالمطلب وبنو هاشم، في مواجهة جميع قبائل قريش، وقد هدى أحدُ ابنيه ملكا إلى الإسلام، يحجب شخص محميّ، الذي جرّد هنا أيضا من الجلال الذي أسبغه عليه القرآن، كما جرّد من تأييد المسلمين، الذي يتجاهله النص تماما .

٥- ليس في السيرة ما يسمح بمظنة أن قواعد الحكومة في مكة تجيز للأشراف أو لقبائلهم أن يطلبوا من قبيلة ما أن تسلمهم فردا من أفرادها ليعاقبوه على مخالفة أو جرم ارتكبهما، فإن استقلال كل قبيلة لم يكن يجيز الاستجابة لمثل هذا الطلب، والجهة الوحيدة التي كانت مختصة بالمعاقبة على المخالفات أو الجرائم هي قبيلة المتهم ذاتها . وفي النص تأكيد لهذه القاعدة الأولية، إذ أنه يذكر أن كل قبيلة تولت عقاب أفرادها الذين اعتنقوا الإسلام وتعذيبهم لردهم إلى ديانة الآباء والأجداد . ولم يكن هناك ما يسوغ استحداث استثناء على هذه القاعدة الأساسية في النظام القبلي بشأن الرسول ﷺ . وكان الإجراء العادي إذن هو أن يطلب مجلس قريش الحاكم من بنى عبدالمطلب وبنى هاشم منع محمد من سبّ مواطنيه أو آبائهم أو دينهم، وأن يوقعوا عليه، إذا استمر في هجومه عليهم، العقوبات التي ينص عليها قانون المدينة العرفي أو قانون القبيلة المعنية . لذلك فإن المسعى الذي أسس عليه لقاء سادة قريش وأشرافها الثاني بأبي طالب، يبدو غير مقنع .

٦- النص لا يذكر بصورة محددة الجريمة التي ارتكبتها محمد ﷺ في حق قريش . وهو لا يوضح ، بصفة خاصة، ما إذا كان المقصود هو

آيات القرآن التي تندد بالكفار وتقول إنهم صم بكم أو عمى أو فاسقون أو عصاة أو من أصحاب الشمال، أم - وهذا فرض احتماله ضعيف - إساءات ذات طابع شخصي.

وأيا كان الأمر فإن أصحاب الرسول ﷺ كانوا يقولون ما يقوله رسولهم. أى أن كلا منهم كان، بالنسبة لقريش، فى الموقف نفسه الذى كان فيه محمد ﷺ. والثابت أن النص لا يشير إلى أى طلب موجه من أشرف قريش إلى رئيس قبيلة أخرى أو إلى شريف من أشرفها يطلبون فيه أن يكف فردا من أفراد قبيلته دخل الإسلام عنهم، أو يهددون بحرب القبيلة إذا لم تلزمه بالصمت، أو يطلبون تسليمه إليهم كى يقتلوه.

ولما كان جعفر، ابن أبى طالب ذاته، قد دخل فى دين محمد ﷺ وكان، ولا بد، يردد كل ما كان يقوله ابن عمه والقرآن ضد قريش ودينهم، فقد كان من الطبيعى، لو صحت دعوى حماية أبى طالب، أن تطلب قريش تسليمه اليها، هو الآخر. لكن النص لا يقول أنها طلبت ذلك، كما أنه لم يشرح لماذا لم تطلبه.

٧- أبوطالب لم يكن قطعا الشريف القرشى الوحيد الذى يحب ابن أخيه. والحاصل أن النص لا يتحدث عن أى شريف أو رئيس قبيلة آخر سخر قدره كله وقدر قبيلته لحماية ابن أخ له. أسلم ضد قبائل قريش.

٨- لا يشرح النص لماذا لم يضع السادة والأشراف الذين اشتركوا فى اللقاء الثانى مع أبى طالب تهديدهم بحربه حتى يهلك أحد الفريقين موضع التنفيذ، علما بأن هذا التهديد كان موجهها فى الواقع الى قبيلة أبى طالب أى بنى عبدالمطلب وبني هاشم.

٩- ليس هناك غرابة فى أن تكون قريش قد فكرت فى قتل محمد للتخلص منه. أما ادعاء أنهم عرضوا صفقة على أبى طالب يتسلمون

محمدًا ﷺ بمقتضاها كى يقتلوه مقابل إعطائه أنهد فتى فى قريش، فهو ادعاء فيه من الشطط ما يتزع عنه كل مصداقية. ويلاحظ أن النص لم يذكر المقابل الذى عرض على والد هذا الفتى وعلى قبيلته تعويضا لهم عن فقدته.

١٠- إذا كانت قريش تريد، بأى ثمن، أن تتخلص من محمد، فمن الغريب أنها لم تتفق فى هذه المناسبة على ما يقول النص إنها اتفقت عليه بعد ذلك بسنوات، بعد عقد بيعة العقبة الثانية، من اختيار فتى مسلح من كل قبيلة وتكليف مجموع هؤلاء الفتية بضرب محمد ﷺ بسيوفهم ضربة رجل واحد، فيقتلوه ويتفرق دمه فى القبائل جميعا، ولا تقدر بنو عبدالمطلب وبنو هاشم على حرب قومهم جميعا فيضطرون لقبول الدية التى يقدمونها.

١١- من غير المعقول أن تكون قريش قد اتجهت إلى أبى طالب لكف محمد عن دعوته، لسبب آخر هو أن النص - كما سبق أن بينا - لا يذكر أن أبى طالب كان رئيسا لقبيلتى بنى عبدالمطلب أو بنى هاشم أو لإحديهما. لقد كان أبوطالب رجلا رقيق الحال فى مجتمع لا يحسب فيه حساب إلا لذوى الثراء، وما كان يمكن لذلك أن تخاطبه قريش كمستشول فى شأن محمد الذى كان قد تجاوز الأربعين بسنوات، والذى كان يتحمل تبعه أعماله بالكامل.

١٢- لو أن أبى طالب كان حقا صاحب الكلمة المسموعة كما يصفه النص، لخمى قلدة كبد جعفرا، ولحال دون هجرته إلى الحبشة هربا من الاضطهاد. والحاصل أن جعفرا ما كان له مناص من هذه الهجرة وأن كل الجهود التى لا بد أن أباه بذلها لم تغنه عن هذه الضرورة.

١٣- لم يكن بقريش حاجة إلى الاتجاه لأبى طالب وقد كان فى مجلس المدينة، بالتأكد، واحد على الأقل من ممثلى قبيلة عبدالمطلب. كان معهم أبولهب. لقد كان هذا الشريف الثرى، فيما يقول النص، الوحيد من بين بنى عبدالمطلب وبنى هاشم الذى انحاز الى صف قريش ضد محمد، والنص لا يشير إلى أى إجراء بالخلع اتخذته قبيلته ضده إثر ذلك. ومن هنا كان الطبيعى أن يكون هو الوسيط بين قريش وبين بنى عبدالمطلب أو بينهم وبين أبى طالب فى شأن محمد ﷺ، لاسيما وأنه، كما سنعلم فيما بعد، كان على علاقة طيبة بأخيه المذكور.

(ب) بنو عبدالمطلب وبنو هاشم؛

يستفاد من النص أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم استجابوا لدعوة أبى طالب ووقفوا صفا واحدا وراءه للدفاع عن محمد ﷺ. ويتعين منطقيا، لقبول هذه الدعوى:

- إما أن يكون بنو عبدالمطلب وبنو هاشم قد أسلموا قبلها.

- أو أن يكونوا قد بقوا على دينهم وأن يكون محمد ﷺ قد تمكن من كسب عطفهم ومحبتهم كما كسب محبة أبى طالب مع مخالفته له فى الدين.

والثابت أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم ظلوا، فى أغليتهم العظمى، على عبادة الأصنام، ولم يدخل فى الإسلام منهم سوى على، الذى كان صبيا فى العاشرة من عمره، وجعفر الذى كان يكبره بعشر سنين، فى الفترة الأولى، وعمهما حمزة، فى الفترة الثالثة. أما بنو هاشم فإن أحدا منهم لا يظهر فى قائمة مسلمى الفترة الأولى الثلاثة والخمسين. ولم يتحدث النص عن إسلام أحد منهم فى الفترة الأولى، أو فى الفترة الثانية، أو فى الفترة الثالثة.

لذلك فإن احتمال التكاتف الجماعى للقبيلتين دفاعا عن الرسول ﷺ لدخولهم فى الاسلام احتمال غير وارد.

وقد رأينا من الجهة الأخرى أن القرآن ، منذ سوره الأولى ، قد وجه ضربات شديدة إلى جميع الأسس الاجتماعية والدينية التى كانت تقوم عليها فى الجاهلية مجتمعات العرب عموما ، ومجتمع مكة على وجه الخصوص . وقد استمر القرآن فى توجيه هذه الضربات خلال الفترة الثالثة فى عبارات محملة بالنقد اللاذع ، كما استمر فى تهديد الكفار تهديدا صريحا بنار جهنم .

ونظرا إلى أن هذا النقد وهذه التهديدات لم تكن تميز بين قبيلتى الرسول ﷺ وبين غيرهما ، ولم يرد فى القرآن احتمال أن يتشفع الرسول لصالح ذويه يوم الحساب ، فمن غير المتصور أن يكون محمد ﷺ قد استطاع أن يحظى لدى بنى عبدالمطلب أو بنى هاشم ، الذين أداروا ظهورهم لرسالته ، بأى قدر من المحبة أو العطف . كذلك كان من الصعب جدا إعمال قاعدة التضامن القبلى لصالح رجل كان الدين الذى يدعو إليه يعصف بأسس النظام القبلى ذاته .

إن عدااء بنى عبدالمطلب وبنى هاشم للإسلام ، هذا الدين الذى كانوا يشعرون ولاشك بأنه يهددهم فى وجودهم ذاته كما يهدد مجتمعهم ، ما كان يمكن من ثم ، كما سبق أن شرحت ، إلا أن يكون عدااء إيجابيا . ونظرا إلى أنه لم يكن بمقدورهم فى ذلك الوقت أن يتصوروا العالم الذى يمكن أن يحل محل العالم القبلى الذى كانوا يعيشون فيه منذ الأزل ، فلا بد أن رؤساءهم وذوى رأى فيهم وصفوا محمدا ودينه لهم بأنهما شر محض ، ولا بد أن مقتضيات الدفاع عن النفس فى مواجهة خطرهما جعلتهم ينحازون إلى جانب قريش ، الذين كانوا يشاركونهم المصير ، لا إلى جانب محمد ﷺ .

وحالة جعفر بن أبى طالب تصور مشكلة تكافل بنى عبدالمطلب وبنى هاشم المزعوم أبلغ تصوير. إن النص لا يعطى أى شرح للظروف والملابسات التى جعلت هذا الابن الشاب لأبى طالب يهاجر إلى الحبشة مع زوجته. ولأن مكة لم يكن فيها حكومة مركزية تعلو سلطاتها فوق سلطات العشائر والقبائل التى تكونها، فإن من اضطروا جعفرًا إلى الهجرة (أو نفوه) لم يكونوا بداهة سوى رجال قبيلته. ولو خُير أبو طالب لاختار بالتأكيد أن يستبقى ابنه إلى جواره فى مكة، لكنه رضى برحيله كارها لأنه إن بقى لتعرض لألوان التنكيل التى لا بد أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم كانوا يدخرونها لأفراد قبيلتهم الذين تبعوا محمداً ﷺ، والتى صمت عنها النص للأسباب التى سنذكرها فيما بعد. لذلك فإن مما لا يقبله العقل أن تكون قبيلتا بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، اللتان كانتا ولا شك تعذبان المسلمين، واللتان اضطرتا جعفرًا إلى الهجرة، قد حركتهما روح التضامن مع محمد لدرجة الاستجابة كرجل واحد لنداء أبى طالب - على فرض أنه وجه مثل هذا النداء - وأن تكونا قد كونتا حوله درعا بشريا يحميه من اعتداءات قبائل قريش الأخرى. إنهم هم، على العكس، الذين كانوا ولا ريب يمثلون الخطر الرئيسى الذى كان على محمد ﷺ أن يتقيه. وإذا كان محمد قد كتبت له السلامة فى مكة، فلم يكن الفضل فى ذلك فضلهم، بل كان لأسباب خارجة عن إرادتهم.

(ج) أبو لهب،

لم يكن هذا الابن من أبناء عبدالمطلب الذى كان يحمل اسم عبد لواحد من آلهة الجاهلية، والذى أطلق عليه - فى وقت غير معروف وفى ظروف مجهولة - اسم أبى لهب، فى رأى مؤلف النص، رجلا ذا

حيثية. والحيز المخصص له في السيرة ليس كبيرا. وقد جاء ذكره لأول مرة في قصيدة لحذيفة بن غانم^(١) يذكر فيها فضل عبدالمطلب وفضل ولده من بعده ومنهم أبولهب على التخصيص. وجاء ذكره بعد ذلك بصدد دعوة أبي طالب بنى عبدالمطلب وبنى هاشم إلى منع رسول الله ﷺ وقيام دونه، وهي الدعوة التي لم يستجب لها أبولهب، الذي فضل الانحياز إلى جانب قريش^(٢). ويذكر النص كذلك^(٣) أن أبا لهب لقي هند بنت عتبة بن ربيعة، حين فارق قومه وظاهر عليهم قريشا، فقال: يا بنت عتبة، هل نصرت اللات والعزى، وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما؟ قالت: نعم، فجزاك الله خيرا يا أبا عتبة. على أن خلافه مع قبيلته بشأن محمد لم يحل دون تدخله في صف أبي طالب، مما جعل أبا طالب يمدحه في قصيدة نظمها^(٤). وأخيرا فإن النص يشرح الظروف التي نزلت فيها سورة المسد:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ (٣) وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ (٥) ﴾

[المسد: ١-٥]

وصورة أبي لهب التي تستخلص من هذه البيانات هي صورة رجل قليل الأهمية، فيه جانب سيئ، بدليل أنه انضم إلى أعداء ابن أخيه، كما أن القرآن حكم عليه بالنار، مما جعل النص يصفه بأنه «عدو الله الملعون»، ولكنه ليس عيوباً كله: لقد افتك شاعرا أخذ بغرم أربعة آلاف

(١) السيرة، القسم الأول، ص ١٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١٩.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٣٥١.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص ٣٧١.

درهم فى مكة، وثار على قوم من قريش كانوا يريدون أن يستزعوا ابنهم المسلم من أبى طالب الذى منعه منهم، بل هددهم بالقيام مع أخيه فى كل ما قام فيه إذا استمروا فى الإكثار عليه. ومن جهة أخرى فإننا لا نكاد نرى أبا لهب أبداً، فى النص، بين نفر القرشيين الذين كان يحلو لهم أن يَسْخَرُوا من محمد ﷺ، أو أن يسيئوا إليه، أو أن يوجهوا إليه أسئلة محرجة، كما أنه لم يحاول - كما حاولت امرأته - أن يعتدى على الرسول ﷺ، أو أن يقوم بدور فى الأعمال الموجهة ضده أو ضد المسلمين.

المآخذ التى يمكن أن تؤخذ عليه إذن، فى جملتها، مآخذ هينة. لقد كان، باختصار رجلاً طيباً، لكنه ضل الطريق.

وسنعود فى الفصل التالى إلى قصيدة أبى طالب وإلى الشرح الذى قدم به النص لسورة المسد. على أن الذى يعيننا أن نقوله الآن هو أن هذه السورة القصيرة تظهر أبا لهب فى صورة تختلف تماماً عن تلك التى تستنبط من النص. لقد كان أبولهب واحداً من اثنين أو ثلاثة فى تاريخ الأنبياء جميعاً، حكم عليهم القرآن بالنار مع ذكر أسمائهم. والذى يستحق هذا الخزى العظيم لا يمكن أن يكون شخصاً من الصف الثانى أو الثالث. لقد كان أبولهب رجلاً غنياً ذا نفوذ، وكان سيداً. سيد بنى عبدالمطلب، أو بنى هاشم، أو حتى سيد قريش. ولا بد أن ما جنت يده من أفعال كان أخطر بكثير مما يوهم به النص. ولا بد أنه كان جَلَّاداً، جعل للإرهاب الكلمة العليا فى قبيلته، وأنه استخدم نفوذه لدى رؤساء القبائل الأخرى كى تطبق حيال مسلميها سياسة قمعية لا تعرف الهوان. ولا بد أن تصرفاته جعلت منه أعدى أعداء الإسلام خلال الفترة المكية بأكملها.

ولا يملك المرء، فى هذا المقام إلا أن يلاحظ صلة ما بين سورة المسد والآيات التالية، التى سبقت الإشارة إليها، فى قوله تعالى:

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) ﴾ [البروج: ٤-١٠]

من كان، بين بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، ضحايا الاضطهاد الذى فرضه وشجعه هذا الرئيس؟ وكم كان عددهم؟ هذا شئ لن نعرفه أبدا، لأن أحدا من المسلمين، فيما يؤخذ من النص، لم يلق تعذيبا أو اضطهادا بيد أى رجل من هاتين القبيلتين، وإذا كان جعفر قد هاجر، فليس ذلك لأنه فر من اضطهاد قبيلته، بل للاضطهاد الذى كانت تمارسه قريش، أى الآخرون!

(د) النتيجة:

النص لا يعطى أى تعليل لحقيقة أن ثلاثة فقط - منهم صبي قاصر - من قبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم هم الذين استجابوا لرسالة محمد ﷺ. وكان هذا التعليل مع ذلك ضروريا لأن الظاهرة غريبة. فكيف يعقل أن ثلاثة فقط، مما يزيد على مائتى هاشمى، دخلوا فى دين أقرب الأقربين إليهم فى الفترة المكية كلها؟

وما الذى جعل أبناء عبدالمطلب، الذين كان لديهم حسّ بالقداسة جعلهم يستسلمون طائعين لأمر أبيهم حين كان الأمر يقتضى ذبح واحد منهم، يضعون أصابعهم فى آذانهم حين كان محمد ﷺ يحدثهم عن

دين لا يطلب منهم مثل هذه التضحية ويعرض عليهم مكافآت أخروية لم يعرض أبوهم مثلها قط عليهم؟

ولم لم يحتد أبناء هؤلاء الأعمام حذو ابني عمهما علي وجعفر ويصدقوا ما كان ينقله إليهم ابن عمهم محمد ﷺ من كلام بليغ؟ لماذا لم يستمع أحفاد هاشم، أبي عبدالمطلب، وأبناؤهم الى دعوة قريبهم محمد السامية، ولماذا أطبقوا أعينهم كي لا يبصروا النور الذي جاءهم به؟.

لماذا، وقد كانت كل قبيلة تفخر بشاعرها، لم يفخر بنو عبدالمطلب وبنو هاشم بالنبي الذي كان قرآنه يعطيها ميزة لا حدود لها على جميع القبائل الأخرى التي كان لها شعراء؟

النص لا يعطينا عن جميع هذه الأسئلة إجابة أو ما يشبه الإجابة. وكما هو الشأن بالنسبة لفترة الاستخفاء والاستجابة بني عبدالمطلب وبني هاشم الفورية الساحقة لدعوة أبي طالب بحماية محمد والوقوف دونه رغم أنهم لم يكونوا يؤمنون بدينه، فإن النص هنا يقود القارئ إلى طريق مسدود بادعاء أمور غير مفهومة أو لا يمكن تصديقها.

إن رفض بني هاشم للإسلام معضلة حقيقية لا يمكن أن تفسر إلا على أساس افتراض من ثلاثة: سوء الظن، أو العقلية المحافضة، أو الخوف.

(١) افتراض سوء ظن شخصي إزاء محمد ﷺ، ناشئ عن كونه مشهورا لدى القبيلة بالكذب، والثابت أن هذا الافتراض يتنافى كلية مع منطق النص، إذ أن بني عبدالمطلب وبني هاشم قد أجابوا طلب أبي طالب لمنع محمد.

(٢) افتراض عقلية محافظة شاملة، لا بين المسنين منهم وحدهم، بل أيضا بين الشبان، لا بين من كانوا يستفيدون من النظام القبلي وحدهم، بل أيضا بين ضحايا هذا النظام، لكن هذا شيء بعيد الاحتمال نظرا - من جهة - لروح الإسلام الثورية، التي كانت، ولا بد، تروق للشبان، ونظرا، من جهة أخرى للكرامة والمزايا التي كان الدين الجديد يقدمها لضحايا النظام أى للفقراء والمحرومين. وهذه العقلية المحافظة بدورها شيء لا يتمشى وحقيقة انضمام بنى عبدالمطلب وبنى هاشم إلى أبى طالب فى حماية محمد.

(٣) افتراض خوف الاضطهاد، وتذكير القرآن بالواقعة القديمة المتعلقة بأصحاب الأخدود، التي ليس فيها أية إشارة الى نبى بعينه أو إلى بلد بعينه أو إلى أمة بعينها كان، ولا بد، يرمى الى تصوير موقف تاريخى مماثل عن طريق التشبيه(*) . ولم يكن أبولهب قطعاً المسئول الوحيد عن هذا الوضع، فإن الآيات التي نقلتها من سورة البروج تشير إلى وجود عدة أشخاص حول النار يشهدون عملية إلقاء المؤمنين فى الأخدود وحرقتهم بناره. وإذا كان استنتاجى صحيحا، فقد اشترك عدة من أفراد قبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم فى عملية تعذيب مسلمين بالنار أو قتلهم حرقا بالنار، وكان هذا التكنيل الفظيع العامل الرادع الذى حال بين أفراد هاتين القبيلتين وبين الإسلام. وفى نظرى أن هذا السياق هو الذى تدرج فيه آية:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء: ٢١٤]

(*) قاذى البحث، بعد مناقشة الرسالة، إلى أن سورة البروج لم تكن تشير إلى واقعة قديمة متعلقة بأصحاب الأخدود ولا تصور موقفا تاريخيا مماثلا عن طريق التشبيه، وإنما إلى اخدود حفره الكفار فى مكة للمسلمين دون أية إشارة إلى الماضى.

والإنذار فى هذه الآية من إحدى السور المتأخرة من الفترة الأولى .
(التى تحمل رقم ٤٧ فى ترتيب المصحف ورقم ٥٨ فى ترتيب بلاشير
لسور القرآن)، لا يمكن أن يعنى «التبليغ»، فإن تبليغ الرسالة إلى عشيرة
الرسول الأقربين كان قد تم منذ وقت طويل . والأمر بالإنذار يعنى،
ولاشك، فى هذا الموضع، كما سبق أن ذكرت، تحذير هذه العشيرة من
المضى فى الفطائع التى كانوا يرتكبونها ضد المسلمين .

وفى رأى أن هذا الافتراض الثالث هو أنسب الافتراضات لتعليل أن
ثلاثة فحسب بين أفراد قبيلة الرسول ﷺ أسلموا خلال الفترة المكية من
الدعوة . وهو يخالف دعوى النص غير المعقولة التى تذهب إلى أن قبيلة
الخليفة العباسى المقبل ، الكافرة . حمت الإسلام ورسوله ﷺ خلال
الفترة المكية .

٢- على وجعفر وحمزة

يضيف النص إلى فضل أبى طالب، وبنى عبدالمطلب وبنى هاشم،
الكفرة، فى حماية الرسول صلى الله عليه وسلم، فضل المسلمين الثلاثة
الوحيدين الذين يتمون إلى هاتين القبيلتين، أى على الذى كان أول من
أسلم من «الرجال» رغم صغر سنه، وجعفر الذى كان ناطقا بلسان
المسلمين فى الحبشة قبل النجاشى والذى كان من نتيجة دفاعه المجيد عن
الإسلام ضد كيد عمرو بن العاص، ومن حُسن عرضه لرسالة الرسول
ﷺ أن دخل النجاشى ذاته فى الإسلام، وحمزة، أعز فتى فى قريش
وأشد شكيمة، الذى ضرب أبا جهل ذا الحول والطول بقوسه فجرحه
جرحا كبيرا حين علم أنه أهان ابن أخيه، وأعلن إسلامه فى الوقت
ن . . . حسرة الذى يقول النص إن أصحاب رسول الله ﷺ امتنعوا به هو
وعمر حين أسلما، حتى عازوا قريشا (أى غلبوهم) .

إن النص لا يتحدث عن هؤلاء الصحابة الثلاثة الذين كتبت لهم الشهادة في فترات لاحقة وعن جعفر وحمزة على الأخص، إلا في معرض المواجهة بين قبيلتي رسول الله ﷺ وقريش. ويظهر على حمزة في حديث الفترة المدنية، باعتبارهما المقاتلان اللذان قُتلا أكبر عدد من القرشيين في بدر. وقد قُتل حمزة في غزوة أحد بحربة قذفه بها عبد حبشي مملوك لجبير بن مطعم. واستشهد جعفر بدوره، بعد عودته من الحبشة، في إحدى الغزوات.

كان هؤلاء المطَّلبيون الثلاثة إذن، أبطالاً حقيقيين في جهاد الرسول ضد الكفار، والنص يصف حزن الرسول ﷺ لموت حمزة، وحين تلقى نعي جعفر.

ونص ابن إسحاق، الذي وضع بنى عبدالمطلب وبنى هاشم فوق كل الشبهات، والذي أوحى بأنهم أصحاب فضل على الإسلام لحمايتهم الرسول ﷺ، يستفاد منه أن هؤلاء الشهداء الثلاثة كانوا، مع الرسول، خير ممثلين لقبيلتي بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، قبيلتي الخليفة العباسي.

لكن ما لم يذكره النص هو أن هؤلاء الثلاثة، مثلهم في ذلك مثل الرسول صلى الله عليه وسلم، كانوا في حالة قطيعة مع قبيلتيهم. والمشهد الذي يصف النص فيه ظروف إسلام حمزة مشهد غير مقنع، فهو يصور إسلام حمزة على أنه عمل صادر عن سَورة غضب قبلى لا على أنه عمل ناتج عن تفكير وتدبر طويلين.

إن حمزة الذي كان يرى الطريقة التي كانت قبيلته تعامل بها مسلميها، لم يكن قطعاً يشعر حيال قبيلته بفخر واعتزاز، ومن المؤكد أن الاعتبار القبلي لم تكن هي التي دفعته إلى ضرب أبي جهل بقوسه، هذا إذا افترضنا أن المشهد الذي وصفه النص حدث بالفعل وليس اختراعاً من المؤلف.

أما الظروف التي أدت الى إسلام جعفر، فإن النص لا يتحدث عنها. وكان بوجدنا أن نعرف ما إذا كان قد أسلم، مثلا، لأن أباه كان، رغم كل شيء، محبذا للإسلام، أو لأنه كان على صلة خاصة بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وكان يثق به، أو لمحبة لابن عمه، أو لأن تعاليم الإسلام كان لها وقع طيب على نفسه، أو لأن رؤيته مسلمي قبيلته الذين كانوا يعذبون من أجل دينهم أثار غضبه، أو لأنه شاهد أشخاصا من قبائل أخرى يؤمنون بمحمد في الوقت الذي كذبه فيهم أعضاء قبيلته ذاتهم. لكننا لا نجد شيئا في النص عن بواعث إيمان جعفر.

وليس في النص شيء كذلك عن رد فعل بنى هاشم المتئين وبنى عبدالمطلب السبعين عندما أعلن جعفر وحمزة عن عزمهما على اعتناق الإسلام أو عن اعتناقهما له بالفعل. وهو هنا أيضا لا يشفى غليلنا. ومع ذلك فإن من المحقق أن إسلام هذين الرجلين لم يكن يبدو حدثا عاديا داخل قبيلتيهما الوثنيتين.

هل استدعى أبولهب ورؤساء القبيلتين عليا وجعفرا وحمزة لتوعيتهم بجسامة ما هم مقدمون عليه؟ هل فرضوا عليهم حضور بعض جلسات تعذيب مسلمي قبيلتهم؟ هل طلبوا من زوجاتهم وإخوتهم وأصدقائهم أن يبصروهم بنتائج فعلتهم؟ هل هددوهم بالتعذيب أو الخلع أو هددوهم في أرزاقهم، أو بإيذاء أفراد أسرهم؟ هل عذبوهم بالفعل؟ ماذا كان رد فعل جعفر وحمزة إزاء كلام أبي لهب ورؤساء القبيلة، والتهديدات التي وجهت إليهم أو التعذيب الذي عذبوه؟ هنا أيضا لا يذكر النص شيئا.

إن النص يتحدث عن لحظة مجده عابرتين بالنسبة لحمزة وجعفر. اللحظة التي انتقم فيها حمزة من أبي جهل للإساءة التي صدرت منه ضد محمد ﷺ، واللحظة التي دحض فيها جعفر حجج عمرو بن العاص

بشأن السيد المسيح وكسب بذلك ثقة النجاشي ثم إسلامه . وقد أبدت فيما سبق تحفظاتي على إحدى هاتين الواقعتين . لكن على فرض أنهما حدثتا فعلا ، فإنهما ليستا أهم الأمجاد التي تحسب لهذين المُطَلِّبين ، والتي أغفل النص ذكرها ، وأعنى بها كفرهما بدين قبيلتهما وقومهما . ونظرا للقسوة الشديدة التي اتسمت بها في رأي أعمال القمع التي ارتكبتها هذه القبيلة ضد مسلميها ، فإن إسلام هذين القرييين من أقرباء الرسول ﷺ والتحدي الذي كان يمثله بالنسبة لبنى عبدالمطلب وبنى هاشم عرّضا جعفرا وحمزة ، ولابد ، لعقوبات شديدة .

ومن المحتمل أن تكون هذه العقوبات قد تضمنت تعذيبهما هما أو نساءهما وأولادهما تعذيبا جسديا أو معنويا ، ولابد أن هذا الاضطهاد الذي اضطهدتهما به قبيلتهما كي تستأصل كل أثر للإسلام فيها ، كان فظيحا للغاية .

وقد ظل هذان المسلمان على إيمانهما ، بعكس أفراد آخرين في قبيلتهما من المحتمل أن يكونوا قد فتنوا لم يعط النص عنهم ، لأسباب لا يشق فهمها ، أية معلومات .

كان جعفر وحمزة إذن مجاهدين عظيمين ، فقد تعرضا للتعذيب والاضطهاد على مدى سنوات . وربما كان هذا هو السبب الذي جعل الرسول ﷺ يكنّ لهما محبة خاصة لا مجرد كونهما من أقربائه ، أو لأن أحدهما ضرب أبا جهل ولأن الآخر هدى النجاشي إلى الإسلام . ولابد أن جعفرا عومل في معسكر الاعتقال بالحشية معاملة أقسى من معاملة باقى المعتقلين . ولابد أنه تعرض في هذا المعسكر لكل صنوف التعذيب . ولم يقرر من كانوا في مكة يتصرفون في مصيره الإفراج عنه وعودته إلى بلاده إلا في وقت متأخر ، فالنص يقول إنه لم يتمكن من اللحاق

بالرسول صلى الله عليه وسلم، مع باقى المهاجرين، إلا بعد خير، أى فى السنة السابعة الهجرية. وهذه كلها أمور كان لا يمكن التصريح بها من جانب أولئك الذين كان دأبهم التغنى بأمجاد بنى عبدالمطلب وبنى هاشم وكان يتعين إخفاؤها. أما قصة المناقشة التى دارت بين جعفر وعمرو بن العاص وقصة إسلام النجاشى على يد جعفر فقد كانت، دون شك، جزءا من مخطط الإخفاء المذكور.

٣- المسلمون :

والآن، وبعد أن نظرنا فيما قاله النص عن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، حان وقت دراسة ما قاله النص - أو ما لم يقله - عن مسلمى مكة وباقى أقاليم الجزيرة العربية بصدد تحولهم إلى الإسلام، واضطهادهم، وهجرتهم أو إخراجهم. وسنهتم أيضا بمعرفة ما إذا كانت قريش قد فرضت ضدهم إجراء المقاطعة.

(أ) إسلامهم :

يشير هذا الموضوع الملحوظات الآتية :

(١) حديث هذه الفترة الثالثة، مثل حديث الفترة الثانية، وبخلاف حديث الفترة الأولى، لا يذكر أسماء من أسلموا فى مكة وفى أنحاء الجزيرة الأخرى ولا أعدادهم. ولا يذكر من حالات الدخول فى الإسلام سوى حالتين : حالة عمر وحالة الطفيل بن عمرو الدوسى. ونحن، فيما نحلا ذلك، لا نعرف سوى أسماء مهاجرى الحبشة الثلاثة والثمانين الذين تظهر أسماء ثمانية وعشرين منهم فى قائمة مسلمى الفترة الأولى. ولا يسعنى هنا إلا أن أكرر الملحوظة التى أبديتها بصدد قائمة المسلمين الأوائل، أى قلة اهتمام النص بجانب الدعوة الأساسى الذى هو دخول الكفار فى الإسلام.

وباستطاعتى أن أضيف هنا أن الاستهانة بهذا الجانب السلمى من عمل الرسول ﷺ قد تكون من الأسباب التى جعلت حديث الفترة المكية موجزا للغاية بالمقارنة بحديث الفترة المدنية المخصص، إلى حد كبير، لحروب الرسول ﷺ.

(٢) النص لا يقدم لنا الرسول مطلقا وهو يقوم بالنشاط العادى للأنبياء، أى الدعوة إلى الله، وشرح مبادئ الدين الذى كُلف بنشره وآيات القرآن التى نزلت. وإذا قارنا الحيز الذى خصصه النص لهذا النشاط بذلك الذى تتلأأ فيه شخصيات بنى عبدالمطلب بكل أنوارها: أبوطالب وهو يدافع عن محمد فى وجه سادة قريش، وأبوطالب وهو يدعو بنى عبدالمطلب وبنى هاشم لمنع ابن أخيه، وحمزة وهو يضرب أبا جهل لإساءته إلى محمد، وجعفر الذى هدى النجاشى إلى الإسلام، وأخيرا أبوطالب وبنو عبدالمطلب وبنو هاشم وهم يعانون من المقاطعة التى فرضتها عليهم قريش، لبدا الحيز الذى خصصه لمحمد ﷺ وهو يقوم بأمر الرسالة التى بعثه الله بها للناس ضئيلا للغاية، مع أن نشاط الدعوة هذا، الذى هو جوهر البعثة فى قصة حياة أى نبي من الأنبياء، ينبغى فى الأحوال العادية أن يحتل الجزء الأكبر من سيرته.

ومن الغريب أننا لا نرى رسول الله ﷺ قط فى حديث هذه الفترة الثالثة وهو يقول خمس جمل متصلة عن الإسلام أو عن القرآن أو يخاطب الكفار لإقناعهم بدينه. وحين يتحدث أحد عن الإسلام أو القرآن بشيء من التفصيل فليس الذى يفعل ذلك هو محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما جعفر فى مرافقته أمام النجاشى وبطارقته!

لكن الذى حدث قطعا هو أن الرسول ﷺ لم ينقطع خلال هذه الفترة وخلال الفترتين اللتين سبقتاها عن الدعوة إلى الله، وأنه كان يكرس كل وقته وجهوده لشئون هذه الدعوة.

والرسول صلى الله عليه وسلم، لأن دينه دين قيم، ولأنه كان يحظى بتأييد الله سبحانه وتعالى، ولأنه كان يتلقى باستمرار تزيلا يرد على هجمات أعدائه، ولأنه، صلى الله عليه وسلم، كان ذا طبيعة سمحة وقلب كبير، فمن غير المتصور ألا يكون قد هدى إلى الإسلام كثيرا من عرب مكة وغيرها من بلاد الجزيرة.

(٣) النص لا يتحدث عن نشاط صحابة رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الإسلام. وكما هو الحال فيما يتعلق بالمسلمين الثلاثة والخمسين الذين ذكرهم في أول قائمة لمن أسلموا، فإنه لا يقول شيئا عن ظروف إسلام المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ممن لم ترد أسماءهم في القائمة المذكورة. وهو لا يشرح بوجه خاص على يد من كانت هدايتهم إلى هذا الدين.

وليس في النص حديث عن مسلم ما في مكة فعل ما فعله جعفر في بلاط النجاشي من عرض لمبادئ الإسلام، حتى مع جمهور أدنى مرتبة، يفهم لغة الدعوة دون ما حاجة إلى مترجم، أو عن مسلم يفعل ما فعله الطُّفَيْلُ بن عمرو الدَّوْسِيُّ من قبيلة بني الدَّوْس غير المكية، ويستخدم المكانة التي يتمتع بها بين ذويه لإقناع أبيه وزوجته وبعض أبناء عشيرته بالدخول في دينه.

والنص يترك صحابة الرسول هؤلاء في دائرة الظل وما من أحد منهم، غير أبي بكر، يرجع النص إليه فضل هداية أحد من الكفار.

وللمرء أن يتساءل: هل كان لإهمال مسلمي مكة إهمالا يفهم منه أنهم لم يقوموا بأي دور في نشر الإسلام ما يبرره؟ لا. ليس هناك مبرر لهذا الإهمال.

وواقع الأمر أن المثل الذي كان يضربه الرسول ﷺ لصحابته، فضلا عما كان يدعوهم إليه القرآن، كان يحفز هؤلاء الصحابة إلى المشاركة بصورة فعالة في إذاعة دينهم ويجعل من هذا النشاط شاغلا لكل منهم. وإذا كنا نراهم، من جهة أخرى، بعد ذلك بسنوات، يهجرون بلدهم وديارهم لاصطحاب الرسول ﷺ إلى المدينة وللجهاد في سبيل دينهم، فمن الصعب تصور أنهم كانوا يكتفون في مكة بحياة خاملة بينما كان رسولهم يتفرغ للدعوة إلى دينه.

يضاف إلى ذلك أن قريشا إذا كانت قد نكّلت بالمسلمين واضطهدتهم فإن ذلك لم يكن راجعا إلى مجرد دخولهم في الإسلام، وإنما لأنهم كانوا يعملون على نشر دينهم. لذلك يحق لنا أن نقول، مرة أخرى، إن مسلمي مكة قاموا بدورهم في نشر دعوة الرسول ﷺ في جميع مراحل رسالته وأنهم شاركوا، نتيجة لذلك، بقسط وافر في إسلام من أسلموا من الكفار.

(٤) النص لا يتحدث عن انتشار الإسلام بين عرب الجزيرة. ولما كانت رسالة محمد ﷺ غير قاصرة على قريش، فلا بد أن الرسول وصحابته دأبوا منذ بداية الدعوة على إذاعتها على أوسع نطاق ممكن. ولا بد أنهم استغلوا كل الفرص التي كانت متاحة لهم لإبلاغ أكبر عدد من الناس بدعوة الإسلام. وكان موسم الحج يقدم لهم فرصة مثلى في هذا السبيل.

لقد كان الحجاج العرب منبئين في كل مكان: في المسجد الحرام وفي مختلف مشاهد الحج، وفي الخوانيت وفي الطرقات والأماكن العامة. ولم تكن شعائر العبادة تستغرق إلا بعضا من وقتهم، وكانوا بلا شاغل خلال ساعات طويلة كل يوم، وكان أحب ألوان التلهي إليهم بلا شك

الاستماع إلى أى شخص لديه شىء طريف يريد أن يقصه أو يعرضه، وكان الشعراء والقصاصون والمغنون والخطباء والكهنة وقارئات البخت يعطون ما لديهم لجمهور خالى البال سهل التقبل.

وكان المسلمون يملكون فى هذا الجو كل مقومات النجاح، وكان باستطاعتهم أن ينافسوا أفضل هؤلاء وأن يجذبوا إليهم اهتمام هذا الجمهور بجمال الكلمة وحكمة القول. أما تحذيرات قريش ضد المسلمين والأنبياء التى كانت تصل إلى أسماع الحجاج بشأن اضطهادهم فقد كانت ولا شك تزيد من فضولهم وتحفز أولئك من بيتهم الذين لم يتصل بهم المسلمون إلى الاستطلاع ومحاربة رؤية هذا الرسول الذى تدور حوله كل هذه الضجة.

والمتصور هو أن المسلمين كانوا ينظمون جلسات عامة للتعريف بدينهم يتضمن برنامجها تلاوة من القرآن وخطبة لشرح ما جاء فيها، ومناقشة فيها أخذ ورد. ولا بد أن الاستماع إلى ترتيل القرآن بصوت رخيم كان تجربة لا ينساها من عرفها لأول مرة. إن ما كانوا يسمعون لم يكن غناء. كذلك فإنه لم يكن شعرا كالشعر الذى كانوا يتشون لسماعه فى الاحتفالات والمناسبات والأسواق كسوق عكاظ، بل كان شيئا جديدا تماما، نغماته ولغته وإيقاعاته الموسيقية تخلق الألباب.

وكانت موضوعات القرآن هى الأخرى مختلفة عما ألفوه فى الشعر والغناء، فليس فيها غزل ولا وصف لمحاسن المحبوبة، ولا حنين للديار التى عاش فيها الشاعر زمنا ثم تركها لينصب خيامه فى مكان آخر، ولا وصف للصحراء وأمجاد القبيلة وسخاء رجالها وشجاعة محاربيها وهم يشرعون سيوفهم التى تلمع فى تراب المعارك وتحصد رؤوس الأعداء.

كانت آيات القرآن التى تتلى عليهم تتحدث عن إله واحد، قوى، رحيم، وعن التقوى والتواضع، وعن يوم يسمى يوم القيامة، وعن جنات وارفات الظلال، وجحيم ترتعد له الأوصال، وعن الأعمال الصالحة، وعن الأغنياء والفقراء، وعن دعوة عامة للإنفاق على المعوزين، وعن نهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن. كلام يتحدث عن عالم عجيب يخرج فيه الناس من قبورهم، وعن ملائكة وشياطين، وعن مناظر يشيب لهولها الولدان، وأبواب من الأمل مفتوحة على حياة أفضل فى ذلك العالم وجنات من النعيم لم يُسمع بمثل جمالها أبدا.

وبعد انتهاء التلاوة، كان الرسول ﷺ، فى الجلسات التى كان يرأسها، (أو أحد أصحابه فى تلك التى تعقد فى أماكن أخرى) يتحدث ويفسر الآيات التى استمع إليها الناس ويجيب عن أسئلتهم، ويشرح فى الوقت ذاته مبادئ الإسلام، . ولا بد أنه كان، هو وأصحابه، يتتبعون الفرصة لتكذيب الادعاءات التى كانت قريش تشيعها عن دينهم، وكان هذا الشرح يفضى أحيانا إلى مناقشات، ولا بد أن من الحجاج ومن عملاء قريش من كانوا يعترضون على بعض ما سمعوه من عرض أو شرح.

ولا بد أن مصدر القرآن كان من أهم الموضوعات التى كانت تثير الاعتراضات. ولا بد أن مصدره الإلهى، وتأكيد أنه كان يوحى إلى محمد ﷺ عن طريق ملك كانا كثيرا ما يقابلان بالشك، وأنه كان يقال أحيانا إن القرآن من صنع محمد ذاته، أو أن بشرا كان يلقيه آياته.

ولا بد أن محمدا والمسلمين كانوا يردون على هذه الاعتراضات بتلاوة مزيد من القرآن وبالتحدى الذى ورد فيه: أى أن يجتمع المعترضون فيما بينهم ويصنعوا سورا مثل سوره.

ولابد أن بعض المستمعين حاولوا ذلك، وأنهم حين عرضوا إنتاجهم على الناس أثاروا ضحكهم وسخريتهم.

ولابد أن هذه الجلسات كانت تنتهى دائما بفوز المسلمين وبإسلام بعض المستمعين فورا أو بعد حين. ولابد أنها كانت تجتذب جمهورا غفيرا، وتعتبر من المعالم البارزة فى كل موسم من مواسم الحج. ولابد أن الحجاج كانوا، حين يعودون إلى بلادهم، يتحدثون عنها فيما بينهم ومع أقاربهم ومعارفهم، حتى إذا لم يكونوا قد اهتموا إلى دين محمد، وأن حديثهم هذا، فى حد ذاته، كان دعاية للإسلام. أما إذا كانوا قد أسلموا، فإن هذه الدعاية كانت ولاشك تؤدي إلى إسلام أشخاص آخرين.

وإذا بحثنا فى النص عن وصف لما كان الرسول ﷺ وصحابته يقومون به من نشاط فى مجال الدعوة لما وجدنا له أثرا. لكننا نجد، على العكس، فى بداية حديث الفترة الثالثة، بعد جملة يقول فيها «فجعل أولئك النفر يقولون ذلك فى رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس» (أى أن محمدا ساحر جاء بقول هو سحر يُفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته) الجملة الآتية: «وصدرت العربُ من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها.» (*) وليس بين الجملة الأولى والجملة الثانية أى حديث عن لقاء أيا كان بين الرسول ﷺ أو المسلمين وبين الحجاج، وهو ما يدعو إلى الظن بأن الأنباء المتعلقة بمحمد، التى كان الحجاج يحملونها فى طريق عودتهم، هى فقط تلك التى زودتهم بها قريش تنفيذا لقرار سادتها وأشرافها.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٧٢.

أين كان المسلمون خلال موسم الحج الذى اتخذ بشأنه، ثم نفذ، هذا القرار؟ أين كانوا خلال المواسم التى سبقته وتلك التى تلتها حتى نهاية الفترة الثالثة؟ وكيف ترك المسلمون فرصا ذهبية كهذه الفرص لعرض الإسلام على العرب وهداية أكبر عدد منهم الى دينهم؟ النص، هنا أيضا، لا يرد.

على أن الحج لم يكن الفرصة الوحيدة المتاحة للرسول ﷺ وللمسلمين لنشر دينهم بين العرب غير المكين. ولابد، كما رأينا فى الفصل الثانى، أنهم عملوا على نشره باتصالاتهم فى السوق مع أعضاء القبائل التى كانت قوافلها تقدم إلى مكة لسبيع أو للشراء، وأثناء رحلاتهم هم فى أنحاء شبه الجزيرة. كذلك فإن سور القرآن ومبادئ الإسلام كانت تنتقل قطعاً من منطقة لأخرى من الجزيرة، وبين قبيلة وأخرى، بوساطة مسلمى هذه القبائل، ولابد أن أشخاصاً عديدين قد دخلوا الإسلام دون أن يظأوا أرض مكة أو يعرفوا الرسول أو واحداً من أصحابه. لكن النص ليس فيه أية إشارة الى هذه الحالات هى الأخرى.

٥) أخيراً فإن موضوع الهداية إلى الإسلام يعود بنا إلى مسألة سبق التعرض لها هى عدد مسلمى مكة فى آخر الفترة الثالثة. لقد ذكرنا أن النص لا يعطى فكرة عن هذا العدد، وأن الرقم الوحيد الذى تحت أيدينا هو عدد مهاجرى الحبشة أى ثلاثة وثمانون مسلماً. إلا أن هذا الرقم يزودنا بمادة تسمح بتقدير تقريبي لعدددهم. فإذا افترضنا - نظراً لافتقارنا إلى معلومات محددة فى النص - أن هذه الهجرة قد تمت بعد خمس أو ست سنوات من بدء الدعوة وقلنا، وهو أدنى فرض، إن مسلماً من كل عشرة مسلمين هاجر (أو نُفِيَ) إلى الحبشة، فإن عدد مسلمى مكة فى حوالى منتصف الفترة المكية، كان يناهز الثمانمائة

والثلاثين. وإذا افترضنا أيضا نسبة مضطردة من الزيادة في عددهم حتى نهاية الفترة، لتوصلنا إلى عدد قدره ١٦٦٠ بالنسبة لمسلمي مكة وحدهم. ومن المحتمل أن الرقم الحقيقي كان أكبر من هذا لأن هجرات أخرى غير الهجرة إلى الحبشة قد تمت، أغلب الظن، قبل هذه الهجرة، لكن النص لم يشر إليها.

(ب) الاضطهاد،

أن يترك ثلاثة وثمانون شخصا من الرجال والنساء، عدا الأطفال، ديارهم وأسرهم ووطنهم، وأن يقبلوا مخاطر عبور البحر الأحمر، وهي مخاطر كانت لا يستهان بها، للإقامة في بلد لا يعرفون لغته ولا أهله ولا عاداته، وفرص العمل فيه معدومة أو شبه معدومة، واحتمالات عداء سكانه كبيرة - حدث غير عادي في مجتمع انفصال الفرد فيه عن قبيلته كان نوعا من الانتحار. وإذا كان ما دفع هؤلاء الناس إلى التروح عن بلدهم هو الاضطهاد فلا بد أن هذا الاضطهاد كان واسع النطاق لاسيما إذا لم يكن من فعل قبيلة أو قبيلتين بل كان من فعل عدد كبير من القبائل. وكان المفروض أن يخصص النص لمثل هذه الظاهرة مساحة تتناسب مع أهميتها يطلع القارئ فيها على أسماء من اضطهدوا، وأسماء قبائلهم وعشائرتهم، وأسماء من كانوا مكلفين بتعذيبهم ونوع التعذيب الذي سلط عليهم.

وكان المتوقع من النص أيضا أن يوضح ما إذا كان هذا التعذيب يتم في الخفاء أو على مرأى ومسمع من العشيرة وحدها أو، كما في حالاتي بلال وآل ياسر، على رؤوس الأشهاد ليعلم القاصي والداني مدى صرامة العشيرة في معاملة من ينشقون عليها من أفرادها، وأن يذكر ماذا كانت ردود فعل من كانوا يشاهدون مناظر التعذيب هذه، وما إذا كان

أفراد العشيرة يصفقون لتصرف رؤسائهم أو يستهجنونه، وما إذا كان من أمهات أو أخوات أو زوجات من يتعرضون للتعذيب من كان يغشى عليهن أو تولولن من هول ما ترينه، وما إذا كان ضحايا التعذيب أنفسهم يصرخون من الألم، ويطلبون الرأفة، أو يتحدّون جلاّديهم ويشتمون رؤساءهم، أو يتضرعون إلى الله، أو يطلبون النجدة من الرسول، أو يرددون عبارات التجديف التي كان يطلب منهم ترديدها، وما إذا كانت الثورة على سياسة التعذيب لم تدفع نفرا من أقارب ضحايا التعذيب أو بعض المشاهدين إلى رفض دينهم والتحول إلى الإسلام، وما إذا كان الرسول ﷺ وأصحابه يحضرون هذه الجلسات، وماذا كان موقفهم وماذا كانت تعقيباتهم؟ وما إذا كان بعضهم لم ينحمل على القائمين بالتعذيب أو لم يتدخل لإيقافه، وما إذا كان هناك تنافس بين القبائل في شدة الاضطهاد، وأى القبائل تميزت بقسوتها، وما إذا لم يكن رئيس كل قبيلة، قبل بدء جلسات التعذيب يخاطب الحضور ويوجه أصبع الاتهام إلى محمد ﷺ باعتباره المسئول عما حاق ويحيق بأتباعه، ويندد بالشرور التي جرّها الإسلام على الناس وينذر مشيرى الشغب من أفراد قبيلته بأنهم سيلاحقون ويعاقبون بغير رحمة ولا هوادة، وما إذا كانت هذه الجلسات تعقد خارج مواسم الحج والأشهر الحرم الأربعة أو طوال العام ليرى العرب مدى حرص مكة على حماية دين الآباء والأجداد، وماذا كان رأى حجاج مختلف القبائل: هل أبدوا رضاهم لسلطات مكة أو أن بعضهم وجد أن التعذيب مبالغ فيه أو غير كاف؟ وما إذا كان الحجاج القادمون من خارج مكة قد أشركوا في اتخاذ القرارات المتعلقة بمعاملة المسلمين أو أبدوا رأيهم بشأن تدابير القمع التي طبقت ضدهم، إلخ.

إن شيئا من هذه البيانات لم يرد في النص . وقد أسدل النص ستارا من الصمت على هذه الظاهرة التي كانت ، بكل تأكيد ، مع إخراج المسلمين واعتقالهم في الحبشة ، أفزع الظواهر في الفترة الثالثة . والحيز المخصص لها في حديث هذه الفترة أقل ، مثلا ، من ثلث الحيز المخصص ، في حديث عبدالمطلب ، لقصة الآتي الذي كان يأتيه وهو نائم ليأمره بحفر زمزم والأعمال التي قام بها تنفيذا لهذا الأمر ، وهو أقل من نصف الحيز المخصص في حديث الفترة الثالثة لقصيدة أبي طالب الطويلة التي ستحدث عنها والتي يُشك في صحتها .

وفيما يلي كل ما ذكره النص تقريبا عن اضطهاد المسلمين :

- لما رأت قريش فشوا الإسلام وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، ويرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم . ومن المسلمين من فتن من شدة البلاء الذي يصيبه ، ومنهم من صلب لهم .
- بلال بن رباح ، الذي كان لبعض بني جُمح ، كان أمية بن خلف يخرجّه إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، لكن بلالا لم يقل كلمة الكفر .
- كانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة ، وقد قتلوا أمه وهي تأبى إلا الإسلام .
- أراد رجال من بني مخزوم أن يأخذوا أحد أبناء الوليد بن المغيرة لمعاقبته على إسلامه ، لكن أخاه ، الذي لم يكن يعارض في فكرة التأديب ، هددهم بقتل رئيسهم إذا أزهقوا روحه ، ففضلوا العدول عما كانوا اعتزموه .

- ثلاثة أو أربعة من مهاجرى الحبشة الذين عادوا الى مكة حُبِسوا فيها لفترات طويلة أو قصيرة.

والطريقة التى عالج بها النص موضوع اضطهاد المسلمين تثير الملحوظات التالية:

(١) قرار تعذيب المسلمين حتى يرتدوا عن دينهم ما كان يمكن أن يُتخذ دون مشاورات عديدة بين قبائل قريش فى اجتماعات يبحث فيها موقف كل منها ويجرى فيها التنسيق بين سياساتها إزاء الخطر الذى كان يمثله الإسلام بالنسبة لها. ولا بد أن هذه الاجتماعات كانت أهم الاجتماعات التى عقدت فى مكة خلال الفترة الثالثة كلها.

والثابت أن النص لا يتحدث عن هذا التنسيق وهو، بالتالى، لا يذكر ما إذا كان قرار اضطهاد المسلمين قد اتخذ بالإجماع، أو أن بعض قبائل قريش مانعت فيه لأسباب تتعلق بها أو لمجرد أنها لا ترى سببا لتعذيب أفرادها المسلمين فى الوقت الذى يحمى بنو عبدالمطلب وبنو هاشم فيه محمدا.

(٢) النص لا يذكر كذلك ما إذا كان ممثلو قبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم حضروا هذه الاجتماعات، كما لا يذكر الأسباب التى كانوا يفسرون بها غيابهم إذا كانوا قد امتنعوا عن حضورها. وإذا كانوا قد حضروا فإن النص لا يذكر ماذا كانت إجابتهم على الملحوظة السابقة، أو ماذا كان رأيهم فى مبدأ الاضطهاد ذاته. هل قالوا إنهم يمارسون الاضطهاد بالفعل على جميع أعضائهم، ما خلا محمدا؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف سوغوا هذا الاستثناء؟ وإذا كانوا قد أعلنوا عن عدم استعدادهم لاضطهاد أفرادهم المسلمين، هل اعترضوا أيضا على اضطهاد القبائل الأخرى لأفرادها المسلمين، أو أنهم أيدوا هذا الاضطهاد؟ أو

قالوا إن المسألة غير مطروحة في قبيلتهم لأن عدد من أسلموا فيها لم يكن يزيد على الثلاثة!

(٣) حالتا التعذيب اللتان وردتا في النص - أي حالة بلال وأسرة ياسر - ليس فيهما الكفاية إطلاقاً لتصوير ضخامة ظاهرة الاضطهاد، الذي كان حرباً حقيقية أعلنت على الإسلام في مكة.

وإذا عرفنا أن سبعة أفراد من عشيرة بني عبدالدار ابن قصي وأربعة عشر فرداً من عشيرة بني سهم، وخمسة عشر فرداً من عشيرة بني جُمح مثلاً هاجروا إلى الحبشة، لأدركنا أن هذا الاضطهاد قد بلغ مداه. وأسماء ضحايا هذا الاضطهاد، وأسماء من تَفَدَّوه، ونوع إجراءات التعذيب التي اتخذت ضد المسلمين والظروف التي جرى فيها كانت، على الأقل في أخطر الحالات، جذيرة بالذكر في النص بشيء من التفصيل.

وكان من المهم كذلك أن يتضمن النص هذه البيانات إذا كان التعذيب قد أفضى إلى الموت أو ترتب عليه عاهة أو إصابات تعذر علاجها.

(٤) إن قيام ثمانية وعشرين من عشائر قريش التي هاجر نفر من أفرادها إلى الحبشة، للمرة الأولى في تاريخها، باضطهاد أفرادها المسلمين لا لجرائم ارتكبوها بل لأنهم آمنوا بدين غير دينها، وإهدارها قواعد الوحدة القبلية التي تقررت منذ وجدت القبيلة يدل على أن العشائر المذكورة كانت تشعر بأن زيادة عدد المسلمين فيها خطر حقيقي على وجودها وبأن استخدام الهوادة في مكافحتهم لا يجدي.

٥ - لا بد أن فكرة حل المشكلة بقتل محمد قد عُرِضت على بساط البحث حين اتخذ خطر الإسلام على النظام المكي أبعاداً مقلقة، وحين وصل الأمر بالقبائل المكية إلى أن تضطهد أفرادها ذاتهم.

ومسوغات المطالبة برأس محمد ﷺ تكن قليلة حين لم تعد مشكلة قريش مع محمد هي كونه يتقدمهم هم وآبائهم ودينهم، بل أصبحت الخطر الحقيقي والوشيك الذي كان هو وأصحابه يمثلونه بالنسبة لمكة.

وما كان بوسع أبي طالب أن يرد على هذه الحجة. وتهديد قريش بحربه هو وابن أخيه - إن صح أنه كان هناك مثل هذا التهديد وهو ما أشك فيه - كان مكانه في سياق الاضطهاد الشامل ضد المسلمين في منتصف الفترة الثالثة، لا في أولها. لكن النص لا يشير أية إشارة إلى فكرة قتل الرسول في هذا السياق. ولهجة سادة قريش وأشرافها في لقائهم بأبي طالب الذي اختتم الفترة الثالثة لا يمكن إطلاقا وصفها باللهجة القتالية.

وهكذا يريد منا النص أن نصدق أن القبائل التي كانت تضطهد أفرادها وتضطهرهم إلى الهجرة أو تنفيهم كانت، في الوقت ذاته، على استعداد لقبول استمرار محمد ﷺ في عملية نفس مجتمعهم تحت سمع عمه وبصره وتحت حماية قبيلته.

(٦) ومن غرائب هذا الجو المحيط الذي يشكل خلفية الاضطهاد والهجرة أيضا أن فكرة حبس الرسول ﷺ أو إخراجه لم ترد في حديث هذه الفترة. ومع ذلك فلا بد أن هذا الخيار كان معروضا باعتباره حلا وسطا مناسبا لأولئك الذين لم يكونوا يريدون قتل محمد وأولئك الذين لم يكونوا يريدون تركه يواصل دعوته.

(٧) بطولة بلال وآل ياسر أمام التعذيب لم تكن، ولا شك، البطولات الوحيدة التي حدثت في مكة. ولأن النص لم يسجل هذه البطولات فقد سقطت نهائيا من التاريخ. كذلك فإن النص لا يعطي أمثلة للمسلمين الذين قال إنهم قُتوا تحت التعذيب، كما أنه لا يذكر

عددهم ولا ظروف ردتهم، ولا يوضح موقف عشائرتهم وموقف المسلمين حيالهم، ولا ما آل إليه مصيرهم: هل ظلوا فى الحبس أم أطلق سراحهم، وما إذا كانوا، فى هذه الحالة الأخيرة قد استأنفوا حياتهم المعتادة، أم أن بعضهم انتهر الفرصة ليهاجر؟.

(٨) النص لا يذكر شيئاً عن اضطهاد المسلمين خارج مكة. ومع ذلك فإن الإسلام، كما رأينا فيما سبق، ما كان يمكن أن يكون، على مدى تسع سنوات من البعثة، ظاهرة قاصرة على مكة. بل إن من المؤكد أن انتشاره فى مختلف مناطق شبه الجزيرة وبين قبائلها كان أيسر منه فى مكة، فإن المصالح المادية وتلك المتعلقة بالسلطة لم تكن فى كل مكان، كما فى مكة، مرتبطة ببقاء الديانة القديمة وبقاء الأوضاع الاجتماعية والسياسية على حالها دون تغيير.

على أن هذا لا يمنع أن المسلمين فى بعض المناطق ولدى القبائل المتمسكة بعبادتها الوثنية وبنظامها القبلى، ولدى القبائل المتحالفة مع قريش، كانوا فى موقف مشابه لموقف إخوانهم فى الدين بمكة، وأنهم بدورهم ذاقوا الأمرين من الاضطهاد والتكيل.

ولم يسجل النص صفحات البطولة أو الضعف التى سطرها هؤلاء المسلمون، فقد ضاعت هى الأخرى من التاريخ.

(٩) فى حالات الحبس التى تحدث عنها النص ليس هناك مثل محسوس لمسلمين مضطهدين، والأشخاص الوحيدون الذين يتحدث عنهم النص هم: سلمة بن هاشم بن المغيرة، وهشام بن العاص، وعبدالله بن سهيل، وكانوا ثلاثتهم ضمن من عادوا من الحبشة لا ضمن من اضطهدوا. كذلك لا يعطى النص أى تفصيل عن الأماكن التى حبسوا فيها، ولا عن حالة حبسهم.

١٠) هذه الصورة المتعلقة باضطهاد المسلمين ، هل تتغير إذا ثبت أن الهجرة إلى الحبشة كانت نفياً وإبعاداً منظماً موكلته وأشرفت عليه قريش؟ من الممكن أن تكون الإجابة بالنفى لأن حياة هؤلاء الأشخاص كانت أغلب الظن ، أشبه بحياة نزلاء معسكر من معسكرات الاعتقال منها إلى حياة المهاجرين الطوعيين .

ولابد أن الإبعاد والاعتقال في هذه المعسكرات كانا، في هذه الحالة، أقصى عقوبة يعاقب بها أخطر عناصر المسلمين . وليس هناك، على أى حال، ما يمنع من تصور أن بعض هؤلاء الأشخاص قد عذبوا قبل إبعادهم، لكن انشغال النص بالمناقشة التي يذكر أنها دارت بين جعفر وعمرو بن العاص صرفه عن توضيح ذلك!

ج) الهجرة إلى الحبشة،

يشير حديث هذه الهجرة الملحوظات التالية:

١) للمرء أن يتساءل أولاً عما إذا كان في الإمكان تصديق الخبر الذي مؤداه أن الرسول ﷺ نصّح المسلمين بالهجرة إلى الحبشة فراراً من اضطهاد قريش . ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي لا يُشك في حكمته، ما كان يقدم مثل هذه النصيحة إلا إذا كانت لديه معلومات كافية تطمئنه على عدة مسائل:

أ- على قدرة أصحابه المهاجرين على العثور على عمل أو على ممارسة نشاط في الحبشة يسمح لهم بكسب قوتهم.

وهنا تثار مسألة: ما هو النشاط الذي كان يمكن لهؤلاء المسلمين الذين كان أكثرهم، في الغالب، تجاراً أو عمالاً أو موظفين لدى تجار، والذين لا يعرفون من اللغات إلا العربية أن يقوموا به في الحبشة، علماً، على الأخص، بأن الأجانب من غير ذوى الثروة أو المصلحة الذين

يفدون الى بلد ليس فيه من يتكفل بنفقات معيشتهم يعتبرون عادة غير مرغوب فيهم، أو حتى أعداء، ويتعرضون للطرد أو للأسر أو للقتل؟

ب- على قدرتهم على أن يعيشوا فى جوار حسن فى المجتمع الذى كان عليهم أن يقيموا فيه . والحاصل أن اختلاف اللغة والعادات والعقيدة كان عائقا يحول دون هذا الجوار . وذكريات هزيمة أبرهة وجيشه على أبواب مكة لم تكن، بالإضافة إلى ذلك، تهىء نفوس الأحباش لتقبل وجود العرب بين ظهرائهم بصدر رحب .

ح - على أمنهم : وعلى الرغم من أن شيئا فى النص لا يشير إلى أن الرسول ﷺ كانت تربطه علاقات بالحبشة، هذا البلد البعيد، أو أنه كان يتلقى أخباره، وإذا افترضنا جدلا أن الرسول ﷺ كانت لديه أسباب تحمله على الاعتقاد بأن النجاشي «ملك لا يظلم عنده أحد» فإن ذلك، فى حد ذاته، لم يكن يكفل للأجانب المقيمين فى بلد ذلك الملك ظروفًا مثلى للأمن، إذ أن الجرائم كانت ، ولا تزال، ترتكب كل يوم فى كل البلاد، بما فى ذلك البلاد التى تتمتع بأفضل الحكومات .

ولو أن الرسول ﷺ كانت لديه معلومات كافية عن الحبشة لعلم ولاشك، من جهة ، أن الحبشة بلد مساحاته شاسعة وطبيعته جبلية، وأن سكان المناطق الجبلية وقبائلها لا يخضعون خضوعا كاملا فى العادة لسلطات البلد المركزية، وأن هؤلاء السكان أو هذه القبائل، أو حتى بعض العصابات المسلحة، كانوا يشكلون تهديدا للمسلمين العرب العزل الذين لم يكن فى مقدورهم الاعتماد على جالية من جنسهم لحمايتهم عند الخطر، ولعلم كذلك أن الحبش - إن صح ما يذكره النص - كانوا قوما لا يؤمن جانبهم ولا يتورعون عن الاعتداء والقتل بما فى ذلك قتل مليكهم، لا لأنه كان يسيء حكمهم، أو لأنه كان ظالما، وإنما لسبب

واحد هو أنه لم يرزق إلا بولد واحد، وأنهم لا يكفلون للمهاجرين الى بلدهم ضمانات السلم والأمن التى يرجوها المرء لمؤمنين فارين من الاضطهاد.

وللمرء، بناء على ذلك، أن يشك فى صحة ما ينسبه النص للرسول ﷺ من أنه كان يشجع أصحابه على الهجرة إلى الحبشة.

(٢) ومن الأمور التى لا يقبلها العقل أيضا ما يدعيه النص من أن قريشا أوفدت مبعوثين إلى الحبشة لاستعادة مهاجرى مكة المسلمين، وذلك للأسباب الآتية:

أ- من الغريب ، بدلا من أن تُسرَّ مكة لرحيل عشرات من المسلمين الذين كانوا يهددون نظامها العام، أن تحاول استردادهم لتفتنهم عن دينهم، علما بأنها لم تفعل شيئا لمنعهم من الرحيل!

ب- كيف لم يشك المسلمون الثلاثة والثلاثون الذين عادوا إلى مكة، بعد وقت قليل من فشل مهمة هذين المبعوثين، فى الأنباء التى جاءتهم عن إسلام أهل مكة، وكيف لم يفكروا فى استشارة النبی ﷺ فى أمر عودتهم أو فى الرجوع الى مصدر للمعلومات جدير بالثقة؟

ج- لو أن قريشا كانت هى التى روجت هذه الأنباء الكاذبة لتوقعنا أن تُلقى عشائر المهاجرين القبض على أفرادها العائدين وأن تعذبهم حتى تفتنهم عن دينهم، إذ أن هذا هو المقصد الذى من أجله رغبتهم فى العودة إلى مكة. وكان المفروض، بالمناسبة ذاتها أن تمنع القبائل إيجارتهم.

والحاصل أن النص يخبرنا أن سلمة بن هشام بن المغيرة كان الوحيد الذى حبسه عمه لدى عودته وأن باقى المهاجرين الذين عادوا إلى مكة

تمكنوا من الاستخفاء أو أجبروا. ولا يذكر النص سوى حالتين فقط من هذا النوع هما حالتا أبو سلمة الذي أجاره خاله أبوطالب، وعثمان بن مظعون الذي أجاره الوليد بن المغيرة.

د- من الصعب تصديق ما يقوله النص من أن النجاشي حين سمع ترجمة جزء من سورة مريم بكى حتى أخضلت لحيته وأن أساقفته بدورهم بكوا حتى أخضلوا مصاحفهم. ومما يلفت النظر في هذا الصدد أن النص لا يحكى واقعة واحدة جاشت فيها عواطف قوم من العرب إلى درجة البكاء حين كان الرسول ﷺ ذاته يتلو عليهم بلغتهم آيات من القرآن الذي أنزل عليه.

هـ - تحدث جعفر في العرض الذي قدمه أمام النجاشي عن الصوم، والواقع أن الصوم لم يتقرر إلا في الفترة المدنية.

٣) لن نتوقف هنا عند النبذة التاريخية التي وردت في النص عن ظروف تنصيب النجاشي على عرش الحبشة ولا عند الأحداث اللاحقة (الحرب مع منافس له على العرش، وثورة الشعب على هذا النجاشي، والحيلة التي لجأ إليها لتهدئة خواطريهم... إلخ) ، فإن هذه الأحداث، علاوة على كونها لا تتعلق بموضوعنا بصورة مباشرة، أكثر شبهاً، في الواقع، بقصص الأطفال منها إلى التاريخ.

٤) ذكر هذه الموجة غير العادية من موجات الهجرة يشير أخيراً عدداً من التساؤلات: كيف وصل هؤلاء المهاجرون إلى الحبشة؟ من الشمال أو بعبور البحر الأحمر عن طريق اليمن؟ ما هو الميناء الذي أبحروا منه؟ هل كانت السفن التي نقلتهم مملوكة لعرب أو لأحباش؟ هل أبحر الرجال مع أسلحتهم أم دون سلاح؟ هل تمت رحلتهم دون حادث أم أن قراصنة أو أفراداً بلا ضمير من الطاقم سرقوهم أو أساءوا معاملتهم؟ كيف عوملوا

لدى وصولهم إلى الحبشة؟ هل حاول أحد أن يسترقهم؟ فى أى ميناء أو منطقة نزلوا؟ هل كان من بينهم من يعرف لغة الحبشة كى يشرح للسلطات المحلية أسباب مجيئهم إلى بلادهم؟ ألم يصادفوا صعوبات فى الحصول على إذن بالإقامة؟ كيف كانت أحوال إقامتهم وماذا كانت مواردهم المالية؟ هل أحضروا معهم ذهباً أو فضة كى يدفعوا ثمن ما يشترونه، أم أن الرجال وجدوا عملاً يرتزقون منه فى البلد الذى نزلوا به؟ أى عمل؟ ماذا كانت علاقات هؤلاء المهاجرين بأهل البلد؟ هل اكتفوا بمعيشة هادئة بعيدة عن المشاكل أم دعوا لدينهم؟ هل كانوا يعيشون فى عزلة أم حاولوا أن يندمجوا فى الأهالى؟ هل كانوا يؤدون صلواتهم علناً أم كانوا يستخفون بها؟ هل بنوا مسجداً؟ إذا كانوا قد دعوا إلى دينهم، كم كان عدد من اهتموا على أيديهم؟ ماذا كان موقف رجال الدين النصارى حيالهم؟ هل أظهروا لهم العداء كما فعلت قریش، أو تركوهم يدعون إلى دينهم فى سلام؟ وإذا كانوا قد أظهروا لهم العداء، كما هو طبعى، فهل سعوا فى طردهم من البلاد؟ ما اسم المدينة أو القرية التى عاشوا فيها؟ ما هى الصعوبات التى صادفوها فى حياتهم العادية؟ لما كان عدد النساء العربيات بين المهاجرين إلى الحبشة أقل من ربع عدد الرجال، هل حدثت حالات زواج بين مهاجرين مسلمين وحبشيات؟ ماذا كان اسم النجاشى؟

إن النص، الذى يكثر من التفاصيل عن مسائل تافهة من كل نوع، لا يزودنا بإجابات عن هذه الأسئلة البديهية.

والنتيجة التى تستخلص من مجموع هذه التساؤلات والملاحظات والفراغات هى أن جانباً كبيراً من حديث النص عن الهجرة إلى الحبشة ترد عليه تحفظات.

إن كون مجموعة تتكون من ثلاثة وثمانين من مسلمى مكة وصلت إلى مكان ما فى الحبشة أمر لا محل للتشكيك فيه، لكن الجزء المتعلق بمهمة مبعوثى قريش لدى النجاشى، على الأرجح، تركيبة تهدف إلى إقناع القارىء بثلاث دعاوى رئيسية هى:

- أن جعفرًا ، فرد قبيلة الخلفاء العباسيين ، وليس عثمان بن عفان، الذى سيكون خليفة والذى هو فرد من قبيلة الخلفاء الأمويين، هو الذى كان الناطق بلسان مهاجرى الحبشة على الرغم من صغر سنه.

- أن جعفرًا انتصر على عمرو بن العاص فى المناقشة التى دارت بينهما أمام النجاشى (وعمر بن العاص كان ممثل معاوية فى التحكيم الذى أعقب معركة صفين (٣٧ هـ / ٦٥٧ م) والذى أعلن أن معاوية هو الخليفة، على حساب على كرم الله وجهه).

- أن جعفرًا كان له الفضل الكبير فى هداية النجاشى إلى الإسلام (ومن الغريب أن النجاشى كان الشخص الوحيد الذى نجح جعفر والمهاجرون الاثنان والثمانون الآخرون فى هدايته إلى الإسلام خلال فترة إقامتهم فى الحبشة التى دامت عدة أعوام).

كان المقصود إذن، من وراء هذا الحديث، تسجيل أفضل لصالح بنى العباس ضد بنى أمية وضد عمرو بن العاص الذى كان من أعظم أعوانهم، وأن يضاف، بإسلام النجاشى، مجد جديد إلى مجموعة أمجاد بنى عبدالمطلب وبنى هاشم المصطنعة، وكان المقصود أخيرا إخفاء موضوع الاضطهاد الذى اضطر جعفرًا إلى الهجرة ، تحت هالة الشرف التى أحاطه بها النص.

إن إقامة ثلاثة وثمانين مسلما عدة سنين فى أرض الحبشة تبدو لنا أقرب الى العقل اذا نظرنا إليها من زاوية أخرى هى زاوية النفى . وفى

رأى أن رؤساء قبائل قريش، الذين أقض مضاجعهم نجاح الدين الجديد، انتهوا إلى أن مكة، لافتقارها إلى سجون يمكن أن يحبس فيها المسلمون المنشقون، الذين كان عددهم في تزايد مستمر، بوسعها أن تتخلص من أخطر عناصرهم بنفيهم في بلد بعيد، وأن هذا النفي يحقق غرضين، أولهما: هو استبعاد الخطر الذي يمثلونه على النظام القائم، والثاني: إرهاب من سبق أن أسلموا، وتثبيط همم من يفكرون في اعتناق الإسلام.

ولابد أنهم عقدوا اتفاقا مع سلطة محلية في الحبشة بشأن حبس عدة عشرات من مواطنيهم غير المرغوب فيهم، تصحبهم أحيانا زوجاتهم وأولادهم، وإطعامهم ومراقبتهم، على أن تتلقى السلطة المذكورة مقابلا للخدمات التي تقدمها والتكاليف التي تتحملها في هذا الصدد.

ولابد أن كل قبيلة اختارت من بين أفرادها من كانت ترى أنهم عناصر نشطة وخطيرة ونفتهم إلى الحبشة وحرمت عليهم دخول مكة لفترة معينة. وكان المكان الذي أودع فيه هؤلاء المسلمون يؤدي، بصورة ما، وظيفة السجن أو معسكر الاعتقال أو مستعمرة ما وراء البحار، التي توجد لها أمثلة في التاريخ.

ومن يدعى النص أنهم كانوا مهاجرين في الحبشة لم يكونوا في الواقع سوى نفر من المسلمين الذين حكم عليهم بالنفي لجهادهم الذي اعتبرته قبائلهم، على وجه الخصوص، وقريش عموما، نشاطا يهدف إلى زعزعة النظام القائم.

(د) هجرات أخرى؟

أخيرا هناك سؤال يرد بصورة طبيعية إلى الذهن لدى قراءة الصفحات التي يخصصها النص لموضوع الهجرة إلى الحبشة، هو: هل كانت

هناك، قبل الفترة المكية الثالثة وبعدها، موجات هجرة غير هجرة «مهاجري» الحبشة الثلاثة والثمانين؟ النص لا يتحدث عن أية هجرة أخرى ولكن شيئاً، في نظري، لا يمنع هذا الاحتمال.

وفي رأيي أن من غير المستبعد أن يكون بعض المسلمين الذين كانوا ينتمون إلى قبائل تعذب أفرادها المسلمين وتنفيهم أو تقيم في وجوههم صعوبات كثيرة في حياتهم اليومية قد فكروا في الهجرة هرباً من هذه الإجراءات والصعوبات، ولم يكن ذلك بالأمر السهل في نظام كان ارتباط الفرد فيه بقبيلته قويا إلى درجة تعرضه لفقد هويته ولكل ألوان المخاطر، بما في ذلك خطر الوقوع في الأسر والاسترقاق أو خطر الموت، إذا قطع ما يربطه بها من وشائج.

على أن هذا الوضع فقد شدته بظهور الإسلام، الذي أنشأ بين المسلمين أخوة في الله إذا كانت لا تحل محل صلات القبيلة إلا أنها تخلق تكافلاً في الدين يزدوج مع التكافل القبلي ويمنع الرجل الذي يترك قبيلته أو الذي طرده قبيلته من الوقوع في هوة بلا قرار.

وينبغي من جهة أخرى أن نأخذ في اعتبارنا حقيقة شبه مؤكدة هي أن الإسلام والقرآن فشيا في أنحاء الجزيرة العربية وكسبا لرسالة محمد ﷺ مناطق وقبائل أو جماعات من الأشخاص لم تكن لديهم في محاربتها الأسباب نفسها التي كانت لدى قريش.

وإذا كان الأمر كذلك فما يقبله العقل أن يكون المسلمون الذين أصبحوا غير مرغوب فيهم بين قبائلهم بسبب دينهم الجديد أو الذين يخشون التعذيب قد سعوا إلى الهجرة بمحض إرادتهم ووجدوا ملاذاً لدى إخوانهم في الدين المقيمين في مناطق أخرى. كذلك فلا بد أن قبائل

عربية منافسة لقريش أو بينها وبين قريش حزازات عرضت أن تقبل وتستضيف هؤلاء المسلمين الذين تخصمهم قبائلهم.

ومن المعقول فضلا على ذلك أن تكون الأمة الإسلامية المتنامية في مكة قد استخدمت علاقاتها التجارية والعائلية مع القبائل «الأجنبية» - حتى إن لم تكن أسلمت - كى تقبل فى كنفها بعض المسلمين الراغبين فى الهجرة. ومن المحتمل جدا أن يكون عدد من هؤلاء قد هاجر إلى المدينة خلال الفترة المكية.

ومن ثم فإن الهجرات لم تكن، على الراجح، تتم فى اتجاه واحد، انطلاقا من مكة. ولا بد أن هجرات أخرى حدثت فيما يتعلق بمسلمى المناطق أو القبائل غير المكية الذين كانوا، كمسلمى مكة، موضع الاضطهاد أو إساءة المعاملة من جانب قبائلهم. ولا بد أنه كانت هناك فى مناطق مختلفة من شبه الجزيرة تحركات، على سبيل الهجرة، للأشخاص بأعداد أكبر من عدد مسلمى مكة الذين «هاجروا» إلى الحبشة.

وإذا كان النص لم يتحدث عن هذه الهجرات، وإذا كان يدعى أن الهجرة الوحيدة التى حدثت بعد الهجرة إلى الحبشة هى هجرة الرسول ﷺ والمسلمين إلى المدينة، فإن مرجع ذلك هو - كما سنرى - أن مؤلفه يعتبر أن مسلمى المدينة هم الوحيدون الذين استضافوا الرسول ﷺ وإخوانهم المكيين فى الدين والذين فتحوا، نتيجة لذلك، طريق النصر العسكرى للإسلام واستحقوا لقب «الأنصار» الفخرى الذى جاء ذكره فى القرآن.

هـ) المقاطعة،

المقاطعة التى يقول النص إن قريشا قررتها ضد بنى عبدالمطلب وبنى هاشم كعقاب لتأييدهم الرسول ﷺ تشير الملحوظات الآتية:

(١) قصة هذا الحدث الذى يعتبر من أهم أحداث الفترة المكية لا تحتل فى النص، أولاً عن آخر، سوى عشرة أسطر، (*) والنص، كأمر واقع، لا يقول شيئاً عن الظروف التى تمت فيها المقاطعة: ما الذى حمل أبا طالب على ترك مسكنه فى مكة ليقيم فى شِعْبِهِ؟ كم كان عدد أفراد هاتين القبيلتين الذين انضموا إليه؟ كيف كانوا يعيشون؟ ما الذى جعلهم يتركون دورهم وخيامهم للانضمام إليه؟ ما هى المشاق التى تربت على انتقالهم الى الشَّعْب فى حياتهم اليومية؟ ماذا كان مآل محالهم التجارية والديون التى كانت لهم على أهل مكة والديون التى كانوا مدينين بها لهم؟ ما الأثر الذى نتج عن غياب التجار والعاملين فى التجارة من هاتين القبيلتين فى السوق؟ هل أفلس بعض تجارهما؟ هل ترتب على إفلاسهم سلسلة من حالات الإفلاس كما يحدث عادة فى التجارة؟ ماذا كانت ردود فعل قبائل الجزيرة الأخرى حين علمت أن قريشا لفظت قبيلتين من قبائلها؟ كيف كانت هاتان القبيلتان تحصلان على طعامهما، وأى ألوان الحرمان فرض عليهما؟ ماذا كان موقف حلفائهما منهما؟ أكان بعض الطعام يصلهما بطريق التهريب؟ ما هى الإجراءات التى اتخذتها مكة للتحقق من تطبيق المقاطعة تطبيقاً دقيقاً؟ هل كان هناك من خالف أحكام المقاطعة غير هشام بن عمرو بن ربيعة الذى يتحدث عنه النص؟ كيف كان أفراد القبيلتين الذين فقدوا تجارتهم أو عملهم نتيجة للمقاطعة يقضون وقتهم؟ أكانوا يتسكعون فى انتظار رفع المقاطعة؟ أكان منهم من حاول أن يشتغل بالزراعة أو كان يخرج للصيد ليوفر لأقاربه ولو جزءاً مما يسد الرمق؟ أية نسبة من أغنامهم وأنعامهم ذبحوا كي يعيشوا؟ أكانوا يبعثون بعضهم لشراء الطعام من خارج مكة؟ هل حدثت حالات طلاق

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٥٠.

أو فسخ خطبة نتيجة للمقاطعة؟ هل وجهت إساءات لرجالهم ونسائهم الذين كان لهم أزواج من أفراد القبائل التي اشتركت فى المقاطعة؟ هل حاول بعض هؤلاء أن يرسلوا المؤن سرا إلى أقاربهم؟ هل حدثت حالات وفاة أو مرض خطير نتيجة لنقص التغذية بين بنى عبدالمطلب وبنى هاشم؟ هل قطعت الاتصالات تماما بين هاتين القبيلتين وبين قريش أم كانت هناك بين الحين والآخر محاولات لإصلاح ذات البين؟ ألم تفكر هاتان القبيلتان فى وقت من الأوقات فى الثورة على هذا الإجراء والقيام بعمل يهدف الى تحطيمه أو فى الهجرة؟ ألم يحاول أحد منهم، عن اقتناع أو لأسباب إنسانية نظرا للحالة المؤسسية التى آل إليها أقاربهم بعد شهور طويلة من الحرمان، أن يقنع محمدا بالعدول عن دعوته؟ ألم يحدث لفرد أو لآخر من أفراد القبيلتين أن انهارت مقاومته فانضم إلى أبى لهب وإلى قريش؟ ما من سؤال من هذه الأسئلة الأساسية حظى بجواب فى النص. وعلى العكس، فإننا نجد فى النص بيانا، فى عدة صفحات، عن الجهود التى بذلها خمسة من قريش لإنهاء المقاطعة. والنص يورد قصائد الشعر التى نظمت فى مدحهم، وهو يحكى قصة أعجوبتين صغيرتين وقعتا بشأن الصحيفة: فقد شلَّت أصابع كاتبها، كما أن الأرضة أكلتها إلا جزءها الذى كان مكتوبا فيه «باسمك اللهم».

(٢) النص لا يذكر شيئا كذلك عن الصعوبات والمشاق التى صادفها بنو عبدالمطلب وبنى هاشم حين اقتضى الأمر، بعد إلغاء المقاطعة، إعادة بناء ما أهدرته المقاطعة فى حياتهم وفى أعمالهم وتجارتهم خلال شهور عديدة، وهو لا يذكر ما إذا كان رفع المقاطعة مشروطا، وما إذا كانت قريش قد قبلت استمرار بنى عبدالمطلب وبنى هاشم - الذين لم يسلم منهم أحد فى هذه الأثناء - فى تأييد محمد ومنعه.

هذا، ويلاحظ أن النص لا يحدد متى دخلت المقاطعة حيز التنفيذ ومتى انتهت. والشئ الوحيد الذى يذكره عن مدتها هو أنها دامت ستين أو ثلاث سنوات. وعدم الدقة فى هذا البيان مستغرب فى حادثة بمثل هذه الأهمية.

والنتيجة التى تستخلص من شدة إيجاز الحديث المتعلق بالمقاطعة ومن عدم وجود مادة فيه تسمح بالرد على الأسئلة العديدة التى تثار بشأنها، من جهة أخرى، هى أن حديث هذه المقاطعة ترد عليه عدة تحفظات.

وتصوير بنى عبدالمطلب وبنى هاشم بأنهم كانوا ضحايا للمقاطعة التى فرضتها قريش يبدو لى جزءا من مخطط يهدف إلى إخفاء النوايب والآلام التى حاقت بالمسلمين فى مكة، ومن جهة أخرى إلى الإيحاء بأن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم كانوا الوحيدين الذين لحقهم الضرر من حماية الرسول ﷺ بمكة. وهى دعوى تمنح العباسيين سندا ثميناً لمشروعية خلافتهم.

إن من غير المستبعد أن تكون قريش قد قررت فرض المقاطعة. لكن هذا الإجراء لم يكن موجها ضد بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، وإنما، فى رأى، ضد مسلمى مكة، لأن التدابير التى اتخذتها قريش ضد المسلمين- كتعذيب الضعاف ونفى المناضلين- لم يبد أنها كانت كافية للقضاء على الإسلام، بل إن من غير المستحيل أن تكون قد انتجت عكس ما قصد منها وأسهمت فى زيادة عدد حالات الدخول فى الإسلام فى مكة.

ونظرا إلى أن قريشا - بما فى ذلك بنو عبدالمطلب وبنو هاشم - لم يكن فى مقدورهم تعذيب أو نفى كل من أسلم من سكان البلدة، فقد أضافوا السلاح الاقتصادى إلى ترسانة تدابير قمعهم بفرض مقاطعة تحظر

بيع أية سلعة للمسلمين أو شراءها منهم، وتحظر إقراضهم أو توظيفهم.
وفى النص أثر لهذه المقاطعة الاقتصادية جاء فى الخبر الآتى:

«وكان أبو جهل الفاسق الذى يُغرى بهم (أى بمن أسلم) فى رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنّعه، أنّبه وأخزاه وقال: تركت دين أهلك وهو خير منك، لنُسَفَّهن حِلْمك، ولنُقِيلن (أى لنقبحن) رأيك، ولنضعن شرفك، وإذا كان تاجرا قال: والله لنُكْسِدن تجارتك، ولنُهْلكن مالك، وإن كان ضعيفا ضربه وأغرى به»(*)

كانت هذه المقاطعة إذن فى منطق الأمور. ولا بد أنها فرضت لتخلق للمسلمين متاعب تتعلق بحياتهم من شأنها أن تمنعهم من الدعوة إلى دينهم أو، على الأقل، إلى التخفيف من حماسهم لدعوتهم. والنص، كما سبق أن ذكرنا، لا يميل إلى إطالة الحديث عن مسلمى مكة، وهو بالتالى يتحرز أن يدخل فى تفاصيل الولايات التى كانوا يعانونها، ولذلك فإنه لا يعطى أمثله للضرر الذى سببه لأصحاب الرسول ﷺ تنفيذ التهديدات التى صدرت عن أبى جهل والتى لابد أنها كانت جزءا من استراتيجية عامة اتبعتها قريش.

لكن لنا أن نعتبر أن هذه المقاطعة أضرت كثيرا بتجارة المسلمين، وأن الأذى الكبير الذى لحقهم من جرائمها كان من الأسباب التى أدت إلى نشوء فكرة الهجرة.

ولابد أن قريشا - بما فى ذلك بنو عبدالمطلب وبنو هاشم - قررت بالإضافة إلى هذه المقاطعة الاقتصادية مقاطعة اجتماعية ضد المسلمين بتحريم كل زواج بين رجالهم ونسائهم ونساء المشركين ورجالهم. وهذه

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٢٠.

المقاطعة الاجتماعية كانت بدورها شيئاً طبيعياً، فإن اختلاف الديانة، فى معظم المجتمعات، يعتبر حائلاً دون الزواج.

إن الشيء الذى فعله النص بصدد المقاطعة الاجتماعية - الاقتصادية، هو أنه اختلس من القرآن ومن مسلمى مكة الفضل فى تأييد الرسول ﷺ وحمایته، ومنّحه لقبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم الكافرتين، وهو كذلك أنه، كما قدّمت، أنكر على مسلمى مكة (لصالح القبيلتين ذاتهما) فضل المعاناة فى عيشهم فى سبيل عقيدتهم. والنص حين فعل ذلك إنما زيف التاريخ.

(و) الإخراج من المسجد الحرام:

طبقت قريش على المسلمين شكلاً آخر من أشكال المقاطعة هو منعهم من دخول المسجد الحرام. وقد ذكر النص شيئاً من ذلك فى قصة إسلام عمر. لكن الذى يفهم من النص بوضوح هو أن هذا الإجراء لم يطبق على محمد ﷺ فإن عديداً من الآيات القرآنية التى أوردتها النص تستند إلى ملحوظات أبدتها قريش للرسول ﷺ أثناء وجوده فى المسجد أو إلى وقائع حدثت فيه. ومن أمثلة ذلك:

- أن قريشاً حين عرضت على الرسول الثروة والشرف والملك، فعلت ذلك فى المسجد.

- المشهد الذى نرى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ويسجّواه جبريل والذى أصاب فيه أحد المستهزئين به بالعمى وأمات أربعة من سادة قريش بإشارة من يده، حدث فى المسجد.

- محاولتا الاعتداء ضد الرسول ﷺ من أبى جهل ومن زوجة أبى لهب حدثتا فى المسجد.

- كان الرسول في المسجد حين طلب الإراشي من بعض قريش الذين كانوا فيه أن يدلّوه على شخص يقبل معاونته في إقناع أبي جهل بأداء ما عليه له .

- أبوبكر كان مع الرسول ﷺ في المسجد حين تشاجروا مع الرسول وأخذه أحدهم بمجمع ردائه .

- إساءة أبي جهل للرسول التي ترتب عليها إسلام حمزة حدثت في المسجد .

- الطُّفَيْل بن عمرو الدَّوسِي حين رأى الرسول أول مرة رآه في المسجد .

فالنص حين يقدم لنا الرسول ﷺ يقدمه لنا معظم الوقت وهو في المسجد الحرام، وهو يقدمه لنا دائما - باستثناء حالة واحدة - بمفرده .

أما المسلمون فإن النص يخبرنا أنهم لم يتمكنوا من الصلاة في المسجد إلا بعد أن صلى فيه عمر عقب إسلامه الذي حدث بعد الهجرة إلى الحبشة، أي بعد ست أو سبع سنوات من البعثة . ويخبرنا النص أيضا أن عبدالله بن مسعود جهر في المسجد بتلاوة بعض آيات من القرآن وأن قريشا ضربوه في وجهه .

وهذه البيانات تشير عددا من الملحوظات والتساؤلات .

(١) والواقع :

أ- أن من المستغرب أن تترك قريش لمحمد ﷺ حرية الدخول في الحرم الذي فيه أصنامهم والذي كانوا يؤدون فيه عبادتهم، وهم يعتبرونه صابئا وزعيما للثورة الإسلامية والرجل الذي جعلهم ينكلون بأبنائهم وإخوتهم وأخواتهم .

ب- نحن لا نكاد نرى الرسول في المسجد بصحبة جماعة من المسلمين ، أو وهو يؤدي صلاة الجماعة معهم . هل معنى ذلك أن قريشا كانت تسمح له بدخول المسجد مع تحريم دخوله على المسلمين؟ أو أنهم كانوا يرخصون للمسلمين بدخوله بشرط ألا يؤديوا فيه صلوات الجماعة؟ لكن، إذا كان الأمر كذلك ، أين كان الرسول ﷺ يؤدي هذه الصلوات؟

ج - باستثناء حمزة الذي رأيناه وهو يضرب أبا جهل بقوسه في المسجد، لا يظهر النص أحدا من بنى عبدالمطلب أو بنى هاشم وهو يدافع عن الرسول ضد إساءات قريش.

د- ما السر في أن قريشا، التي ضربت عبدالله بن مسعود في وجهه لأنه جهر بقراءة القرآن في المسجد لم تمنع الرسول ﷺ من تلاوة القرآن في صلاته بصوت عال سمعه عمر والطَّفيل بن عمرو الدَّوسِي؟

(٢) جاء في قصة إسلام عمر، على لسان عبدالله بن مسعود: «ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه» (*). ولا يوضح النص ما إذا كان المسلمون قد صلوا مع عمر ذلك اليوم فقط أو أن عمر استطاع بمفرده أن يرغم قريشا على رفع الحظر المفروض على المسلمين جميعهم، بصورة نهائية. وهو لا يقول كذلك أين كان الرسول ﷺ حين كان المسلمون يؤديون صلواتهم. إن النص يتحدث عن المسلمين هنا، كما في حديث الفترة الأولى، كما لو كانوا يكونون كيانا منفصلا عن الرسول ﷺ.

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٢٤٢.

(٣) لو أن قريشا أذنوا لمحمد ﷺ وللمسلمين فرادى أو جماعات بدخول المسجد الحرام، وسمحوا على هذا النحو لكل أهل مكة وللحجاج برؤيتهم وهم يؤدون الصلاة ويتحدثون إليهم، فكيف كانوا يسوغون لأنفسهم أو يفسرون لسائر العرب السبب الذي يجعلهم ينگلون بهم؟ ألا يعنى سماحهم للمسلمين بالصلاة فى المسجد الحرام اعترافا بالإسلام؟ لقد كان هذا التسامح من جانب قريش مفهوما فى منطق الفترة الثانية المزعومة، أما فى منطق الفترة الثالثة فهو غير مفهوم.

(٤) لو أن الرسول ﷺ كان يتلو القرآن فى صلاته بالمسجد بصوت مسموع، فماذا كانت حاجة سادة قريش - الذين كانت لديهم وسائل أخرى للحصول على نص ما ينزل من قرآن - للذهاب كاللصوص فى عتمة الليل لاستراق السمع إلى ما يتلو الرسول من آيات فى صلاته من وراء الجدران؟

(٥) ليس من الواضح كيف استطاع عمر، لمجرد أنه تشاجر مع جماعة من الكفار، أن يثنى قريشا عن التزام قرارها بمنع دخول المسلمين الى المسجد. وإذا كانت مشاجرة ما كافية للتوصل إلى هذه النتيجة، لقد كان بين أصحاب الرسول ﷺ قطعا أكثر من رجل قادر على فعل ما فعله عمر، ولما كان على المسلمين أن ينتظروا إسلام عمر كى يفعلوه.

ولهذه الأسباب جميعا، لا يسع المرء إلا أن يشك فى صحة الأخبار التى فحواها أن الرسول ﷺ والمسلمين كانت لهم حرية دخول المسجد الحرام بصورة دائمة. والأرجح أن دخولهم كان، على العكس، محظورا منذ بداية الدعوة، ولا بد أن سلطات مكة قد اتخذت إجراءات خاصة لتكفل احترام هذا الحظر.

ومن غير المتصور أن تكون قريش قد تركت للرسول ومثات المسلمين الذين تبعوه حرية استخدام المسجد كمكان للاجتماع وكمبر لنشر آرائهم، التى كانت السلطة تعتبرها هدامة، بين أهل مكة والعرب القادمين من خارجها.

وكان حظر دخول المسلمين إلى المسجد كذلك ضرورة تملّوها على قريش اعتبارات المحافظة - على الأمن فى الحرم ووسيلة لتفادى الاضطرابات التى كان من المحتمل أن تنشأ عن احتكاك الأهالى المحليين والعرب القادمين لعبادة أصنامهم، والمسلمين.

ومن المؤكد أن هذا الحظر الذى فرض على دخول الرسول ﷺ إلى المسجد الحرام والاجتماع والصلاة فيه، فى الوقت الذى كانت أبوابه مفتوحة فيه على مصراعيها لاستقبال كفار مكة والجزيرة، كان شيئا يحزّ فى نفوس المؤمنين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الحقيقيين لملة إبراهيم، ناهيك بالمضايقات اليومية التى ولدتها صعوبة العثور فى مكة على مكان قريب من بيوتهم ومن السوق يستطيعون ان يؤدوا فيه صلوات الجماعة اليومية وراء رسولهم صلى الله عليه وسلم. ولا بد أن فكرة إنشاء مسجد آخر مخصص للمسلمين عرضت للبحث، لكن قريشا، التى كانت لا تعترف بالإسلام، عارضتها بلا أدنى شك.

كذلك فالأرجح أن الرسول ﷺ لم يكن، من ناحيته، متحمسا لهذه الفكرة لأن تنفيذها كان يعنى، بصورة ما، عدول المسلمين عن تراث إبراهيم مؤسس الكعبة الذى كانوا يتمنون إلى ملته.

وفى رأى أن هذه الظروف، لا ظروف فترة الاستخفاء، هى التى جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يقرر إقامة صلوات الجماعة مع المسلمين الذين أعلنوا إسلامهم فى شعب من الشُعاب الواقعة خارج

مكة. أما المسلمون الذين لم يعلنوا إسلامهم خشية الاضطهاد فلا بد أنهم حصلوا من الرسول ﷺ على رخصة تسمح لهم بأداء الصلوات في بيوتهم على انفراد.

والسؤال هو: لماذا يصير النص على إنكار هذا الحظر وعلى إظهار الرسول في معظم الأحيان وهو في المسجد؟ والإجابة عن هذا السؤال ترجع، في رأيي إلى اتجاه لدى المؤلف، رأيناه في ظروف أخرى، يجعله يتجنب التعرض للمواقف التي يبدو المسلمون فيها ضحايا لاضطهاد قريش ويقصر ضحايا الاضطهاد على بنى عبدالمطلب وبنى هاشم.

(٢) الخلفاء الثلاثة ،

(١) أبوبكر ،

يصور النص هذا الصاحب الكبير من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، في الفترة المكية الأولى، على أنه كان رجلاً مألفاً لقومه، محبوباً سهلاً، وأنه كان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وأنه كان رجلاً تاجراً، ذا خلق ومعروف، وأن رجال قومه كانوا يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه، وأن ستة من الصحابة، من بينهم عثمان بن عفان، أسلموا بدعوته، وأن الرسول ﷺ كان يقول: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كِبَوةٌ ونَظَرٌ وتردُّدٌ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قُحافة، ما عكَمَ عنه حين ذكرته له، وما تردَّدَ فيه».

والنص يخبرنا، في حديث الفترة الثالثة، أن أبابكر اشترى وأعتق ستة أو سبعة من العبيد، رجالاً ونساءً، منهم بلال وامرأة كان عمر يقسو في ضربها. ونحن نرى أبابكر، في النص، حين أحاطت جماعة من

قريش بالرسول ﷺ وأخذ أحدهم بمجمع رداءه، يبكى وهو يقول لهم: «أتقتلوا رجلاً أن يقول ربى الله؟» ونراه أيضاً، حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه ما رأى استأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة فأذن له، فخرج أبوبكر مهاجراً، ثم نراه عائداً إلى مكة تحت جوار ابن الدغنة سيد الأحابيش، ثم نراه يرد جوار ابن الدغنة عليه حين تشكت قريش لابن الدغنة من أن أبابكر كان يرق ويبكى إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد فى مسجد عند باب داره، وقالوا إنهم يتخوفون على صبيانهم ونسائهم وضعفتهم أن يفتنهم. وقد ترتب على حرمان أبى بكر من هذا الجوار أن لقيه سفيه من سفهاء قريش فحشا على رأسه تراباً.

والخبر المتعلق بهجرة أبى بكر ثم بعودته (*) يثير بعض التحفظات:

١- فإن النص لا يوضح الجهة التى كان يقصدها أبوبكر حين غادر مكة. هل كان يريد أن يلحق بمهاجرى الحبشة؟ هل كان يريد أن يهاجر إلى جهة أو إلى قبيلة فى الجزيرة العربية؟ ماذا كانت وجهته حين لقيه ابن الدغنة سيد الأحابيش. نحن لا نعرف ذلك، والشئ الوحيد الذى نعرفه هو أن هذا اللقاء حدث بعد أن سار من مكة يوماً أو يومين.

٢- سبب هذه الهجرة مذكور بإيجاز، وهو غير واضح. والنص يبدأ بذكر أسباب شخصية: «حين ضاقت عليه مكة». ويذكر بعد ذلك أنه «أصابه فيها الأذى». ولما كانت كلمة «الأذى» فى العربية كلمة فضفاضة تشمل إساءات القول كما تشمل المعاملة السيئة، فنحن لا نعرف بالضبط نوع العنف الذى ضاق به صدر أبى بكر. والنص يتحدث بعد ذلك عن

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٧٢ - ٣٧٤.

سبب يتعلق بالرسول ﷺ وأصحابه، أى تظاهر قريش عليه ﷺ وعلى أصحابه.

٣- نظرا إلى أن أحدا لم يخرج أبا بكر، وإلى أن قريشا لم تحاول استعادته كما حاولت أن تستعيد مهاجرى الحبشة، وإلى أنه لم يكن يمثل بالنسبة للنظام القائم خطرا أكبر من ذلك الذى كان يمثله سائر المسلمين، وإلى أن هجرته كانت عملا إراديا بحتا، فإن الحكمة فى كونه قد احتاج لجوار سيد الأحابيش كى يرجع إلى مكة غير مفهومة.

٤- السبب الذى دفع أبا بكر إلى رد جوار ابن الدُّغْنَةِ عليه تنقصه الجدِّيَّة: فمن الغريب أولا أن يكون أبو بكر قد أقام فى بيته مسجدا صغيرا إذ أن الصلوات فى الإسلام تؤدى جماعة، وأن المفروض أنه كان يؤديها مع الرسول ﷺ، وأن الرسول ذاته لم ينشئ مثل هذا المسجد فى بيته.

٥- على فرض أن هذا المسجد الصغير قد وُجد، فإن رد جوار ابن الدُّغْنَةِ كان ينبغى أن يترجم بعمل من جانب قريش لغلقه أو لهدمه أو لإرغام أبى بكر بكل الوسائل التى كانت تملكها على أن يفعل ذلك بنفسه. والحاصل، أن الأثر الوحيد الذى ترتب على رد هذا الجوار هو أن سفهاء قريش حثا ترابا على رأس أبى بكر، وهو عمل لا صلة بينه وبين موضوع المسجد.

إن ما فى حديث هجرة أبى بكر من تهافت ومن مجافاة للمنطق وبعْدٍ عن المعقول يجعل تصديقه أمرا عسيرا. ومن المحتمل جدا أن يكون قد لُفِّقَ لغاية واحدة هى الإيحاء بأن أول الخلفاء بعد وفاة الرسول ﷺ، رغم مناقبه كلها، كان قرَّارًا يتخلى عن الرسول ﷺ، بينما كان واجبه يقتضيه أن يظل إلى جواره ويشارك مصيره ومصير مسلمى مكة الآخرين.

فأبو بكر إذن، طبقاً للنص، مؤمن قوى الإيمان، ومحسن ينفق من ماله بغير حساب لشراء العبيد وعتقهم، وداعية نشط هدى إلى الإسلام عديداً من شخصيات قريش البارزة، ورجل رقيق الحاشية يتصف بالأخلاق العالية وبشدة التقوى، لكنه ضعيف الشخصية. إنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه ولا عن الرسول ﷺ، وبدلاً من القيام بعمل، كما فعل حمزة، كان يكتفى بالبكاء. كذلك فلا يمكن المقارنة بينه وبين أبي طالب الذي أيد الرسول وشمله بحمايته وجعل قبيلته تنضمان إليه في ذلك.

(٢) عمر،

ما يلي، بشيء قليل من الاختصار، ما يقوله النص عن عمر (١).
- مر أبو بكر بجارية بنى مؤمل، حى من بنى عدى بن كعب، وكانت مسلمة، وعمر بن الخطاب يُعذِّبها لترك الإسلام، وهو يومئذٍ مشرك وهو يضربها، حتى إذا ملّ قال: إني أعتذر إليك، إني لم أتركك إلا ملالة، فتقول: كذلك فعل الله بك. فابتاعها أبوبكر، فأعتقها (٢).

- قالت أم عبد الله: «والله إنا لترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذا أقبل عمر ابن الخطاب حتى وقف على وهو على شركه. وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا، فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله. فقلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، أذيتونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجنا. فقال: صَحِبْكُمْ الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجننا. فجاء عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٣٤٢ - ٣٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٣١٩.

عمر أنفا ورقته وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم؛ قال: فلا يُسلم الذى رأيت حتى يُسلم حمار الخطاب، قالها يأساً منه، لما كان يرى من غلظته وقسوته عن الإسلام (*).

- أسلمت فاطمة بنت الخطاب، أخت عمر، وأسلم بعلمها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر. وكان نعيم بن عبد الله النحام، رجل من قومه، قد أسلم، وكان أيضاً يستخفى بإسلامه فرقا من قومه. وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين، ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة وأبوبكر وعلى، في رجال من المسلمين، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقه نعيم بن عبد الله فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمدا هذا الصابىء، الذى فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها فأقتله؛ فقال له نعيم: أترى بنى عبد مناف تاركك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأى أهل بيتي؟ قال ختنتك وابن عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما. فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت ومعه صحيفة، فيها: «طه» يقرئهما إياها. فلما سمعوا حسَّ عمر، تَغَيَّب خباب في مُخدع لهم (المُخدع: البيت الصغير الذى يكون داخل البيت الكبير) وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.

عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه
 الهَيْنَمَةُ (الهَيْنَمَةُ: صوت كلام لا يفهم) التي سمعت؟ قال له: ما
 سمعت شيئاً، قال: بلى والله، لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على
 دينه، وبطش بختنه سعيد، فقامت إليه أخته لتكفّه عن زوجها، فضربها
 فشجّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختته: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله
 ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم نَدِمَ على
 ما صنع، فارعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم
 تقرأون أنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال
 ذلك، قالت له أخته: إِنَّا نَخْشَاكَ عليها، قال: لا تخافى، وحلف لها
 بآلهته ليردّنها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه،
 فقالت له: يا أخى، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسه إلا
 الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها: «طه» فقرأها، فلما
 قرأ منها صدرًا، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك
 خَبَّاب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد
 خصّك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام
 بأبى الحکم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر. فقال له
 عند ذلك عمر: فدلّنى يا خباب على محمد حتى آتیه فأسلم. فقال له
 خَبَّاب: هو فى بيت عند الصّفّاء، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر
 سيفه فتوشّحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم
 الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ،
 فنظر من خلل الباب فرآه متوشّحاً السيف فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو
 فرع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشّحاً السيف، فقال
 حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذكرنا له، وإن
 كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: ائذن له، فأذن له

الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حُجْرته (أى موضع شد الإزار)، أو بمجمع رداءه، ثم جَبَذَهُ به جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى يُتْرَل الله بك قارعةً (أى داهية)، فقال عمر: يا رسول الله، جئتُك لأؤمن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله، فكبر رسول الله ﷺ تكبيرةً عرف منها أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم. فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم، وقد عَزَوْا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سَيَمْنَعَان رسول الله ﷺ، ويتتصفون بهما من عدوهم (*).

ويقول المؤلف إن هذا هو حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب. ويورد النص بعد ذلك رواية أخرى بلسان عمر ذاته يقول فيها:

«كنت للإسلام مُبَاعِداً، وكنت صاحبَ خَمْرٍ فى الجاهلية، أُحِبُّهَا وأُسَرِّبُهَا، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش بالخزوة عند دُور آل عمر بن عبد بن عمران المخزومى، فخرجت ليلةً أريد جُلَسائى أولئك فى مجلسهم ذلك، فجئتُهم فلم أجد فيه منهم أحداً، فقلت: لو أنى جئتُ فلانا الخُمَّار، وكان بمكة يبيع الخمر، لعلى أجد عنده خمرًا فأشرب منها. فخرجتُ فَجِئْتُه فلم أجدّه. فقلت: فلو أنى جئتُ الكعبة فطُفْتُ بها سبعا أو سبعين. فجئتُ إلى المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسولُ الله ﷺ قائم يصلى وكان إذا صلى استقبل الشام، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، وكان مُصَلِّاه بين الركنين: الركن الأسود، والركن اليمانى، فقلت حين رأيته: والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! فقلت: لئن دنوتُ منه أستمع منه لأروِّعَنَّهُ، فجئتُ

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٤٢ - ٣٤٦.

من قِبَلِ الحجر، فدخلت تحت ثيابها. فجعلتُ أمشي رويدا، ورسول الله ﷺ قائم يصلي يقرأ القرآن، حتى قمت في قبلته مستقبلة، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة. فلما سمعتُ القرآن رقَّ قلبي، فبكيتُ ودخلني الإسلام، فلم أزل قائما في مكاني ذلك، حتى قضى رسولُ الله ﷺ صلاته، ثم انصرف، وكان إذا انصرف خرج على دار ابن أبي حسين، وكانت طريقه، حتى يَجْزُع المسعى (أى يقطعها)، ثم يَسْلُك بين دار عباس بن المطلب، وبين دار ابن أزهر بن عوف الزهرى، ثم على دار الأحنس بن شريق، حتى يدخل بيته. وكان مسكنه ﷺ في الدار الرقطاء، التى كانت بيدى معاوية بن أبى سفيان، فتبعته حتى إذا دخل بين دار عباس، ودار ابن أزهر، أدركته، فلما سمع رسولُ الله ﷺ حِسِّي عَرَفْنِي، فظن رسولُ الله ﷺ أني إنما تَبِعْتُهُ لأُؤْذِيَهُ فَتَنَّهُنِي (أى زجرنى)، ثم قال: ما جاء بك يابن الخطاب هذه الساعة؟ قلت: جئت لأؤمن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله، فَحَمِدَ اللهُ رَسولُ اللهِ ﷺ، ثم قال: قد هَدَاكَ اللهُ يا عمر، ثم مسح صدرى ودعا لى بالثَّبات، ثم انصرفتُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل رسولُ الله ﷺ بيته (*).

ويقول النص، بعد سرد هذه الرواية، إن عمر قال: أَيْ قَرِيشُ أَنْقَلُ لِلْحَدِيثِ؟ فَقِيلَ لَهُ: جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ الْجَمَحِيُّ، فَعَدَا عَلَيْهِ وَأَبْلَغَهُ أَنَّهُ أَسْلَمَ وَدَخَلَ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ. وَقَامَ جَمِيلٌ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ وَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ، أَلَا إِنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَدْ صَبَا، وَعَمْرٌ مِنْ خَلْفِهِ يَقُولُ: كَذَبٌ، وَلَكِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَشَهِدْتُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. وَثَارُوا إِلَيْهِ، فَمَا بَرَحَ يُقَاتِلُهُمْ وَيُقَاتِلُونَهُ

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٤٦ - ٣٤٨.

حتى قامت الشمس على رؤوسهم، ففعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم. فبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخ من قريش حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبا عمر، فقال: فمه، رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون؟ أترون بنى عدى بن كعب يُسلمون لكم صاحبهم هكذا! خلّوا عن الرجل، فوالله لكأنما كانوا ثوبا كُشط عنه^(١).

يقول النص إن عمر لما أسلم تلك الليلة تذكّر أن أبا جهل، وكان خاله، أشد أهل مكة عداوة لرسول الله ﷺ، فأثاه وضرب عليه بابه، فخرج إليه أبوجهل مرحبا، فقال له عمر: «جئت لأخبرك أنى قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدّقت بما جاء به» فضرب أبوجهل الباب فى وجهه وقال: «قبحك الله، وقبح ما جئت به»^(٢).

قال عبد الله بن مسعود: إن إسلام عمر كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرا، وإن إمارته كانت رحمة.

وتثير البيانات التى وردت فى النص عن عمر الملاحظات الآتية:

أ- قصة جارية بنى مؤمل التى كان يضربها عمر، وقصة أم عبد الله (أم عامر بن أبى ربيعة حليف قبيلة عمر) وبيانات أخرى عامة، تظهر عمر بمظهر الرجل الذى كان، قبل إسلامه، يكره الإسلام كراهة التحريم. والمشارك الوحيد الذى كان يستطيع منافسته فى القسوة على المسلمين كان خاله أبوجهل. لكن قسوة أبى جهل حيال المسلمين إذا كانت قد ذكرت مرة فى عبارات عامة فقد ذكرت قسوة عمر عدة مرات، كما ضرب عنها مثلان بقصد إبرازها، هما: حالة جارية بنى مؤمل،

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٥٠.

وحالة أم عبدالله. كذلك يتميز عمر عن الشخصين اللذين كانا يقومان بتعذيب المسلمين في النص، أى ذلك الذى كان يعذب بلالا، وذلك الذى كان يعذب آل ياسر، فى أن هذين الشخصين كانا يقومان بأعمال تعذيب فردية، أما عمر فقد كانت رغبته فى تعذيب المسلمين مسألة مبدأ.

صورة عمر فى النص إذن أشبه بصورة الوحش المرعب الذى يعادى الإسلام أكثر من معاداة أى شخص آخر له، وذلك على مدى سنوات من ظهور الإسلام، إذ أنه لم يسلم إلا بعد هجرة الحبشة.

ب- هناك فيما يتعلق بالرواية الأولى لإسلام عمر عدد من الأسئلة التى يمكن طرحها مثل:

- كيف لم يختار رجل له حصافة عمر لارتكاب جريمته لحظة يكون الرسول ﷺ فيها وحده، فى ظلمة الليل، دون شهود، بدلا من أن يقدم على فعلته فى وضوح النهار والرسول فى صحبة عدد كبير من المسلمين؟

- هل كان عمر بحاجة إلى نُعَيْم كى يذكره بأنه إن قتل محمداً فلن يلبث بنو عبد مناف أن يثأروا له؟

- كيف يُعقل أن يشى نُعَيْم، الذى كان هو ذاته مسلماً يستخفى بإسلامه خشية اضطهاد قبيلته، بأخته وأخيه فى الدين، فاطمة بنت الخطاب ويعلمها، اللذين كانا مثله قد أسلما سرا، وكيف يدفع عمر إلى «إقامة أمرهم»؟

- لماذا أخذت فاطمة الصحيفة التى فيها سورة «طه» من خِباب حين تغيب فى داخل البيت عندما سمع حسَّ عمر بالباب، ولماذا جعلتها تحت فخذهما، وكيف لم يلحظ عمر هذه الصحيفة فى المكان الذى كانت تجلس فيه حين قامت فاطمة لتكفَّ عن زوجها؟

- كيف استطاعت فاطمة وزوجها، اللذان يبدو أنهما أسلما بعد بدء الدعوة بقليل (فقد ورد اسمهما في قائمة المسلمين الأوائل) إخفاء إسلامهما عن عمر عدة سنوات إلى أن علمه من نُعَيْم. ولماذا لم تحاول فاطمة أن تقرأ على عمر آيات من القرآن لإقناعه بالإسلام قبل الواقعة التي يحكيها النص وهي تعرف جانبه الطيب خيرا من غيرها؟

ج - أما رواية النص الثانية بخصوص إسلام عمر، فهي تبدو، للوهلة الأولى، أقرب إلى التصديق من الرواية الأولى إلا - ربما - بالنسبة لبعض المسائل:

- فإن النص لا يفسر سر غياب جلساء عمر من المكان الذي اعتادوا أن يجتمعوا فيه لمعاقرة الخمر، ولا سر غياب الخمار عن خمارته، والتوافق بين الأمرين لا يخلو من غرابة.

- والنص لا يفسر كذلك لماذا لم يعلن عمر إسلامه للرسول بمجرد انتهائه ﷺ من الصلاة، بدلا من تعقبه من المسجد إلى بيته بصورة أوقعت في روع الرسول أن عمرا يريد أن يؤذيه!

- النص يصور الرسول ﷺ وهو يصلي وحده في المسجد ليلا رغم أنه، كما أوضحت، كان ممنوعا من دخول المسجد وأنه كان يؤدي الصلوات مع المسلمين.

- المفروض أن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، الذين كانوا يعلمون أن أعداءه كثيرون وأن حياته في خطر، كانوا يحيطون به دائما ويشكلون حوله حرسا لحمايته من المعتدين، وأنهم ما كانوا يتركونه يؤدي الصلاة وحده في الليل دون حارس أو رفيق.

د- هناك، بالإضافة إلى هذه الملحوظات التي تتعلق بكل من الروایتين، ملحوظتان تتعلقان بهما كليهما:

- الروايتان - كالروايات التي تتعلق بعبدالمطلب - من كثرة التفاصيل بحيث يصعب تصديقهما. وخلافا للجانب الأعظم من أخبار الفترة، التي تتميز بالقصر والغموض والتشتت التي تتسم بها الأحاديث المنقولة شفاهة عبر أجيال عديدة، فإن هاتين الروايتين محكمتا البناء، مليتان بالتفاصيل التي تزودنا، في الرواية الأولى، بأسماء عدة أشخاص، وبحوار يجرى بينهم، وباسم سورة بعينها من سور القرآن، وباسم الحى الذى فيه البيت الذى كان فيه الرسول (والذى لا بد أنه كان فسيحا للغاية، إذ أن الرسول ﷺ اجتمع فيه بأربعين من أصحابه)؛ وفي الرواية الثانية، المكان بالضبط الذى كان يؤدي فيه الصلاة فى الكعبة، والتحركات بالضبط التي كان عمر يقترب بها من الرسول كي يتمكن من الاستماع إليه دون أن يراه، والطريق بالضبط الذى سلكه الرسول ﷺ للذهاب من المسجد إلى بيته، وأسماء ملاك الدور التي كان يمر بها ليصل إلى داره، واسم مالك بيته، والكلام الذى دار بين عمر والرسول.

لقد وردت كل هذه التفاصيل فى الروايتين بدقة كبيرة فى النص، مع أن النص لم يعط بيانات عن عشرات من المسائل الأساسية المتعلقة بهجرة الحبشة، مثلا، وأن المقاطعة لم توصف إلا فى سطور قليلة، وأن النص لم يحدد ما إذا كانت هذه المقاطعة قد استمرت مستين أو ثلاث سنوات.

- إسلام عمر، فى كلتا الروايتين، حدث بعد قراءة أو سماع سورة من القرآن الكريم. ومعنى ذلك أنه كان إسلاما فوريا وقع فى نفس عمر «وقع الصاعقة».

وهذا البيان يبدو لنا موضع شك. فلو أن إسلام عمر كان يرجع إلى بداية الدعوة أو لو كان عمر يعيش مع قبيلته على بعد مسافة كبيرة من

مكة لفهمنا أن هذه كانت المرة الأولى التي يعلم فيها شيئا عن القرآن .
أما وهو من أهالي مكة، ونظرا إلى أن إسلامه قد تأخر إلى ما بعد
هجرة الحبشة، أي إلى ست أو سبع سنوات على الأقل من بدء الدعوة،
في وقت كان قد تنزل فيه ألفان من آيات القرآن (أي نحو ثلث آيات
القرآن كله)، التي تبلغ ٦٢٣٦ آية، كانت تتناقلها الأفواه في مكة، وكان
جميع المسلمين بمن فيهم مسلمو قبيلة عمر يتلون بها في صلواتهم، وكان
رؤساء قبائل قريش، ولا شك، يفحصونها فرادى أو مجتمعين في
مجلس حكومة مكة، أولا بأول بعد إذاعتها، كي يقرروا ما يجب اتخاذه
بصددها من إجراءات لإلغاء أثرها في نفوس الناس أو لتقليله، فقد
كانت أمامه، أي أمام عمر، ألف مناسبة ومناسبة للاستماع إلى القرآن
في الوقت الذي يدرج فيه النص واقعة إسلامه .

وإذا لم يكن قد فعل فلا بد أنه كان الشخص الوحيد في مكة الذي
يجهل ظاهرة القرآن والذي لم يشعر بما أسميته بالزلزال المستمر الذي كان
يحدثه نزول هذه الآيات التي تعد بالآلاف، والذي كان يجهل أنها مصدر
الهزات التي كانت تقلب الأوضاع في المجتمع المكي والتي جعلت
مختلف قبائل قريش، التي أحرقها دخول المئات من أفرادها في الإسلام
نتيجة لها، تضطهد أبناءها وتنفيهم أو تضطهم إلى الهجرة، والوحيد
الذي لم يشهد، ولو من باب الفضول، شيئا من الاجتماعات أو
الجلسات التي كان الرسول ﷺ وأصحابه يعقدونها خلال مواسم الحج أو
خارج هذه المواسم للتعريف بالإسلام والقرآن، والذي لم يكن على علم
بالاتصالات التي لا تحصى التي كان يجريها مسلمو مكة يوميا في
الأسواق وفي الأماكن العامة في البيوت، والتي كان الحديث فيها يدور
حول القرآن والدين الذي يعلنه على لسان محمد .

هـ - لكل هذه الأسباب تبدو لى الرواية الأولى والرواية الثانية عن إسلام عمر، على السواء، مجرد اختلاق. لقد كانت الدعوى الاستفادة من النص والتي مؤداها أن أبا طالب وبنى عبدالمطلب وبنى هاشم كانوا وحدهم الذين تصدّوا للدفاع عن الرسول ﷺ بحاجة، لكى تكتمل لها مظاهر الصدق، إلى أعداء ألداء للرسول ﷺ بين الكفار، لكنها كانت بحاجة أيضا إلى عدو كافر صار مسلما.

وكان السادة والأشراف الذين سعوا إلى أبى طالب ليشتكوا محمدا وأولئك الذين نزلت فى حقهم آيات من القرآن (طبقا للنص) أعداء المجموعة الأولى. أما الكافر الذى تحول إلى الإسلام، فقد كان عمر الشخص المناسب لمثله. لماذا عمر بالذات؟ لأنه كان قريشيا، ومكيا، ولأنه أصبح فيما بعد خليفة افتتانا على أعضاء قبيلة الرسول ﷺ، ولأن بلاد فارس كلها فتحت تحت خلافته، ولأنه كان مسئولاً، جزئيا، عن تعيين واحد من بنى أمية - وهو عثمان - خليفته حين رشحه، قبل اغتياله، واحدا من ستة من الصحابة (هم: على، وعثمان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبدالله، وسعد بن أبى وقاص، وعبدالرحمن بن عوف) يختارون أحدهم ليتولى الخلافة من بعده وأخيرا لأنه مهد الطريق لمعاوية، حين عينه واليا على الشام، للتطلع إلى الخلافة بعد مقتل عثمان ولتأسيس الخلافة الأموية.

إن عمر لم يكن، لهذه الأسباب، مقربا إلى نفس المؤلف شخصيا ولا إلى نفس العباسيين. لهذا كان يصلح لأن يسند إليه دور عدو الإسلام الذى أصبح مسلما فى «السيناريو» الذى تظهر فيه قبيلة الخليفة العباسى كحامية للرسول ﷺ.

وإذا كانت صفته كمسلم تحميه من النقد بعد إسلامه (على الرغم من أنه لم يسلم منه تماما في حديث الفترة المدنية)، فلم يكن هناك حرج في إطلاق العنان للقلم لتسويد صفحته والعيب في شخصه والتنديد بسلوكه حيال المسلمين قبل إسلامه، ويترك للقارىء بعد ذلك أن يعقد المقارنات بينه وبين أبى طالب، وبينه وبين بنى عبدالمطلب وبنى هاشم الذين لا يذكرهم النص أبدا بسوء.

كان الواجب إذن أن يقال وأن يعاد في النص إن عمر كان قبل إسلامه يبطش بالمسلمين (في الوقت الذى لم يمس واحد من بنى عبدالمطلب أو من بنى هاشم، ولا حتى أبولهب، مسلما، على الرغم من كونهم كفارا مثل عمر)، وأن يصور عمر بصورة الرجل العنيف، القاسى، الساخر، الدنىء، الذى لا يتورع عن ضرب جارية مسكينة حتى يملّ لأنها أسلمت، وأن يسيء معاملة أم عبدالله وأسرتها (في الوقت الذى لم يتزل أبوطالب أو أحد أيا كان من بنى عبدالمطلب وبنى هاشم إلى هذا الحضيض فيستحق إهانة من جارية أو أن يشبه بالحمار، كعمر).

ولم يكن كل هذا كافيا، فلُفِّت حكاية أسندت إليه هو ذاته يعترف فيها بأنه كان صاحب خمر في الجاهلية يحبها ويسرُّ بها. لكن هذا أيضا بدا غير كاف، وكان الواجب الذهاب إلى أبعد منه، فلُفِّت حكاية يظهر فيها عمر وهو يتأهب لقتل الرسول ﷺ. وألصقت الحكايتان بقصة إسلامه، واعتمد مؤلف النص على أن المسلمين - الذين يغرمون عادة بقصص الشيطان الذى أصبح ملاكا بعد اعتناقه الإسلام - يتقبلون أيا من الروايتين بشغف.

وبهذا تكون هناك صورة لعمر قبل إسلامه تتجاوز في القبح صورة أشد الناس عداوة للرسول ﷺ: أبوجهل، الذى أراد أن يهشم رأسه ﷺ

والذى كان يضرب المسلمين أو يحرض على ضربهم، وامرأة أبى لهب التى أرادت أن تلقى حجارة على رأس الرسول ﷺ، والسادة الخمسة الذين كانوا يستهزئون به.. إلخ. وقد أريد أن تيسر بشاعة هذه الصورة تقبل مقولة أن بنى عبد المطلب وبنى هاشم - الذين لم يكن أحدهم يحب الخمر أو يسرُّ بها، ولم يؤذ أحدهم مسلماً - عانوا من المقاطعة من أجله ﷺ ورفضوا تسليمه وكانوا على استعداد لبذل أرواحهم دفاعاً عنه. حتى أبولهب، قريبهم «الملعون» الذى حكم عليه القرآن بالنار، كان أفضل من عمر، فإنه لم يعرف عته أنه صاحب خمر، كما أنه لم يعذب المسلمين، ولا ضرب جارية ولا حاول أن يقتل محمداً.

و- مما هو جدير بالذكر هنا أن الحيز الذى خصصه النص للإسلام عمر يتجاوز فى الطول، بكثير، ذلك الذى خصص للإسلام باقى المسلمين قاطبة خلال هذه الفترة.

والواضح أن الهداية إلى الإسلام فى الروایتين - اللتين تختلف إحداهما عن الأخرى كل الاختلاف - لم تكن إلا ذريعة، وأن أهم أجزاء الحديث هما فى الواقع المقدمتان اللتان يظهر عمر فيهما وهو يخرج من بيته وقد عقد العزم على قتل النبى ﷺ أو وهو صاحب خمر معتاد على ارتياد حاناته بصحبة جلساء من محبى المعاقرة.

ز - إذا كان الأمر كذلك، كيف تفسر الجملتين اللتين وردتا فى النص فى مدح عمر: الجملة التى يقال فيها إن إسلام عمر كان فتحة، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، وتلك التى اختتم بها النص الرواية الأولى بقوله إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا من مكانهم «وقد عزّوا فى أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، ويتصفون بهما من عدوهم»، وكيف تفسر

كذلك الخبر الذي فحواه أن المسلمين استطاعوا أن يُصلُّوا مع عمر عند الكعبة بعد إسلامه؟ .

قد تكون الإجابة عن هذه الأسئلة أن الجملة الأولى تعبر في الواقع عن رأى أحد الصحابة وتعلق بعمر المسلم لا بعمر الكافر، ولا تعبر عن رأى مؤلف النص. وواضح أن النص حين أوردها لم يكن يتحرى الموضوعية بقدر ما كان يريد أن يبدو موضوعيا.

والقول نفسه يمكن أن يقال عن الجملة الثانية التي ليست في واقع الأمر سوى انطباع. وما يلاحظ في هذا الصدد أنه كلما ذكر عمر بخير في النص ذكر بالخير كذلك حمزة، وأن عمر عندما قرع باب البيت الذي كان الرسول مجتمعاً فيه بأصحابه كان حمزة هو الذي قال: «وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه» أى أن حمزة، الهاشمي، كان دائماً هناك لحماية النبي ﷺ. والجملة الثانية التي تجمع بين عمر وحمزة في الشئ ليس لها، في هذا السياق، إلا قيمة نسبية فإن أيا من عمر أو حمزة، كما سيتضح من باقى هذه الدراسة، لن يبدو خلال ما بقى من الفترة المكية، أنه لعب دوراً أكبر من ذلك الذي لعبه سائر المسلمين في الدفاع عن الرسول ﷺ أو الانتصاف من أعدائه وأعداء المسلمين.

أما كون المسلمين استطاعوا أن يُصلُّوا في المسجد بعد مشاجرة عمر مع بعض رجال قريش عقب إسلامه، فقد سبق أن أوضحنا أن ذلك فيه شك.

ح- في هاتين الروایتين أبلغ مثل على الاختلاق في النص. وحتى إذا لم أكن مصيباً في النتيجة التي خلصت إليها من أنهما كلتيهما اختلاق، فمن المقطوع به أن إحداهما مختلفة، وأن وجودها دليل على

رغبة مبيّنة لتشويه الحقيقة خدمة لبعض المصالح، لا خطأ في النقل أو خلط حدث بحسن نية.

وإذا كان الأمر كذلك فمن أصحاب المصلحة في رواية تتحدث عن ماضٍ غير مشرف لعمر إن لم يكونوا أولئك الذين كانوا يعتبرون تولّيه الخلافة اغتصاباً لحق أقارب الرسول ﷺ فيها، وأولئك الذين كانوا يحقدون عليه لأنه أخضع الفرس للعرب، وسمح لبنى أمية بالاستيلاء على السلطة؟.

ط - الاختلاق في حديث إسلام عمر يوحى بأن المعلومات الأخرى التي ترمى إلى تشويه صورة عمر قبل الإسلام هي بدورها اختلاق قصد به الإساءة. ويلاحظ هنا أن النص لم يقل شيئاً عن رد فعل بنى المؤمل حين أوسع عمر جارياتهم ضرباً، ولا عن رد فعل عامر بن أبى ربيعة حليف بنى الخطاب، حين كان عمر يسيء معاملة أسرة عامر، وهو أمر غريب حين نتذكر أن التعذيب، فيما يقول النص، وكما هو طبعى، كان يتم دائماً بأيدي أفراد القبيلة التي يتّمسك إليها من يقع عليهم التعذيب، وبأيدي سادة العبيد.

(٣) عثمان ،

لم يرد في النص، كأمر واقع، شيء عن عثمان بن عفان، الذي سيصبح ثالث الخلفاء الراشدين، سوى أنه وزوجته رقية كانا في عداد المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة.

ولنا أن نتساءل:

كيف يمكن تفسير إهمال النص لأمر شخصية في مثل أهمية عثمان الذي كان واحداً من السابقين إلى الإسلام في قريش، والذي أحبه قلب

الرسول ﷺ محبة جعلته يزوجه ابنتين من بناته، الواحدة بعد وفاة الأخرى، والذي هاجر مع بنت الرسول ﷺ إلى الحبشة؟ وكيف للمرء أن يفهم، من جهة أخرى، أن جعفر، الشاب - مع اقتراف صحة القصة التي تناول المناقشة التي جرت في حضرة النجاشي بشأن عودة المهاجرين إلى مكة - تصدر على هذا الصحابي الجليل من أصحاب الرسول ﷺ في الثيابة عن المسلمين والنطق باسمهم؟ والرد المعقول على هذين السؤالين يكمن في حقيقة أن بني العباس كانوا يعتبرون عثمان بن عفان مغتصبا للخلافة، وهي سبة تضاف إليها سبة كبرى هي اقترافه إلى قبيلة معاوية مؤسس الخلافة الأموية التي أسقطها العباسيون.

جيم - النتيجة

فيما يلي تجميع للنتائج التي تستخلص من تحليل مادة النص:

١- تأكيد أن أبا طالب وبني عبدالمطلب وبني هاشم حموا الرسول ﷺ أمر لا يمكن تصديقه للأسباب التالية:

(أ) إذا كان الله تعالى حمى رسوله ﷺ بالمعجزات (فحل الإبل الذي أخاف أبا جهل وحجب الرؤية عن أم جميل) وإذا كان الرسول ﷺ - بمعاونة جبريل - قد استطاع بحركة من يده أن يسبب العمى أو يميت خمسا من خصومه، فما كانت بالرسول حاجة - في منطق النص - إلى حماية آدمية.

(ب) ليس في الإمكان أن يكون سادة قريش وأشرافها، أو حتى مجموع قبائل قريش، قد طلبوا من أبي طالب أو من قبيلته تسليمهم محمدا ﷺ كي يقتلوه، إذ أن مكة لم يكن فيها سلطة مركزية مختصة بالمحاكمة في القضايا الجنائية، تلك إصدار الأحكام أو تنفيذها، وأن هذا الإجراء كان من اختصاص القبيلة دون غيرها.

ج) حماية القبيلة لفرد من أفرادها متصورة حين يحترم هذا الفرد دين القبيلة والنظام القبلى ، لكنها غير متصورة حيال فرد منشق ديانتة تلعن ديانة الآباء والأجداد، وتحكم بتار جهنم على من لا يؤمنون بها، وتعطى للأخوة فى الدين الأسبقية على الأخوة القبلية، وتضع الله فوق القبيلة.

د) أبو طالب، الذى عجز عن حماية ابنه من الاضطهاد، مما جعل هذا الابن يقرر الهجرة إلى الحبشة (وفقا لدعوى النص)، ما كان يمكن أن يحمى ابن أخيه.

هـ) إذا كان محمد ﷺ بحاجة إلى حماية بشرية، فإن المسلمين الذين يكونون له محبة لا يكونونها لأحد فى العالم والذين كان عددهم، على أقل تقدير، أربعة أمثال عدد بنى هاشم، كانوا أقدر على بذلها له من قبيلته.

و) إذا لم يكن أبوطالب العم الوحيد الذى يحب ابن أخيه فما الذى جعل أقارب مسلمى مكة من أعضاء قبائل قريش الأخرى، الذين كانوا حيال أبناء إخوتهم (أو أبنائهم هم) فى الموقف ذاته الذى كان فيه أبوطالب حيال محمد ﷺ، لا يحمونهم من الاضطهاد كما حمى أبوطالب محمداً؟

ز) قريش باعتبارهم سلطة سياسية، لم يطلبوا من أى سيد أو رئيس قبيلة من قبائلهم أن يسلمهم ابنه أو ابن أخيه، على الرغم من أن كل مسلم كان يقول عنهم وعن دينهم ما كان يقوله محمد ﷺ؛ وهم لم يقتلوا أى مسلم على الرغم من أن القبائل الأخرى لم تشمل أفرادها المسلمين بالتأييد والحماية اللتين يدعى النص أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم شملوا بهما محمداً.

٢- كانت قبيلتا بنى عبدالمطلب وبنى هاشم فى واقع الأمر، شأنهما فى ذلك شأن سائر قبائل قريش، من خصوم الإسلام، وكانتا، مثل سائر القبائل، تضطهدان أعضاءهما المسلمين. وهذا ثابت:

(أ) من القرينة المتعلقة بجعفر، فإن الذين كانوا يضطهدون المسلمين كانوا، فى جميع الأحوال، رجال قبائلهم.

(ب) من حقيقة أن ثلاثة فقط من أفراد هاتين القبيلتين اعتنقوا الإسلام خلال الفترة المكية بأكملها وهى فترة استمرت ثلاث عشرة سنة وأنه لم يكن بوسع قبيلتى الرسول أن تلتزما موقفا محايدا أو سلبيا فى النزاع القائم بين قريش ومحمد ﷺ.

٣- الهجرة إلى الحبشة كانت، على الأرجح، نسيا موكته ونظمته وأشرفت عليه قريش - بما فى ذلك بنو عبدالمطلب وبنو هاشم - لمعاينة مشرى الشغب المسلمين فى مكة، ولاستبعاد الخطر الذى كانوا يمثلونه، ولبث الرعب فى قلوب من كانوا يفكرون فى اتباع محمد.

٤- كانت هناك، أغلب الظن، هجرات أخرى للمسلمين لم يتحدث عنها النص.

٥- لا بد أن الرسول ﷺ والمسلمين أُخرجوا من المسجد الحرام طوال الفترة المكية.

٦- المقاطعة الاقتصادية الاجتماعية تقرر لا ضد بنى عبدالمطلب وبنى هاشم وإنما ضد المسلمين، وكان بنو عبدالمطلب وبنو هاشم، فى واقع الأمر، وراء أبى لهب، فى صف من طبقوا المقاطعة، لا فى صف من عانوا ويلاتها.

٧- النص يشوبه تحيز واضح ضد مسلمي مكة، بدليل:

(أ) أنه لم يذكر أسماء أى من المسلمين الذين أسلموا منذ نهاية الفترة الأولى - باستثناء عمر ومن هاجروا إلى الحبشة - ولا عددهم ولا الظروف التى تمت فيها هدايتهم إلى الإسلام.

(ب) أنه لم يتحدث عن المشاق والآلام والمعاناة التى مرت على اضطهاد قريش للمسلمين فى مكة إلا شنرات مختصرة ومثلين أو ثلاثة أمثلة مر عليها مروراً سريعاً فى سطور قليلة.

(ج) أنه لم يعترف لهم بأى دور فى تأييد الرسول ﷺ وحمايته.

٨- يستخدم النص علياً وجعفرًا وحمزة، الذين كانوا، شأن ابن عمهم رسول الله ﷺ، ضحايا قبيلتين تصرأن على عدم الاعتراف بدينهم وتعتبران محمداً كذاباً، والذين كانوا فى حالة قطيعة معهما، يستخدمهم لمصلحة هاتين القبيلتين، أى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم. وهو يخلع على عليٍّ وجعفر وحمزة شرفاً زائفاً ويحرمهم من أفضالهم وأمجادهم الحقيقية التى اكتسبوها خلال سنوات من المقاطعة ومن الجهاد إلى جانب الرسول عليه الصلاة والسلام وكذلك، بالنسبة لجعفر، من النفي والتشريد.

٩- النص، الذى يصفى على بنى عبدالمطلب وبنى هاشم كل صفات العظمة، ولا يقول كلمة سوء فى واحد منهم، يتفطن بشتى الطرق فى اكتشاف مناقب لأبى لهب تجعله يبدو أقل استحقاقاً للمؤاخذه من أبى لهب الذى يُدينه القرآن، ويرسم عن أبى بكر وعمر، اللذين سئول إليهما الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ، صورة تشوب جمالها شوائب، ويعتبر عثمان، ثالث الخلفاء، كمّاً مهملًا.

١٠- النص لا يتحدث عن هداية أحد من الناس إلى الإسلام خارج مكة، باستثناء الطفيل بن عمرو الدؤسى والنصارى العشرين الذين سورد الحديث عنهم فى الفصل التالى. وهو يوحى - خلافا لكل الشواهد - بأن مكة كانت مجال الإسلام الوحيد طوال تسع أو عشر سنين، وأن الحجاج كانوا يجيئون ويذهبون، خلال هذه الفترة وليس فى رحالهم سوى الافتراءات والأخبار الكاذبة التى كانت تشيعها الطبقة الحاكمة فى مكة عن محمد ودينه.

١١- النص يركز فى شخص الرسول ﷺ كل نشاط الدعوة فى الإسلام ولا يعترف إلا لأبى بكر بالفضل فى هداية بضعة أشخاص إلى هذا الدين، وحديث الفترة الثالثة لا ينسب إلى أى من أصحاب الرسول ﷺ فضلا فى هداية أحد من المشركين، وهو شىء لا يقبله العقل.

١٢- النص يتجاهل تماما كل الإمكانيات التى كانت متاحة للرسول ﷺ وللمسلمين خارج موسم الحج لهداية كفار الجزيرة إلى الإسلام: فى السوق، وفى البيوت، وخلال الرحلات التى كان المسلمون يقومون بها إلى البلاد خارج مكة للتجارة أو للزيارة.

١٣- النص يرجع النزاع بين قريش ومحمد ﷺ إلى الفترة الثالثة، والواقع، كما اتضح من تحليل حديث الفترة الأولى، أن الثورة التى جاء بها الإسلام على المستويين الدينى والاجتماعى، وحملت على القيم التقليدية، التى قام بسببها هذا النزاع، بدأت مع سور القرآن الأولى.

١٤- النص يتحدث عن الرسول ﷺ من بداية الفترة الثالثة إلى نهايتها، كما فعل فى حديث الفترة الأولى، من زاوية واحدة هى زاوية كونه محميا: المحمى الذى يحضر أمام حاميه حين يستدعيه، والذى

ييكى حين يتصور أن حاميه تزع عنه حمايته. محمد ﷺ إذن، حسبما يصوره النص، أقصر قامة من أبى طالب، الذى يتمتع، هو، بمكانة تمنع الآخرين من منعه بكلمة أو من الاستهزاء به، والذى يسعى إليه أعظم سادة قريش وأشرافهم، بتوقيير كبير، متى كانت لديهم شكوى يعنّ لهم أن يتقدموا بها ضد محمد، أو صفقة يريدون أن يعرضوها عليه، والذى يستطيع، بكلمة منه، أن يلزم بنى عبدالمطلب كلهم وبنى هاشم كلهم بالانضمام إليه فى حماية محمد. وتصوير أبى طالب ومحمد ﷺ على هذا النحو ينطوى على تزييف كبير للحقيقة، فالواقع:

أ- أن أبا طالب لم يكن بالعظمة التى يصوره بها النص، وهو لم يكن رئيس بنى عبدالمطلب ولا رئيس بنى هاشم، لأنه لم يكن غنياً، ولأنه كان عاجزاً عن إعالة كل أبنائه، وليس هو الذى تقدم لخطبة خديجة لمحمد، وأخيراً فإنه لم يستطع حماية ابنه من الاضطهاد فى مكة.

لقد كان أبو طالب فى الحقيقة من أقارب بنى عبدالمطلب وبنى هاشم الفقراء، وكان على الأرجح عمّاً يحب ابن أخيه حبا جما، وقد أشرك معه ابنه فى هذه المحبة، وعانى بالتأكيد من موقف قبيلته حيال محمد، كما عانى من سفر ابنه، الذى لم يتمكن من منعه، إلى الحبشة.

لكن مؤلف النص لم يصور أبا طالب بهذه الصورة الواقعية لأنه كان محتاجاً لشخصية بارزة يبنى حولها دعواه فى حماية بنى عبدالمطلب وبنى هاشم للرسول ﷺ، فوجد أن ابنه المسلمين اللذين كتبت لهما الشهادة فيما بعد يؤهلانه لهذا الدور ويخلعان عليه هبة لم تكن له فى الحقيقة.

ب) أن محمداً ﷺ الذى جعل منه القرآن، كما رأينا، فى تحليل حديث الفترة الأولى، أعظم رجال قريش، ازداد عظمة فوق عظمتة

بمئات الآيات القرآنية التي نزلت خلال الفترة الثالثة ويزداد عدد أصحابه. لذلك فإن صورة «المحمى» لم تكن صورته الحقيقية، والقصص التي كانت تجعل أبا طالب يحجب عظمته والتي كانت تصور أبا طالب باعتباره الشخصية المهيمنة على هذه الفترة تجانب الموضوعية.

١٥- في النص، من حيث مكوناته، اختلال وعدم تناسب صارخين فيما يتعلق بالمساحة التي يخصصها لموضوعاته المختلفة. وهذا الاختلال وعدم التناسب ناتجان عن نهج يجمع - في غير توفيق أكثر الوقت - بين مراوحة الظل والضوء، والصمت والتفصيل، مع عادة غريبة تتمثل في تقديم معلومات غير مفهومة أو يصعب تصديقها دون أن يشفعها بالحجج أو الشرح التي تسمح بقبولها أو فهمها.

ومن أمثلة لعبة الظل والصمت ما يقوله النص عن قبيلتي بني عبدالمطلب وبني هاشم. إن هاتين القبيلتين تؤديان في النص دورا رئيسيا، إذ أن حمايتهما هي المفروض أن الرسول ﷺ مدين لها بالبقاء على قيد الحياة وبقدرته على مباشرة دعوته. ومعنى هذا أن الإسلام مدين لهما بوجوده. لكن كم كان عدد أفراد هاتين القبيلتين؟ إننا لا نعرف منهم، كأمر واقع، إلا ستة أفراد : أبوطالب وأبولهب وحمزة والعباس وعلي وجعفر. ماذا كان موقفهم حيال النبي ﷺ والإسلام قبل أن يظهروا على مسرح الأحداث ليساندوا أبا طالب وليشكلوا خطا دفاعيا حول محمد ﷺ؟ ماذا كان موقفهم خلال الفترتين الأولى والثانية وجزء من الفترة الثالثة؟ ظل وصمت ! لماذا لم يدخل منهم في الإسلام سوى ثلاثة في ثلاث عشرة سنة مع أنهم كانوا أقرب الأقربين إلى الرسول ﷺ، وأنهم كانوا يعلمون أكثر من غيرهم بالبشائر والإرهاصات التي تنبئ ببعثته والمعجزات التي صحبت طفولته وشبابه، ويعرفون أنه رجل

أمين بكل معنى الأمانة؟ ظل وصمت ! هل اشتركوا أم لم يشتركوا في اضطهاد أقاربهم المسلمين كما حدث لدى جميع قبائل قريش، وإذا لم يكونوا قد اضطهدوهم فما الذى حمل جعفر إلى الهجرة إلى الحبشة؟ ظل وصمت! وإذا كان جعفر قد هاجر فرارا من اضطهاد قريش، لا من اضطهادهم، فلم لم يحموه كما حموا محمدا؟ ظل وصمت ! ماذا كان ردهم حين وجهت إليهم قبائل قريش الأخرى استجوابات بشأن حمايتهم لمحمد، وشرحت لهم أن هذه الحماية هي فى الواقع حماية للإسلام، هذا الدين الذى كان يمثل تهديدا خطيرا لمكة ولنظامها ومجتمعها ودينها ومستقبلها؟ ظل وصمت!

ومن أمثلة هذه الطريقة أيضا مثل فردى يتعلق بصمت النص بشأن عثمان. إن كون الرسول ﷺ قد زوج اثنتين من بناته لعثمان دليل على أن محبته له كانت لا تقل عن محبته لزوج ابنته الآخر، على. وبهذه الصفة، ولأنه كان من أوائل الصحابة إيمانا بالرسول ﷺ فقد كان يستحق أن يخصص له ولو فقرة توضح السبب الذى قرب به هذه الدرجة إلى قلب الرسول، ولماذا حرص الرسول ﷺ على توثيق علاقته به بتزويجه ابنتيه. لكن النص يترك عثمان فى الظل ويلزم فى شأنه الصمت ذاته الذى لزمه حيال أغلبية المسلمين الساحقة.

أما طريقة الضوء والتفصيل فيصورها مثلاً: جعفر فى الحبشة وإسلام عمر. ففى الحالة الأولى سلطت الأضواء على جعفر الذى يصور على أنه المتحدث بلسان مسلمى الحبشة، والمندوب ذو الخطوة لدى النجاشي، وصاحب الفضل فى هدايته إلى الإسلام، والخصم الذى كانت له الغلبة على عمرو بن العاص. ومقالته مسجلة تسجيلا حرفيا،

بينما تركت أهم جوانب الهجرة فى الظل. والضوء والتفصيل فى حالة عمر مستخدما لإبراز ماضيه غير المشرف.

ظل وصمت إذن حين يتعلق الأمر بإخفاء أشياء قد تضر بمصداقية الكلام أو بصورة بنى عبدالمطلب أو بنى هاشم، أو أشياء قد يكون فيها إبراز صورة شخصية أموية من أصحاب الرسول ﷺ، وضوء وتفصيل حين يتعلق الأمر بإعلاء شأن واحد من قبيلة عبدالمطلب أو الغض من شأن شخصية لا تنتمى إلى هذه القبيلة.

١٦- فيما يتعلق بالموضوعية، هناك تحيز فى مآلتين وفكرة مهيمنة، تصور اتجاه النص والمؤثرات التى خضع لها مؤلفه:

(أ) تحيز يودى إلى ابتداء مناقب لبنى عبدالمطلب وبنى هاشم، قبيلتى الخليفة العباسى الذى كتبت السيرة فى ظله. وهذا التحيز الذى لاحظناه فى الصورة التضخيمية التى رسمها لعبدالمطلب يظهر هنا فى الدور الذى يسند إلى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم فى تأييد الرسول ﷺ وفى حمايته، وفى الخلال التى يعزوها إلى أبى لهب لتخفيف جريرته، وفى مسألة المقاطعة، وفى مناقشة جعفر مع عمر فى الحبشة، وفى هداية التجاشى إلى الإسلام.

(ب) تحيز يغالى فى وصف أفضال أهل المدينة، وهو واضح:

- فى عديد من الأفكار المسبقة السيئة فى حق مسلمى مكة: الإيهام بقلّة عددهم، وضآلة المساحة المخصصة لذكر فضلهم وما عانوه من آلام، والمحاولات الخفية التى ترمى إلى الغض من قدرهم؟

- فى كون النص لا يشير إلى أى انتشار للإسلام خارج حدود مكة ولا لأى هجرة سابقة على هجرة المدينة غير الهجرة إلى الحبشة. وسيظهر هذا التحيز بصورة أوضح فى الفصل الخامس.

جاء فكرة مسيطرة مؤداها أنه لا نصر إلا النصر العسكرى وأن الفترة المكية، تبعاً لذلك، لم يكن لها وزن كبير فى تاريخ الإسلام. وتلاحظ هذه الفكرة على الأخص فى قلة اهتمام النص بحالات اعتناق الإسلام، كما تلاحظ فى حقيقة أن حديث الفترة المكية، منذ بدء الرسالة حتى الهجرة، لا يمثل، من حيث عدد الصفحات، إلا ربع حديث الفترة المدنية، المخصص أساساً لحروب الرسول ﷺ. هذا بالرغم من أن الفترة المكية كانت أطول من الفترة المدنية، ومن أن ثلاثة أرباع آيات القرآن نزلت فى الفترة المكية طبقاً لترتيب السور عند بلاشير.

وسنرى فى الفصل الخامس أدلة أخرى على وجود هذه الفكرة.

١٧- كل هذه العوامل: التحيز إلى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم والتحيز لأهل المدينة، والتزعة العسكرية، كانت جذورها ترجع إلى أسباب شخصية تتعلق بمؤلف السيرة الأصلية، وإلى أسباب أخرى هى المؤثرات السيامية وروح عصره:

(أ) تنحصر المؤثرات الشخصية أساساً فى:

- كون ابن إسحاق ولد ونشأ وتعلم فى المدينة، التى كان أهلها وعلماءها لا يزالون يحسون بالإحباط لأن أحداً من الأنصار لم يتولّ الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ، وأن معظم المناصب العليا فى الخلافة تحت حكم الأمويين أسندت إلى قريشيين أو إلى عرب من غير أهل

المدينة. ويحسون أيضا بالكره للأمويين الذين جردوا ضد المدينة حملتين تاديبيتين لأنها عارضت في مشروعية خلافتهم.

- كون ابن إسحاق من أصل فارسي، وكونه أنفق السنوات الأخيرة من حياته في العراق (فارس) بلد جدّه، الذي كان معظم سكانه يتألفون من الشيعة والعباسيين المناوئين للخلافة الأموية.

ب) يمكن تحليل الأسباب السياسية وروح العصر على النحو الآتي:

- كون المؤلف كتب «سيرته» في الفترة الأولى من الخلافة العباسية التي أسسها خلفاء العباس عم الرسول ﷺ (قبل أن ينقلبوا على الشيعة الذين حاربوا معهم ضد الأمويين) الذين كانوا يسوغون مشروعية خلافتهم بقرابتهم للرسول ﷺ.

- كونه عاش في فترة جعلت فيها جيوش المسلمين حدود الإسلام تمتد من الصين إلى المحيط الأطلسي مما ولد عند عامة المسلمين فكرة أن نصر الإسلام مرادف للفتوحات الإقليمية التي كانت بداياتها ترجع إلى الفترة المدنية.

هذه هي الاستنتاجات التي تستخلص من حديث الفترة الثالثة. وسنرى في الفصل التالي ما إذا كان تحليل ما قيل من الشعر وما نزل من القرآن في هذه الفترة يؤيدها أم ينقضها.

الفصل الرابع

الفترتان الثانية والثالثة «تابع»

الشعر والقرآن

سأتناول فى هذا الفصل عنصرين من عناصر الفترة الثالثة، هما: الشعر، والاقتباسات القرآنية، وهما عنصران مكملان لحديث الفترة المذكورة، وليس هناك مثلهما فيما يتعلق بالفترة الثانية. وسيشمل هذا الفصل أيضا نبذة سريعة عن القرآن الذى أنزل خلال هذه الفترة لمعرفة ما إذا كانت الصورة التى تتضح منه تطابق تلك التى يقدمها النص.

الفرع الأول - الشعر

ألف - ما قيل من شعر وتحليله

الإشارات الشعرية المتعلقة بهذه الفترة تتضمن:

- سبع قصائد لأبى طالب مجموع أبياتها مائة وسبعة وستون بيتا.
- قصيدة من خمسة وثلاثين بيتا لقيس بن الأسلت.
- ثلاثة أبيات لحكيم بن أمية.
- ثلاث قصائد مجموع أبياتها خمسة عشر بيتا لعبدالله بن الحارث.
- قصيدة من خمسة أبيات لعثمان بن مظعون.
- قصيدتان مجموع أبياتهما أحد عشر بيتا لحسان بن ثابت.
- قصيدة من ثلاثة وعشرين بيتا لأعشى ميمون بن قيس بن ثعلبة.
- ست قصائد مجموع أبياتها سبعة وعشرون بيتا لأربعة شعراء، منهم حسان بن ثابت، تتعلق بنزاع بين أبناء الوليد بن المغيرة وثلاث قبائل.

ومن المهم هنا ملاحظة أن معنى ما يريد أن يقوله الشاعر فى هذا الشعر، كما فى معظم ما ورد فى السيرة من شعر، غير واضح أحيانا. ذلك أن هذا الشعر كثيرا ما يشير إلى أشخاص (لا تذكر إلا أسماءهم الأولى)، أو إلى قبائل ليس لدى القارئ عنهم وعنهما أية معلومات؛ وقد جَسَّم ابن هشام نفسه، بالنسبة لأطول قصائد أبى طالب، عناء استكمال الأسماء؛ لكنه لم يفعل ذلك بالنسبة لمعظم القصائد الأخرى، كما أنه لم يوضح الأحداث والظروف التى كان الشاعر يشير إليها.

وفى حالات أخرى غير قليلة نجد أن حروف بعض الكلمات غير يقينية، مما يؤدى إلى اختلاف معنى البيت من الشعر بحسب الطريقة التى تُقرأ بها إحدى كلماته، وقد اجتهد المحققون اللاحقون فى حل مشكلات الفهم التى تنشأ عن مثل هذه الحالات؛ لكنهم لم ينجحوا دائما فى استخلاص معنى محدد للأبيات الشعرية، أو مجموعة الأبيات التى تثير مشكلة.

وأخيرا فإن من المستحيل فى بعض الحالات، وهى لحسن الحظ قليلة، استخلاص معنى القصيدة، ومن ثم فإن تلخيص القصائد الذى سيجده القارئ فى الصفحات التالية تلخيص تقريبي أو ناقص.

١- أبوطالب

فيما يلى ملخص أشعار هذا العم من أعمام النبی ﷺ، مع تحليلها:

أ) القصيدة الأولى وتتكون من أحد عشر بيتا (*)، تلى مباشرة خبرا بأن أبا طالب رفض أن يأخذ أنهد فتى فى قريش وأجمله، وأن يسلم فى

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٧.

مقابله محمداً ﷺ إلى قريش لتقتله. وأبوطالب يهجو في هذه القصيدة عمرا، والوليد بن المغيرة، والمطعم بن عدي، كما يهجو عبد شمس ونوفل (وهما قبيلتان من بني عبدمناف) لأنهما نبذتا قبيلته، ويحمل أيضا على تيم ومخزوم وزهرة، الذين أظهروا العداء لذويه بعد أن كانوا لهم «مولى إذا بُغى النصر». هل لهذا الهجاء والنقد صلة ما برسول الله ﷺ وبالحماية التي شمله بها أبوطالب؟ هذا شيء غير ظاهر. أولا، لأن اسم محمد ﷺ لم يرد في هذه القصيدة، ثم لأن الشاعر لا يذكر السبب الذي من أجله قام النزاع بين عشيرته وبين الأشخاص الذين يشير إليهم.

ومن جهة أخرى، فإن النص لا يتحدث عن أي مسعى قام به أبوطالب لدى بني عبد شمس ونوفل. ولا يشرح كذلك الأسباب التي حدثت بتيم ومخزوم وزهرة إلى تغيير مشاعرهم حيال بني هاشم.

ب) هذه القصيدة التي تتكون من سبعة أبيات (*) واردة بعد خبر يقول إن أبا طالب، حين رأى قريشا يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني المطلب، دعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه فاجتمعوا إليه، وقاموا معه، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب.

ويقدم النص هذه القصيدة بقوله: «فلما رأى أبوطالب من قومه ما سره في جهدهم معه، وحذبهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم، ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم، ومكانه منهم، ليشدّ لهم، وليحذبوا معه على أمره».

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٩.

يقول أبو طالب في هذه القصيدة إن عبد مناف سرّ قريش وصميمها،
وإن في هاشم أشراف عبد مناف وقديمها، وإن هاشم إن فخرت يوما
فإن محمداً هو المصطفى من سرّها وكريمها.

وهو يقول كذلك إن قريشا غثها وسمينها قد تداعت عليهم - أي
على بنى هاشم - فلم تظفر وطاشت حلومها. وهو يذكرّ بأمجاد قومه
الذين كانوا قديما يقيمون الظلمات، ويضيف:

بنا انتعش العود الدّواء وإنما بأكنافنا تندى وتنمى أرومها

وهذه القصيدة تستخدم حيال القبيلة الأم، أي قبيلة بنى عبدمناف،
لهجة تختلف عن تلك التي نجدها في القصيدة السابقة. فليس في هذه
القبيلة لوم موجه إلى هذه القبيلة أو تلك من قبائل بنى عبدمناف.
والنقطة الأساسية التي تبرزها هذه القصيدة هي النزاع بين بنى هاشم
وقريش، ولم تقل القصيدة صراحة إن منشأ هذا النزاع هو محمد ﷺ.

ومحمد ﷺ مقدم كموضع فخر بنى هاشم، لكن ليس في القصيدة
آية إشارة إلى صفته ﷺ كنبى ورسول على الرغم من أن القصيدة
تستخدم لوصفه، على ما في ذلك من غرابة، لفظة «المصطفى» التي
يستخدمها المسلمون أخذاً عن القرآن حين يتحدثون عنه، ولا تشرح هذه
القصيدة لماذا، ومحمد هو «المصطفى»، وهو الذى يشرف بنى هاشم، لم
يصدقه هؤلاء ولم يتبعوه؟

والقصيدة لا تقدم الرسول ﷺ على أنه في قطعة مع قبيلته، بل هي
على العكس «تأخذه لحسابها» إن جاز هذا التعبير.

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن عبدالمطلب ليس له وجود في
قصيدة الفخر القبلى هذه، بين الشخصيات التي تعتز بها القبيلة، والتي

عدّدها ابنه ذاته . هذا فى الوقت الذى يصور فيه النص عبدالمطلب ، كما رأينا ، على أنه أجلّ أسلاف محمد ﷺ وأعظمهم قدراً .

(ج) القصيدة الثالثة ، التى يبلغ عدد أبياتها أربعة وتسعين بيتاً (*) ، قصيدة قدم لها النص بهذه الكلمات : « فلما خَشِيَ أبو طالب دَهْمَاءَ العرب أن يركبوه مع قومه ، قال قصيدته التى تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودّد فيها أشراف قومه ، وهو على ذلك يُخبرهم وغيرهم فى ذلك من شعره أنه غير مُسلم رسولَ الله ﷺ ، ولا تاركه لشيء أبداً «حتى يهلك دونه» . وأبو طالب ، فى هذه القصيدة :

- يتحدث عن موقف القوم الذين لا ودّ فيهم ، والذين قطعوا كل العُرى والوسائل معه ومع ذويه ، والذين صارحوهم بالعداوة ، وحالفوا قوما عليهم .

- يقول إنه صَبَرَ لهم نفسه بِسَمَاء (سيف) سَمْحَةٍ من تُراث المقاتل (أى الملوك) .

- يقول إنه أحضر عند البيت رَهْطَهُ وإخوته وأمسك بكسوته .

- يعوذ بِرَبِّ الناسِ من كل طاعن عليهم بسوء أو مُلِحٍّ بباطل . . «ومن مُلِحِّقٍ فى الدين ما لم نُحاول» (هكذا) .

- يتعوذ من أعدائه بالبيت ، وبالله الذى لا يغفل عن شيء ، وبالحجر الأسود ، وبِمَوْطِئِ إبراهيم فى الصخر رَطْبَةٍ على قدميه حافياً غير ناعل ، وبالأشواط بين المَروَتَيْنِ والصفَا ، وبالمشعر الأقصى ، وليلة الجَمْعِ أى المزدلفة ، وبالجمرّة الكبرى والحِصَاب (موضع رمى الجمار) .

- يكذب ما أشيع من أن قومه سيتركون مكة .

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٢٧٢ - ٢٨٠ .

- يقول (١) :

كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ نُبِزَى مُحَمَّدًا وَلَمَّا نَطَاعَن دُونَهُ وَنَنَاضِل
وَنُسَلِمَهُ حَتَّى نَصْرَعَّ حَوْلَهُ وَنَذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ
وَيَنْهَضُ قَوْمٌ فِي الْحَدِيدِ إِلَيْكُمْ نَهْوِضُ الرُّوَايَا تَحْتَ ذَاتِ الصَّلَاصِلِ

- يفخر بشجاعة قومه في القتال.

- يشرح الأسباب التي من أجلها لا يترك قومه محمداً، الذي يحوط
الذمار، ويستسقى الغمام بوجهه والذي هو ثمال اليتامى وعصمة
الأرامل، والذي يلوذ به الهلأف من آل هاشم.

- يهجو أشخاصاً وقبائل عديدة، لاسيما بنى عبد شمس وبنى نوفل
الذين كانوا يؤلبون العدا على قبيلته ويطيعون أعداءها ولا يرقبون فيهم
مقالة قائل.

- يفخر ببنى هاشم وينعى على بنى عبد مناف عقوقهم وخذلانهم
بنى هاشم وتركهم في المعازل رغم صلة القرى التي تربطهم بهم.

- يثنى على محمد صلى الله عليه وسلم ويعبر عن مشاعره نحوه في
هذه الأبيات (٢):

لَعَمْرِي لَقَدْ كَلَّفْتُ وَجَدًا بِأَحْمَدِ وَإِخْصَوْتَهُ دَأْبَ الْمُحِبِّ الْمُوَاصِلِ
فَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا جَمَالًا لِأَهْلِهَا وَزِينًا لِمَنْ وَالَاهُ رَبُّ الْمَشَاكِلِ

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٢٧٥ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَيُّ مُؤَمِّلٍ إِذَا قَاسَهُ الْحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضُلِ
حَلِيمٌ رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرُ طَائِشٍ يُوَالِي إِيَّاهَا لَيْسَ عَنْهُ بَغَافِلٌ

- يشرح السبب في عدم اتباعه محمدا صلى الله عليه وسلم في قوله (١) :

فَوَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ أَجِئْتُ بِسُنَّةٍ تُجَرُّ عَلَى أَشْيَاخِنَا فِي الْمَحَافِلِ
لَكُنَّا اتَّبَعْنَاهُ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ مِنَ الدَّهْرِ جِدًّا غَيْرَ قَوْلِ التَّهَافُلِ
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْتِنَاءَ لَا مُكَذِّبٍ لَدَيْنَا وَلَا يَعْنِي بِقَوْلِ الْإِبَاطِلِ
فَأَصْبَحَ فِينَا أَحْمَدٌ فِي أَرْوَمَةِ تُقْصَرُ عَنْهُ سَوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ

- يؤكد حمايته له وثقته في تأييد الله له، في قوله (٢) :

حَدِّبْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمَيْتُهُ وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذُّرَى وَالْكَلاَكِلِ
فَأَيَّدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ وَأَظْهَرَ دِينًا حَقُّهُ غَيْرُ بَاطِلٍ

- يعيب على أسيد (ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف)، وعلى بكره عتاب بن أسيد، أنهما حضاً على بغضهم (أى بنى هاشم).

وعلى عثمان (بن عبيد الله، أخى طلحة بن عبيد الله التيمي) أنه أطاع أبا (بن الأخنس بن شريق الثقفي، حليف بنى زهرة بن كلاب) وابن عبد يغوث، أنهم لم يرقبوا فيهم (أى فى بنى هاشم) مقالة قائل.

(١) ، (٢) السيرة ، القسم الأول ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

وعلى سُبَيْع (بن خالد، أخى بلحارث بن فهر) وعلى نوفل (بن خويلد بن أسد بن عبد العزى) أنهما توليا مُعْرِضَيْن، ويهدد بأن يكيل لهما صاعا بصاع.

وعلى أبى عمرو (بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف) أنه أبغض (بنى هاشم) وأنه يناجى بهم فى كل عَمْس ومصبح ولو أنه يحلف ببراءته.

وعلى أبى الوليد (عتبة بن ربيعة) بأنه يسمع قول الكاشحين (فى بنى هاشم) الحاسدين المبغضين.

و يُعَرِّضُ بِنْفَاقِ أَبِي سَفْيَانَ فِي ثَلَاثَةِ آيَاتٍ يَقُولُ فِيهَا:

وَمَرَّ أَبُو سَفْيَانَ عَنِّي مُعْرِضًا كَمَا مَرَّ قَلِيلٌ مِنْ عِظَامِ الْمُقَاوِلِ
يَفِرُّ إِلَى تَجْدٍ وَبَرْدٍ مِيَاهِهِ وَيَزْعُمُ أَنِّي لَسْتُ عَنْكُمْ بِغَافِلٍ
وَيُخْبِرُنَا فَعَلَ الْمُنَاصِحَ أَنَّهُ شَفِيقٌ وَيُخْفِي عَارِمَاتِ الدَّوَاحِلِ

و يذكر مُطْعِم (بن عدى بن نوفل بن عبد مناف) بأنه لم يخذله فى يوم نجدة ولا يوم خصم إذا أتوه ألدّة أولى جدك من الخصوم.

ويدعو على عبد شمس ونوفل بأن يجزيهم الله عُقوبة شر عاجلا غير آجل.

ويهاجم أولئك الذين فَضَّلُوا بنى خَلْفٍ وَالْغِيَاظِلِ (من بنى سَهْم بن عمرو بن هُصَيِّص، وأبى سفيان بن حرب بن أمية، ومُطْعِم بن عَدِي بن نَوْفَل بن عبد مناف) ومخزوم، الذين تَمَالَوْا وَأَلْبَوْا (على بنى هاشم) العدا من كل طِمْلٍ وخامل.

ويقول إن بنى نوفل «شر من وطىء الحصى والأم حاف من معدّ وناعل».

ويتجه إلى بنى عبد مناف قائلا إنهم خير قومهم وينصحهم ألا يشركوا غيرهم فى أمرهم ويسجل عليهم وهنهم وعجزهم وكونهم جاءوا بأمر مخطيء.

ويذكر قصيًا، الأب الأكبر لقبيلته، ويشره بأن أمرهم سيتشر. وبأنهم «نسل كرام لسادة بهم نعى الأقوام عند البواطل».

وتشير هذه القصيدة الملحوظات الآتية:

(١) هى تتناول موضوعا تناولته القصيدتان الأولى والثانية، وهو موضوع عداء قريش لقبيلة أبى طالب وتتوسع فيه، وإلى أسماء عمرو (ابن هشام بن المغيرة)، والوليد (بن المغيرة)، والمطعم (بن عدى بن نوفل ابن عبد مناف)، وإلى قبائل بنى عبد شمس، ونوفل (من بنى عبد مناف) وتيم ومخزوم وزهرة، ممن وردت أسماؤهم فى القصيدة الأولى، تضيف هذه القصيدة أسماء أسيد (من قبيلة أمية بن شمس)، وعثمان (ابن عبيد الله من بنى تميم)، وقنفذ (ابن عمير بن تيم)، وأبى (الأخنس ابن شريق الثقفى)، وابن عبد يغوث (وهب بن عبد مناف)، وسبيع (بن خالد، أخا بلحارث بن فهر)، ونوفل (بن خويلد بن أسد)، وأبا عمرو (من بنى نوفل بن عبد مناف)، وأبا الوليد (عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف)، وأبا سفيان، وقبائل سهم ومخزوم وكلاب. وقد وردت أسماء المطعم وقبيلتى عبد شمس ونوفل أكثر من مرة فى هذه القصيدة. وورد فى القصيدة أخيرا أن نوفلا شر من وطىء الحصى.

(٢) حديث الفترة فى السيرة - كما ذكرت فى التعليق على القصيدة الأولى - لا يفسر وجود ولا أسباب عداة الأشخاص والقبائل التى تذكر القصيدة أسماءهم حيال قبيلة الشاعر، ولا الظروف التى جعلت بنى عبد شمس وبنى نوفل ينشقون على بنى هاشم الذين يتمون مثلهم لقبيلة بنى عبد مناف.

صحيح أن الشاعر يعلن أن ذويه لن يسلموا محمدا أبدا، لكن العلاقة بين موقف هؤلاء الأشخاص وهذه القبائل، وحقيقة أن بنى هاشم يرفضون تسليم محمد ليست واردة فى القصيدة بصورة واضحة. كذلك فإن معظم الأشخاص والقبائل الواردة أسماءهم فى القصيدة لم يرد لهم ذكر فى حديث الفترة، ولم يكونوا بالتالى ممن طلبوا تسليم محمد إليهم.

على أنه مما لا يخلو من أهمية أن أذكر أن ثلاثة من الأشخاص الاثنى عشر الذين أشار إليهم الشاعر، وهم أُسَيْدٌ وَعُتْبَةُ وَأَبُوسُفْيَان، يتمون إلى قبيلة الخليفتين اللاحقين عثمان بن عفان ومعاوية، وأن رَهْطُ نُفَيْل، «شَرٌّ من وطىء الحصى» هى قبيلة عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين.

(٣) هذه القصيدة تطرى محمدا ﷺ كما أطرته قصيدة أبى طالب الثانية، وتزيد فى إطرائه. وصفات محمد التى تبرزها هى كونه لا مثيل له فى التأسى به، وكونه فى أرومة لا تُطاول، وكونه رجلا مبروكا، يحوط الذمار ويحوط به الهُلاَف من آل هاشم.

ويقول الشاعر إنه كَلَفَ به وَجَدًا وإنه - أى محمد ﷺ - فى الدنيا جمال لأهلها، ويضيف إنه حَدِبَ بنفسه دونه وأنه حماه ودافع عنه، وهو قول نجد فى النص ما يقابله فى الواقع. أما صفاته كسيد وكرجل لا

مثيل له، يحيط به الهُلاف من آل هاشم ويفخر به بنو هاشم، فلا تتمشى وصورة الرجل المحمى التى وردت فى النص.

والواقع أن محمداً ﷺ لا يظهر فى أى منظر من المناظر التى يصورها النص كرئيس وسيد أو كشخصية عظيمة من شخصيات بنى هاشم، ولو أنه كان كذلك لاتبعه الكثيرون من أفراد قبيلته، ولما فات الشاعر أن يسجل ذلك فى قصيدته. والحاصل أن الشاعر لا يتحدث عن مسلمين بين بنى هاشم.

(٤) أكثر من ربع القصيدة مخصص لذكر الأماكن المقدسة، والشاعر يذكر هذه الأماكن بعد حديثه عن زيارة يقول إنه ورهطه وإخوته قاموا بها حين قطع قوم من قبيلته الكبرى كل العرى معهم، وصارحوهم بالعداوة والأذى، وحالفوا قوماً عليهم.

والشاعر يتحدث عن نفسه فى هذا الجزء من القصيدة كما لو كان سيد بنى هاشم، الأمر الذى لا يؤيده النص إطلاقاً. كذلك وردت فى هذا الجزء من القصيدة عبارة «قل أعوذ برب الناس»، وهى منقولة بالحرف عن أولى آيات سورة الناس، الأمر الذى يبدو غريباً فى لغة شاعر وثنى.

وهذه الأبيات تذكرنا بتلك التى أنشدها عبدالمطلب ودعا الله فيها على أبرهة، وهو ممسك فى يده بحلقة باب الكعبة وبإصرار النص المتعلق به على وصفه؛ وهو يذهب إلى الكعبة، ويدعو الله كلما حزبه أمر.

والمؤلف يهدف، كما هو واضح، إلى إبراز أبى طالب وإخوته ورهطه لا كجماعة من عبدة الأوثان رفضوا فى جملتهم دين محمد ﷺ، لكن كقوم أتقياء بطريقتهم الخاصة، يشتركون مع محمد ﷺ فى توقير الكعبة والأماكن المقدسة، وفى إقامة جميع شعائر الحج. ويعزز هذه النية تأكيد

أن محمداً عند الشاعر «غير مكذب» فالخلاف فى العقيدة بين بنى هاشم ومحمد ﷺ ، فيما يبدو أن القصيدة توهم به ليس شاسعا، وبنو هاشم لم يكونوا، فى آخر المطاف ، كفاراً حقيقة .

(٥) تذهب القصيدة إلى أبعد من هذا : إنها تعترف بأن الله ليس بغافل عن محمد ﷺ ، وأنه أيده بنصره «وأظهر ديناً حقه غير باطل» ، هذا الدين الذى كان أبوطالب على استعداد لاتباعه، لولا خشيته أن يخرج أشياخ قبيلته .

ويلاحظ هنا أن الأسباب التى من أجلها تحرز أبوطالب من اعتناق الإسلام فى هذه القصيدة تختلف عن تلك التى سبق ذكرها فى النص؛ لكن هناك ملاحظة أهم من ذلك، وهى أن من غير المعقول أن يكون أبوطالب قد عبر عن رأيه هذا فى أبيات معدة للإذاعة، لأنه يعنى أنه اعتنق الإسلام حكماً؛ فالإسلام لا يقتضى لدخوله إجراءً رسمياً أو إشهاراً علنياً .

(٦) أخيراً، فإن الشاعر يؤكد أن قبيلته لن تترك مكة أبداً، وهذه معلومة لا تتصل بأى خبر فى النص .

لجميع هذه الأسباب، فإن هذه القصيدة المنسوبة إلى أبى طالب تكتمل لها كل مظاهر الانتحال، وهذا هو أيضاً رأى بعض أهل العلم بالشعر الذين رجع إليهم ابن هشام والذين أنكروا أكثرها .

(د) بعد أن ساق النص الخبر المتعلق بالقرار الذى اتخذته قريش بإيفاد رجلين من قريش إلى النجاشى ليرد المهاجرين المسلمين إلى مكة، قدم القصيدة الرابعة لأبى طالب بهذه الكلمات : «فقال أبوطالب، حين رأى ذلك من رأيهم وما بعثوهما فيه، أبياتا للنجاشى يحضه على حسن جوارهم والدفع عنهم» وهذه هى الأبيات (*) :

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

ألا ليت شعري كيف في النأي جَعَفَرُ وعَمرو وأعداء العدو الأقاربُ
وهل نالت أفعال النجاشي جعفرًا وأصحابه أو عاق ذلك شاغب
تَعَلَّمُ، أبيت اللعن، أنك ماجدٌ كريمٌ فلا يَشْقَى لديك المُجانب
تَعَلَّمُ بأن الله زادك بَسْطَةً وأسبابَ خير كُلِّها بك لازب
وأنتك فيضٌ ذو سِجَالٍ غزيرةٍ ينال الأعداى نفعها والأقارب
ومن الغريب أن يكون أبو طالب قد خاطب نجاشي الحبشة، الذي لا
يعرف العربية ولا الشعر العربي، بأبيات من الشعر. ولا يذكر تقديم
هذه القصيدة ما إذا كانت هذه الأبيات قد وصلت إلى أسماع من وجهت
إليه، كما لا يصف الأثر الذي تركته في نفسه.

(هـ) بعد أن تحدث النص عن القرار الذي اتخذته قريش بمقاطعة بني
هاشم وبني عبد المطلب، والذي سجلته في صحيفة علقت في الكعبة،
قدم قصيدة أبي طالب الخامسة بهذه الكلمات : «فلما اجتمعت على
ذلك قريش، وصنعوا فيه الذي صنعوا، قال أبو طالب» في هذه القصيدة
التي تتكون من خمسة عشر بيتاً (*).

ألم تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا نِيَا كَمُوسَى خُطٌّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ
وَأَنْ عَلَيْهِ فِي الْعِبَادِ مَحَبَّةٌ وَلَا خَيْرَ مِمَّنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِالْحُبِّ
وَأَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي أَلْصَقُوهُ (والإشارة هي إلى لؤي بن كعب) سيكون
نحسًا عليهم، ويدعوهم بحرارة إلى عدم اتباع الوشاة، وعدم قطع

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

الأواصر بعد المودة والقرب، وألا يستجلبوا الحرب السعوان، فإن جلب الحرب مرير على من ذاقه. ويضيف:

فلسنا وربّ البيت نُسلمُ أحمدًا لعزّاء من عضّ الزمان ولا كُرب

ويقول في هذه القصيدة إن قومه سيدافعون عنه بالسيوف والحرب، فإن أباهم هاشما أوصى بنيه بالطّعان وبالضرب، وهم لا يملّون الحرب حتى تملهم.

وهذه القصيدة تكرر ما أعلنته القصيدة الثالثة من رفض بنى هاشم تسليم محمد، وأنهم على استعداد للمنافحة عنه بالسلاح. على أن سؤال: «ألم تعلموا أنا وجدنا محمدًا نبيا كموسى خطّ في أول الكتب» الموجه إلى بنى كعب يستحدث، للمرة الأولى، اعترافا صريحا بنبوة محمد ﷺ وبأول الكتب. والأمر الغريب هنا هو أن هذا الاعتراف المزدوج، الذى يشكل اعتناقًا للإسلام، أى حدثا على أقصى درجة من الأهمية، بالنسبة للقبيلة، لا يشغل، فى أبيات هذه القصيدة الخمسة عشر، سوى بيت واحد، وأن الصفة الوحيدة فى هذا النّبي التى تقف عندها القصيدة، هى أنه موضع محبة الله والعباد، لا تحتلّ بدورها سوى بيت واحد.

أخيرا فإن الشاعر لا يخصص إلا بيتا واحدا للكتاب الذى ألصقته كعب والذى سيجرّ عليها النّحس. أى كتاب؟ لا إجابة فى القصيدة. والقصيدة، كما هى، تثير عدة تساؤلات:

(١) كيف يمكن التوفيق بين اعتراف القبيلتين اللتين يتحدث أبو طالب باسمهما بصفة محمد ﷺ كنبى وبأول الكتب، وبين الحقيقة التى يقرها

النص، وهى أن أبا طالب رفض أن يُسلم، وكون النص لم يذكر أن أحدا منهما ما عدا عليا وجعفرًا وحمزة، قد دخل فى الإسلام؟

(٢) وإذا كان صحيحا- كما يوحى به النص- أن السبب الذى من أجله قطعت كعب الأواصر مع بنى هاشم إنما هو اعتراف هؤلاء بنبوته محمد ورفضهم تسليمه، فأين الوشاية هنا؟

(٣) كيف يمكن تفسير أن قصيدة أبى طالب لم تشر إلى أى تهديد صادر من قريش إلى أبى طالب بحربه إن لم يسلم لهم محمداً ﷺ، وأن قبيلته هى، على العكس، التى تهدد باللجوء إلى الحرب للدفاع عن محمد، مع أن النص لا يشير إلى مثل هذا التهديد؟

(٤) كيف للمرء أن يفهم أن قصيدة قيلت بعد تطبيق مقاطعة تهدف إلى خراب بنى هاشم مباشرة لا تخصص لحدث فى مثل هذه الأهمية سوى بيت واحد، وأنها تخصص أكثر من عشرة أبيات للفخر والهجاء والتهديد بامتشاق السلاح؟

(و) والقصيدة السادسة من شعر أبى طالب واردة فى النص بعد قصة أبى سلمة (*). لقد كان هذا الصحابى، من بنى مخزوم، وزوجه، بين المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة. وقد استجار أبا طالب، فيما يقول النص، لدى عودته إلى مكة؛ فمشى رجال من بنى مخزوم إلى أبى طالب فقالوا له: يا أبا طالب، لقد منعت منّا ابن أخيك محمداً، فمالك ولصاحبنا تمنعه منّا؟ قال إنه استجار بى، وهو ابن أختى، وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى، فقام أبولهب فقال: يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ، ما تزالون تؤثّبون عليه فى جواره من

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٧١، ٣٧٢.

بين قومه ، والله لتنتهنّ عنه أو لنقومنّ معه في كل ما قام فيه ، حتى يبلغ ما أراد ، فقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة ، وكان لهم وليا وناصرا على رسول الله ﷺ ، فأبقوا على ذلك ، فطمع فيه أبوطالب حين سمعه يقول ما يقول ، ورجا أن يقوم معه في شأن رسول الله ﷺ ، فقال أبوطالب يحرض أبا لهب على نصرته ونصرة رسول الله ﷺ :

وإنّ امرأ أبو عتبة عمّه لفي روضة ما إن يسام المظالما
أقول له ، وأين منه نصيحتي أبا مغبّ ثبّت سوادك قائما
ولا تقبلنّ الدهر ما عشت خطة تُسبّ بها إما هبطت المواسما
وولّ سبيل العجز غيرك منهم فإنك لم تُخلّق على العجز لازما
وحارب فإن الحرب نصفٌ ولن ترى أخا الحرب يُعطى الخسف حتى يسالما
وكيف ولم يجنّوا عليك عزيمةً ولم يخذلوك غائما أو مغارما
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا وتيما ومخزوما عُقوقا ومائما
بتفريقهم من بعد ودّ وألفةٍ جماعتنا كيما ينالوا المحارما
كذبتم وبيت الله نيزى محمداً ولما تروا يوما لدى الشعب قائما

يكرر الشاعر هنا تأكيدا ورد في قصيدتين سابقتين مؤداه أنهم - هو وقبيلتاه - لن يسلموا محمداً ﷺ . وهو يكرر أيضا حملته على بني عبد شمس وبني نوفل وبني تيم وبني مخزوم ، التي ظهرت في القصيدة الأولى ، وأيضا ، فيما يتعلق ببني عبد شمس ونوفل ، في القصيدة الثالثة ، كما يكرر اتهامها بتفريق جماعتهم . والعنصر الجديد الوحيد الوارد في القصيدة الراهنة هو ثناء الشاعر على أبي لهب ، في قوله :

«وإن امرأ أبو عتيبة عمه لفي روضة ما أن يسام المظالم»، والنصيحة التي أوجهاها له بإظهار الحزم تجاه الآخرين وبالمحاربة في صفّ ذويه.

والصورة التي تعطيها القصيدة عن أبي لهب غير متناسقة: فبينما توحى الأبيات الأولى بأنه شخص شديد البأس، لا يخشى المرء الذي هو عمه أن يسام المظالم، تصوره الأبيات الأربعة التالية بصورة الرجل الضعيف الذي يتحاشى المعارك، والذي يسهل التأثير عليه. وهي صورة ليست سلبية تماما. والواقع أن القصيدة تكاد تقول إن أبا لهب إن كان قد أثم، فإن ائمه يرجع إلى كونه كان مجاملا أكثر من اللازم، وأنه ترك نفسه في يد قوم كان كل همهم إضعاف قبيلته، وأنه لم يكن ميثوسا منه بدليل أن أخاه كان يطمع بأبياته في جعله يغير معسكره. والنص لا يذكر ماذا كان رد فعل أبي لهب إزاء هذه الأبيات.

والواضح أن هذه القصيدة تهدف إلى أمرين:

الهدف الذي تتوخاه معظم القصائد المنسوبة إلى أبي طالب، وهو تأييد الدعوى التي يقدمها النص، والتي تذهب إلى أن أبا طالب ووراءه بنو عبدالمطلب وبنو هاشم منعوا الرسول ﷺ، وهلف تخفيف وقر الإدانة الرهيبة التي أصدرها القرآن في حق أبي لهب.

وهناك نقطة فرعية يمكن إبدائها بشأن هذه القصيدة هي المناسبة التي قيلت فيها: إن الحجة التي رد بها الشاعر على بنى مخزوم الذين قالوا له: «لقد منعت منا ابن أخيك محمدا، فما لك ولصاحبنا تمنع منا»، وهي قوله: «إن أنا لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أختي» حجة واهية في النظام القبلي عند العرب، الذي يرجع القرابة من جهة الأب على القرابة من جهة الأم.

ز) وقصيدة أبى طالب السابعة (*) تلى مباشرة الخبر الوارد فى النص بشأن اتفاق خمسة من سادة قريش على تمزيق صحيفة المقاطعة المعلقة فى الكعبة، واكتشاف أن الأرضة قد أكلتها.

ويقدم النص لهذه القصيدة بالكلمات الآتية:

«فلما مزقت الصحيفة وبطل ما فيها، قال أبو طالب، فيما كان من أمر أولئك نفر الذين قاموا فى نقضها بمدحهم».

وتتكون القصيدة المذكورة من خمسة وعشرين بيتا يخاطب الشاعر فيها «بَحْرِيْنَا» أى من كان هاجر من المسلمين إلى الحبشة فى البحر، ويخبرهم بأن الصحيفة التى «تراوحها إفك وسحر» قد مزقت.

وهو يذكر بأمجاد قبيلته التى نشأت بمكة والناس فيها قلائل؛ فما انفكوا يزدادون خيرا ويحمدون، ويفخر بعزتهم وكرمهم، وهو يكيل الثناء للرهط الأشراف الذين اتقوا بالحَجُّون (قرب مكة)؛ وينعتهم بأجمل الأوصاف: فهم المقاوله، أى الملوك، وكلهم سيد وابن سيد، وهم صفور، وهم شُهْب، وعلى وجوههم يسقى الغمام ويسعد... إلخ. وهو قرير العين بهذا الصلح، ويرى أن سهل بن بيضاء وأبا بكر ومحمدا سيسرون به.

إن جزءا كبيرا مما ورد فى هذه القصيدة مما يصعب فهمه. والشاعر يتحدث فيها عن صحيفة وعن صلح لكن شيئا فى القصيدة لا يشير إلى المقاطعة. كذلك فإن القصيدة لا تذكر اسم واحد من الأشخاص الخمسة الذين يقول النص إنهم اشتركوا فى نقض المقاطعة. والقصيدة لم يرد فيها، فضلا على ذلك، اسم شخص من الأشخاص أو قبيلة من القبائل.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٧٨ ، ٣٨٠ .

التي دعت إلى فرض المقاطعة أو إلى تطبيقها، أو إلى قبيلة من القبائل التي وردت أسماؤها في القصائد الأخرى.

أخير فليس في القصيدة أى بيان يتعلق بمدّة المقاطعة، ولا وصف للظروف الذين أحاطت بينى عبدالمطلب وبنى هاشم خلالها، ولا بأى حادث حدث بمناسبةها، ولا بأية نتيجة ترتبت عليها بالنسبة لمن فرضت عليهم أو لمكة.

ملحوظات :

شعر أبى طالب، فى مجموعه، يثير الملحوظات الآتية:

أ- عدم صحة القصيدة الثالثة التى هى أطول قصيدة، لا فى الفترة المكية وحدها، بل أيضا فى السيرة كلها، دليل لا يقبل إثبات العكس على وجود محاولات، فى الفترة التى كتب فيها النص، لتزييف السيرة عن طريق انتحال الشعر، وقد رأينا مثلا لهذا الانتحال فى القصائد الست المنسوبة لبنات عبدالمطلب. وهناك أمثلة أخرى عديدة له فى السيرة أشار إليها ابن هشام بعد الرجوع إلى أهل العلم بالشعر؛ لكن المرء ليس محتاجا لأن يكون من أهل العلم بالشعر أو لأن يعيش فى زمن المؤلف للحكم على صحة القصائد التى لم يبد خبراء الشعر فى عصر ابن هشام تحفظات بشأنها.

إن مقارنة القصائد بعضها ببعض، ومقارنتها بما جاء فى النص من أخبار ومعطيات، وتطبيق نتائج تحليل النص عليها، تسمح فى كثير من الحالات بتمييز الصحيح والمتحل فيها. وإذا طبقنا هذه المعايير على شعر أبى طالب، فإننا نلاحظ أن معظم الموضوعات التى تناولتها القصائد الأولى والثانية والخامسة والسادسة والسابعة (وباستثناء القصيدة الموجهة

إلى النجاشي) واردة، مع فروق طفيفة، في القصيدة الثالثة التي تمثل، من حيث طولها ٥٦ في المائة من شعر أبي طالب كله؛ فإذا كانت هذه القصيدة منحولة في معظمها، فللمراء، على الأقل من حيث المبدأ، أن يعتبر أن القصائد الأخرى التي تعالج الموضوعات ذاتها بالطريقة نفسها منحولة بدورها. وعلى هذا:

(١) يمكن القول إن القصيدة الخامسة منحولة، لأن معظم مكوناتها (نبوة محمد ﷺ، وتأكيده أن (بنى هاشم) لن يسلموا محمداً، والحملة على بنى كعب بن لؤي، أي على قريش) وارد في القصيدة الثالثة، وهي قرينة يعززها أولاً أن أبا طالب، الذي يقول النص إنه رفض دعوة ابن أخيه إلى الإسلام حتى نهاية أيامه، لا يمكن أن يكون قد اعترف بنبوة محمد ﷺ، ويعززها ثانياً ما ذكرته في الفصل السابق من أن قريشا ما كان يمكن، طبقاً للنظام القبلي السائد، أن تطلب من قبيلتي الرسول صلى الله عليه وسلم أن تسلماه لهم، وأن قريشا لم تقدم مثل هذا الطلب، أي طلب التسليم، لأي من القبائل الأخرى، وأن محمداً ﷺ لم يكن بحاجة إلى حماية وأن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، الذين كانوا كفاراً، وكانوا يضطهدون المسلمين، ما كان يمكن أن يحموا محمداً ﷺ، وأنه ﷺ لو كان محتاجاً إلى حماية بشرية، لتوافرت له حماية أصحابه رضوان الله عليهم، الذين آمنوا بدينه والذين كانوا أكثر عدداً من بنى هاشم.

(٢) حملة النقد ضد قريش، التي هي موضوع القصيدة الوحيدة، والتي نجدها في جميع قصائد أبي طالب الأخرى تقريباً، تستند إلى دعوى حماية بنى عبدالمطلب وبنى هاشم للرسول التي أوغرت ضد هاتين القبيلتين صدور قبائل قريش الأخرى. ونظراً إلى أنني أوضحت بطلان هذه الدعوى، فإن الحملة المذكورة تفتقد أساسها.

ب) لو أن أبا طالب كان حقا الشاعر الذي يقدمه النص لكان مدحُ
بنى عبد مناف وبنى هاشم الذي نجده في القصائد الثانية والثالثة والخامسة
والسابعة شيئا يتفق وأغراض الشعر العربى التقليدية؛ لكن غرض هذه
القصائد مرتبط فى الواقع بالخطة الشاملة التى تهدف إلى إعلاء شأن بنى
هاشم، قبيلة الخليفة العباسى، والغرض من قدر القبائل المكية، فى
مجموعها، على اعتبار أنها القبائل التى اتخذ منها الخلفاء القرشيون الثلاثة
الأول وخلفاء بنى أمية أعوانهم الرسميين؛ لذلك اقترن مدح بنى هاشم،
فى كل ما أسند إلى أبى طالب من شعر، بدم قبائل قريش الأخرى.

ج) القصيدة السادسة (مدح أبى لهب وهجاء قبائل قريش ولا كذبتم
وبيت الله نبى محمدًا) يمكن اعتبارها، هى الأخرى، منحولة وذلك
للأسباب التى ذكرناها أعلاه فيما يتعلق برفض قوم الشاعر تسليم محمد
ﷺ وهجاء قريش، ثم لشبهة أن يكون هدف القصيدة هو تبرئة ساحة
شخصية من شخصيات بنى هاشم - أى أبى لهب - التى يثقلها المصير
الفظيع الذى أعلنه القرآن. وهذه الوقائع تماثل معطيات أخرى سبقت
الإشارة إليها، ومعطيات ستظهر بمعرض دراسة الاقتباسات القرآنية
المتعلقة بهذه الفترة.

د - أما القصيدة الرابعة، الموجهة للنجاشى، فهى لا تتناول موضوعا
من الموضوعات التى تناولتها القصيدة الثالثة. والملاحظات التى أبدت
بشأنها توضح أن احتمالات الوضع فيها كبيرة. وأستطيع هنا إضافة أن
أبا طالب لو كان شاعرا حقيقا، وأن قريشا لو كانت هى - لا قبيلته -
التي اضطرت جعفرًا إلى الهجرة، لنظم فى صدد هذه الهجرة، التى
كانت تمه شخصيا، قصيدة من أطول وأعظم قصائده: قصيدة تذكر
على التحديد أسماء الأشخاص أو قبائل قريش المسئولة عن رحيل ابنه،

والأشخاص الذين دفع اضطهادهم جعفرًا إلى الهجرة، والخطر الذي كان يتعرض له لو أنه لم يهاجر، والجهود التي بذلها أبو طالب نفسه لحماية ابنه، وتجنّيه هذه القفزة في المجهول، وتلك التي بذلها إخوته، أعمام جعفر، أو سادتها وشرفاؤها للغرض نفسه؛ والأسباب التي أدت إلى قتل تلك المساعي، وموقف أخيه أبي لهب، الذي كان قريبًا من مراكز القرار القرشية، قبل هجرة جعفر وبعدها، ومنظر وداع جعفر الذي تنقطع له نياط القلوب، والمشاعر التي هاجت في نفس أبيه ولدى أسرته وإشفاقهم من رحيله إلى أرض غريبة لا يعرف لغتها ولا أهلها، وأساهم الشديد لانقطاع أخباره، وما إلى ذلك.

والحاصل أن النص لا يورد أية قصيدة تسجل الحدث من هذه الزاوية. لهذا فأغلب الظن أن هذه القصيدة لم توضع إلا ليقى في شعر أبي طالب المزعوم أثر للهجرة إلى الحبشة.

هـ) بقى موضوع كلمة «كتابكم» في البيت الذي يقول:

وَأَنْ الَّذِي الصَّقْتُمْ مِنْ كِتَابِكُمْ لَكُمْ كَائِنَ نَحْسًا كَرَاغِيَةَ السَّقْبِ

في القصيدة الخامسة، وكلمة «الصحيفة» في القصيدة السابقة. هذا أيضا موضوع لم تطرقه القصيدة الثالثة. وهاتان الكلمتان لا تعرفان في الواقع شيئا محددا. علاوة على ذلك فإن «الصحيفة»، طبقا للنص، كما رأينا، لم تمزق وإنما أكلتها الأرضة.

والانطباع العام الذي يخرج به المرء من كل هذه القصائد، التي تمثل ٤٢ في المائة من الشعر المنسوب إلى أبي طالب هو أنها، شأنها في ذلك شأن القصيدة الثالثة، تحمل علامات واضحة على التزوير. وهناك دالتان تقويان هذا الانطباع:

(١) أن أبا طالب لم يمدح أباه ذاته، ولا أخاه حمزة ذاته، ولا قبيلته ذاتها، أى قبيلة بنى عبدالمطلب، مع أن المفروض أن يكون هؤلاء فى مقدمة من يذكرهم فى معرض المدح والفخر.

(٢) أن شعر أبى طالب منحصر فى الفترة الثالثة، فالنص لا يورد أية قصيدة له فى الفترتين الأولى والثانية ولا خلال السنوات الأربعين ونيف التى عاشها الرسول ﷺ قبل مبعثه، ولا خلال حياة أبيه عبد المطلب، مع أن حياة هذا الأب ووفاته كانت، طبقا للنص، حافلة بالعظمة والأعاجيب وجلال الأعمال، وأن مشاعر التوقير والمحبة التى كان ابنه يكنها له ولا ريب كانت قيمة بإلهام أى شاعر مطبوع.

ويلاحظ أخيرا أن محتوى القصائد المذكورة ينطوى على اختلافات توحى بأنها ليست من وضع شخص واحد. وأبرز مثل على هذا هو ذلك الذى يتعلق ببني عبد مناف، الذين يمدحون جملة فى إحدى القصائد ويلامون على تفرقهم وانقسامهم فى قصائد أخرى.

٢. باقى الشعراء :

أ - فى قصيدة من خمسة وثلاثين بيتا (*) يتجه الشاعر أبو قيس بن الأسلت إلى بنى لؤى بن غالب (إحدى قبائل قريش الكبرى) ويذكرهم بالله ويدعوهم ، كصديق يعيذهم بالله، إلى أن يذروا الحرب التى تقطع أرحامهم ويخشى أن تهلكهم. كما يطلب منهم أن يعتبروا بحربى داحس وحاطب وبالخراب الذى تسبب فيه، ويهيب بهم أن يسيعوا حرابهم وأن يذكروا حسابهم عند الله. وهو يعبر عن أمله، وهم للناس نور وعصمة وموئل أصحاب الحاجات، فى أن يقيموا للناس دينا حنيفا، ويحثهم على القيام والصلاة لربهم والتمسح بأركان البيت، ويتحدث عن «ذى

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٢٨٣ - ٢٨٦ .

العرش» الذى رد ملك الأحباش، فولوا سراعا هاربين، ولم يقرب إلى أهله منه غير عصائب.

يقول النص فى تقديم هذه القصيدة إن الشاعر كان يحب قريشا وكان لهم صهرا، وإنه كان يقيم عندهم السنين بامراته، ويضيف إنه يعظم بقصيدته الحرمة وينهى قريشا عن الحرب، ويأمرهم بالكفّ بعضهم عن بعض، ويذكرهم فضلهم وأحلامهم، ويأمرهم بالكفّ عن رسول الله ﷺ، ويذكرهم بلاء الله عندهم، ودفعه الفيل وكيدهم عنهم.

والملاحظ أن ما جاء فى تقديم القصيدة من أن الشاعر يأمر قريشا بالكف عن رسول الله ﷺ غير واضح من عبارتها. كذلك فإن هذا القول يناقضه خبر آخر لاحق سيتضح فى دراستنا للفترة الخامسة مؤداه أن هذا الشاعر ذاته قد منع عشائر أمية بن زيد وخطمه ووائل وواقف من اعتناق الإسلام.

ب) قصيدة من أربعة أبيات (*) يقول فيها حكيم بن أمية بن حارثة، حليف بنى أمية، وقد أسلم:

هل قائلُ قولاً هو الحق قاعدٌ عليه وهل غضبانُ للرشد سامعُ
وهل سيدُ ترجو العشيرةُ نفعه لأقصى الموالى والأقارب جامعُ
تبرأتُ إلا وجه من يملك الصبا وأهجرُكم ما دام مُدلى ونازع
وأسلم وجهى للإله ومنطقى ولو راعنى من الصديق روائع

يقول النص فى تقديم هذه القصيدة إن الشاعر يروّع قومه (أى يصرفهم ويردهم) عما أجمعوا عليه من عداوة رسول الله ﷺ، وكان فيهم شريفا مطاعا. وهذا تفسير مفتعل للقصيدة، التى لم يذكر فيها اسم الرسول ﷺ.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٨٩.

(ج) ثلاث قصائد (*) ، اثنتان منها من ستة أبيات ، والثالثة من ثلاثة أبيات ، لعبد الله بن الحارث بن قيس بن عدى بن سعد يقول الشاعر فى أولاها :

ياراكبا بَلَّغَنى مَغْلَغَلَةً مَنْ كان يَرْجُو بِلاغَ اللهِ والدين
كل امرئ من عباد الله مضطهد بيطن مكة مَقْهور ومَفْتون
أنا وَجَدنا بلادَ الله واسعة تُنْجى من الذل والمخزاة والهُون
فلا تُقيموا على ذلِّ الحياة وخِزْ ي فى الممات وعيب غير مأمون
إنا تَبَعنا رسولَ الله واطَّرَحوا قولَ النَّبىِّ وعالُوا فى الموازين
فاجْعَلْ عذابكَ بالقوم الذين بَغَوْا وعائِذا بك أن يَعلُوا فيُطْغونى

ويقول فى قصيدته الثانية :

أَبَتْ كِبْدى ، لا أَكْذِبُكَ ، قتالهم على وتَأْباه على أناملى
وكَيْفَ قَتالى مَعْشَرًا أدْبوكُم على الحق أن لا تَأْثبوه بباطل
نَفَّتْهم عبادُ الجنِّ من حُرِّ أرضِهِم فأضْحَوْا على أمرٍ شديد البَلابل

وينعى على قبيلته ، قبيلة عدى بن سعد ، خَبَثَهُم وعدم تقواهم .

ويقول عبدالله بن الحارث أيضا :

وتلك قُرَيْشٌ تَجَحَّدُ اللهُ حقَّه كما جَحَدَتْ عادٌ ومدينٌ والحِجرُ
فإن أنا لم أبرق فلا يَسْعَنى من الأرض برٌّ ذو قِضاء ولا بحر
بأرضٍ بها عَبْدُ الإله محمدٌ أُبين ما فى النَّفس إذ بُلغ النَّقرُ

(*) المرجع السابق ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

ومما يسترعى الانتباه فى هذه القصائد أمران : الأول هو أن الكلمة المستخدمة لوصف رحيل المسلمين من مكة إلى الحبشة هى كلمة «نفتهم»، والنفى غير الهجرة، وأن الذى استخدم هذه الكلمة هو الشاعر فى البيت الثالث من قصيدته الثانية، وهو أيضا المؤلف فى قوله : «وقال عبدالله بن الحارث أيضا، يذكر نفى قريش إياهم فى بلادهم، ويعاتب بعض قومه فى ذلك». والأمر الثانى هو أن الشاعر يهاجم قبيلته جملة، وهو ما يؤكد فكرة أن الذى قرر نفى المسلمين هى قبائلهم لا قريش فى مجموعها.

(د) وفى قصيدة من خمسة أبيات يهجو عثمان بن مظعون (١) تيم بن عمرو لأنه أخرجه من مكة ويقول له :

وَحَارَبْتَ أَقْوَامًا كِرَامًا أَعِزَّةً وَأَهْلَكَ أَقْوَامًا بِهِمْ كُنْتَ تَفُزُّعُ

ويقول النص فى تقديمه لهذه القصيدة إن الشاعر يعاتب فيها أمية بن خلف، وهو ابن عمه، الذى كان يؤذيه فى إسلامه، وأن أمية كان شريفا فى قومه فى زمانه ذلك. وهذه حالة أخرى تجسد الحقيقة التى وردت فى النص والتى تقرر أن الاضطهاد لم يكن يتم على أيدى سلطة مركزية فى مكة؛ لكن على أيدى كل قبيلة من القبائل ضد أفرادها الذين أسلموا.

ويلاحظ أن هذه القصيدة تشير إلى إهلاك - أى قتل - أشخاص بسبب دينهم.

(هـ) قصيدة من ثمانية أبيات (٢) لشاعر المدينة الكبير حسان بن ثابت يبكى فيها المطعم «بن عدى»، ويسمى المطعم «عظيم المشعرين» ويصفه

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٣٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨٠ .

بأنه صاحب مجد، ويأنه يوفى بخُفرة جاره وذمته، وأنه أعزّ أبناء قبيلة معدّ وقحطان وجُرُّهم وأعظمهم، وهو يمدحه لأنه أجاز رسول الله ﷺ ويرى أنه سوف يُخلد الدهر.

ويورد النص في تقديم هذه القصيدة أن حسان بن ثابت يذكر فيها «قيامه في نقض الصحيفة»، لكن ليس هناك شيء في القصيدة يشير أدنى إشارة إلى الصحيفة المذكورة. ويشرح النص بيتا في القصيدة يقول فيه حسان:

أَجَرْتَ رَسُولَ اللَّهِ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا عَيْدَكَ مَا لَبَّى مُهْلٍ وَأَحْرَمًا

بقوله إن رسول الله ﷺ لما انصرف عن أهل الطائف، ولم يُجيبوه إلى ما دعاهم إليه، من تصديقه ونصرته، صار إلى حراء، ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليُجيره، فقال: أنا حليفٌ والحليف لا يُجير. فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال: إن بني عامر لا تجير على بني كعب. فبعث إلى المطعم بن عدى فأجابه إلى ذلك، ثم تسلح المطعم وأهل بيته، وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ أن ادخل، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطاف بالبيت وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف ترجع، طبقا للنص، إلى الفترة المكية الرابعة، ولم يكن حسان بن ثابت في ذلك الوقت قد أسلم بعد. وهذا معناه أن هذه القصيدة لا يمكن أن تكون قد قيلت إلا في الفترة المدنية. وإذا كان حسان لم يمدح الرسول ﷺ ولا أبا طالب في هذه المناسبة أو في مناسبة قبلها فمن الغريب أن يكون قد أثنى على المطعم بن عدى كل هذا الثناء؛ وسنعود إلى هذا الموضوع في الفصل التالي.

(و) فى قصيدة من ثلاثة أبيات^(١) يقول حسان بن ثابت :

هل يُوفينَ بنو أمية ذِمَّةً عَقْدًا كما أوفى جِوَارُ هشامٍ
مِنْ مَعَشَرَ لا يَغْدرونَ بجارهم للحارث بن حُبَيْب بن سُخام
وَإِذا بنو حِسلٍ أجارُوا ذِمَّةً أوفَوْا وأدَّوا جارهم بِسلام

وورد فى تقديم النص لهذه الأبيات أن من قيلت فى مدحه هو هشام ابن عمرو، وأن حسان يمدحه فيها لقيامه فى الصحيفة. لكن الحاصل، فى هذه القصيدة كما فى قصيدة حسان السابقة، أنه لم ترد فيها أية إشارة إلى صحيفة المقاطعة أو إلى أية صحيفة أخرى. والشاعر يتحدث هنا عن «جوار»، والجوار عمل لا يمكن الخلط بينه وبين نقض صحيفة المقاطعة. وأخيرا فإن من الغريب أن بنى أمية (قبيلة الخليفة الأموى (اللاحق) كانوا، من بين جميع الأعداء الذين ذكرهم أبو طالب، الوحيدين الذين وقع عليهم اختيار شاعر المدينة مثالا للغدر وخفر الذمة. وواضح أن هذه القصيدة قصيدة مزورة، انتحلت فى الفترة العباسية ونسبت إلى حسان.

(ز) فى قصيدة من ثلاثة وعشرين بيتا^(٢) يقول الشاعر أعشى بن قيس ابن ثعلبة إنه مازال يبغي المال مذ هو يافع، وإنه كان يحب الترحال، وإن إبله السريعة يمت وجهها إلى يثرب، ويقول:

وَأَلَيْتُ لا آوى لها من كَلالةٍ ولا من حَفَى حتى تلاقى محمدا
متى ما تُناخى عند باب ابن هاشم تُراخى وتَلْقَى من فواضله نَدَى
نَبِيًّا يرى ما لا تروُنَ وذكُرُهُ أغار لِعَمْرَى فى البلاد وأنجدا

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٨١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨٦ - ٣٨٨ .

له صَدَقَاتٌ مَا تُغِبُّ وَنَائِلٌ وليس عطاء اليوم مانعه غدا
 أَجِدَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نبي الإله حيث أَوْصَى وَأَشْهَدَا
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بَزَادَ مِنَ التُّقَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ قَدْ تَزَوَّدَا
 نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لَا تَكُونَ كَمِثْلِهِ فَتُرْصِدُ لِلْأَمْرِ الَّذِي كَانَ أَرْصَدَا
 فَيَاكَ وَالْمَيْتَاتِ لَا تَقْرِبَنَّهَا وَلَا تَأْخُذَنَّ سَهْمَا حَدِيدَا لَتُفْصِدَا
 وَذَا النُّصَبِ الْمَنْصُوبَ لَا تَنْسَكُنَّه وَلَا تَعْبُدِ الْأَوْثَانَ وَاللَّهِ فَاعْبُدَا
 وَلَا تَقْرَبَنَّ حُرَّةً كَانَ سَرَّهَا عَلَيْكَ حَرَامًا فَانْكَحَنَّ أَوْ تَأْبُدَا
 وَذَا الرَّحِمِ الْقُرْبَى فَلَا تَقْطَعَنَّه لِعَاقِبَةٍ وَلَا الْأَسِيرِ الْمُقَيَّدَا
 وَسَبِّحْ عَلَى حَيْنِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى وَلَا تَحْمَدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهِ فَاحْمَدَا
 وَلَا تَسْخَرَا مِنْ بَائِسٍ ذِي ضَرَارَةٍ وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَالَ لِلْمَرْءِ مُخْلِدَا

ورد في النص أن أعشى بن قيس خرج إلى رسول الله ﷺ يريد
 الإسلام فقال القصيدة فلما كان بمكة أو قريبا منها، اعترضه بعض
 المشركين من قريش، فسأله عن أمره، فأخبره أنه جاء يريد رسول الله
 ﷺ ليسلم؛ فقال له: يا أبا بصير، إنه يُحَرِّمُ الزَّنا؛ فقال الأعشى: والله
 إن ذلك لأمرٌ ما لي فيه من أرب؛ فقال له: يا أبا بصير، فإنه يحرم
 الخمر، فقال الأعشى: أما هذه فوالله إن في النفس منها لعُلاَلات،
 ولكني منصرفٌ فأترَوِي منها عامي هذا، ثم آتية فأُسَلِّم. فانصرف فمات
 في عامه ذلك، ولم يعد إلى رسول الله ﷺ.

لا يشرح النص السبب في إدراج هذه القصيدة، التي يقول الشاعر
 فيها إن إبله يمت وجهها إلى يثرب كي يلاقى محمداً، في شعر الفترة

المكية الثالثة . كذلك فإن كل شيء في القصيدة يشير إلى أن الشاعر كان مسلماً بالفعل . والدخول في الإسلام ، كما هو معروف يتم بمجرد الشهادة ، ولا يفترض المثل أمام رسول الله ﷺ شخصياً .

ولايد أن الشاعر كان يعرف تعاليم الإسلام ويقبلها ، وأنه كان على علم مثلاً بأن الإسلام يحرم الزنا ، وإذا كان قد رغب في رؤية الرسول ﷺ فلاحتمال هو أن يكون قد أراد أن يسعد بالتعرف على شخصه ، وأن يعبر له عن كل المحبة والعرفان اللذين كان يكتنهما له ، لأنه هداه بالقرآن إلى الإسلام . ويلاحظ في هذا الخصوص أن النهى عن شرب الخمر لم يرد في القرآن إلا في المدينة ، في سورة المائدة ، وهي آخر ما أنزل من السور .

(ح) في قصيدة من ثلاثة أبيات (*) يقول عبدالله بن أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ، قبيلة الوليد بن المغيرة ، إلى قبيلة (يقول النص إنهم خزاعة) :

إِنِّي زَعِيمٌ أَن تَسِيرُوا فَتَهْرَبُوا وَأَنْ تَتْرَكُوا الظَّهْرَانِ تَعْوَى ثَعَالِبُهُ
وَأَنْ تَتْرَكُوا مَاءً بِجِزْعَةٍ أَطْرَقَا وَأَنْ تَسْأَلُوا: أَيُّ الْأَرَاكِ أَطَايِبُهُ؟
فإِنَّا أَنَاسٌ لَا تُطَلُّ دِمَاؤُنَا وَلَا يَتَعَالَى صَاعِدًا مِّنْ نُحَارِهِ

يشرح النص هذه الأبيات فيذكر أن الوليد بن المغيرة جُرح أسفل كعب رجله وهو يَجُرُّ ثَوْبَهُ ، وذلك أنه مرَّ برجل من خُزاعة وهو يَرِيش نَبْلًا له ، فتعلق سهم من نبله بإزاره ، فخدش في رجله ذلك الخدش . وعندما أشار رسول الله ﷺ - وجبريل إلى جنبه - إلى أثر ذلك الجرح الذي كان قد التأم ، انتفض به الجرح فقتله .

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٤١١ .

ويضيف النص أن الوليد لما حضرته الوفاة طلب من بنيه ألا يهدروا دمه في خزاعة. ولما هلك الوليد وثبت بنو مخزوم على خزاعة يطلبون منهم عقل الوليد أي ديتّه، وقالوا: إنما قتله سهم صاحبكم - وكان لبنى كعب حلف من بنى عبدالمطلب بن هاشم - فأبت عليهم خزاعة ذلك، حتى تقاولوا أشعارا، وغلظ بينهم الأمر، وكان الذى أصاب الوليد سهمه رجلا من بنى كعب بن عمرو، من خزاعة، فقلت القصيدة المذكورة بمناسبة هذه الواقعة، وكانت الظهران والأراك منازل بنى كعب من خزاعة.

(ط) قصيدة من ثلاثة أبيات (١) يجيب فيها الجون بن أبى الجون، أخو بنى كعب بن عمرو الخزاعيّ عبدالله ابن أمية فيقول:

والله لا نُؤْتِي الوليدَ ظُلامَةً ولما فَرَوْا يوما تَزُول كواكِبُهُ
ويَصْرَعُ منكم مُسَمِّنٌ بعد مُسَمِّنٍ وتُفْتَحُ بعد الموت قَسْرًا مَشارِبُهُ
إذا ما أَكَلْتُمْ خُبْزَكُمْ وخَزِيرَكُمْ فكلُّكم باكى الوليد ونادِبُهُ
هذا ويضيف النص أن الناس ترادوا وعرفوا أنما يخشى القومُ السِّبَةَ، فأعطتهم خزاعة بعض العقل، وانصرفوا عن بعض.

(ي) فلما اصطلح القوم قال الجون بن أبى الجون (٢):

وقائِلَةٌ لما اصطلَحنا تَعَجُّبًا لِمَا قَدْ حَمَلْنَا للوليد وقائِلِ
ألم تُقَسِّمُوا أن تُؤْتُوا الوليدَ ظُلامَةً ولما تَرَوْا يوما كثيرَ البلايلِ
فنحن خلطنا الحربَ بالسَّلم فاستوت فأمَّ هَوَاهُ آمنا كلُّ راحِلِ

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٤١١، ٤١٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١٢.

(ك) ثم لم يتته الجونُ بن أبي الجون حتى افتخر بقتل الوليد، وذكر أنهم أصابوه، وكان ذلك باطلاً، فلحق بالوليد وبولده وقومه من ذلك ما حذره، فنظم الجونُ بن أبي الجون قصيدة من ثمانية أبيات قال فيها (١):

ألا زعم المغيرة أن كعباً بمكة منهم قدرٌ كثيرٌ
فلا تفخر مغيرة أن تراها بها يمشى الملهج والمهيرُ
بها آباؤنا وبها ولدنا كما أرسى بثبته ثبيرُ
وما قال المغيرة ذاك إلا ليعلم شأننا أو يستشير
فإن دم الوليد يُطلُّ إنا نطل دماء أنت بها خبيرُ
كسائه الفاتك الميمونُ سهماً زعافاً وهو مُمتلىءٌ بهيرُ
فخر بطن مكة مسلحاً كأنه عند وجبته بعير
سيكفيني مطال أبي هشام صغارٌ جعدةٌ الأوبار خور

(ل) قصيدة من خمسة أبيات لحسان بن ثابت يقول فيها (٢):

غدا أهل ضوَجَى ذى المجاز كليهما وجار بن حرب بالمغمس ما يغدو
ولم يمنع العيرُ الضرُّوطُ ذِمَّارَه وما منعت مخزاة والدها هند
كساك هشام بن الوليد ثيابه فأبل وأخلف مثلها جدداً بعد
قضى وطراً منه فأصبح ماجداً وأصبحت رخواً ما تُخبّ وما تعدو
فلو أن أشياخاً بيدر تشاهدوا لبَلَّ نعال القوم مُعتبط ورد

يبين النص أن أبا أزيهر الدؤسى زوج الوليد بن المغيرة بنتا له، ثم

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٤١٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٤ .

أَمَسَكَهَا عَنْهُ ، فَلَمْ يُدْخِلْهَا عَلَيْهِ حَتَّى مَاتَ . وَقَدْ أَوْصَى الْوَلِيدُ بَنِيهِ بِأَنْ
يَأْخُذُوا عُقْرَهُ (أَي دِيَّةَ الْفَرْجِ الْمَغْصُوبِ) عَنْ أَبِي أُزَيْهَرَ . . وَعَدَا هِشَامُ بْنُ
الْوَلِيدِ عَلَى أَبِي أُزَيْهَرَ ، وَكَانَ أَبُو أُزَيْهَرَ رَجُلًا شَرِيفًا فِي قَوْمِهِ ، فَقَتَلَهُ بِعُقْرِ
الْوَلِيدِ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ ، لَوْصِيَّةِ أَبِيهِ إِيَّاهُ ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَمَضَى بَدْرٌ وَأَصِيبٌ بِهِ مَنْ أُصِيبَ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

وَكَانَتْ عِنْدَ أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ عَاتِكَةٌ بِنْتُ أَبِي أُزَيْهَرَ . فَخَرَجَ يَزِيدُ
ابْنُ أَبِي سَفْيَانَ ، فَجَمَعَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، وَأَبُوسَفْيَانَ بِذِي الْمَجَازِ ، فَقَالَ
لِلنَّاسِ : أَخْفِرَ (وَالْخَفَرُ : الْغَدْرُ ، وَنَقْضُ الْعَهْدِ) أَبُوسَفْيَانَ فِي صَهْرِهِ ، فَهُوَ
ثَائِرٌ بِهِ ، فَلَمَّا سَمِعَ أَبُوسَفْيَانَ بِالَّذِي صَنَعَ ابْنُهُ يَزِيدُ - وَكَانَ أَبُوسَفْيَانُ
رَجُلًا حَلِيمًا دَاهِيَةً ، يُحِبُّ قَوْمَهُ حُبًّا شَدِيدًا - انْحَطَّ سَرِيعًا إِلَى مَكَّةَ ،
وَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ قُرَيْشٍ حَدَثٌ فِي أَبِي أُزَيْهَرَ ، فَأَتَى ابْنَهُ وَهُوَ فِي
الْحَدِيدِ ، فِي قَوْمِهِ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَالْمُطَيِّسِينَ ، فَأَخَذَ الرَّمْحَ مِنْ يَدِهِ ،
ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ عَلَى رَأْسِهِ ضَرْبَةً هَدَّهَ مِنْهَا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : قَبَّحَكَ اللَّهُ ! أَتُرِيدُ
أَنْ تَضْرِبَ قُرَيْشًا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ فِي رَجُلٍ مِنْ دَوْسٍ . سَنُؤْتِيهِمُ الْعَقْلَ إِنْ
قَبِلُوهُ ، وَأَطْفَأَ ذَلِكَ الْأَمْرَ . فَانْبَعَثَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ يُحَرِّضُ فِي دَمِ أَبِي
أُزَيْهَرَ ، وَيَعِيرُ أَبَا سَفْيَانَ خُفْرَتَهُ وَيُجَبِّنُهُ فِي الْقَصِيدَةِ الْمَذْكُورَةِ .

وهذه القصيدة أيضا تحمل علامات تزوير ترجع إلى الفترة العباسية .

(م) قصيدة من خمسة أبيات لِضَرَّارِ بْنِ الْخَطَّابِ بْنِ مِرْدَاسِ الْفِهْرِيِّ (*)
يقول فيها :

جَزَى اللَّهُ عَنَّا أُمَّ غَيْلَانَ صَالِحًا وَنَسَوَتْهَا إِذْ هُنَّ شُعْتُ عَوَاطِلُ
فَهَنَّ دَفْعَنَ الْمَوْتَ بَعْدَ اقْتِرَابِهِ وَقَدْ بَرَزَتْ لِلثَّائِرِينَ الْمُقَاتِلُ

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٤١٥ .

دعت دعوة دوسا فسالت شعابها بعز وأدتها الشراج القوابل
وعمرًا جزاه الله خيرا فما وفى وما بردت منه لدى المفاصل
فجردت سيفي ثم قمت بنصله وعن أى نفس بعد نفسى أقاتل

يوضح النص فى تقديمه لهذه القصيدة أن ضرار بن الخطاب بن
مرداس الفهرى خرج فى نفر من قريش إلى أرض دوس، فتنزلوا على
امرأة يقال لها أم غيلان، مولاة لدوس، وكانت تمشط النساء وتجهز
العرائس، فأرادت دوس قتلهم بأبى أزيهر فقامت دونهم أم غيلان ونسوة
معهما، حتى منعتهم، فقال ضرار قصيدته فى ذلك.

وهذا التوضيح محل اعتراض لأسباب عديدة:

(١) لم يذكر النص السبب الذى جعل الشاعر وجماعته يخرجون إلى
أرض دوس التى لهم فيها عدو.

(٢) من غير المفهوم على أى أساس، على الرغم من أن النص لا يشير
إلى أية صلة قريبي بين الشاعر وجماعته وقبيلة الوليد التى قتل أحد
أفرادها أبا أزيهر، اعتبرتهم دوس مسئولين عن قتل هذا الأخير، وأرادت
قتل الشاعر وأصحابه، لاسيما وأن دوسا تلقت من أبى سفيان دية أبا
أزيهر.

(٣) إذا كان مجرد انتساب شخص ما إلى قريش كافيا لجعل الشاعر
وجماعته محل انتقام دوس، فإن هؤلاء كانوا يعرضون أنفسهم لمعاملته
بالمثل أو كانوا يتعثون حربا مع خصم لا قبل لهم بحربه.

(٤) كيف تستطيع مجموعة من النساء أن يقمن دون مجموعة من
الرجال تشير الدلائل إلى أنهم كانوا أكثر منهن عددا؟

٥) أنى لامرأة من الإماء أن تتصدى للملكى رقبتهما فى عمل خطير كالنار لقتيل منهم.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الواقعة، إن صح أنها حدثت، لم تكن تدخل فى إطار الفترة المكية ما دام مقتل أبى أزيهر قد حدث، وفقا للنص، خلال معركة بدر، أى بعد عام ونصف من الهجرة.

باء. النتيجة

يشير الشعر الذى أورده النص الملحوظات الآتية:

١- هو لا يحمل أى أثر للحدث الذى لاشك أنه كان أهم أحداث الفترة، أى نزول مئات الآيات من القرآن بعضها فى إثر بعض، ولا للانقلابات والتحولات العظيمة التى أحدثتها فى حياة الناس فرادى وحياة المجتمعات فى مكة وفى شبه الجزيرة.

٢- يتناول القدر الأكبر منه، كأمر واقع، موضوعين اثنين: النزاع بين بنى هاشم وقريش، من جهة، وحماية هاتين القبيلتين لرسول الله ﷺ من جهة أخرى. أما ما عدا ذلك من أحداث هامة، كدخول أقوام فى الإسلام، وكالاضطهاد، والهجرة، والمقاطعة، فإن الشعر لا يمسه إلا ما خاطفا بكلمة أو بيت، أو هو يتغافل عنها تماما.

٣- شعر أبى طالب كله تقريبا منحول. وقد زور هذا الشعر فيما يبدو لإضفاء مصداقية على الدعوى الأساسية للفترة، ألا وهى أن أبى طالب، هو وقبيلة بنى هاشم، حموا الرسول ﷺ وتعرضوا بسببه لعداء قبائل قريش الأخرى، وكذلك لتكبير الصورة التى يصور بها النص أبى طالب باعتباره الشخصية المهيمنة للفترة.

والنص يقدم أبا طالب هنا على أنه أكبر شعراء مكة، ويجعل صوته -
بالمساحة التي يحتلها شعره في شعر الفترة - أعلى صوت في مكة.
والشعر المستخدم كوسيلة لتضخيم أبي طالب يقوم هنا بدور مماثل للدور
الذي قام به، في حالة أبيه عبدالمطلب، تصويره باعتباره ممثلاً رئيسياً في
قصة الفيل القرآنية، ورجلاً ملهماً من السماء في قصة زمزم، وشخصاً
قادراً، مثل إبراهيم عليه السلام، على التضحية بفلذة كبده إرضاء لله.

٤- يظهر أبوطالب في حقل الشعر لا كأعظم شاعر مكى فحسب،
بل كشاعر مكة الوحيد الذي يستحق هذا الوصف، بدليل أن مجموع
أبيات القصائد التي قالها شعراء مكة الآخرون - سواء في ذلك الشعراء
المشركون والشعراء المسلمون - أي سبعة وأربعين بيتاً، لا يمثل أكثر من
٢٨ في المائة من شعره.

٥- لقد أعلنت قريش، ما في ذلك شك، حرب دعاية شاملة ضد
محمد ﷺ، وضد القرآن، وضد المسلمين وضد الإسلام عموماً. وفي
بلد كان الشاعر فيه هو الناطق الرسمي للقبائل، وكان الشعر يقوم فيه
بالدور الذي تقوم به اليوم الخطب السياسية ومقالات الصحف، لاشك أن
كل شعراء قريش المشركين، وكل شعراء القبائل المناهضة للإسلام في
الجزيرة العربية قد عبثوا لمحاربة «الخطر» الإسلامى، ولا بد أن مكافآت
سخية قدمت لهم، وأن مئات من القصائد قد نظمت وذاعت بين الناس
في مكة، وبين الحجاج وفي جميع أنحاء الجزيرة في هذه الحرب
«الإعلامية» التي يرجح أنها بدأت مع بداية بعثة الرسول ﷺ ولم تنته إلا
عند نهاية الفترة المدنية، لكننا لا نجد في النص أى أثر لهذا الشعر الكثير.

٦- على الرغم من أن القرآن قد تكفل بالرد على هجمات أعداء
الإسلام، فلا بد أن شعراء المسلمين تولوا الرد على شعراء الكفار

وبالأسلوب نفسه . ولا بد أنهم نظموا مئات من القصائد للدفاع عن نبيهم وعن دينهم وعن قرآنهم ، وللرد على أكاذيب المشركين وافتراءاتهم . لكن النص - هنا أيضا - ليس فيه أثر لهذا الإنتاج الشعري الذي كان، أغلب الظن، إنتاجا غزيرا.

٧- ما الذي جعل النص يخفى شعر الكفار وشعر المسلمين، الذي كان يشكل بلا ريب أحداثا هامة للعرب طيلة حياة الرسول ﷺ، وبخاصة خلال هذه الفترة المكية الثالثة؟ لقد رَجَّحْتُ أعلاه أن الغرض من هذا الإخفاء كان الرغبة في إبراز أبي طالب كشاعر مكة الوحيد الجدير بهذا الاسم. على أنه في الإمكان أن نضيف إلى هذا السبب سببين آخرين هامين هما:

أ) خشية مؤلف النص أن يكتشف القارىء، من خلال شعر الشعراء الكفرة، حقيقة موقف بنى عبدالمطلب وبنى هاشم من رسول الله ﷺ، وأن يدرك في النهاية أن هاتين القبيلتين، وراء أبي لهب، كانتا تعاديان الرسول ﷺ، وتضطهدان أفرادهما المسلمين، وأن الهجرة إلى الحبشة كانت في واقع الأمر نفيا، وأن مقاطعة قريش كانت في الحقيقة مواجهة ضد المسلمين. وحين زال هذا الظرف خلال الفترة المدنية، اتخذ شعر الكفار، الحقيقي والمنحول، مكانه في النص، لذا فإننا نجد بعد غزوة بدر، في السنة الثانية من الهجرة، مالا يقل عن ستة عشر من هؤلاء الشعراء، منهم أربع شاعرات، سيكون قتلاهم ويندبون حظهم على هزيمتهم ويتوعدون بالثأر، وعدد الأبيات التي أوردها النص بمناسبة هذه الغزوة وحدها مائتان وواحد وخمسون بيتا، أي ما يوازي ٨٨ في المائة مما قيل من شعر خلال الفترة الثالثة بأكملها.

ب) خشية مؤلف النص أيضا أن تظهر الحقيقة من شعر المسلمين بصدد:

- موقوف بنى عبدالمطلب وبنى هاشم من رسول الله ﷺ والمسلمين،
ومن أحداث الفترة العظمى التي ذكرناها فيما سبق.

- ظهور أمة من المسلمين في مكة أصبحت تدرك حجمها سواء فيما يتعلق بأهميتها العددية، أو فيما يتعلق بإخلاصها للرسول ﷺ وبقدرتها على حمايته، وعلاوة على ذلك ظهور معاناة أفرادها المعنوية لإقصائهم من المسجد الحرام، ومعاناتهم المادية والمعنوية لإضطهادهم ونفيهم؛ أو إجبارهم على الهجرة من جانب ذويهم، ولقرض المقاطعة الاجتماعية والاقتصادية عليهم في مكة.

- وجود شعراء مسلمين في مكة، الأمر الذي كان يجب التعمية عليه بأي ثمن، كي لا ينازع أحد أبا طالب مركزه كشاعر مكة، ولكي يستطيع شعراء المدينة أن يَلْمَعُوا بكل لآلئهم، وأن تكون لهم الكلمة العليا بلا منافس خلال الفترة التالية.

ومن هنا فإن الشعراء المكيين في شعر بدر لم يكونوا سوى ستة (بما في ذلك حمزة وعليّ، اللذان شكك خبراء الشعر في صحة ما نسب إليهما من شعر)، وأن ٧٥ في المائة من الأبيات التي قالها الشعراء المسلمون في هذه الغزوة إنما هي من نظم شاعري المدينة الكيرين، حسان بن ثابت وكعب بن مالك.

٨- صحيح أن في النص قصائد مجموع أبياتها ثلاثة وعشرون بيتا، قالها ثلاثة من شعراء مكة المشركين، هم عبدالله ابن أمية بن المغيرة، والجنون بن أبي الجنون، وضرار بن الخطّاب. بيد أن الموضوعات التي تعالجها هذه القصائد لا تمت بأية صلة للإسلام، أو للتراع الذي كان ناشبا خلال هذه الفترة بين قريش من جهة، ومحمد ﷺ والمسلمين من

جهة أخرى؛ وهذه القصائد تدرج ، فيما يبدو، فى الخطة التى رسمها ابن إسحاق لتصفية حساباته مع خالد بن الوليد، الرجل الذى أسر جدّه، وهى خطة تتمثل فى إظهار أبى خالد بمظهر سيء وإظهار أخيه كقاتل.

ومن هنا فإن النص يذكر اسم الوليد بن المغيرة، أبى خالد، بين الأشخاص الخمسة الذين كانوا يهزأون بالرسول ﷺ ، والذى لقى حتفه مع نفر منهم بعد أن أشار الرسول ﷺ ، فى وجود جبريل فى المسجد بإصبعه إلى هذا الجزء أو ذاك من أجسامهم. فبعد أن ذكر المؤلف هذا المنظر فى عشرة أسطر، نراه يترك جانباً القرشيين الأربعة الآخرين، ويتوقف عند الوليد بن المغيرة. وهو يخصص مالا يقل عن ثلاث صفحات ونصف للوصايا الثلاث التى أوصى بها بنوه لما حضرته الوفاة: وصية ضد الرجل من خُزاعة الذى أصابه عن غير قصد بجرح فى قدمه انتقض وتسبب فى وفاته بعد أن أشار إليه رسول الله ﷺ، ووصية باسترداد عُقره من أبى أزيهر الدؤسى الذى رفض أن يدخل عليه ابنة له كان قد زوجها له، ووصية ثالثة تتعلق باسترداد ربا كان له فى ثقيف.

وقصائد عبدالله بن أمية بن المغيرة، والجون بن أبى الجون، وضرار بن الخطاب، وقصيدة حسان بن ثابت تدرج فى إطار ما تم بصدد تنفيذ الوصيتين المتعلقةتين بدم الوليد فى خُزاعة، ويعُقره عند أبى أزيهر الدؤسى.

وفى صفحات النص المتعلقة بهاتين الوصيتين، التى كتبت فى عبارة بالغة الصعوبة والتعقيد، نقرأ الشيء وضده فى أكثر من موضع. فنحن نقرأ مثلاً أن الوليد بن المغيرة قال لبنه ألا يَطْلُوا (أى يهدروا) دمه فى خُزاعة، لكننا نقرأ أيضاً أن الوليد قال: «والله إنى لأعلم أنهم منه براء»، أى أن المطالبة بدمه كانت بغير أساس. ونحن نقرأ أن خُزاعة، ولو أنها

«أبت عليهم ذلك» ، «أعطتهم بعض العقل» أى بعض الدية ، ثم أنهم لم يدفعوا شيئاً ، كما يتضح من قصيدة أبى الجون الثانية . ويفخر هذا الشاعر بأن فاتكا ميمونا من قومه أطلق سهما زعاقا على الوليد فخرّ هذا كالبعير ، مع أننا نعرف ، منذ البداية ، أن الوليد شفى منذ أمد طويل من جرحه ، الذى لم يكن جرحاً عمدياً .

وفى قصة الزوجة الأوسية نحن نعلم ، من جهة أخرى ، أن هشام بن الوليد انتقم لآبيه بقتل أبى هذه المرأة (وهو انتقام لا محل له ، إذ أنه كان باستطاعة هشام بن الوليد بكل بساطة أن يطالب برد المهر الذى دفعه أبوه ليتزوجها ، طبقاً لوصية أبيه) . إذن كان هذا الابن من أبناء الوليد بن المغيرة قاتلاً .

وكان من الممكن أن تقف القصة عند هذا الحد ، لكن ها هو استطراد جديد يتفرع عن استطراد آخر بشأن واقعة حدثت بعد الواقعة الأولى بزمان ، أى فى غزوة بدر: إن يزيداً ، أخاً معاوية ، الذى كان أبوه أبوسفیان مستزوجاً بابنة أخرى من بنات أزيهر ، الذى قتله هشام بن الوليد ، أراد أن يثار لأزيهر (وهو شىء غريب فإن عبء هذا الثأر لم يكن يقع عليه وإنما على الدؤس قبيلة أزيهر) ، فما كان منه إلا أن أخذ حربة وأقنع رجالاً من بنى عبدمناف بأن يسيروا معه لحرب قبيلة الوليد ابن المغيرة . لكن أباً سفيان ، لما علم بهذا التطور الخطير ، الذى من شأنه أن يحدث صداماً دامياً بين قبيلتين من قبائل قريش والحرب دائرة بينهما وبين النبى ﷺ ، عجل بالعودة إلى مكة ، وعنف على ابنه وأبدى استعداداً لدفع دية أزيهر لدؤس ، الأمر الذى ترتب عليه أن حمل حسان ابن ثابت عليه وعلى ابنته هند حملة شعواء ، فقد كان حسان - نزولاً

على منطق غير معروف - يعتبر أن على أبي سفيان واجب شرف يقتضيه أن يثار لأبي زوجته .

وها نحن نصل أخيرا إلى قصة لا يقبلها عقل عاقل، هي قصة ضرار ابن الخطاب ورفاقه، الذين دافعت عنهم نساء من الإماماء في وجه ساداتهن من أوس، وهي استطراد جديد متفرع عن الاستطراد الثاني. وهكذا نجد أن أسماء ثلاثة من شعراء قريش ودوس، واسم أعظم شعراء المدينة، من بين شعراء الفترة المكية العشرة، وقد أشركوا في نظم شعر مما يمثل عُشْرَ شعر الفترة، لا لتصوير أحداث هامة من أحداث السيرة النبوية، بل لإشباع غِلٍّ قديم في صدر المؤلف ولذم ذرية أبي سفيان، أعداء الخلفاء العباسيين.

٩- والجدول التالي يوضح نصيب كل فئة من الشعراء في الشعر الذي قيل خلال الفترة الثالثة :

النسبة المئوية	مجموع الآيات لكل فئة	عدد الآيات	عدد القصاصات	الفئات والشعراء
٦٦ %	١٩٠	١٦٧	٧	قرشيون ومشركون
		٣	١	أبو طالب
		١٥	٣	عبد الله بن أمية
		٥	٢	الجنون بن أبي الجنون ضرار بن الخطاب
١٨ %	٥١			ملثيون
		٥	١	أبو قيس بن الأسلت
		١٣	٣	حسان بن ثابت
				مسلمون
٨ %	٢٤	٤	١	حكيم بن أمية
		١٥	٣	عبد الله بن الحارث
		٥	١	عثمان بن مظعون
				عرب غير قرشيين
٨ %	٢٣	٢٣	١	أعشى بن قيس
١٠٠ %	٢٨٨	٢٨٨	٢٢	المجموع

يتضح من هذا الجدول أن الشعراء المسلمين الثلاثة يأتون في ذيل القائمة وأن شعرهم لا يمثل إلا ٨ في المائة من شعر الفترة الثالثة. وشعرهم لا يمثل سوى ١٤ في المائة من شعر أبي طالب وحده، كما لا يمثل سوى ٤٧ في المائة من شعر شاعري المدينة أبي قيس بن الأسلت وحسان بن ثابت، اللذين كانا في ذلك الوقت من المشركين.

١٠- فيما عدا أبيات حكيم بن أمية الأربعة، فإن شعر الشاعرين المسلمين الآخرين، أي عشرون بيتا، يتعلق بإطار الحبشة وحده. وليس هناك إذن في شعر الفترة مكان للشعراء المسلمين الذين بقوا في مكة مع رسول الله ﷺ.

١١- ليس في كل ما قيل من شعر في الفترة المكية الثالثة قصيدة واحدة يعبر قائلها حيال رسول الله ﷺ عن مشاعر المحبة والعرفان والإجلال التي يلهمها للمؤمن دخوله في الدين الذي هداه إلى الله وأخرجه من الظلمات إلى النور.

وليس في هذا الشعر كذلك قصيدة يعبر فيها أي مسلم عن سعادته باعتراف الإسلام، ويحمد الله على هدايته إلى هذا الدين، ويذكر تعاليم الإسلام أو يقارنه بديانات الجاهلية مظهرا فضله بالنسبة لها. والقصيدة الوحيدة التي وردت فيها مثل هذه المشاعر هي قصيدة أعشى قيس، وهي تتعلق بالفترة المدنية، وكان قائلها على الأرجح قد أسلم بالفعل، لكن النص، الذي يريد أن يجعل الشاعر الطيبة حيال الرسول ﷺ وفقا على أبي طالب وعلى أهل المدينة وشعرائها، جعل أعشى قيس كافرا، ونقله من الفترة المدنية إلى الفترة المكية، واستخدم للغرض من قدره الطريقة التي استخدمها للغرض من قدر عمر في جاهليته، وهي تصويره ظلما بأنه محب للخمر لدرجة تجعله يؤجل الإيمان ويموت على الكفر.

١٢- تقديم المؤلف للقصائد، كما أشرت في تعليقي على كل منها، كثيرا ما يختلف عن موضوعها، والنص يجعل الشعراء، في مثل هذه الحالات، يقولون ما لم يقولوه.

١٣- من الغريب ألا يرد في كل شعر أبي طالب وشعر الشعراء المكيين الثلاثة وشعر أبي قيس الأسلت، ذكر للأصنام والآلهة والخرافات والمعتقدات التي كانت تشكل ديانة قبائل قريش، وتشكل في الوقت ذاته محور التراع بين قريش ومحمد ﷺ، كما كانت محور الشكاوى التي كان سادة قريش وأشرافها يرفعونها إلى عمه أبي طالب. ولغة هذا الشعر تشبه تماما لغة المسلمين، وفي ذلك دلالة لا يستهان بها على أن هذا الشعر انتحل في فترة لاحقة بكثير للفترة التي يعزى إليها، بعد أن انمحت من ذاكرة الناس إلى حد كبير المعلومات المتعلقة بديانات الجاهلية الوثنية.

١٤- الشعر الوارد في النص لا يتعلق إطلاقا بمحمد ﷺ ورسالته، ولا بالنجاح الذي أحرزه والصعوبات التي كان يواجهها. وفي هذا- بالإضافة إلى ضالة الحيز الذي خصصه للشعر الإسلامي- فإن الشعر الوارد في النص يشبه، في خطوطه العريضة، الصورة التي تستخلص من حديث الفترة الثالثة. ومن هنا فإن الفراغ غير المتأهي، وشبهة التروير والاختلاق التي تشوب الرواية الشريفة، يشويان أيضا الجانب الأكبر من شعر الفترة.

الفرع الثانى . الاقتباسات القرآنية

يشتمل نص الفترة الثالثة على أربعين اقتباسا من القرآن، ويُقدّم كل اقتباس من هذه الاقتباسات بكلمة تشرح الظروف التى نزلت فيها الآيات موضوعه . وسأتعرض لهذه الاقتباسات بالترتيب الذى وردت به فى النص . وفى الحالات التى ينقطع فيها سياق الآيات فى فقرة من الفقرات بعبارة : «إلى قوله . . .» ، رأيت من المناسب فى معظم الأحيان، لوضوح العرض، أن تثبت الآيات التى أحال النص إليها.

ألف . الاقتباسات

الاقتباس رقم ١ (*)

النص :

تحت عنوان «تخير الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن» يقول النص :
إن نفرا من قريش اجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة من قريش، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويردّ قولكم بعضه بعضا، قالوا: فأنْتَ يا أبا عبد شمس، فقلْ وأقم لنا رأيا نقول به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهَّان فما هو بزَمَزمة الكاهن ولا سَجُعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجُنُون وعرفناه، فما هو بخنْقه، ولا تخالْجه، ولا وسْوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال:

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٢٧٠ .

ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يُفرِّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) ﴾ [المدثر: ١١ - ١٦]

﴿ سَأَرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) ﴾

[المدثر: ١٧ - ٢٥]

وأنزل الله تعالى في النفر الذين كانوا معه يصنفون القول في رسول الله ﷺ، وفيما جاء به من الله تعالى:

﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [الحجر: ٩٠ - ٩٣]

أ) الخبر الذى يستند إليه التقديم يبدو مستعاراً من القرآن ، الذى نجد

فيه :

﴿ فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ
تَتَّبِصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٣٠﴾ [الطور: ٢٩ - ٣٠]

﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾

[ص: ٤]

﴿ ٤ ﴾

أما عبارة: «جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته» فمن المحتمل أن يكون مستعاراً جزئياً من الآية فى قوله تعالى:

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنِ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠٢)

[البقرة: ١٠٢]

أما باقى العبارة فمن المحتمل أن يكون قد أضيف لإخفاء هذه الاستعارة.

ب) هذا الاقتباس جزء من سورة المدثر، ومعنى ذلك أن آيات نزلت خلال الفترة الأولى التى يقول النص إن رسول الله ﷺ كان يدعو

خلالها إلى الله في الخفاء، في وقت لم يكن نزاعه مع قريش قد بدأ بعد. وهذه الآيات تقدم الدليل على أن الاستخفاء خدعة وأن حملة الدعاية التي شنتها قريش على الإسلام بدأت منذ الفترة الأولى.

(ج) القول بأن الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الحجر تُشير إلى النفر الذين كانوا مع الوليد بن المغيرة قول مشكوك فيه. والواقع أن هذه السورة تفصلها عن سورة المدثر التي استشهد بها النص أولاً اثنا عشر وعشرون سورة. وليس في الشرح الوارد في النص أخيراً ما يسمح باستنتاج أن «المقتسمين الذين جعلوا القرآن عِصِينَ» في سورة الحجر هم النفر المذكورون.

الاقتباس رقم ٢ (*)

النص:

يقول النص: إن أشد ما لقي رسول الله ﷺ من قريش أنه خرج يوماً فلم يلقه أحدٌ من الناس إلا كذبه وآذاه، لا حرٌ ولا عبدٌ، فرجع رسولُ الله ﷺ إلى منزله فتدثر من شدة ما أصابه، فأنزل الله عليه قوله:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾﴾

[المدثر: ١ - ٢]

ملحوظة:

هاتان الآيتان، اللتان هما جزء من سورة المدثر، تثبتان، بدورهما، أن موقف الكفار العدائي حيال الرسول ﷺ بدأ منذ البداية الأولى لبعثته صلوات الله وسلامه عليه. ولما كان أول من حَدَّثَهم الرسول ﷺ عن

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٩١.

نبوته هم، حسبما أرى، أفراد قبيلته، فلا بد أنهم هم بوجه خاص الذين كانت تشير إليهم الآيتان المذكورتان. وللمرء من جهة أخرى أن يتساءل عما إذا كان مؤلف النص يحوز حين كتب شرحه لهاتين الآيتين معلومات صحيحة عن ظروف نزولهما، أو ما إذا كان هذا الشرح مجرد استنتاج من الآيتين.

الاقتباس رقم ٣ (*)

النص:

عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ الَّذِي كَانَ سَيِّدًا، قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادَى قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ وَأُعْرِضَ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيَهُ أَيَّهَا شَاءَ، وَيَكْفِ عَنَّا؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ؛ فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمَهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا بَنَ أَخِي، إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السُّطَّةِ (أَيِ الشَّرَفِ) فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرِ عَظِيمٍ فَارْقُتْ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ وَسَفَّهَتْ بِهِ أَحْلَامَهُمْ وَعَبَتْ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ وَكَفَرَتْ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي. أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، أَسْمَعْ، قَالَ: يَا بَنَ أَخِي، إِنْ كُنْتُ إِنَّمَا تَرِيدُ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْتُ تَرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَدْنَاكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رَئِيًّا تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ، طَلَبْنَا لَكَ الطَّبَّ

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٩٣.

وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يداوى منه. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حم (١) تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ (٥)﴾

[فُصِّلَتْ: ١ - ٥]

فقام عتبة إلى أصحابه فقال: إني قد سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قطُّ، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تُصِّبهُ العربُ فقد كُفِّتُموه بغيركم، وإن يَظْهَر على العرب فملكه مَلُككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه؛ قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

ملحوظات :

أ) العرض الذي يقول النص إن عتبة بن ربيعة عرضه على محمد ﷺ لا يمكن أن يُحمَل على مَحْمَل الجدل. أن تكون قريش أو قبيلة رسول الله ﷺ قد فكرت في أن تعرض عليه صلوات الله وسلامه عليه مبلغاً من المال ليكف عنهم، شيء من الممكن تصويره. أما أن تعده قريش بأن تجعله أكثرها مالاً، فهو أمر يخالف العقل. وأما أن تسود عليها الرجل الذي فرَّق جماعتهم، وسفّه أحلامهم، وعاب آلهتهم ودينهم، وكفّر من مضى من آبائهم، فهو ما لا يمكن تصويره، ليس فقط بالنسبة لأهل مكة،

بل أيضا بالنسبة لكل عرب الجزيرة؛ لقد رأينا فى التاريخ رجالا ممتازين تختارهم أقوامهم ليسودوا مدينة أو بلدا كـرؤساء أو ملوك، ورأينا قادة عسكريين أو زعماء ثوريين يستولون على السلطة بالقوة، ورأينا السلطة تنتقل من يد إلى يد حين تؤيد أغلبية الشعب رئيسا معيناً، لكننا لم نر أبدا طبقة حاكمة تتخلى باختيارها عن السلطة لصالح رجل تخالفه الأغلبية، مبادئه تعتبر مبادئ هدامة، ولا يستند إلى تأييد شعبى معروف. وأما العرض الخاص ببذل الأموال لمعالجته إن كان الذى يأتيه رأياً لا يستطيع رده عن نفسه، فهو تخريف لا يستحق أن يؤخذ بعين الاعتبار، فكيف يمكن تصور أن تعرض قريش السيادة أو الملك على رجل لديها أى شك فى صحته العقلية.

ب) يقول النص فى صدد هذه الواقعة إن عتبة بعد أن سمع خمس آيات من سورة فصلت ذهل لدرجة جعلته يقسم لأصحابه أنها ليست شعرا ولا سحرا ولا كهانة. والذى يفهم من ذهول عتبة هو أنه لم يسمع شيئا من القرآن قبل ذلك. والحاصل أن هذه السورة (عند بلاشير) هى السورة الثانية والسبعون من حيث الترتيب الزمنى لنزول سور القرآن، والمفروض أن أحدا من سادة قريش لم يكن وقتها على جهل بألوف الآيات القرآنية التى كان نزولها يقيم الدنيا ويقعدها، والتى كانت قطعا على ألسنة أكثر الناس، مسلمين كانوا أو غير مسلمين.

ثم إن عديدا من سور القرآن تقول ما تقوله هذه السورة؛ كذلك فللمراء أن يتساءل: كيف كان يمكن لعتبة ولغيره من سادة قريش وأشرافها يدركون الخطر الذى كان يمثله محمد ﷺ على مؤسساتهم أن يعرضوا عليه العرض، الذى لم يسمع بمثله، الذى عرضوه عليه إن لم يكونوا على علم بجميع السور الاثنتين والسبعين التى كانت السر فى قوته، أو بجزء منها.

(ج) من الغريب أن تقديم عرض عُتْبَة، وكذلك عرض قريش، للرسول لم يتم، كما يقضى المنطق، قبل أن تتخذ قريش قرارها، بناء على اقتراح الوليد بن المغيرة، بتحذير الحجاج من سحر ما جاء محمد ﷺ به من قول، بل بعد اتخاذ هذا القرار، وذلك لتفادي أن يتساءل الحجاج (لو أن محمدا ﷺ قبل عرضهم بجعله ملكا): «كيف يُنصبون اليوم عليهم ملكا كانوا يقولون بالأمس إنه ساحر؟».

(د) لا يشرح النص لماذا لم يسلم عُتْبَة بدين محمد عليه الصلاة والسلام وقد أعجبه القرآن الذي أتى به أيما إعجاب، وتوقع له نجاحا كبيرا بين العرب.

(هـ) من المحتمل جدا أن قول عُتْبَة الذي مؤداه أن القرآن ليس شعرا ولا سحرا ولا كهانة يستند إلى استعارة من القرآن هي التي ذكرتها تحت «أ» من تعليقى على الاقتباس رقم «١».

الاقتباس رقم ٤ (*)

النص:

كان النَّضْرُ بن الحارث بن عُلْقَمَة بن كَلْدَة بن عبدمناف من شياطين قريش، ومن كان يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث الفرس وأحاديث رُسْتَم واسفنديار. فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا، فدعا فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن، وحذر فيه قريشا ما أصاب الأمم الخالية، خلفه في مجلسه إذا قام، فحدثهم عن رُسْتَم السنديد، وعن اسفنديار، وملوك فارس، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثا مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين، اكتبها كما اكتبتها، فأنزل الله فيه قوله تعالى:

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٠٠، ٣٥٨.

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ ﴾

[الفرقان : ٥ - ٦]

ونزل فيه قوله تعالى :

﴿ إِذَا تُلِيَّ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ ﴾ [القلم : ١٥]

ونزل فيه قوله تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ ﴾ [الجاثية : ٧ - ٨]

وكل ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن .

ملحوظات :

أ) التأكيد بأن جميع الآيات التي وردت فيها عبارة «أساطير الأولين» إنما تشير إلى السنن بن الحارث تأكيد بلا أساس . إن المرء ، إذا كان كافرا ، لم يكن بحاجة للسفر إلى فارس وتعلم تاريخ ملوكها وشخصياتها الأسطورية ليقول عن قصص الأنبياء والقيامة والحساب والجنة والنار إنها أساطير الأولين . ومن المؤكد أن عشرات أو مئات من الكفار استخدموا هذا التعبير من تلقاء ذاتهم للتعبير عن شكوكهم فيما يتعلق بالقرآن .

ب) ورد تعبير «أساطير الأولين» في ثماني سور ، سبع منها مكية وواحدة مدنية . وفيما يلي الآيات التي ورد فيها خارج الحالتين اللتين ذكرهما النص :

قال تعالى:

﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٨٢) لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ
وَأَبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿ (٨٣) ﴾ [المؤمنون: ٨٢ - ٨٣]

وقال تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾ (٦٧) لَقَدْ
وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿ (٦٨) ﴾ [النمل: ٦٧ - ٦٨]

وقال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤) ﴾

[النحل: ٢٤]

وقال تعالى:

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِبَوْلَدَيْهِ أَفِ لَكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ
مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١٧) ﴾ [الأحقاف: ١٧]

وقال تعالى:

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي
آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ
يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٥) ﴾ [الأنعام: ٢٥]

وقال تعالى:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا

إِلَّا أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأَنْفَال: ٣١]

فى جميع هذه الآيات، ما خلا آية سورة الأحقاف، استخدمت - صيغة الجمع وهو ما يعنى أن الذى تحدث عن أساطير الأولين أشخاص عديدون. ومن جهة أخرى فإن آية سورة الأحقاف التى يتحدث فيها شخص إلى أبيه وأمه تشير إلى قصة ليست على الإطلاق قصة رجل يرد على رسول الله ﷺ. بقيت الآية ١٥ من سورة القلم، وصيغة المفرد فيها لا تعنى بالضرورة شخصا معينا، ومن الممكن جدا أن تكون الإشارة فيها إلى هذا أو ذاك من الكفرة المشككين.

(ح) صورة النضر بن الحارث فى هذه الظروف، باعتباره رجلا شيطانيا وخصما عنيدا لرسول الله ﷺ، لا يمكن التوفيق بينها وبين صورة أعطاها النص عنه فى موضع آخر هو الذى يتحدث فيه النص عن محاولة أبى جهل الفاشلة فى فضخ رأس رسول الله ﷺ بحجر وهو يصلى، وما قاله لقريش من أنه لما دنا من الرسول ﷺ عرض له دونه فحل من الإبل لم ير مثل هامته ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط، وأن هذا الفحل هم به أن يأكله. فقد قام النضر بن الحارث فقال: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم به، وقلتם كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتם شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا

أَصْنَفَهُ كُلِّهَا: هَزَجُهُ وَرَجَزُهُ؛ وَقَلْتُمْ مَجْنُونٌ، لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ مَسْجُونٌ،
لَقَدْ رَأَيْنَا الْجِنُونَ فَمَا هُوَ بِخَنَّاتِهِ، وَلَا وَسْوَستِهِ، وَلَا تَخْلِيْطِهِ. يَا مَعْشَرَ
قُرَيْشٍ، فَانْظُرُوا فِي شَأْنِكُمْ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ نَزَلَ بِكُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ ^(١).

الاقْتِبَاسُ رَقْمُ ٥ (٢)

فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ بَعَثُوهُ، وَيَعِثُوا مَعَهُ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي
مُعَيْطٍ إِلَى أَحْبَارِ يَهُودَ بِالْمَدِينَةِ، وَقَالُوا لَهُمَا: سَلَاهُمَا عَنْ مُحَمَّدٍ، وَصِفَا
لَهُمَا صِفَتَهُ، وَأَخْبِرَاهُمَا بِقَوْلِهِ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ
لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ، فَخَرَجَا حَتَّى قَدَمَا الْمَدِينَةَ، فَسَأَلَا أَحْبَارَ يَهُودَ
عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَوَصَفَا لَهُمَا أَمْرَهُ، وَأَخْبِرَاهُمَا بِبَعْضِ قَوْلِهِ، وَقَالَا
لَهُمَا: إِنَّكُمْ أَهْلُ التَّوْرَةِ، وَقَدْ جِئْتَاكَمُ لَتُخْبِرُونَا عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا، فَقَالَتْ
لَهُمَا أَحْبَارُ الْيَهُودِ: سَلُوهُ عَنْ ثَلَاثِ نَأْمُرْكُمْ بِهِنَّ، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ بِهِنَّ فَهُوَ
نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوْلٌ، فَرَوَا فِيهِ رَأْيَكُمْ. سَلُوهُ عَنْ
فَتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ مَا كَانَ أَمْرُهُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ لَهُمْ حَدِيثٌ
عَجَبٌ، وَسَلُوهُ عَنْ رَجُلٍ طَوَّافٍ قَدْ بَلَغَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا مَا كَانَ
نَبْؤُهُ يَنْبُئُهُ، وَسَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ مَا هِيَ؟ فَإِذَا أَخْبَرَكُمْ بِذَلِكَ فَاتَّبِعُوهُ، فَإِنَّهُ
نَبِيٌّ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ، فَهُوَ رَجُلٌ مُتَقَوْلٌ، فَاصْنَعُوا فِي أَمْرِهِ مَا بَدَأَ لَكُمْ.
فَأَقْبَلَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ حَتَّى قَدَمَا مَكَّةَ عَلَى
قُرَيْشٍ، فَقَالَا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَدْ جِئْتَاكُمْ بِفَصْلٍ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ،
قَدْ أَخْبَرْنَا أَحْبَارَ يَهُودَ أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ أَشْيَاءَ أَمْرُونَا بِهَا، فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ عَنْهَا
فَهُوَ نَبِيٌّ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَالرَّجُلُ مُتَقَوْلٌ، فَرَوَا فِيهِ رَأْيَكُمْ.

فَجَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَخْبَرْنَا عَنْ فَتْيَةٍ ذَهَبُوا فِي
الدَّهْرِ الْأَوَّلِ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ قِصَّةٌ عَجَبٌ، وَعَنْ رَجُلٍ كَانَ طَوَّافًا قَدْ بَلَغَ

(١)، (٢) السيرة، القسم الأول، ص ٢٩٩، ٣٠٠.

مشارك الأرض ومغاريبها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتكم عنه غداً، ولم يستثن، فأنصرفوا عنه. فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سأله عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة: ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سأله عنه من أمر الله الفتية، والرجل الطواف، والروح. وقال رسول الله لجبريل حين جاءه: لقد احتبست عني يا جبريل حتى سوت ظناً، فقال له جبريل:

﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (٦٤)

[مريم: ٦٤]

ثم نزل قوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝ (١) قِيمًا لِنَنْذِرَ بِأَسَاسٍ شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُنَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ (٢) مَا كُنْ فِيهِ أَبَدًا ۝ (٣) وَيُنَذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝ (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝ (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝ (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ

فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا
 أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ
 هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 لَن نَّدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ
 دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا (١٥) وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ
 لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا
 طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ
 وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلْ
 فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ
 الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ
 لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رَعْبًا (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ
 قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا
 لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا
 فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا
 عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلَحُوا إِذَا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَلِكَ
 أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ
 بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ
 أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ
 خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ
 رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا
 تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣)
 إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ

مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا (٢٥)
 قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ
 مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴿ [الكهف: ١ - ٢٦]

وقال فيما سألوه عنه من أمر الرجل الطَّوَّاف:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٢) إِنَّا
 مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَاتَّبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾

[الكهف: ٨٢ - ٨٥]

حتى انتهى إلى آخر قصة خبره.

وكان من خبر ذي القرنين أنه أوتي ما لم يؤت أحدٌ غيره، فمدَّت له
 الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها لا يبطأ أرضاً
 إلا سُلِّطَ على أهلها، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه
 شيء من الخلق.

قال ابن إسحاق: فحدثني من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما
 توارثوا من علمه: أن ذا القرنين كان رجلاً من أهل مصر، اسمه مَرْزُبَان
 ابن مَرْذِيَّة اليوناني، من ولد يونان بن يافث بن نوح.

قال ابن هشام: واسمه الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندرية فُسِّيت
 إليه.

وقال تعالى فيما سألوه عنه من أمر الروح:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا
 قَلِيلًا (٨٥) ﴾

[الإسراء: ٨٥]

يشير تقديم هذه الاقتباسات والشروح المتعلقة بها للملاحظات الآتية:

(أ) على الرغم أن الاقتباسات القرآنية الواردة هنا هي أطول اقتباسات في الجزء المكي من السيرة، فإن الصلة بينها وبين حياة الرسول وعمله معدومة في الواقع.

(ب) فيما عدا السطور التي تشرح الظروف التي نزلت فيها الآيات المقتبسة، فإن تعقيب النص ليس تعقيباً تاريخياً بمعنى الكلمة. إنه مجرد تفسير لقصة تتحدث عن أحداث وشخصيات بعد العهد بها كثيراً.

(ج) الشرح المتعلق بذي القرنين لا يشرح شيئاً في الواقع. وكل ما يفهم منه هو أن هذا الشخص هو الإسكندر، حفيد نوح!

(د) مادامت سورة الكهف تجيب، طبقاً للنص، على المسائل الثلاث التي طرحتها قريش على محمد ﷺ، فقد كان المفروض أن يذكر النص ردود فعل قريش على الإجابات التي وردت بها، لكن النص لا يذكر شيئاً عن ردود الفعل المذكورة.

(هـ) مادام اختيار قريش قد وقع على يهود المدينة كمستشارين، ومادامت أسئلتهم قد طرحت على محمد ﷺ، فقد كان المفروض أن تعرض الآيات القرآنية التي أجابت على هذه الأسئلة عليهم كي يقرروا ما إذا كان محمد ﷺ، على أساسها، رسول حقيقى أم كذاب. لكن شيئاً في النص لم يرد عن هذا القرار على الرغم من يشكل موضوع الاستشارة والنقطة الأساسية في كل الشرح الذي تضمنه النص.

(و) شرح هذا الاقتباس يُوحى بأن كلام جبريل عليه السلام بشأن فتور الرُوحى الذى حزن له الرسول ﷺ والإجابات عن الأسئلة الثلاثة اليهودية

المصدر التى طرحتها قريش على محمد ﷺ نزلت معا. والحاصل أن كلام جبريل وارد فى سورة مريم وترتيبها هو الستون عند بلاشير؛ أما الرد على الأسئلة المتعلقة بالفتية وذى القرنين فوارد فى سورة الكهف وترتيبها عند بلاشير هو السبعون. أخيرا فإن الرد على السؤال المتعلق بالروح وارد فى سورة الإسراء، وترتيبها عند بلاشير الرابعة والسبعون. أى أن هناك فارقا كبيرا فى ترتيب السور، فضلا عن فارق زمنى مدته عدة شهور بين الآيات التى ترد على عناصر هذا الاستبيان.

(ز) هناك إذن محل لاعتبار أن قصة المبعوثين اللذين أوفدتهم قريش إلى أحبار المدينة، والأسئلة التى طرحت على محمد ﷺ، ووعدته بالرد إذا كان الغد، اختلاق تخيله المؤلف انطلاقا من المادة الواردة فى سورة الكهف عن أهل الكهف، وعبارة: «ويسألونك عن ذى القرنين»، من الآية ٨٢ من السورة ذاتها، وعبارة «ويسألونك عن الروح» من الآية ٨٧ من سورة الإسراء.

الاقتباس رقم ٦ (*)

النص:

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، قالت أحبار يهود: يا محمد، أرايت قولك: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا». إيانا تريد، أم قومك؟ قال: كلا؛ قالوا: فإنك تتلو فيما جاءك: أنا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شىء. فقال رسول الله ﷺ: إنها فى علم الله قليل، وعندكم فى ذلك ما يكفيكم لو أقمتموه. فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٧) [لقمان: ٢٧]

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٠٨.

أى أن التوراة فى هذا من علم الله قليل .

ملحوظتان :

أ- يقول النص إن الواقعة التى أدت إلى نزول هذه الآية حدثت فى المدينة . وليس من الواضح لماذا تناولها فى إطار الفترة المكية .

ب- العلاقة ليست واضحة تماما بين الواقعة والآية المذكورة التى تشبه كثيرا من آيات القرآن التى تتحدث عن قدرة الله .

الاقتباس رقم ٧ (١)

النص :

وأنزل الله تعالى عليه فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال وتقطيع الأرض ، وبعث من مضى من آبائهم من الموتى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد : ٣١]

. أى لا أصنع من ذلك إلا ما شئت .

ملحوظة :

تقديم هذا الاقتباس هو فى الواقع مجرد تفسير للآية حوله النص إلى مادة تاريخية .

الاقتباس رقم ٨ (٢)

النص :

وأنزل عليه فى قولهم : خذ لنفسك ، ما سألوه أن يأخذ لنفسه ، أن يجعل له جنانا وقصورا وكنوزا ، ويبعث معه ملكا يصدق به بما يقول ، ويرد عنه :

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٠٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٩ .

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٨) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا (١٠) ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾ [الفرقان: ٧ - ١٠ و ٢٠]

ملحوظة:

تقديم هذا الاقتباس هو في الواقع مجرد تفسير للآية، حوله النص إلى مادة تاريخية.

الاقتباس رقم ٩ (*)

النص:

وأنزل الله عليه فيما قال عبدالله بن أمية بن المغيرة من أنه لن يؤمن به أبدا حتى يتخذ إلى السماء سلما، ثم يرقى فيه وهو ينظر إليه حتى يأتيها ثم يأتي معه أربعة من الملائكة يشهدون له إنه كما يقول، ومن أنه حتى لو فعل ذلك فلن يصدقه:

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٩٨، ٣٠٩.

يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ
تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾

[الإسراء: ٩٠ - ٩٣]

ملحوظة :

التقديم، الذى يشير إلى كلام عبدالله بن أمية، ليس فى الواقع إلا نقلا لا يضيف سوى اسم شخص للآيات المذكورة. ويلاحظ أن هذا القرشى، الذى كانت أمه ابنة عبدالمطلب، قد أسلم فيما بعد، خلافا لمعظم من وردت أسمائهم فى الاقتباسات القرآنية، وقتل خلال حصار الطائف فى الفترة المدنية.

الاقتباس رقم ١٠ (*)

النص :

أنزل عليه فى قولهم: إنا قد بلغنا أنك إنما تعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن، ولن نؤمن به أبداً:

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

[الرعد: ٣٠]

ملحوظتان :

أ) تقديم هذا الاقتباس لا يتمشى مع معنى الآية، فإن من لم يكن يؤمن به القرشيون فهو رجل، أما من يلوم القرآن القرشيين على عدم الإيمان به فهو الله سبحانه وتعالى.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣١١

(ب) إذا افترضنا أن ما كانت قريش تريد أن تقوله هو: «نحن لا نؤمن بمن تقول إنه الرحمن لأنه، طبقاً لمعلوماتنا، ليس إلا رجلاً»، لكنت تلك الملحوظة مفهومة في البداية الأولى لبعثة الرسول ﷺ حين استخدم اسم الرحمن في القرآن للمرة الأولى، لكنها غير مفهومة في نهاية الفترة المكية بعد أن استخدم هذا الاسم، الذي نجده أيضاً في بداية كل سورة من سور القرآن، عشر مرات، فإن سورة الرعد التي وردت فيها هذه الآية هي آخر سور القرآن المكي.

الاقتباس رقم ١١ (*)

النص:

وأنزل عليه فيما قال أبوجهل بن هشام، وما همّ به (حين أراد أن يفضخ رأس رسول الله ﷺ بحجر):

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَدَّعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩) ﴾

[العلق: ٩ - ١٩]

ملحوظات:

(أ) الآيات المذكورة جزء من سورة أنزلت في الفترة المكية الأولى، وهي الفترة التي يقول النص إن الرسول ﷺ كان يدعو فيها إلى الله في الخفاء. والمفروض إذن أن أبا جهل كان يجهل خلالها هذه الدعوة وأنه بالتالي لم ينته أحداً من المسلمين عن الصلاة.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣١١.

ب) المنع الموجه إلى رسول الله ﷺ في آخر الآية المذكورة من إطاعة «الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى» يفهم منه أن هذا الشخص كانت له على الرسول سلطة تسمح له بأمره أو نهيه. وهذا يؤيد الافتراض الذي طرحته وقرينة أن أول من أبلغهم الرسول ﷺ برسالته هم رؤساء قبيلته، ويسمح بتصور أن آيات هذا الاقتباس تشير إلى واحد من سادة بني عبدالمطلب أو بني هاشم وأشرافهم، ولعله أبولهب.

ج) يلاحظ أن أبا جهل، فيما يقول النص، قُتِلَ في بدر وكان الذي قتله رجلان من الخزرج ومهاجر.

الاقتباس رقم ١٢ (*)

النص:

وأنزل الله تعالى فيما عرضوا عليه من أموالهم:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤٧)

[سبا: ٤٧]

ملحوظات:

أ) تقديم هذه الآية لا يتضمن عرض مال كان الكفار قد عرضوه على محمد ﷺ من تلقاء أنفسهم.

ب) فكرة أن كل الخير الذي يعرضه الرسول ﷺ على الناس معروض مجانا وبلا مقابل واردة، في العبارة ذاتها، تقريبا، في الآيات التالية:

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣١٣ .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ (٤٠) [الطور: ٤٠]

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٨٦) [ص: ٨٦]

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ (٥٧)

[الفرقان: ٥٧]

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٤)

[يوسف: ١٠٤]

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٢٣)

[الشورى: ٢٣]

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ

إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٩٠) [الأنعام: ٩٠]

وواضح من هذا أن أول مرة ذكر فيها هذا القول كانت فى سورة الطور؛ التى نزلت فى الفترة المكية الأولى، وأنه تكرر طوال هذه الفترة. وليس فى لغة أية آية من هذه الآيات ما يؤيد المعنى الذى يقترحه النص. (ج) حجة المجانية فى القرآن، حجة كان الانبياء السابقون على محمد ﷺ يقولون بها دائما فى دعوتهم. وفى سورة الشعراء وحدها، استخدمها نوح عليه السلام فى الآية:

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٩)

[الشعراء: ١٠٩]

ثم استخدمها هود وصالح ولوط وشعيب بنصّها فى الآيات ١٢٧ و ١٤٥ و ١٦٤ و ١٨٠، كما وردت فى سورة يس:

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٠)

﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٢١) [يس: ٢٠ - ٢١]

(د) عرض الثروة، طبقا للنص، كان واحدا من ثلاثة عروض عرضتها قريش على محمد ﷺ، وكان العرضان الآخران هما: عرض بجعله سيدهم أو بتمليكه عليهم، وعرض بالتماس الأطباء له. وإذا صح أن الآية التي اقتبسها النص تشير إلى عرض الثروة والمال، فقد كان المنتظر أن تتضمن الآية المقتبسة أيضا إشارة إلى العرضين الآخرين، لا سيما العرض بجعله سيدهم أو ملكهم، لكن هذه الآية لم يرد فيها شيء عن العرضين المذكورين.

(هـ) نحن هنا، إذن، بإزاء تفسير خاطيء لآية قرآنية، بنى عليه النص مادة تاريخية.

الاقتباس رقم ١٣ (*)

النص:

قال أبو جهل يوما وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق: يا معشر قريش، يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عددا وكثرة، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم؟ فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قوله:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ

كَفَرُوا ... ﴾ (٣١) [المدثر: ٣١]

إلى آخر القصة.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣١٣.

(أ) الإشارة هنا هي إلى الآيات الآتية من السورة ذاتها :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾ [المدثر : ٢٧ - ٣٠]

(ب) الآية ٣١ لا تتجه فقط إلى الكفار، بل تتجه أيضا إلى أهل الكتاب وإلى المؤمنين ، وهذا ثابت بوضوح من الجزء التالي من الآية الذي أحال إليه النص دون أن يذكره :

﴿ لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (٣١) ﴾ [المدثر : ٣١]

(ج) السورة التي تتضمن الآية ٣١ هي واحدة من أوائل سور الفترة المكية ، أي فترة الاستخفاء المزعومة . وهي تؤكد رأيي الذي مؤداه أن هذه الفترة لم يكن لها قط وجود ، وتدل على أن مؤلف النص أخطأ بوضع الآية المذكورة في فترة لاحقة على تلك التي نزلت فيها .

الاقتباس رقم ١٤ (*)

النص :

فلما قال ذلك بعضهم لبعض ، جعلوا إذا جهر رسول الله ﷺ بالقرآن وهو يصلي ، يتفرقون عنه ، ويأبون أن يستمعوا إليه ، فكان الرجل منهم

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو من القرآن وهو يُصلي، استرق السمع دونهم فَرَقَا منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خَشْيَةُ أذاهم فلم يستمع، وإن خفض رسولُ الله ﷺ صوته، فَظَنَّ الذي يستمع إليه أنهم لا يستمعون شيئاً من قراءته، وسمع هو شيئاً دونهم، أصاخ له يَسْتَمِع منه. وقد أنزلت آية:

﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾

[الإسراء: ١١٠]

من أجل أولئك نفر.

ملحوظات :

(أ) من الصعب تصور شخص يستمع في المسجد إلى الرسول ﷺ وهو يتلو القرآن بصوت منخفض في صلاته دون أن يفطن إلى ذلك الأشخاص الموجودون في المسجد.

(ب) الاستماع إلى رسول الله ﷺ وهو يؤدي صلاته، لم يكن الوسيلة الوحيدة لمعرفة القرآن؛ لقد كانت الآيات التي تنزل والتي كان الرسول ﷺ يلقيها لأصحابه تذايع بين الناس أولاً بأول، وكانت ألسنتهم تتداولها، كما كانت تتداول ما سبقت إذاعته من سور القرآن وآياته، وكان باستطاعة أي شخص أن يلم بها، دون أن يجعل شخصه موضعاً لشبهة، من مئات المسلمين الذين كانوا يقيمون بمكة ومن غيرهم، بل وفي دوائر السلطة. ولا بد أن مجلس قريش قد اتخذ من التدابير ما يسمح له بجمع ما هو متداول من القرآن، وأنه كان يبلغ به الشعراء والخطباء وغيرهم من العملاء المكلفين بنقده، أو بالرد على ما جاء فيه أو بتزييفه.

ج) الصلة بين الأمر الصادر لرسول الله ﷺ بعدم الجهر بصلاته وعدم المخافة بها، وبين السياق الذى يصفه النص غير واضحة، فلو أن المقصود بهذا الأمر هو السماح للناس بالاستماع إلى القرآن الذى يتلوه رسول الله ﷺ خلال صلاته، لصدر له الأمر بالجهر بصلاته لا ابتغاء سبيل بين الجهر والمخافة، ومن الصعب أيضا تصور رب العالمين يصدر قاعدة للعبادة لمجرد التستر على الأشخاص الذين كانوا يريدون أن يستمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن يراهم الناس.

د- والواقع أن هذا الأمر يرسى قاعدة عامة التطبيق ودائمة، موجهة الى جميع المسلمين فى كل زمان ومكان. والحاصل هنا أيضا أن مؤلف النص فسر آية قرآنية تفسيرا شخصيا، واستخدمها كمادة ذات طابع تاريخى.

الاقتباس رقم ١٥ (*)

النص:

كان رسول الله ﷺ إذا تلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، قالوا يهزءون به: (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه)، لا نفقه ما تقول (وفى آذاننا وقْر)، لا نسمع ما تقول (ومن بيننا وبينك حجابٌ)، قد حال بيننا وبينك (فاعمل) بما أنت عليه (إننا عاملون) بما نحن عليه، إنا لا نفقه عنك شيئا، فأنزل الله تعالى عليه فى ذلك من قولهم:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣١٦.

ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا
يَسْتَمْعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أَتِنَا لَمْبَعُوثُونَ خَلَقَا
جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي
صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ
إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴿

[الإسراء: ٤٥ - ٥١]

ملحوظات :

أ) مؤدى تقديم الاقتباس أن رسول الله ﷺ كان يتلو القرآن على
قريش . وإذا كان ذلك صحيحا - وأرى أنه صحيح - فقد كان الرسول
صلى الله عليه وسلم قبل كل شيء بشيرا ونذيرا، فيحق للمرء أن يرفض
المعلومات التي وردت في النص، والتي مؤداها أن الكفار كانوا يحاولون
أن يستمعوا إليه دون أن يراهم أحد، كما في تقديم الاقتباس رقم ١٤ ،
وفي الرواية الثانية المتعلقة بإسلام عمر، وفي الخبر الذي يفيد أن أبا
سفيان وغيره من سادة قريش، كانوا يذهبون فرادى إلى حيث بيت
الرسول صلى الله عليه وسلم تحت جناح الظلام ليلا، ليستمعوا إليه من
وراء الجدران، وهو يتلو القرآن في صلاته .

ب) تقديم الآيات هو في الواقع ببساطة نقل للآية ٤٦ من الاقتباس
الراهن ولآية :

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا
وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت: ٥]

وهذه حالة من حالات عديدة سرق فيها النص مادة من القرآن ثم استخدمها ، دون ذكر المصدر ، لتقديم شيء فى القرآن أو لعرض بعض الوقائع .

الاقتباس رقم ١٦ (*)

النص :

قال أبو قحافة لأبى بكر : يا بنى ، إني أراك تُعتق رقابا ضِعَافاً، فلوأنك إذ فعلت أعتقت رجالاً جُلُوداً يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال له أبو بكر، رضى الله عنه : يا أبت ، إني إنما أريد ما أريد، لله عزّ وجلّ . فيتحدث أن الآيات التالية نزلت فيه وفيما قال له أبوه :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١) ﴾

[الليل : ٥ - ٢١]

ملحوظات :

تقديم هذا الاقتباس يشير الملحوظات الآتية :

أ) النص يضع هذا الاقتباس فى الفترة الثالثة ، مع أنه يرجع إلى الجزء الأول من الفترة الأولى .

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣١٩ .

ب) العلاقة بين شراء الرقاب وعقدها وبين آيات هذا الاقتباس غير واضحة ، والواقع أن هذه الآيات لم تنزل في مناسبة معينة ، بل هي من الآيات التي تقرر مبادئ كبرى في الإسلام . ومحتواها وارد في عشرات من الآيات الأخرى .

ج) ليس من المؤكد أن قريشا كانت قد بدأت في اضطهاد المسلمين في التاريخ الذي نزلت فيه هذه السورة ، وأن أبا بكر كان قد بدأ في شراء العبيد لإنقاذهم من التعذيب .

د) إذا كان والد أبي بكر قد أبدى الرأي الذي يذكره النص ، فمن المؤكد أن ذلك قد تم في حديث خاص ، بعيدا عن أسماع الشهود .

هـ) من الغريب أن الشرح مع الإشارة إلى أبي بكر وأبيه لا يتناول سوى آيتين من آيات السورة ، وألا يذكر النص شيئا عن الظروف التي نزلت فيها باقى الآيات .

و) إذا كان شرح هذا الاقتباس يبدو في الظاهر وكأنه ثناء على أبي بكر ، إلا أنه يبرز كذلك حقيقة أن أبا قحافة والده لم يسلم كابنه . ويشرح النص ، في جزئه المدني ، أن أبا قحافة لم يسلم إلا بعد فتح مكة ، أى أنه لم يكن خيرا من أغلبية بنى عبدالمطلب وبنى هاشم الساحقة .

الاقتباس رقم ١٧ (*)

النص :

كان أبولهب ، عم الرسول ﷺ ، يقول فى بعض ما يقول : يَعدنى محمد أشياء لا أراها ، يزعم أنها كائنة بعد الموت ، فماذا وضع فى يديّ

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٥١ ، ٣٥٥ .

بعد ذلك؟ ثم ينفخ في يديه ويقول: تَبًّا لكما، ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد. ومن جهة أخرى كانت أم جميل، امرأة أبي لهب، تحمل الشوك وتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر.

فأنزل الله تعالى فيهما:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾

[سورة المسد]

ملحوظات :

أ) السورة المذكورة، التي وضعها النص في الفترة الثالثة، ترجع في الواقع إلى الفترة الأولى، ويتضح منها أن الخلاف بين أبي لهب ومحمد ﷺ بدأ في هذه الفترة التي يصورها النص على أنها فترة هادئة الحدث الوحيد الهام الذي حَدَّثَ فيها هو وعد أبي طالب لمحمد صلى الله عليه وسلم بأنه سيحميه.

ب) هذه السورة على قدر كبير من الأهمية، نظرا إلى أنها السورة الوحيدة في القرآن التي ذكر فيها واحد من الكفار في زمن رسول الله ﷺ بالاسم والتي كان هذا الكافر وزوجه موضوعها الوحيد، والتي يحكم الله عز وجل عليهما فيها بالنار.

ج) لا بد أن نزول هذه السورة كان حَدَثًا من أهم أحداث الفترة المكية، نظرا للمكانة التي كان يتمتع بها أبو لهب، عم الرسول ﷺ ونصمه، وامراته، في مكة، وكان من الواجب بالتالي أن يعالج مؤلف النص هذه السورة من جميع نواحيها بأكبر قدر ممكن من التفصيل، وبخاصة فيما يتعلق بالصدى الذي أحدثته في مكة، وما

وراءها، وبالأثر الذى تركته فى قريش فى مجموعها، من جهة، وفى
أبى لهب وزوجه، من جهة أخرى. لكن شيئاً من هذا لم يرد فى
النص.

(د) الشرح الوارد فى النص بشأن الملابس التى أدت إلى نزول
السورة يفتقر إلى الجدية. فهو لا يقول إن أبى لهب كان شريفاً فى تعامله
مع رسول الله ﷺ أو أنه أساء إليه، وكل ما يقوله هو أنه، شأن معظم
قريش، كان يشك فى البعث بعد الموت. والعمل الذى ارتكبه امرأته -
أى طرح الشوك على طريق الرسول ﷺ - لا يمثل اعتداء خطيراً على
الرسول، الذى كان باستطاعته أن يتفاداه أو أن يتخذ طريقاً آخر.

ولم يشرح النص لماذا لم يصدر حكم نهائى بالعذاب فى النار على
من ارتكبوا أعمالاً هينة كالأعمال التى ارتكبها أبولهب وزوجته، مع ذكر
أسمائهم؟ مع أن الأشخاص الذين ارتكبوا أعمالاً أخطر، لم يصدر
عليهم مثل هذا الحكم، وأتيحت لهم الفرصة كي يتوبوا ويهتدوا إلى
الإسلام.

(هـ) من الواضح أن الواقعة التى يرويها النص، أى نفخ أبى لهب فى
يديه وقوله لهما: «تبا لكما، ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد»، مجرد
حيلة تخيلها النص، لإقامة علاقة بين هذه الكلمات وأول آية فى
السورة، أى تلك التى تقول: «تبت يدا أبى لهب وتب». والقول ذاته
يصدق على زوجة التى تُصور وهى تحمل حزمة من الأشواك تطرحها
على طريق الرسول صلى الله عليه وسلم (وقد كان بوسعها مثلاً أن
تكلف بهذه المهمة أحد عبيدها) لإقامة الصلة بين هذه الصورة والآيتين
الأخيرتين، اللتين تصورانها، وهى تحمل الخطب فى جهنم.

و) من الغريب أن شخصية هامة كشخصية أبي لهب تختفى تماما من مسرح الأحداث في مكة بعد حديث المشادة التي قامت بينه وبين بنى مخزوم لأن أبا طالب أجار أبا سلمة ابن أخته.

ز) للمرء، نظرا لما سبق، أن يشك فيما ورد في النص عن الظروف والملابسات التي أدت إلى نزول سورة المسد. وإدانة أبي لهب وامراته هذه الإدانة الصارمة تفترض، كما ذكرت فيما سبق، أنه كان شديد الفظاظة مع ابن أخيه، حين اتصل به رسول الله ﷺ هو وأفراد قبيلته الآخرين في بداية مبعثه، ليبلغهم أنه مرسل من الله تعالى.

لقد كان أبولهب، الرجل الغنى ذو المال، على الأرجح، سيدا لبني عبدالمطلب، أو لبني هاشم، ولا بد أنه كان بصفته هذه عضوا بارزا في مجلس الحكم بالمدينة. ولا بد أنه فهم في وقت مبكر الخطر الذي تنطوي عليه رسالة محمد ﷺ بالنسبة للنظام العام ولمكة، العاصمة الاقتصادية والتجارية والروحية للجزيرة العربية، ولا بد أن أكثر من مشادة نشبت بينه وبين ابن أخيه. ولا بد أنه، في الوقت ذاته، استخدم نفوذه كله لدى قبيلته كي تضطهد محمدا ﷺ وأخاه حمزة وابني أخيه علي وجعفر بشدة أدت إلى قلة أفراد بني عبدالمطلب وبني هاشم الذين اعتنقوا الإسلام خلال الفترة المكية؛ ولا بد أنه تبرأ علانية من ابن أخيه باعتباره ممثلا لقبيلته في مجلس القبائل، وذلك خدمة لمصلحته الخاصة، ومصلحة قبيلته وبصفته واحدا من القائمين على حماية الدولة.

ولا بد أنه، لهذه الاعتبارات كلها، كان أعتى من غيره من أعضاء المجلس في الحملة على دين الإسلام، الذي كان يعتبره كفرا، وفي محاربته على جميع الجبهات. ولا بد أن امرأته كانت شريكة له في كل أعماله، وأن هذا كان السبب الذي جعل القرآن يدينها ويصدر عليها الحكم القاطع الذي نطقت به ضدها سورة المسد.

ح- من المحقق أن نزول سورة المسد في مجتمع بدائي المعتقدات كالمجتمع المكي في ذلك الوقت أحدث وقعا عميقا في نفوس الناس ولا بد أن قلوب خصوم رسول الله ﷺ - حتى أشدهم، وقلوب الكفار حتى أقلهم تقبلا لرسالته - تملَّكها الفزع لدى الاستماع إلى تلك السورة؛ ولا شك في أن أحدا من الرجال أو النساء في مكة يعلم أن المسلمين يتلون هذه السورة يوميا في صلواتهم وخارج هذه الصلوات ما كان يحب أن يتعرض لمصير أبي لهب وامراته أو أن يكون موضوعا لإدانة كتلك التي صدرت في حقهما؛ ومن ثم فلا بد أن هذه السورة أحدثت أثرا ردعيا على الأشخاص الذين كانت أنفسهم تحدثهم بالاعتداء على رسول الله ﷺ ، أو الذين كانوا يؤجرون لذلك.

ط) ليس من المستبعد، كما سبق أن ذكرت، أن يكون في الآيات:

﴿ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتَ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) ﴾ [البرج : ٤ - ٩]

إحالة إلى أعمال ارتكبها أبولهب أو أمر بارتكابها ضد المسلمين، بما فيهم مسلمو قبيلته، وأن تكون تسميته بأبي لهب (وكان الاسم الذي أطلقه عليه أبوه عبدالمطلب هو عبد العزى) قد نشأت عن مثل هذه الأعمال. وما لا يخلو من طرافة ومن مغزى، في هذا الصدد، أن النص يعزو هذه التسمية إلى أن أبا لهب كان وضيء الوجه.

ي) أدخل مؤلف النص على صورة أبي لهب تحسينات (من نوع «الرتوش» التي يُجملُ بها المصورون صور من يرسمونهم)، بعدة طرق:

- بالتخفيف من جسامه الجرائر التي أدت إلى الحكم عليه بالنار.

- بإضافة جوانب إيجابية لشخصه .

- بتقليل المساحة المخصصة للحديث عنه في تاريخ الفترة .

- بإسناد أقوال وأفعال أخطر وأكثر عددا من تلك التى أدين من أجلها لأشخاص آخرين من قريش فى شرح الظروف التى نزلت فيها آيات قرآنية أخرى اقتبسها النص .

والظاهر أن الغرض من هذه «الرتوش» هو الإيحاء بأن الإدانة التى صدرت ضد أبى جهل فى سورة المسد كانت قاسية أكثر من اللازم، فالنص يقول فى الواقع، فيما يبدو، أن أبا لهب لم يكن أسوأ الرجال ولا أكثر خصوم الإسلام ضراوة .

ك) وحاصل الأمر هو أن النص يكره أن يقدم فردا من أفراد قبيلة الخليفة العباسى بالصورة التى تصوره بها السورة المذكورة، أى باعتباره أعدى أعداء الإسلام .

الاقتباس رقم ١٨ (*)

النص :

كان أمية بن خلف بن وهب إذا رأى رسول الله ﷺ همزَه ولمزَه،
فأنزل الله تعالى فيه :

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقِدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)﴾
[سورة الهمزة]

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٥٦ .

أ (كل ما فعله النص هو أن نقل الآية الأولى من السورة ، بما فى ذلك كلمتا «هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ» ، وهما كلمتان ليستا من المفردات التى كانت شائعة ، وألصق بهما اسما لشخص .

ب) كلمة «لكُل» تعنى «كل شخص» ، لا شخصا واحدا معينا ، كما يزعم التقديم .

ج) السورة المقتبسة هى من سور الفترة الأولى ، وهى تثبت أن الانتقادات ، التى يرد عليها القرآن ، ترجع إلى هذه الفترة ، لا إلى الفترة الثالثة ، كما يدعى النص .

د) يلاحظ أن أُمَيَّةَ بن خَلَفٍ ، كما يذكر خبر بدر فى النص ، قُتِلَ فى هذه الغزوة ، وكان الذى قتله رجل من الأنصار من بنى مازن أو ثلاثة من الخزرج .

الاقتباس رقم ١٩ (*)

كان خَبَّابُ بن الأَرْتِ ، صاحبُ رسول الله ﷺ ، قَيْنًا بمكة يعمل السيوفَ ، وكان قد باع من العاص بن وائل سيوفا عملها له حتى كان له عليه مال ، فجاءه يتقاضاه فقال له : يا خَبَّابُ أليس يزعمُ محمدُ صاحبُكم هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب ، أو فضة ، أو ثياب ، أو خدم ؟ قال خَبَّابُ : بلى . قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خَبَّابُ ، حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيكَ هنالك حقَّكَ : فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خَبَّابُ آثَرًا عند الله منى ، ولا أعظم حظًا منى فى ذلك . فأنزل الله فيه :

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٥٧ .

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)﴾
[مريم : ٧٧ - ٨٠]

ملحوظات :

(أ) ليست هنا علاقة واضحة بين الواقعة التي يرويها التقديم والآيات المقتبسة. وليس في الآية ٨٠ إشارة إلى أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة.

(ب) في مدينة تجارية كمكة، لا بد أن المدين الذي يرفض سداد دينه، مع اعترافه به، كان يتعرض لسوء السمعة، وأن الدائن كان لديه من الوسائل القانونية ما يسمح له بالحصول على حقه. لذلك فإن المنظر الذي يصوره التقديم مشكوك في صحته.

(ج) النص لا يورد رداً طبيعياً لا بد أن خباباً رد به على العاص بن وائل : أن العاص، لأنه كافر، لن يكون معه يوم القيامة في الجنة.

(د) كان العاص بن وائل أباً عمرو بن العاص، حاكم مصر في عهد معاوية، وكان من أقرب الأعوان إلى معاوية، كما كان الحكم الذي ثبتته في الخلافة بعد معركة صفين سنة ٣٧ هـ.

الاقتباس رقم ٢٠ (*)

النص :

لقي أبو جهل بن هشام رسول الله ﷺ فقال له : والله يا محمد، لتتركن سب آل هتنا، أو لنسبن إلهك الذي تعبد. فأنزل الله تعالى فيه :

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٥٧.

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ
عِلْمٍ﴾ (١٠٨) [الأنعام : ١٠٨]

فكفَّ رسولُ الله ﷺ عن سب آلهتهم وجعل يدعوهم إلى الله .

ملحوظات :

(أ) لا يعطى النص أى مثل للألفاظ التى تقول إن رسول الله ﷺ كان
يَسُبُّ بها آلهة قريش ؛ لذلك فمن المستبعد أن يكون الرسول ﷺ هو الذى
كان يتجه إليه الخطَّابُ فى الآية المذكورة .

(ب) فعل «يَسُبُّ» ورد فى الآية بصيغة الجمع ؛ لذلك فإن الآية إنما
تتجه على الأرجح إلى المسلمين .

(ج) كل ما فعله النص ، فى الواقع ، هو أن نقل مِا ورد فى الآية
وأضاف إليه اسما لشخص .

الاقتباس رقم ٢١ (*)

النص :

جلس رسول الله ﷺ يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد ، فجاء
النَّضْرُ بن الحارث ، حتى جلس معهم فى المجلس ، وفى المجلس غير
واحد من رجال قريش ، فتكلَّم رسولُ الله ﷺ ، فعرض له النَّضْرُ بن
الحارث ، فكلَّمه رسولُ الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليه وعليهم :

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (٩٨)

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٥٨ .

لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهِ مَا وَرَدُّوَهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) ﴿١٠٠﴾

[الأنبياء : ٩٨ - ١٠٠]

ملحوظات :

(أ) ليست هناك أية علاقة بين التقديم والآيات المقتبسة . والنص على أى حال لا يريد أن يقيم مثل هذه العلاقة ، وهو يريد أن يقول ببساطة إن رسول الله ﷺ أبلغ الوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث ورجال قريش الحاضرين ، بالآيات الثلاث المذكورة ، إنهم سيدخلون النار .

(ب) من المستغرب أن هذه الآيات الثلاث هي الآيات الوحيدة من جميع الآيات التي نزلت حتى ذلك اللقاء ، التي يقول النص إن رسول الله ﷺ تلاها على كفار قريش .

(ج) من المحتمل أن يكون هدف النص هنا هو الإيحاء بأن أبى لهب لم يكن الوحيد من قريش الذى حكم عليه بدخول جهنم وأن الوليد ابن المغيرة والنضر بن الحارث وغيره من القرشيين صدر عليهم الحكم ذاته بلسان محمد ﷺ .

الاقتباس رقم ٢٢ (*)

النص :

ثم قام رسول الله ﷺ ، وأقبل عبدالله بن الزبير السهمي حتى جلس ؛ فقال الوليد بن المغيرة لعبدالله بن الزبيرى : والله ما قام النضر ابن الحارث لابن عبدالمطلب آنفا وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال عبدالله بن الزبيرى : أما والله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمدا : أكل ما يُعبد من دون الله فى جهنم مع

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٥٩ .

مَنْ عَبَّادَهُ؟ فنحن نعبدُ الملائكة، واليهود تعبدُ عَزِيرًا، والنصارى تعبد عيسى بن مريم، فعجب الوليد، ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزُّبَيْرِ، ورأوا أنه احتج وخاصم. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ من قول ابن الزُّبَيْرِ، فقال رسول الله ﷺ إن كل مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ من دون الله فهو مع مَنْ عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢)﴾

[الأنبياء : ١٠١ - ١٠٢]

أى عيسى بن مريم، وعزيرًا، ومن عبدوا من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله.

ملحوظتان :

أ) ليست هناك أية علاقة بين التقديم والآيات المقتبسة.

ب) معنى هذه الآيات وارد في عديد من آيات القرآن، ولا ينصب على واقعة بعينها.

الاقتباس رقم ٢٣ (*)

النص :

ونَزَّلَ فيما يذكرون، انهم يعبدون الملائكة، وأنها بنات الله :

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٦٠ .

يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ
إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴿

[الأنبياء : ٢٦ - ٢٩]

ملحوظة :

التقديم لا يتمشى مع منطوق الآيات المقتبسة، وهو فى الواقع ليس
إلا تفسيراً مفتعلاً للآيات حوَّله النص إلى مادة تاريخية سابقة.

الاقتباس رقم ٢٤ (*)

النص :

ونزل فيما ذكر من أمر عيسى بن مريم أنه يُعبدُ من دون الله، وعَجِبَ
الوليد ومن حضره من حُجَّته وخصومته :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) ﴾

ثم ذكر عيسى بن مريم فقال :

﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ
لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ
بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾ [الزخرف : ٥٧ و ٥٩ - ٦١]

أى ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام،
فكفى به دليلاً على علم الساعة.

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٦٠ ، ٣٦١ .

ملحوظة :

التقديم فى سطر والشرح المقتضب لا يضيفان شيئاً إلى معنى الآيات الواضح ، كما أنهما لا يذكران الظروف التى أنزلت فيها السور المقتبسة ، فيما عدا عَجَب الوليد والآخرين من حجة الرسول ﷺ .

الاقتباس رقم ٢٥ (*)

النص :

والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى ، حليف بنى زُهرة ، وكان من أشرف القوم ومن يُستمع منه ، فكان يُصيب من رسول الله ﷺ ، وودّ عليه ، فأنزل الله تعالى فيه :

﴿ وَلَا تَطْعَ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) ﴾
[القلم : ١٠ - ١٣]

ملحوظات :

(أ) كلمة «كُل» فى الآية ١٠ تنفى أن يكون المقصود شخصاً معيناً بذاته .

(ب) هناك فرق بين التقديم والآيات المقتبسة . ذلك أن الأخنس بن شريق لم يكن من أقرباء رسول الله ﷺ ، بل لم يكن قرشياً ، والمفروض أن الشخص الذى تنهى الآية ١٠ الرسول ﷺ عن إطاعته ، على فرض أن هذه الآية تشير إلى حادثة فردية ، كان يملك ممارسة قدر من السلطة على النبی ﷺ .

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٦٠ ، ٣٦١ .

(ج) الأخنس بن شريق واحد من الأشخاص الذين يقول النص إن الرسول ﷺ طلب منهم إجارته لدى عودته إلى مكة بعد زيارته الفاشلة إلى الطائف (إثر موت أبي طالب). ولو أنه كان الشخص الذي تشير إليه الآية المذكورة، لما طلب الرسول ﷺ منه أن يُجيره.

الاقتباس رقم ٢٦ (*)

النص:

قال الوليد بن المغيرة: أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأُنْزِلَ وَأَنَا كَبِيرُ قُرَيْشٍ وَسِيدُهَا، وَيُتْرَكُ أَبُو مَسْعُودٍ عَمْرُو بْنُ عُمَيْرِ الثَّقَفِيِّ سَيِّدٌ ثَقِيفٌ، وَنَحْنُ عَظِيمَا الْقُرَيْتَيْنِ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ [الزخرف: ٣١ - ٣٢]

ملحوظتان:

(أ) هل كان الوليد بن المغيرة حقاً كبير قريش وسيدها؟ ليس في مادة السيرة ما يعترف له بهذه الصفة.

(ب) تقديم الاقتباس لا يتمشى والآيات المذكورة. والمعنى الظاهر لهذه الآيات هو أن بعض الناس لم يحملوا الرسول على محمل الجد لأنه لم يكن قبل مبعثه من عظماء الرجال، وهو رأى لا غرابة فيه. وقد جاء فعل «قالوا» في الآية ٣١ بصيغة الجمع، بينما أسند التقديم هذا القول إلى شخص مفرد هو الوليد بن المغيرة.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٦١.

النص :

أَبِيّ بن خَلْف وعُقْبَة بن أَبِي مُعَيْط ، كانا مُتَصَافِيَيْن ، حَسَنًا ما بَيْنَهُمَا ، فكان عُقْبَة قد جَلَسَ إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وسمع منه ، فبلغ ذلك أَبِيَا ، فَأَتَى عُقْبَة فقال له : أَلَمْ يَبْلُغْنِي أَنَّكَ جَالِسْتَ مُحَمَّدًا وسمعت منه ! وَجْهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ أَنْ أَكَلِّمَكَ - واستغلظ من اليمين - إن أنت جَلَسْتَ إِلَيْهِ أو سَمِعْتَ مِنْهُ ، أو لَمْ تَأْتِهِ فَتَتَفَلَّ في وَجْهِهِ ففعل ذلك عَدُوٌّ لِلَّهِ عُقْبَة بن أَبِي مُعَيْط لعنه الله . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمَا :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿ (٢٩) ﴾ [الفرقان : ٢٧ - ٢٩]

ملحوظات :

(أ) ليست هناك أية علاقة بين الواقعة التي يرويها النص في التقديم وبين الآيات المقتبسة . ومضمون هذه الآيات مضمون عام وواضح ، وكلمة «الظالم» في الآية ٢٧ تعنى فئة من الناس لا فردا أو مجموعة من الأفراد بذواتهم .

(ب) منظر الكفار يوم القيامة وهم يعضون بنان الندم لأنهم لم يتبعوا أنبياءهم منظر كثيرا ما يصفه القرآن .

(ج) من الغريب أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم ، الذين حموا محمدا ﷺ ، فيما يقول النص ، قد قبلوا أن يتفلَّ عُقْبَة بن أَبِي مُعَيْط في وجهه

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٦١ .

وأنه لا حمزة (الذي ضرب أبا جهل فشجه) ولا عمر (المفروض أن إسلامه وإسلام حمزة قد أعزّا الإسلام وأعزّا رسوله من باب أولى) تدخلا لمعاقبة عُقبة بن أبي مُعيط على فعلته.

(د) من الغريب كذلك أن الرسول ﷺ ، الذي تسبب في موت أربعة أشخاص وأصاب بالعمى شخصا خامسا من المستهزئين ، بإشارة من يده ، فيما يقول النص ، لم يعاقب عُقبة على إهانة هي أكبر من الاستهزاء .

(هـ) قُتل عُقبة بن أبي مُعيط في بدر وكان الذي قتله واحد من الأوس ، لكن البعض يقول إن الذي قتله هو عليّ .

الاقتباس رقم ٢٨ (*)

النص :

مشى أُبَيُّ بْنُ خَلْفٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعَظْمٍ بَالٍ قَدْ ارْفَتَ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ هَذَا بَعْدَمَا أُرْمَى ، ثُمَّ فَتَّهُ فِي يَدِهِ ، ثُمَّ نَفَخَهُ فِي الرِّيحِ نَحْوَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : نَعَمْ أَنَا أَقُولُ ذَلِكَ ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ وَإِيَّاكَ بَعْدَمَا تَكُونَانِ هَكَذَا ، ثُمَّ يَدْخُلُكَ النَّارُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) ﴾

[يس : ٧٨ - ٨٠]

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٦١ .

(أ) من غير المحتمل أن تكون الإشارة، في الآية ٦٨ المقتبسة، إلى أبي ابن خلف، فإن هذه الآية تتبع، بصورة منطقية، الآية ٧٧ في قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧)

[يس: ٧٧]

وواضح أن الإشارة هنا غير شخصية.

(ب) من الصعب تصديق أن يحكم الرسول على شخص بالنار لمجرد أنه سأل سؤالاً وأنه نفخ في وجهه تراب عظمة قديمة. وليس في القرآن على أي حال ما يشير إلى أن محمداً ﷺ يملك إصدار مثل هذا الحكم أو أنه كان يعلم الغيب.

(ج) أبي بن خلف هو أخو أمية بن خلف الذي رأيناه في الاقتباس رقم ١٨ والذي قُتل في بدر. وقد جرح أبي ذاته في أحد يدي الرسول ﷺ ثم مات متأثراً بهذا الجرح.

(د) حالة أبي حالة إضافية، يوحى فيها النص بأن هناك، غير أبي لهب الذي حكم عليه القرآن بالنار، أشخاصاً آخرين حكم عليهم بها محمد ﷺ.

الاقتباس رقم ٢٩ (*)

النص :

اعترض رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة الأسود بن المطلب،

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٦١.

والوليدُ بنُ المغيرة، وأمّيةُ بنُ خَلَف، والعاصُ بنُ وائل السهمي، وكانوا ذوى أسنان فى قومهم، فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبدُ ما تعبد، وتعبدُ ما نعبد، فنشترك نحن وأنت فى الأمر، فإن كان الذى تَعْبُدُ خيرا مما نَعْبُدُ، كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرا مما تعبد، كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون]

ملحوظات :

أ) هذه السورة نزلت فى الفترة الأولى. وهى تدل إذن، خلافا لما يدعيه النص، على أن النزاع بين قريش ومحمد بدأ مع بداية بعثته.

ب) العرض الذى يرجع إليه النص سبب نزول هذه السورة غير معقول. فكيف يتصور أن يخطر على بال هؤلاء الأشراف الأربعة المجربين، ولو للحظة واحدة، أن محمدا ﷺ، الذى كان الهدف الأساسى لدينه محاربة شركهم وإحلال عبادة الله الواحد محله، قد يقبل عرضهم الذى يترتب عليه التنكر لرسالته. وكيف، من جهة أخرى، كان يمكن أن يتصوروا أن الغفلة بلغت بمحمد ﷺ درجة أن يقبل عرضهم علما بأن القرآن لم يكن يكف عن تحذيره من المشركين ومن العقاب الذى ينتظره لو أنه أشرك بربه أحدا.

ج) إذا افترضنا أن هذه الواقعة صحيحة، فمن الغريب أن محمدا لم يرفض العرض فورا.

(د) السورة المذكورة ليس فيها أية إشارة إلى صفقة عرضها على محمد نفر من قومه . وهى تقول للكافرين ببساطة إن محمدا لن يتبع ملتهم أبدا وأنه لا يلزمهم باتباع دينه ، وهذا قول يتردد كثيرا فى القرآن .

(هـ) من الواضح أن تقديم المؤلف لهذا الاقتباس هو مجرد نقل حوِّله المؤلف ، مع إضافة بضعة أسماء ، إلى مادة تاريخية سابقة .

الاقتباس رقم ٣٠ (*)

النص :

لما ذكر الله عز وجل شجرة الزُّقُوم تخويفا بها لهم ، قال أبوجهل بن هشام : يا معشر قريش ، هل تدرون ما شجرة الزُّقُوم التى يخوفكم بها محمد؟ قالوا : لا ، قال : عجوة يثرب بالزُّبد ، والله لئن استمكنّا منها لتزقمناها تزقما . فأنزل الله تعالى فيه :

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ

(٤٥) كَغَلِي الْحَمِيمِ (٤٦) ﴾ [الدخان : ٤٣ - ٤٦]

ملحوظة :

التكرار إحدى سمات القرآن الكبرى . وقد رأينا عدة أمثلة عليه فى وصف نار جهنم . والآيات المقتبسة هى أحد هذه الأمثلة . كذلك فليس فى الآيات ما يشير إلى أن القرآن يرد على ملحوظة أبقاها أحد من الناس .

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٣٦٢ .

وقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله ﷺ يكلمه ، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو في ذلك، إذ مرَّ به ابنُ أم مكتوم الأعمى، فكلم رسول الله ﷺ، وجعل يستقرئه القرآن ، فشقَّ ذلك منه على رسول الله ﷺ حتى أضجره، وذلك أنه شغله عما كان فيه من أمر الوليد، وما طمع فيه من إسلامه. فلما أكثر عليه انصرف عنه عابسا وتركه. فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى (٣) أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مِنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى (٧) وَأَمَّا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) ﴾

[عبس: ١ - ١٦]

ملحوظة :

السورة المقتبسة هي إحدى سور الجزء الأول من الفترة المكية الأولى. وإن صح تقديمها فهو يكذب مقولة الاستخفاء. والتقديم في الواقع مجرد تفسير للاقتباس حوله المؤلف، مع إضافة اسمين، إلى مادة تاريخية سابقة.

(*) السيرة، القسم الأول ، ص ٣٦٣ .

النص:

قدم على رسول الله ﷺ ، وهو بمكة، عشرون رجلا أو قريباً من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه فى المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديةهم حول الكعبة؛ فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يُوصف لهم فى كتابهم من أمره. فلما قاموا عنه اعترضهم أبوجهل بن هشام فى نفر من قريش، فقالوا لهم: خيكم الله من ركب!، إن بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده، حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركبا أحق منكم. فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيرا. ويقال إن النفر من النصارى من أهل نجران. ويقال ، فيهم نزلت هذه الآيات:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلِهِمْ وَبِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾

[القصص: ٥٢-٥٥]

التقديم والشرح المتعلقان بهذا الاقتباس يثيران الملحوظات التالية:

(أ) لو أن إسلام النصارى العشرين موضوع هذا الاقتباس ليس مجرد بناء أقيم على الآيات المقتبسة لكان بلا شك حدثا من أهم أحداث الفترة المكية، ليس فقط نظرا لضخامة عدد هؤلاء المسلمين الجدد - وهو أكثر من ثلث عدد المشركين الذين أسلموا، فيما يقول النص، خلال ثلاث السنوات الأولى من دعوة رسول الله ﷺ - بل أيضا لأن هؤلاء الرجال كانوا من أهل الكتاب الذين حدثهم كتابهم عن الأنبياء السابقين. لذلك فإن حديث هذه الواقعة التي ليس لها نظير خلال الفترة المكية بأكملها، كان المفروض أن يكون أطول أحاديث هذه الفترة. ومع هذا فإن الحيز المخصص لإسلام هؤلاء النصارى العشرين في النص لا يزيد على واحد وعشرين سطرا بما في ذلك الآيات القرآنية.

(ب) النص لم يذكر اسم أي من هؤلاء المسلمين الجدد.

(ج) رغم أن النص يذكر حرفيا كلام جعفر بن أبي طالب في الاجتماعين اللذين عقدا في بلاط النجاشي، فإن الحوار الذي تم بين الرسول ﷺ والنصارى العشرين، والذي انتهى بإسلامهم، ذكر هنا ملخصا في بضع كلمات ليس منها كلام على لسان الرسول ﷺ.

(د) من الغريب:

- أننا لا نعرف، فيما يتعلق بهذا الإسلام الجماعي، ما إذا كان هؤلاء النصارى العشرون أحبشا أو من أهل نجران.

- أن الاستعلام عن محمد ﷺ اقتضى إرسال وفد إلى مكة قوامه عشرون رجلا.

- أن أحدا من هؤلاء العشرين لم يبد رفضا أو ترددا في اعتناق الإسلام.

- أن النصارى، لاسيما الأحباش، الذين لا يعرفون العربية، هم وحدهم الذين يكون عند سماع القرآن. وهذه المناسبة تذكرنا بدموع النجاشي ويطارقه الأحباش حين تلا عليهم جعفر آيات من القرآن.

- أن رسول الله ﷺ لم يفكر في إرسال أحد أصحابه مع هؤلاء الأشخاص، كما فعل في وقت لاحق حين أرسل مُصعباً مع من أسلموا من أهل المدينة، للتعريف بالإسلام، كما أنه ﷺ لم يفكر في الإشارة عليهم بالاتصال بجعفر وبالمسلمين الذين كانوا في الحبشة.

- أن النص لا يشير بكلمة إلى ما حدث بعد إسلام هؤلاء النصارى العشرين: هل بقوا مع الرسول ﷺ في مكة؟ هل هاجروا إلى بلد آخر؟ هل عادوا إلى بلدهم لهداية قومهم إلى الإسلام؟ ماذا كان رد فعل قومهم على هذه المحاولة؟ هل لامهم قومهم أو حبسهم أو اتهمهم بالخيانة العظمى وحكموا عليهم بالإعدام، أم تركوهم يدعون للإسلام؟

هـ) في القرآن آيات كثيرة لا يختلف معناها، في جوهرها، عن معنى آيات الاقتباس، وهذه أمثلة لهذه الآيات:

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٧]

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ [الرعد: ٢٦]

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

[الأنعام: ١١٤]

﴿ ١١٤ ﴾

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمُ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١٩٩)

[آل عمران: ١٩٩]

و) الاقتباس، فيما يبدو لى، يتحدث عن ظاهرة عامة. والقول بأن فيه إشارة محددة إلى النفر العشرين الذين أسلموا قول يُحْمَلُ الكلمات أكثر مما تحتمل.

ر) القرآن، بصفة عامة، حين يريد أن يتحدث عن النصارى، يسميهم بهذا الاسم، وحين يريد أن يتحدث عن اليهود والنصارى، يستخدم تعبير «أهل الكتاب». وفي الحالة التى نحن بصددھا استخدم القرآن هذا التعبير الأخير، وليس فى السياق ما يدل على أن المقصود هم النصارى بالذات. بل إن من الممكن القول إن القرآن حين يستخدم عبارة «أهل الكتاب» ويقصد بها إحدى الفئتين، فاليهود هم الذين ينصرف إليهم الذهن أولاً، وذلك لأنهم كانوا فى الجزيرة العربية أكثر عددا من النصارى، ثم لأن المرات التى ورد فيها فى القرآن ذكر موسى عليه السلام واليهود أكبر عددا بكثير من تلك التى ذكر فيها المسيح عيسى بن مريم والنصارى. يضاف إلى ذلك أن الاتصال بيهود الجزيرة العربية لم يكن يثير مشكلات لغوية كتلك التى كان يثيرها الاتصال بنصارى الحبشة.

النص :

كان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه: خباب، وعمار، وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرز، وصهيب وأشباههم من المسلمين، هزئت بهم قريش، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق! لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا، فأنزل الله تعالى فيهم:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)﴾

[الأنعام: ٥٢ - ٥٤]

ملحوظتان :

(أ) الآية رقم ٥٢ المقتبسة تتضمن نهيا للرسول ﷺ يتعلق، على الأرجح، بواقعة محددة، والآية ٥٤ تكمل هذه الآية. أما الآية ٥٣، فهي تشير إلى كلام يقوله الكفار عادة عن أولئك الذين يستجيبون لدعوة رسول من الرسل. والنص لا يقول شيئا عن الظروف التي أدت إلى

(*) المرجع السابق، ص ٣٩٢ ..

نزول الآية ٥٢ وهو يكتفى بتفسير جملة من الآية ٥٣ ويحولها إلى مادة تاريخية سابقة.

(ب) مما يستحق الذكر أن المنظر الذي يصفه تقديم هذا الاقتباس هو الوحيد الذي نرى فيه رسول الله ﷺ جالسا في المسجد بصحبة جماعة من المسلمين.

الاقتباس رقم ٣٤ (*)

النص:

كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني، يقال له جبر، عبد لبنى الحضرمي، فكانوا يقولون: والله ما يعلم محمدا كثيرا مما يأتي به إلا جبر النصراني، غلام بنى الحضرمي. فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ

أُعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]

ملحوظة:

يستعير النص واقعة ذكرتها الآية المقتبسة ويلصق بها اسما، هو اسم غلام نصراني. ومن الغريب أن تمثلى النصرانية الوحيديين في مكة وفي الطائف، طبقا للنص، من العبيد: جبر في مكة وعداس في الطائف، كما سنرى في الفصل التالي. وأنا شخصا لا أستبعد أن تكون جالية يهودية وجالية نصرانية قد عاشتا في مكة في عهد رسول الله ﷺ. وكان

(*) المرجع السابق، ص ٣٩٣ ..

من الطبيعي جدا، فى بلدة مثل مكة يعتمد اقتصادها إلى حد كبير على التجارة الخارجية مع بلدان كالشام والعراق واليمن تتحدث لغات مختلفة، أن يكون بين أهلها أجنب يمارسون أنشطة باعتبارهم وكلاء تجاريين أو مالين لشركات أو تجار مركزهم الرئيسى فى الخارج، كما كان من الطبيعي أن يكون فى البلدان المذكورة وكلاء من العرب يمثلون التجار أو الشركات المكية. كذلك فليس هناك ما يمنع أن يتكون جزء من الجالية اليهودية - المسيحية من كتاب ومحاسبين وصنّاع يدويين وأطباء وحائكين وفنانين وقوم يشتغلون بالإضحاك والتسلية، وأن يكون من بين هؤلاء كذلك بعض رجال الدين.

وكما كان عليه الصلاة والسلام رسولا لدين يعترف باليهودية والنصرانية، فمن المحتمل جدا أن يكون هو والمسلمون قد اتصلوا بأفراد هاتين الجاليتين وبرجال الدين منهما لتبادل العلاقات الودية أو ليدعوهم - هم أيضا - إلى الإسلام. ولا بد أن نقاط الاتفاق والخلاف بين الإسلام وهاتين الديانتين الابراهيميتين، وكذلك اعتراضات اليهود والنصارى على دين محمد، ظهرت فى المناقشات المستمرة التى كانت تدور فى مكة حول الإسلام. ويؤيد هذا الافتراض حقيقة أن جزءا من التنزيل القرآنى فى الفترة المكية يحتوى على ردود أو على تقارير تحدد موقف الإسلام بشأن الملحوظات التى أبداها أهل الكتاب أو نقاط الخلاف بين الإسلام وبين دينهم. وإذا كان النص لم يتحدث عن هاتين الجاليتين فقد يكون مرجع ذلك أنهما كانتا قد اختفتا تماما، منذ وقت طويل، فى الوقت الذى كتب فيه. ومن المحتمل إذن أن تتعلق الإشارة الواردة فى الآية المذكورة بأحد أفراد الجالية اليهودية النصرانية المقيمين بمكة لا، بالضرورة، بعبد نصرانى اسمه جبر.

النص :

كان العاص بن وائل السهّميّ إذا ذكر رسول الله ﷺ ، قال : دعوه ،
فإنما هو رجل أبتّر لا عقب له ، لو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه .
فأنزل الله في ذلك :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۖ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۚ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ
الْأَبْتَرُ ۝۳ ﴾ [الكوثر]

ملحوظة :

نزلت هذه السورة في الفترة المكية الأولى . وهي تثبت أن النزاع بين
قريش ومحمد ﷺ كان قد بدأ قبل الفترة الثالثة . وواضح أن النص ألف
مادة تاريخية بالاستناد إلى تفسير للاقتباس ، وأضاف اسماً لشخص .

النص :

دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم ، فقال له
زَمْعَةُ بن الأسود ، والنَّضْرُ بن الحارث ، والأسود بن عَبْدِ يَغُوث ، وأُبَيّ
ابن خَلَف ، والعاص بن وائل : لو جعل معك يا محمد مَلَكٌ يحدث
عنك الناس ويرى معك ! فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا

يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ
(٩) ﴿ [الأنعام: ٨ و ٩]

ملحوظات :

(أ) زَمْعَةُ بن الأسود هو ابن الأسود بن المطلب الوارد ذكره في الاقتباس رقم ٢٩ ، وقد قُتل في بدر وكان الذي قَتَلَهُ هو ثابت بن الجذع ، أحد الخزرج الذين حضروا بيعة العقبة الثانية (التي سيرد ذكرها في الفصل الخامس) أو هما ، طبقا لبعض المصادر ، على وحمزة .

(ب) الأسود بن عبد يَغُوث كان أحد سادة قريش وقد مات ، فيما يقول النص ، بإشارة من رسول الله ﷺ ، بمرض في بطنه .

(ج) التحدى الذى يشير إليه الاقتباس وجه إلى النبی ﷺ فى علة مناسبات وهذا ما يتضح من الآيتين التاليتين :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾
(١٢) ﴿ [هود: ١٢]

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ (٧) ﴿ [الفرقان: ٧]

وهاتان الآيتان سابقتان على الآية التى اقتبسها النص . وواضح أن النص ، انطلاقا من مجرد تفسير للاقتباس ، بنى هنا مادة تاريخية سابقة أضاف إليها أسماء عدة أشخاص .

النص:

مرّ رسولُ الله ﷺ بالوليد بن المغيرة، وأمّية بن خلف، وأبى جهل بن هشام، واستهزءوا به، فغاضه ذلك، فأنزل الله عليه في ذلك من أمرهم:

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (١٠)

[الأنعام: ١٠]

ملحوظة:

الآيات التي تتعلق بأولئك الذين كانوا يستهزئون بالنبي ﷺ أو بالرسول عموماً في القرآن كثيرة نذكر منها:

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (١١)

[الحجر: ١٠ و ١١]

وقوله تعالى:

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٣٠)

[يس: ٣٠]

وقوله تعالى:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٧)

[الزخرف: ٦ و ٧]

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا

[الأنبياء: ٤١]

بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾

وكل هذه الآيات جزء من سور سابقة على تلك التي وردت فيها الآية المقتبسة. وواضح أن كل ما فعله النص هو أن فسر الاقتباس ثم حوّله، مع إضافة بضعة أسماء، إلى مادة تاريخية سابقة.

الاقتباس رقم ٣٨ (*)

النص:

أقام رسول الله ﷺ على أمر الله تعالى صابرا محتسبا، مؤديا إلى قومه النصيحة على ما يلقي منهم من التكذيب والأذى والاستهزاء. وكان عظماء المستهزين خمسة نفر من قومهم، وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم:

- الأسود بن المطلب.

- الأسود بن عبد يغوث.

- الوليد بن المغيرة.

- العاص بن وائل.

- الحارث بن الطلائة

فلما تبادوا فى الشر، وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله

تعالى عليه:

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٤٠٨، ٤٠٩.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ
الْمُسْتَهِزِّينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

[الحجر : ٩٤ - ٩٦]

ملحوظتان :

تقديم هذا الاقتباس يشير الملحوظات الآتية :

(أ) ليس هناك صلة بين التقديم والآيات المقتبسة. أولاً : لأن الاقتباس يقول : «إنا كفيناك المستهزئين» ، ولا يقول : «سَنُمَكِّنُكَ مِنَ الانتقام من المستهزئين أو من معاقبتهم». وثانياً : لأنه كان هناك ، فيما يقول تقديم الاقتباس ، أشخاص آخرون استهزءوا برسول الله ﷺ غير أولئك الذين ذكر النص أسماءهم.

(ب) الآيات موضوع هذا الاقتباس سبق أن قال النص في شأنها إنها كانت النقطة التي بدأت عندها الفترة الثانية التي بادی رسول الله ﷺ عليها قومه بدعوته بعد فترة الاستخفاء. وهذا الاقتباس ، الذي يستفاد منه أن كثيرين من قريش كانوا يَسْتَهْزِئُونَ برسول الله ﷺ ، يكذب إذن ما يقوله النص من أن قومه لم يبعدوا عنه ولم يردوا عليه خلال هذه الفترة.

الاقتباس رقم ٣٩ (*)

النص :

لما حضرت الوليد بن المغيرة الوفاة دعا بنيهِ وكانوا ثلاثة : هشام بن الوليد ، والوليد بن الوليد ، وخالد بن الوليد ، وأوصاهم بثلاث ، منها ألا

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٤١٠ ، ٤١١ .

يدعوا رباہ فی ثقیف حتی يأخذوه . ولما أسلم أهل الطائف كلم خالد بن الوليد رسول الله ﷺ في ربا أبيه فنزلت الآيات التالية من تحريم ما بقي من الربا بأيدي الناس:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
[البقرة: ٢٧٨]

ملحوظات:

(أ) أول ما نزل عن الربا في القرآن هو آية ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُو فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ﴾ (٣٩)
[الروم: ٣٩]

وسورة الروم التي نزلت فيها هذه الآية سورة مكية، ولا شك أن هذا النهي عن الربا أضاف سببا جديدا إلى الأسباب التي أوغرت صدور أصحاب المال والتجارة في مكة على الاسلام ونبيه ﷺ .

(ب) السورة التي تضمنت الآية المقتبسة نزلت في بداية الفترة المدنية، قبل إسلام ثقيف بوقت طويل .

(ج) كون الآية المقتبسة نزلت في المدينة يستفاد منه أن النهي عن الربا كان يتجه أولا إلى أهل هذه البلدة الذين كانوا يتعاملون بالربا والذين دخلوا في الإسلام، لا إلى ربا الوليد بن المغيرة .

(د) الوليد بن المغيرة لم يكن رجل المال المكي الوحيد الذي يمارس الربا . وقد أعلن رسول الله ﷺ في خطبته في حجة الوداع أن كل ربا موضوع، وخص بالذكر ربا العباس في قوله: «وأن ربا عباس بن عبدالمطلب موضوع كله» .

هـ) واضح أن النص قد بنى هنا مادة تاريخية سابقة على تفسير
خاطيء للاقتباس (١).

الاقتباس رقم ٤٠ (٢)

النص :

وانزل الله تعالى في الأشراف الذين مشوا إلى أبي طالب في مرضه
الآخر ليأخذ لهم على ابن أخيه وليعطه منهم ، وهم عتبة بن ربيعة ،
وشية بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبو سفيان بن
حرب ، في رجال من أشrafهم ، والذين قال لهم رسول الله ﷺ ما قال
وردوا عليه ما ردوا :

﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ٢ ﴾
كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ ٣ وَعَجَبُوا أَنْ
جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ٤ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا
وَاحِدًا إِنْ هَذَا إِلَّا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ٥ ﴾

يعنون النصارى لقولهم : « إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ »

﴿ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
يُرَادُ ٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ٧ ﴾

[ص : ١ - ٧]

ملحوظات :

أ) السورة التي ورد فيها هذا الاقتباس تقع في منتصف المسافة تقريبا
بين بداية الفترة المكية ونهايتها ، أي قبل موت أبي طالب بزهاء ثلاث

(١) السيرة ، القسم الأول ، ص ٦٠٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٨ .

سنوات. لذلك فإن هذه الآيات ما كان يمكن أن تكون قد نزلت في الظروف التي يصفها التقديم.

ب) الموضوعات التي طرقتها الآيات المقتبسة، أى إنكار وحدانية الله وعجب الكفار لإرسال مُنذِرٍ منهم، ووصفهم محمداً ﷺ بأنه ساحر كذاب، ونصحهم لقومهم بالتمسك بآلهتهم، كما أوضحت في الفصل الثانى من هذه الدراسة، موضوعات تناولها القرآن منذ بداية المبعث وكررها في أشكال مختلفة في معظم السور اللاحقة.

ج) نحن هنا فى الواقع بصدد تفسير خاطيء للآيات جعل منه النص خبراً تاريخياً سابقاً.

باء. النتيجة

أكثر ما يستلفت النظر فى اختيار الاقتباسات القرآنية المتعلقة بهذه الفترة الثالثة:

- أن من بين الاقتباسات الأربعين التى أوردها النص - وهى اقتباسات تعطى، للوهلة الأولى، لضخامة عددها، انطباعاً بأن النص يخصص مكاناً كافياً للكتاب الذى تستند إليه الرسالة الحمديّة كلها - ستة وثلاثون اقتباساً «أى ٩٠٪» تتعلق بكلام قاله قرشيون، إما إلى الرسول ﷺ، أو بشأنه، أو بشأن القرآن.

- أن ثلاثة من الاقتباسات الأربعة التى تتعلق لا بكلام قيل وإنما بوقائع، أى الاقتباس رقم ٢: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝﴾ والاقتباس رقم ١٤ الخاص بآية ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝﴾ والاقتباس رقم ٣١: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝﴾ لا تتعلق إلا بوقائع ثانوية فى حياة رسول الله

ﷺ في مكة. أما رابع هذه الاقتباسات، أي الاقتباس رقم ٣٢ بشأن النصاري العشرين، فإن الشرح المتعلق به لا يشغل، رغم أهمية الموضوع، سوى بضعة سطور، وهو يشير شكوكا جدية.

- في جميع الحالات تقريبا، يقتصر العنصر «التاريخي» على تقديم لا ينطوي إلا على شرح للظروف التي نزل فيها الاقتباس أو لذكر أسماء لأشخاص. أما الأثر الذي أحدثه نزول الآيات موضوع الاقتباس على الأشخاص الذين ذكرت أسماءهم أو على العرب في مجموعهم - المفروض أنه التكملة الطبيعية للحديث - فإن النص لا يتحدث عنه إطلاقا.

وهذه الاقتباسات تثير في الواقع سؤالين أساسيين:

(أ) هل كان لدى مؤلف النص ابن إسحاق، أو لدى الأشخاص الذين يشكلون سلسلة الرواة الذين استخدمهم كمصدر لمعلوماته، مادة حقيقية تتعلق بالظروف التي نزلت فيها الفقرات المقتبسة، أم أنهم اعتمدوا، دون أن يعترفوا بذلك، على مادة مستمدة من القرآن كسوها بعناصر مصطنعة من عندياتهم عملوا على إخفائها؟

(ب) حين يذكر المؤلف أسماء في صدد تنزيل قرآني، هل استند في ذلك إلى معلومات صحيحة بروح موضوعية، أم أنه استخدم آيات هذا التزويل كوسيلة للانتقام الشخصي أو - مثلا - لتصوير آباء وأجداد الأشخاص الذين كانوا، وقت كتابة السيرة، أعداء لمؤلفها أو لمسلمي المدينة أو للخلفاء العباسيين الحاكمين بصورة يظهر فيها كأعداء لرسول الله ﷺ وللإسلام؟

سأحاول، بتجميع نتائج تحليل الاقتباسات الأربعين المذكورة، الإجابة عن هذين السؤالين. على أن في إمكانني من الآن أن أقرر:

١- أنه من الصعب تصور أن يستطيع أحد، بعد مرور أكثر من قرن من الزمان، ودون نص مكتوب، أن يعرف وأن يسجل بأمانة الظروف التي قال فيها هذا السيد أو ذاك من سادة قريش هذا القول أو ذاك عن الرسول، أو عن القرآن.

٢- إذا كانت الذاكرة الجماعية قد قصرت عن تزويد مؤلفي النص - ابن إسحاق وابن هشام وسلسلة الرواة- بقدر أوفى من المعلومات عن الأحداث الكبرى التي وقعت خلال الفترة المكية - أي الضجة التي أحدثتها دعوة الرسول ﷺ في المجتمع المكي، والمحادثات، واضطهاد المسلمين، والمقاطعة، والهجرة (أو النفي) إلى الحبشة وغيرها، إلخ - فإن الاحتمال ضعيف في أن يكون في مقدور هذه الذاكرة أن تقدم مادة محددة بشأن مسائل تفصيلية كالشروح التي أدلى بها النص في تقديم الاقتباسات المذكورة.

٣- مشاعر الانحياز التي كانت سائدة وقت كتابة «السيرة» - أي الانحياز لقبيلة الخليفة العباسي، ولمسلمي مكة (الأنصار)، والانحياز ضد «مغتصبى» الخلافة، لا سيما قبيلة الخلفاء الأمويين والقبائل التي تعاون أفرادها معها - لابد أنها كانت من القوة بحيث أثرت على نفوس أولئك الذين استمدت منهم المادة التي استخدمت في كتابة النص.

جيم. التجميع

دراسة ما ورد في النص من تقديم وشروح بشأن الاقتباسات القرآنية الأربعين التي علقت عليها آنفا تثير الملحوظات العامة التالية:

أ) حقيقة أن تسعة من هذه الاقتباسات هي الاقتباسات: الأول، والثاني، والحادي عشر، والثالث عشر، والسادس عشر، والسابع عشر،

والثامن عشر، والواحد والثلاثون، والخامس والثلاثون، التى تصور موقفا عدائيا من جانب الشخصيات التى ذكرها التقديم حيال الرسول أو القرآن، نزلت فى الفترة المكية الأولى، تنقض من أساسها دعوى النص القائلة بأن ثلاث السنوات الأولى، من بعثة الرسول ﷺ كانت سنوات استخفاء خلت من كل نزاع بينه وبين خصوم دعوته، وبأن فترة أخرى تلتها اتسمت بتسامح من جانب قريش حيال رسول الله ﷺ .

ب) الشروح الواردة فى تقديم الاقتباسات لا تضيف فى مجملها شيئا، أو - إن أضافت - فإنما تضيف شيئا قليلا للغاية، إلى معنى هذه الاقتباسات الظاهر. وهى فى حالات كثيرة لا تعدو أن تكون نقلا كليا أو جزئيا للآيات. ومن الصعب فى بعض الحالات، من جهة أخرى، الربط بين التقديم وبين الاقتباس المتعلق به. والتقديم، فى الأغلب، لا يعدو سطرا أو اثنين. وكل هذه دلالات تترك لدى القارئ شعورا بأن الأخبار التى يسوقها النص لا تستند إلى معرفة تاريخية حقيقية، وأنها ليست إلا تفسيراً، يجانبه الصواب أحيانا، يخفيه النص بكسوته ببعض التفاصيل المتحلة وفقا للظروف.

ج) فى سبع وعشرين حالة، تتضمن الشروح أسماء شخص أو أشخاص من المشركين كلهم، مع استثناءات قليلة، من قريش، وهذه الأسماء هى أسماء ثمانية عشر شخصا ذكر كثير منهم بصدد أكثر من اقتباس. وغنى عن البيان أن الحقيقة فيما يتعلق بهؤلاء الأشخاص تتوقف على قدر المصادقية الذى يجب إيلاؤه للأخبار التى ذكرت أسماءهم فيها. وبعبارة أخرى فإن هذه الأخبار إن كانت تاريخيا حقيقيا لكان للأسماء التى وردت فيها قيمة، وإلا لكانت هذه الأسماء مجرد حيل مصطنعة استخدمها النص لتمريره الأخبار المختلفة التى يرونها حتى تبدو صحيحة.

ولكن، ألا تحتوى هذه الأسماء ذاتها على دلائل تسمح بالحكم على صحة الأخبار المذكورة؟ قد يكون من المفيد، للإجابة عن هذا السؤال، أن نعرف كم من المرات ترددت هذه الأسماء فى شرح الاقتباسات، وأن تكون لدينا صورة شاملة للأسماء التى ذكرت فى التقديم والشروح. وفيما يلى قائمة تضم هذين البيانين.

الاقتباسات القرآنية

الاسم	عدد للمرات	المصير
الوليد بن المغيرة بن عبد الله ابن عمرو بن مَخَزُوم	٨	أحد المستهزئين. مات من جرح قديم بأسفل كعب رجله انتفض به بعد أن أشار الرسول ﷺ إليه وهو يطوف بالكعبة. وهو أبو خالد ابن الوليد.
أبوجهل بن هشام ابن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم	٧	خال عمر، من قبيلة مَخَزُوم، وابن أخ الوليد ابن المغيرة، قُتل في بدر بيد أحد المهاجرين، وقيل إن الذي قتله اثنان من الخزرج.
العاص بن وائل	٥	أحد المستهزئين. أشار الرسول ﷺ إلى أخمص رجله وهو يطوف بالكعبة فدخلت في أخمص رجله شوكة فقتله، وهو أبو عمرو بن العاص.
النَّضْر بن الحارث	٤	قُتل من جرح أصابه به علي بن أبي طالب في بدر.
أُمَيَّة بن خَلَف	٤	قتله واحد أو ثلاثة من الأنصار في بدر.
أَبِي بن خَلَف	٣	مات بجرح أصابه به الرسول ﷺ في أحد.
عُبَّة بن ربيعة	٢	قتله أحد المهاجرين وحده أو مع حمزة وعلي في بدر. يسمى إلى بني عبد شمس قبيلة بني أمية.
عُقبة بن أبي معيط	٢	قُتل في بدر بيد واحد من الأوس أو بيد علي.
الأسود بن المطلب	٢	أحد المستهزئين. مر بالرسول ﷺ وهو يطوف بالكعبة. فرمى الرسول في وجهه بورقة خضراء فعمى.

تابع، الاقتباسات القرآنية

الاسم	عدد للمرات	المصير
الأسود بن عبد يغوث	٢	أحد المستهزئين. مرّ بالرسول ﷺ وهو يطوف بالبيت فأشار إلى بطنه فاستقى بطنه فمات منه جناً.
عبدالله بن أبي أمية	١	ابن عمّة الرسول ﷺ. أسلم ومات في الطائف عندما حاصرها الرسول ﷺ.
عبدالله بن الزبير	١	شاعر. أسلم بعد فتح مكة.
الأخنس بن شريق	١	ليس من قريش، بل من سادة ثقيف.
زمنة بن الأسود	١	ابن الأسود بن المطلب. قُتل في بدر بيد أحد الأنصار وحده أو يدي علي وحزمة.
الحارث بن الطلائع	١	أحد المستهزئين. مرّ بالرسول ﷺ وهو يطوف بالكعبة فأشار إلى رأسه فامتدح قبحاً فقتله.
شيبه بن ربيعة	١	قتله حمزة في بدر. ينتمي إلى بني عبد شمس قبيلة بني أمية.
أبوسفيان بن حرب	١	أبو معاوية مؤسس الخلافة الأموية. أسلم عند فتح مكة.
أبولهب		عم الرسول ﷺ. نزلت فيه وفي امرأته سورة المد التي تعدّهما بنار ذات لهب.

- ويتضح من هذه القائمة ما يأتي :

١- أن الشخص الذي ورد اسمه في أكبر عدد من الاقتباسات باعتباره عدوا للرسول ﷺ ، والذي تسببت أقواله أو مواقفه في نزول أكبر عدد من الآيات القرآنية ، والذي مات إثر إشارة أشارها الرسول ﷺ إلى قدمه ، هو الوليد بن المغيرة ، أبو خالد بن الوليد الذي أسر جند مؤلف السيرة وتسبب في بيعه كرقيق في المدينة .

٢- اسم أبي لهب ، الشخص الوحيد الذي حكم عليه القرآن بالنار ، لا يظهر إلا في تقديم اقتباس واحد ، والتقديم يخفف من وقر جريمته إلى أقصى حد .

٣- ما من رجل آخر (أو امرأة) من بنى عبدالمطلب أو بنى هاشم ، قبيلة النبي ﷺ يظهر اسمه في هذه القائمة .

٢- عبدالله بن أبي أمية ، ابن عمه الرسول ﷺ ، لا يظهر إلا في حالة واحدة . وهو كذلك واحد من ثلاثة أشخاص ، بين الثمانية عشرة الذين وردت أسماؤهم في تقديم الاقتباسات ، لم يُقتلوا في حرب مكة ضد الرسول ﷺ ، وأسلموا في مرحلة لاحقة .

٥- من بين الرجال السبعة الذين قتلوا ، واحد مات بجرح أصابه به الرسول ﷺ في أحد . أما الستة الباقون فقد قتل أكثرهم إما بيد علي ، أو بيد حمزة ، أو بيد الأنصار .

٦- القرشي الذي يحتل المكان الثالث في ترتيب الأسماء في القائمة والذي مات - شأنه في ذلك شأن الوليد بن المغيرة - نتيجة لإشارة من يد الرسول ﷺ ، هو العاص بن وائل ، أبو عمرو بن العاص الذي كان من أهم أعوان معاوية والذي كان بهذه الصفة موضع كراهية العباسيين وأصدقائهم :

٧- إذا فرضنا جدلاً أن من الممكن إنشاء علاقة بين قول إلهى وكلام قاله شخص معين وأن من الممكن، بعد مرور أكثر من قرن من الزمان، القول بأن شخصاً ما أو مجموعة من الأشخاص قالوا كلاماً معيناً، فمن المؤكد أن الكفار فى مكة، الذين لا بد قد تسببوا بكلامهم أو بمواقفهم فى نزول فقرات من القرآن، كانوا يُحصَوْنَ بالعشرات إن لم يكن بالمئات، وأنهم لم يكونوا ينتمون إلى الطبقة الحاكمة وحدها بل كانوا ينتمون إلى طبقات المجتمع المكى الأخرى. والأشخاص الثمانية عشر الذين ذكر النص أسماءهم لم يكونوا يمثلون من ثم إلا نسبة ضئيلة من معارضى محمد ﷺ الذين نزلت فى حقهم آيات من القرآن.

٨- ثمانية من الأشخاص الذين ذكرت أسماءهم بصدده هذه الاقتباسات لقوا حتفهم فى بدر، إما بيد على، أو بيد حمزة، أو بيد نفر من الأنصار، واثنان منهم فقط قتلهم مهاجرون (مع بعض التحفظات فى النص). لذلك كان من السهل جدا استخدامهم وعرضهم فى شرح الاقتباسات على أنهم أعداء للرسول ﷺ.

٩- الوليد بن المغيرة، الذى يتصدر القائمة، يبدو كعدو شخصى لمؤلف السيرة. والنص، الذى سبق أن مرَّغَه فى التراب بإظهار أنه مات بإشارة من يد الرسول ﷺ فى حضور جبريل، وبقصص ثأره المعيبة، يصوره فى أحد الاقتباسات بصورة المرابى.

١٠- أبوجهل، الذى يحتل المرتبة الثانية فى القائمة هو، فيما يستفاد من اسمه، ابن أخ الوليد بن المغيرة. وهو يُصور على أنه واحد من أعدى أعداء الرسول ﷺ.

١١- العاص بن وائل، الذى يأتى فى المرتبة الثالثة فى القائمة كان، كما ذكرنا، أبا عمرو بن العاص، من كبار أعوان الأمويين. وقد حطَّ

النص فى اقتباساته من قدره بالصورة ذاتها التى حط بها من قدر الوليد ابن المغيرة فى قصة موته .

ومن الصعب ، إزاء كل هذه الشواهد، الاطمئنان إلى صدق الأخبار التى وردت فى تقديم الاقتباسات المذكورة. ويعنّ للمرء هنا سؤال: هل استحق رجال آخرون ممن وردت أسماؤهم فى القائمة أن يُشهر بهم وتُسوّد صحيفتهم لأن أبناءهم أو أحفادهم كانوا من أعوان بنى أمية، وأعداء للعباسيين أو لمسلمى المدينة، بذكر أسمائهم فى معرض شرح أسباب نزول بعض آيات القرآن التى تدين الكفار؟ هذه مسألة تستحق التمحيص، لكن حلها يحتاج إلى بحوث فى الفترة الأموية تتجاوز إطار الدراسة الراهنة.

ويلاحظ أخيرا أن جميع الأشخاص الذين ذكرت أسماؤهم فى تقديم الاقتباسات الأربعين تضمنها حديث الفترة الثالثة، وهذا دليل على أن اختيارهم خضع للاعتبارات ذاتها وسيطرت عليه المؤثرات ذاتها التى هيمنت على توجهات حديث الفترة. ولا يملك المرء، فى نهاية المطاف، إلا أن يستنتج أن آيات القرآن المتعلقة بهذه الفترة - شأنها شأن الشعر - كانت موضع تلاعب، وأن القرآن سُخر لخدمة الدعاوى التى أيدها النص والمواقف التى اتخذها.

القرآن الذى لم يقتبس

قد لا يخلو من الفائدة، فى ختام هذا الفصل المخصص للفترتين الثانية والثالثة، قول كلمة عن القرآن الذى أنزل خلالهما وأن نقارن الصورة التى يعكسها بتلك التى تستخلص من مجموع العناصر - السرد، والشعر ، وتقديم الاقتباسات القرآنية - التى تشكل الجزء المقابل من النص .

إن السور من ٥٠ إلى ٧٧ فى ترتيب بلاشير تغطى تقريبا هاتين الفترتين، وهذه السور هى على الترتيب سور: الذاريات، والقمر، والقلم، والصفاء، ونوح، والدخان، وق، وطه، الشعراء، والحجر، ومريم، وصاد، ويس، والزخرف، والجن، والملك، والمؤمنون، والأنبياء، والفرقان، والنمل، والكهف، والسجدة، وفصلت، والجاثية، والإسراء، والنحل، والروم، وهود. ومن استعراض مادة هذه السور يتضح أنها تعالج جميع الموضوعات التى سبق أن عالجتها سور الفترة الأولى ولكن مع تعميقها وإثرائها وإلقاء أضواء جديدة عليها. على أن بعض هذه الموضوعات حظى بزيادات أكثر من غيرها. ومن هذه الموضوعات ثلاثة تستحق الوقوف عندها هى:

الف. أصل الإنسان والدين

- خلق الله الإنسان، وسجد الملائكة بأمره لآدم إلا إبليس أبى، وقال الله إن إبليس عدو لآدم ولزوجه، وعهد الله إلى آدم، ووسوس الشيطان لآدم، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ومُلْك لا يَبْلَى؛ وأكل آدم وزوجه من الشجرة فبدت لهما سوءاتهما. ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، لكنه قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو، فإما يأتينكم منى هدى فَمَنْ تَبِعْ هَدَاى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

وأرسل الله أنبياءه لذرية آدم هدى ورحمة. وقصص الأنبياء التى وردت فى القرآن بشيء من التفصيل هى قصص نوح، وإبراهيم، ولوط، وموسى، وداود، وسليمان، وهود، وشعيب، وصالح، وعيسى بن مريم.

١- نوح :

قال نوح لقومه إنه لهم نذير مبين، ونصحهم بأن يعبدوا الله ويتقوه
ويطيعوه، فكذبوه وقالوا افتراه، وإنه رجل به جنه، وتحدوه أن يأتيهم بما
يعدهم، وهدده قومه برجمه . ودعا نوح ربه إني مغلوب فانتصر . وفتح
الله أبواب السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيونا وحمل نوحا في
الفلك . وطمغى الماء فغرق قوم نوح وابنه .

٢- إبراهيم :

قال لقومه «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ؟» وهدده
أبوه برجمه . وكان قوم إبراهيم يعبدون أصناما يَظْلُونَ لها عاكفين، ولما
سألهم إبراهيم عن ذلك قالوا إنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون . وبعد
أن أدار قومه له ظهورهم جعل إبراهيم أصنامهم جُذَاذًا . قالوا احرقوه
وانصروا آلهمكم، لكن الله قال للنار يا نار كُونِي بردا وسلاما على
إبراهيم، ووهب الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب .

٣- لوط :

كان قوم لوط يأتون الذُكران وَيَذْرُونَ ما خلق لهم ربهم من أرواحهم .
هم قومهم بإخراجه . وجاءت رسل الله لوطا وقالوا له أن يسرى بأهله
بقطع من الليل . وراوده قومه عن ضيفه فطمس الله أعينهم، فأخذتهم
الصيحة فأرسل الله عليهم حاصبا ثم دمرهم، ونَجَّى لوطا وأهله
أجمعين إلا عجوزا في الغابرين .

٤- موسى :

رأى نارا على جبل في سيناء، فلما أتاها نودى يا موسى إني أنا الله
لا إله إلا أنا فأعبدني وأقم الصلاة لذكري . وأرسل الله موسى وأخاه

هارون إلى فرعون فقالا له إنهما رسولا ربه إليه وطلبا منه أن يرسل معهما بنى إسرائيل وألا يعذبهم. وذكر فرعون موسى بأنه رباه وليدا، واتهمه بالجنود. وأراه موسى آيات ربه فكذبه واتهمه بالسحر وجاء بسحرته. وألقى السحرة حبالهم وعصيهم، وخيل لموسى أنها من سحرهم تسعى. وأوحى له ربه فترع يده فإذا هي بيضاء للناظرين. وألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون. وخر السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى. وأخبرهم فرعون بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأنه سيصلبهم في جذوع النخل، وهدد بسجن موسى إذا اختار إلها غيره. وأوحى الله إلى موسى أن يسرى بنى إسرائيل، وأن يضرب لهم طريقا في البحر يبسا، وألا يخاف أن يدركوه. واتبعهم فرعون وجنوده إلى الشرق. وأوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم. وأنجى الله موسى ومن معه أجمعين ثم أغرق الآخرين.

٥- داود وسليمان :

سخر الله الجبال مع داود والطير محشورة كل له أوأب. ووهب لداود سليمان. وسخر الله له الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي بارك الله فيها. ومن الشياطين من يغوصون لسليمان ويعملون عملا دون ذلك. وعلم الله سليمان منطق الطير، وآتاه من كل شيء، وحشر له جنوده من الجن والإنس والطير. وأخبر الهدد سليمان أن سبأ تملكهم امرأة، وأنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله. وجيء لسليمان ببناء على طلبه بعرش الملكة. وجاءت هذه لسليمان، ولما رأت عرشها أمامها أسلمت مع سليمان لرب العالمين.

٦- هُود :

قال هذا النبی لقومه عاد أن اعبدوا الله فقالوا له ما نحن بتارکی آلهتنا
واتبعوا أمر کل جبار عنید، وكذبوه فأرسل الله علیهم ریحا صرصرا تنزع
الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر، ونَجَّى هودا والذین آمنوا معه.

٧- شُعَیْب :

قال هذا النبی لأهل مَدَیْنٍ أن اعبدوا الله ما لكم من إله غیره.
وأوفوا الکیل ولا تكونوا من المخرسین وزنوا بالقسطاس المستقیم ولا
تبخسوا الناس أشياءهم. قالوا یا شُعَیْب أصلاتك تأمرک أن نترك ما یعبد
آبائنا أو أن نفعل فی أموالنا ما نشاء. وقالوا له إنه من المسحرین وأنهم
یظنونہ من الکذابین. ولما جاء أمر الله نَجَّى الله شُعَیْبا والذین آمنوا معه
وأخذت الذین ظلموا الصیحة فأصبحوا فی دیارهم جائمین.

٨- صالح :

قال هذا النبی لثمود أن اعبدوا الله ما لكم من إله غیره، فاستغفروه
ثم توبوا إلیه ، فقالوا ساحر وكذاب أشر، وطلبوا منه أن یأتیهم بآية إن
كان من الصادقین. قال هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فی الأرض
ولا تمسوها بسوء ففعلوها. فلما جاء أمر الله نَجَّى صالحا والذین آمنوا
معه وأخذ الذین ظلموا الصیحة فأصبحوا فی دیارهم جائمین.

٩- المسيح عیسی بن مریم :

أرسل الله روحه إلی مریم العذراء فتمثل لها بشرا سويا وقال إنه
رسول ربها لیهب لها غلاما زکيا. فحملته فانتبذت بها مکانا قصیا.
فأجاءها المخاض قالت یالیتنی مت قبل هذا وكنت نسیا منسیا. وقال لها
ابنها حین ولدته إني عبد الله أتانی الکتاب وجعلنی نبیا وجعلنی مبارکا.

باء. الأوامر والنواهي

١- الأوامر:

قال تعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ ، ﴿وَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ .

٢- النواهي:

قال تعالى:

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ ، ﴿لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ ، ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَا﴾ ، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ، وتحريم الربا ، ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ، ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ .

جيم. الكفار وأغنياؤهم

يسجل القرآن في الفترة الثالثة، أكثر بكثير مما سجله في الفترة الأولى، اعتراضات الكفار على رسالة محمد ﷺ ويرد عليها. وتنصب هذه الاعتراضات أساساً على وحدانية الله وعلى القيامة، كما تنصب على نبوة رسول الله ﷺ ، وعلى القرآن.

وقد جاءت في قرآن الفترة هذه الآية:

﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (٨٨) [الإسراء: ٨٨]

كما جاء فيه، فيما يتعلق بالأغنياء:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٢٤]

ثانياً :

هذا الاستعراض لآيات القرآن يطلعنا على جوهر الرسالة التي حملها محمد ﷺ خلال الفترة الثالثة. وهو في الوقت ذاته يعطينا، في خطوط عريضة، صورة لما كانت عليه حياة الرسول ﷺ والمجتمع المكي والعربي الذي كان يدعو فيه إلى دينه. وهو يسمح أخيراً بمقارنة هذه الصورة بتلك التي تستخلص من نص ابن إسحاق. وفيما يلي بعض النقاط التي تتضح من هذه المقارنة:

١- كل الاهتمام يتركز، في جزء النص المتعلق بالفترة الثالثة، في المسألة التي أراد المؤلف أن يستخدمها كحجة أساسية، أو ما يسمونه في الغرب بفرض المعركة، لإثبات مشروعية استيلاء العباسيين على السلطة، أي التكافل القبلي لبني عبدالمطلب وبني هاشم وراء رسول الله ﷺ. وقد سبق أن تعرضت للأسباب التي تحمل على الشك في صحة هذه الحماية من الناحية التاريخية. وسنرى، من جهة أخرى، فيما بعد، أن القرآن لا يتحدث عن هذه الحماية، وأن محمداً ﷺ لم يكن محتاجاً إليها، بل وأنه كان محظوراً عليه أن يلجأ إليها. والشيء الذي تعينني

إضافته هنا هو أن القرآن الذى نزل خلال هذه الفترة قد واصل دأبه، الذى بدأ مع بداية البعثة المحمدية ، فى تحطيم حواجز القبيلة التى كان العرب يعيشون منغلقيين فى داخلها، والاستعاضة عن أخوة القبيلة بمبدأ الأخوة فى الدين. والآيات العديدة المتعلقة بالله والإنسان والكون، وتلك التى تتعلق بأصل الإنسان والدين، كانت ترمى أولاً وقبل كل شىء إلى انتزاع الرجل من قبيلته وإلحاقه بخالقه وبالعالم السماوى وبعهد الله إلى آدم وبسلسلة الأنبياء والرسل الذين أرسلهم إلى بنى آدم، أى إليه هو، الشخص المقيم فى مكة أو فى مكان آخر من الجزيرة ، لهدايته، وإلى إبلاغه بالأوامر والنواهي الربانية. ومتى دخل المرء فى هذا العالم، فإنه كان يولى ظهره لعالم القبيلة، وهذا هو ما حدث لمحمد ﷺ وللمسلمين، وهذا هو العامل الذى جعل السلطة المكية تناصبهم وتناصب رسولهم العداء.

٢- المنظور القبلى الذى رسم المؤلف الفترة منه جره إلى أن تقديم الشخصيات الأساسية للفترة على أنهم، من جهة ، بنو عبدالمطلب وبنو هاشم، ومن جهة أخرى سادة قبائل قريش الذين كانوا يطالبون بتسليم محمد ﷺ إليهم. أما فى القرآن فالشخصيات الأساسية كانت الأنبياء الذين أرسلهم الله للناس، وخاتمهم رسول الله ﷺ والمؤمنين، من جهة، والكفار من جهة أخرى.

٣- الشخصية المهيمنة للفترة، فى النص، أى أبوطالب، لم يرد لها ذكر فى القرآن. وهذا الكتاب ، كما هو طبعى، لا يتحدث إلا عن رسول الله ﷺ، وعن سبقه من الأنبياء، وعن موسى وبنى إسرائيل وقصتهم مع فرعون بصفة خاصة.

٤- لأن محمدا ﷺ، فى النص، محمى من قبيلته، فقبيلته تستحوذ

عليه استحوذا كاملا . إنه فى النص أشبه برهينة فى أيدي بنى هاشم . أما فى القرآن فإن محمدا ﷺ ليس رهينة لأحد . إنه واحد من الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى لهداية قومه والجنس البشرى إلى الصراط المستقيم . وصلاته المتميزة هى الصلوات التى كانت تربطه بأولئك الذين اتبعوه سواء انتموا أو لم يتموا إلى قبيلته . ومن المناسب أن نذكر هنا بآية وردت فى سورة متأخرة من سور الفترة المدنية تلخص خير تلخيص فلسفة القرآن فيما يتعلق بانتماء المسلمين ، وهى الآية التى يقول الله تعالى فيها :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٤)

[التوبة : ٢٤]

لا غرابة إذن فى أن يكون صحابة رسول الله ﷺ أقرب إلى قلبه من أفراد قبيلته الذين لم يتبعوا دينه .

٥ - شعر الفترة يكيل الشاء لبنى عبدالمطلب وبنى هاشم وبنى عبد مناف . والحاصل أن كل هؤلاء ، باستثناء من آمنوا منهم فيما بعد ، يدخلهم القرآن فى عداد الكفار الذين يتوعدهم الله بعقابه .

٦ - على الرغم من أن قرآن الفترة لم يرد فيه إلا إشارات قليلة إلى الاضطهاد الذى كان المسلمون يتلقونه بأيدي قريش ، وهو الاضطهاد الذى لم يخصص النص لوصفه سوى سطور معدودة ، إلا أن من المسموح به أن يرى المرء فى كثرة ترديد القرآن لقصة موسى وبنى إسرائيل إشارة غير مباشرة إلى هذا الاضطهاد . والتوازي بين موسى ومحمد عليهما السلام فى هذا الصدد أمر له مغزى . ذلك أنه إذا كان

جميع الأنبياء السابقين الذين ذُكروا في القرآن قد دعوا إلى عبادة إله واحد، وإذا كانوا قد جاءوا أحياناً، إلى جانب ذلك، بأوامر ونواه مختلفة، فإن موسى كان الوحيد بينهم الذي كان لرسالته هدف إضافي، هو تحرير شعب مستعبد. وإذا كان تجبر فرعون، ورفضه الإيمان بآيات الله التي جاءه بها موسى، وشجاعة سحرته الذين آمنوا برب موسى، وسوء العذاب الذي كان يسومه فرعون لبني إسرائيل، قد وردت عشرات المرات في القرآن، فمن البديهي أن هذه كانت إنذاراً موجهًا إلى أعداء محمد ﷺ والمسلمين، وشدا لأزر نبيه ومن اتبعه، ووعداً غير مباشر بأن الله سينصرهم آخر الأمر على عدوهم كما نصر موسى على فرعون وقومه.

الفصل الخامس

الفترتان الرابعة والخامسة

سأتناول في هذا الفصل الفترة الرابعة، التي تمتد من موت أبى طالب إلى اللقاء الأول لرسول الله ﷺ في العقبة مع أول مجموعة من أهل المدينة، والفترة الخامسة، التي تمتد من هذا اللقاء إلى آخر الفترة المكية

الفرع الأول. الفترة الرابعة

ألف. النص

لما هلك أبوطالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبى طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فثر على رأسه ترابا أزالته إحدى بناته ﷺ وهى تبكى.

وخرج الرسول ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، وعمد إلى إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عُمير، ومسعود، وحبيب ابنا عمرو ابن عُمير، وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وعند أحدهم امرأة من قريش. لكنه لم يلق منهم سوى الازدراء والسخرية، فقام رسول الله ﷺ من عندهم يائسا. على أنه خشى إن علم قومه بخروجه إلى الطائف أن يشيرهم ذلك عليه فطلب منهم أن يكتموا لقاءه بهم. لكنهم، بدلا من احترام رغبته، أغرؤا به سفهاءهم وعبيدهم، يَسُبُّونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ. حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى بستان لعُتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة.

ولما رآه هذان الرجلان، وهما قُرْشِيَان من بنى عبد مناف، قبيلة الرسول ﷺ، تحركت له رَحِمُهُمَا، فأمرَا غُلَامَا لهما نصرانيا، يقال له

عدّاس، بأن يأخذ عنقوداً من العنب فيذهب به إليه. وقبل أن يأكل الرسول من العنب قال بسم الله. واندعش الغلام لأن هذا الكلام لا يقوله أهل تلك البلاد، وقال ذلك للرسول ﷺ، كما أخبره، إجابة عن سؤال وجهه إليه، أنه نصراني من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ وسأله عدّاس عما يعرفه عن يونس فأجابه محمد ﷺ: «ذاك أخى، كان نبياً وأنا نبي»، فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

وانصرف الرسول من الطائف راجعاً إلى مكة فتوقف بنخلة (على مسافة يوم سفر من مكة). وفى جوف الليل استمع إليه نفر من جن أهل نصيبين، قاعدة ديار ربيعة، وهو يصلى. فاستمعوا له. فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين وأخبروهم أنهم آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، وفيهم نزلت الآيات فى قوله تعالى:

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾
[الأحقاف: ٣٠ - ٣١]

والآيات فى قوله تعالى:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا

كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً
 حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ
 الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ
 أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَا مِنْ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ
 قَدِّدًا (١١) وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَنْ تُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَا
 لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣)
 وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤)
 وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ [الجن: ١ - ١٥] (*)

ثم قدم رسول الله ﷺ مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافة
 وفراق دينه، إلا قليلا مُستضعفين، ممن آمن به، فكان يعرض نفسه على
 قبائل العرب التي تفتد إلى مكة في مواسم الحج، ولا يسمع بقادم يقدم
 مكة من العرب له اسم وشرف، إلا تصدى له. وكان يقدم نفسه للقبائل
 على أنه رسول الله إليهم، يأمرهم أن يعبدوا الله لا يشركون به شيئا،
 ويتركون ما يعبدون من دونه، ويدعوهم إلى الإيمان به وأن يصدقوا به
 ويمنعوه. وكان يتبعه رجل أحول وضىء حسن الهندام، هو عمه أبو
 لهب، كان يقول للقبائل إن محمدا صابىء لا ينبغي الاستماع إليه
 ويدعوهم ألا يسلخوا اللات والعزى من أعناقهم، وحلفاءهم من الجن
 من بنى مالك ابن أقيش. وكانت القبائل التي عرض الرسول ﷺ عليها
 نفسه هم: كندة، وبنو كلب، وبنو حنيفة، وبنو عامر، ولم تقبل هذه
 القبائل منه ما عرض عليهم، بل إن القبائل الثلاث الأولى ردت عليه ردا
 قبيحا.

(*) لم يجرؤ الرسول ﷺ على دخول مكة إلا بعد أن أجاره المطعم بن عدي بقوة
 السلاح (انظر السيرة، القسم الأول، ص ٣٨١).

وقدم سُويد بن صامت، من قبيلة بنى عمرو بن عَوْف المدينة فتَّصَدَّى له رسول الله ﷺ . وكان سُويد إنما يسميه قومه فيهم : الكامل ، لجلده وشعره وشرفه ونسبه . وعرض سُويد على الرسول ﷺ حكمة لقمان التي كانت معه .

وقال الرسول : إن هذا لكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا ، وتلا عليه القرآن ودعاه إلى الإسلام . ولم يَبْعُدْ سُويد منه ، واعترف بأن ما سمعه قول حسن . ثم انصرف عنه فقدم المدينة على قومه ، لكن الخَزْرَج قتلته . وقال رجال من قومه إنه قُتل وهو مُسلم . وكان قَتْلُهُ قبل يوم بُعاث ، وهي موضع كانت فيه حرب بين الأوس والخزرج .

وقدم أبو الحَيَّسِر مكة ومعه فِتيَّة من بنى عَبْد الأشْهَل (من الأوس) فيهم إياس بن مُعَاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج . وسَمِعَ بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم وذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . فقال إياس بن معاذ ، وكان غلاماً حَدَّثاً : أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم له . وغضب أبو الحَيَّسِر لهذا القول ، فأخذ حَفْنَةً من تراب ، فضرب بها وجه إياس بن مُعَاذ وأَنَبَهُ . وقام رسول الله ﷺ عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة . وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج . ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك . وقال من حَضَرَهُ من قومه عند موته إنهم لم يزالوا يسمعونهُ يَهْلَلُ الله تعالى وَيُكَبِّرُهُ ويحمده وَيُسَبِّحُهُ حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً . (*)

باء . التحليل

هذه الفترة الرابعة مدتها سنة ، هي السنة التي تفصل وفاة أبى طالب ، التي حدثت ، وفقاً للنص ، قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وأول لقاء تم بين

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٤٢٤ - ٤٢٨ .

الرسول ﷺ ومجموعة من الخزرج المدنيين. وقد تم هذا اللقاء قبل سنتين من بيعة العقبة الثانية التي سبقت الهجرة إلى المدينة بقليل.

وفى الإمكان إبداء الملحوظات الآتية على حديث هذه الفترة:

١- تلخيص الأحداث الهامة التي وقعت خلال هذه السنة برجل ينثر ترابا على رأس الرسول ﷺ ، وزيارة بلا طائل إلى ثقيف، وحوار مع غلام نصراني، ولقاءات غير مجدية، بالقرب من مكة، مع أربع قبائل، ولقاء بواحد من أهل المدينة، ولقاء آخر مع جماعة من أهل المدينة، يبدو كالعيبث. ذلك أن تلك السنة، أى السنة الحادية عشرة من البعثة، كان المفروض، فى منطق النص ذاته، أن تكون سنة حاسمة.

ولما كانت فلسفة الفترة الثالثة بأكملها هى أن سلامة محمد ﷺ وقدرته على الدعوة إلى دينه كانتا رهنا بالحماية التى حباه بها عمه أبو طالب، فلا بد أن موت هذا العم كان حدثا جوهريا بالنسبة لابن أخيه، ولبنى عبدالمطلب وبنى هاشم فى الوقت ذاته. وسواء كان أبو طالب رئيسا لهاتين القبيلتين أو لبنى عبدالمطلب وحدهم فالمفروض أن يكون رئيس جديد قد عين فى اليوم التالى لوفاته، كى يحل محله. وهذا الرئيس الجديد أو رئيس القبيلة - إذا لم يكن أبوطالب فى حياته هو الرئيس - كان المفروض أن يتفق مع أعيان القبيلتين على تحديد الموقف الذى كان الأمر يقتضى اتخاذه حيال محمد ﷺ. هل كان الواجب يقتضى تأييده وحمايته، كما كان الأمر فى حياة عمه المتوفى، أم كان الأفضل أن يترك لمصيره. لكن ترك محمد لمصيره كان يعنى العدول عن الموقف الذى تصوره أبيات أبى طالب التى يقول فيها:

كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ نُبِزَى مُحَمَّدًا وَلَمَّا نَطَاعَن دُونَهُ وَنَنَاضِلْ
وَنُسَلِّمَهُ حَتَّى نَصْرَعَ حَوْلَهُ وَنَذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ (*)

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٢٧٥.

ويقول:

فلسنا وربّ البيت نُسلمُ أحمدًا لعزّاءَ من عضّ الزمان ولا كُرب (*)

وكان يعنى أيضا أن القبيلتين تقبلان، فى آخر الأمر، تسليم محمد لقريش لتقتله. ولا بد أن هذا الموضوع، إن صح، قد أثار جدلا شديدا اتضح من خلاله من كان يحبذ بقاء محمد على قيد الحياة، ومن كان يرى أن موته أفضل. وواقع الأمر أن النص لا يشير إلى حدوث جدل من هذا القبيل، وأن اختفاء الشخص الذى جعل منه النص الشخصية المهيمنة فى الفترتين الأولى والثالثة لم يترتب عليه، فيما يبدو، أقل أثر على ما تلا ذلك من أحداث.

٢- كون الرسول ﷺ اتصل بثقيف وبأربع قبائل أخرى يلتمس المنعة بهم من قومه لا يعنى إلا شيئا واحدا هو أن الحماية التى كان يشملها بها بنو عبدالمطلب وبنو هاشم، وفقا للنص، نزعَت منه بوفاة أبى طالب. يؤيد هذا أن أحدا من هؤلاء لم يقل لقريش، سواء خلال مقابلاتهم معهم أو بالشعر: «لن نسلم محمدا أبدا»، وأنهم سينافحون عنه حتى الموت. وهذا تطور هام. أولا، لأن حماية هاتين القبيلتين، وراء أبى طالب، للرسول ﷺ عرضت، فى حديث الفترة الثالثة، على أنها أهم سمات هذه الفترة. ثم لأن شمول الرسول ﷺ بحماية مسلمى المدينة، حتى بالحرب، سيكون، كما سنرى فى الفترة المكية الخامسة، فيما يقول النص، الغرض الوحيد من بيعة العقبة الثانية والظرف الحاسم فى الهجرة إلى المدينة.

(*) السيرة، القسم الأول ص ٣٥٣.

٣- المثل الذى ضربه النص للتدليل على الآثار التى نجمت عن موت أبى طالب بالنسبة للرسول عليه الصلاة والسلام، أى أن سفيها من سفهاء قريش نثر على رأسه ترابا، مثلُ عبثى إذا فكر المرء فى خطورة الاتهامات التى كانت قريش توجهها إليه ﷺ وألوان الاضطهاد التى كانت توقعها ببعض أصحابه. وعلاوة على ذلك فإن هذه الإهانة لم تكن أشد من بعض ما تعرض له الرسول ﷺ فى حياة عمه، ككون أحد المشركين قد بصق على وجهه. وأخيرا فإن هذا المثل يصور الرسول كرجل عاجز عن الدفاع عن نفسه ضد الاعتداء الجسدى، مع أن النص يخبرنا، فى حديث الفترة الثالثة، أن الرسول ﷺ صارع رُكَّانة المطلبى، أشد رجال قريش، «فأضجعه وهو لا يملك من نفسه شيئا» (*).

٤- لو افترضنا جدلا أن قصة نثر التراب على رأس الرسول ﷺ صحيحة، وأنه لا عمر ولا حمزة ولا جماعة المسلمين استطاعوا منع وقوعها أو الاقتصاص للرسول، فإنها لم تكن من الجسامة بحيث تضطر الرسول إلى التماس الحماية من القبائل غير المكية.

٥- بعد أن مات أبو طالب ونزع بنو عبدالمطلب وبنو هاشم حمايتهم لمحمد، لابد أن قريشا أصبحت فى حلٍّ من اضطهاد محمد كما كانت تضطهد أصحابه، سواء بالتعذيب الجسدى أو النفسى. بل إنه كان لها أن تقتله. لكن النص لا يذكر أن قريشا اضطهدت الرسول ﷺ بأى صورة من الصور المذكورة.

كما أنها لم تطلب قط من قبيلته تسليمه لها، ولم تحدث أية محاولة من جانبها للاعتداء على حياته. إنها غائبة تماما عن مسرح الأحداث فى

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٣٩١.

الفترة الرابعة. ولم يذكره أحد شعرائها بسوء في بيت واحد من الشعر، ولم يقل أى من ساداتها أو أى مجموعة من أشرافها عنه أو عن القرآن، كما في الفترة الثالثة، كلما أنزلت بشأنه آيات من القرآن.

وعلى الرغم من أن النص يذكر أن قوم الرسول (أى قريشا) لدى عودته من الطائف، كانوا «أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه»، إلا أن الوصف الذى يعطيه عن هذه الفترة يدل على أنها فترة هادئة حاول الرسول ﷺ خلالها أن يمد نطاق دعوته إلى الخارج باطمئنان تام، لا يزعجه إلا عمه أبو لهب.

٦- من الملاحظ، في حديث الفترة الرابعة، أن هناك تغيرا في النظرة إلى أبى لهب. وعلى الرغم من أن النص كان لا يألوا جهدا، خلال الفترة الثالثة، في إثبات أنه لم يكن أسوأ الرجال، وأنه لم يخلُ من النواحي الإيجابية، وأنه كان من بين القرشيين من كانوا أعتى منه في محاربة الرسول ودينه، أى، باختصار، إن الإدانة القرآنية الصادرة ضده في سورة المسد كانت قاسية إلى حد ما، نراه يظهر في هذه الفترة وهو يلعب، وحده، الدور الذى كان يلعبه في الفترة الثالثة عملاء قريش المكلفون بدم محمد لدى الحجاج وتحذيرهم منه.

كيف يمكن تفسير هذا الاختلاف في النظرة إلى أبى لهب ما بين الفترتين الثالثة والرابعة؟

من المحتمل أن يكون النص قد أراد أن يوحى بأن أبا لهب، رعاية لأخيه أبى طالب، قد اكتفى بالعداء السلبي، وأن هذا العداء اتخذ شكلا إيجابيا بعد موته. وهناك احتمال آخر هو أن يكون النص قد عمد، لتبرير الخبر الذى مؤداه أن محمدا ﷺ اتصل بالقبائل «الأجنبية» ليلتمس

منها المنعة التي كانت تحبوه بها قبيلته برعاية أبي طالب، ولكي لا يشرك قبيلة الخليفة العباسي كلها في عملية التخلي عن الرسول، اكتفى بالـ«تضحية» بأبي لهب.

٧- ثم ماذا عن مسلمي مكة؟ إن كل ما يقوله النص بشأنهم هو أنهم كانوا «قليلا مُستضعفين». كلمتان فقط في سبع الصفحات التي خصصها النص لهذه الفترة، علما بأن قصة سُويّد بن صامت، وهو من أهل المدينة، تشغل أكثر من صفحة، وأن قصة النفر من أهل المدينة الذين كان من بينهم إياس بن معاذ تشغل ستة عشر سطرا. كم كان عددهم، هؤلاء «القليل المستضعفون»؟ من كانوا؟ وإلى أي العشائر والقبائل كانوا يتمون؟ كم كان عدد حالات اعتناق الإسلام الجديدة، وحالات الاضطهاد الجديدة، والمسلمين الذين هاجروا (قبل الهجرة إلى المدينة)؟ لا شيء في النص عن هذا.

لكن لفظتي «قليلا مستضعفين» تعنيان الكثير، في الواقع. إنهما تعنيان ببساطة أن مكة كانت أرضا عقيمة للإسلام، وأن أكثر من عشر سنوات من الدعوة وأكثر من ثلاثة آلاف وستمئة آية من آيات القرآن التي أنزلت من بداية البعثة، لم تنجح، في نهاية المطاف، إلا في هداية نفر قليلين إلى الإسلام.

لقد سبق إبداء الرأي فيما يتعلق بعدد المسلمين في إطار الفترة الثالثة، لكن بوسعنا أن نقول هنا إن معلومة «قليلا مستضعفين» تناقضها معلومتان سابقتان في النص. ذلك أن النص:

(أ) يذكر في قصة الإسراء: «وقد فشا الإسلام بمكة في قريش، وفي القبائل كلها».

ب) فى قصة لقاء سادة قريش الاخير بابى طالب، قالت قريش بعضها لبعض.. «وقد فشا أمر محمد فى قبائل قريش كلها».

٨- يستفاد من النص أن لقاءات الرسول ﷺ مع القبائل غير المكية بدأت فى هذه الفترة، أى بعد أحد عشر عاما من البعثة، فهل يمكن تصديق هذه الدعوى؟ هى دعوى لا يمكن تصديقها، والنص لا يشرح السبب الذى جعل الرسول ﷺ والمسلمين لا يستغلون الفرصة التى كانت تتيحها لهم مواسم الحج والعمرة لنشر دينهم بين منات القبائل العربية التى كان أعضاؤها يقدرون إلى مكة كل عام ويمكثون فيها أحيانا عدة أسابيع.

والنص لا يشرح كذلك ما الذى منع مسلمى مكة من نشر كلمة الإسلام بين عملاتهم من التجار، وأقاربهم ومعارفهم وأصدقائهم المقيمين فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة التى كانوا يشدون الركاب إليها للتجارة أو الزيارة.

وعلى الرغم من أن النص أعطى فى قصتى إسلام عمر والطَّيْل بن عمرو الدَّوْسَى مثالين لشخصين هداهما الله إلى الإسلام لمجرد سماع آيات من القرآن يتلوها الرسول ﷺ ، فالنص، فيما يبدو، يتجاهل حقيقة أن فقرات أطول من القرآن الكريم كانت ولاشك قد أذيعت خارج مكة عن طريق عرب غير مكين استظهروها خلال إقامتهم فى مكة، وعن طريق نفر من مسلمى مكة، وأن هذه الفقرات أحدثت فى نفوس من استمعوا إليها من الأثر مثل الأثر الذى وصفه النص فى حالتى عمر والطَّيْل.

والنص يتجاهل أيضا ، فيما يبدو، أن اضطهاد قريش قد دفع كثيرا من مسلمى مكة إلى الهجرة وإلى البحث عن ملاذ لدى أقاربهم

وأصدقائهم وإخوانهم في الدين الذين يعيشون في أقاليم أخرى من الجزيرة العربية.

وكما أوضحت في تحليل حديث الفترتين الأولى والثالثة، فإن الإسلام - وليس فقط ما كان يذيعه عملاء قريش من عيب في الإسلام - لابد أنه انتشر في شتى بقاع الجزيرة، وأن المسلمين من غير أهل مكة كانوا، أغلب الظن، أكثر عددا من مسلمي مكة في الفترة الرابعة التي نحن بصددتها.

٩- حديث رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف يستدعي لدى ما يلي من أفكار:

(أ) شعور الرسول ﷺ بالخطر المحدق به، هذا الشعور الذي كان يجعله يلتمس من القبائل التي كان يدعوها إلى الإسلام أن تمنعه أي أن تحميه، يجعل من المستغرب أن يكون قد رحل إلى الطائف بمفرده، والا يكون قد اصطحب معه مجموعة من أصحابه القادرين على حمايته عند الضرورة. وقد سبق أن لاحظت أن النص يقدم لنا الرسول ﷺ ، طوال فترة بعثته في مكة ، وحيدا في أغلب الأحيان.

ونحن، في الواقع، لا نراه بين أصحابه إلا في إحدى روايتي إسلام عمر، وفي تقديم الاقتباس القرآني رقم ٣٣ وفي موقف كان فيه في المسجد بصحبة أبي بكر. ورحلة الطائف هذه إذن حالة إضافية يقيم فيها النص عامدا ما يشبه الحاجز بين الرسول ﷺ ومسلمي مكة. والنص لا يذكر أن الرسول، لكي يذهب إلى الطائف، وهي بلدة تقع على مسافة عدة أيام من مكة سيرا على الأقدام، قد استعان بجَمَّال.

(ب) من المستغرب كذلك أن يكون أبناء عمرو بن عُمرٍ الثَّقَفِيُّونَ الثلاثة قد بلغوا من سوء الضيافة أن يغروا سفهاءهم وعبيدهم بالرسول

ﷺ يسبونه ويصيحون في وجهه. لقد كان مثل هذا السلوك متصورا من عتبة وشيبة، ابني ربيعة من رَهْط ابن شمس، اللذين ذهبا أكثر من مرة إلى أبي طالب ضمن من ذهبوا للشكوى من محمد، لا من جانب سادة ثقيف وأشرافهم الذين لم يفعل الرسول أكثر من أن تلا عليهم القرآن وعرض عليهم الإسلام وجنّاته.

(ج) لنقف لحظة عند حالة عدّاس، الغلام النصراني الذي كَفّته علامة واحدة، هي كون محمد ﷺ يعرف أن يُؤنس من نينوى، لكى يقتنع بنبوته. إن في هذه القصة من السذاجة ما يجعلنا نشك في صحتها.

لقد كانت قصة يُؤنس معروفة لليهود وللنصارى ولمن يخالطونهم ومن لديهم علم بالتوراة. لكن قصة عدّاس إحدى القصص التي تتحدث عن هداية نفر من النصارى إلى الإسلام والتي يولع بها النص. والدلائل كلها تشير إلى أنها اخترعت لتجسيد رحلة الرسول إلى الطائف.

١٠- أما ما يرويه النص عن اتصالات الرسول ﷺ بالقبائل، فإنه يشير ملحوظتين:

(أ) من الأمور التي تدعو إلى الدهشة أن الرسول ﷺ لم يلتق إلا برجال أربعة فقط من مئات القبائل التي كانت تفد إلى مكة للحج.

(ب) إذا كان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام على القبائل الوافدة من خارج مكة، فما يشير الدهشة أن يطلب إليهم صراحة أن يُمنعوه من قومه. ليس فقط لأن مثل هذا الطلب لا محل له، إذ أن إسلام كل مسلم صادق الإيمان يجعله يحب الرسول حبا يحمله على قبوله أية توضحية من أجل حمايته، بل أيضا لأن حجاج أية عشيرة أو قبيلة لم تكن لهم بوجه عام صفة تخولهم أهلية ترتيب ارتباطات جماعية على عشيرتهم أو قبيلتهم.

ثم إنه، على فرض أن هؤلاء الحجاج أسلموا كلهم، فإن شيئاً لم يكن يسمح لهم بتصور إن إسلام قبيلتهم كلها سيكون شيئاً ميسوراً، إذا راعينا الصعوبات التي كان الرسول ذاته يعانيها في نشر الإسلام بمكة بل بين أفراد قبيلته ذاتها.

وفضلاً عن ذلك فإن طبيعة المنعة التي كان الرسول ﷺ يطلبها من القبائل ليست محددة. هل كان المطلوب أن يحموا محمداً في مكة ذاتها من قريش؟ أم أن يصحبوه إلى بلدهم ويحموه وهو بين ظهرائهم؟ أما الفرض الأول فيجب استبعاده، فإن كِنْدَةَ كلهم، وبنى كَلْب كلهم، وبنى حَنِيفَةَ كلهم، وبنى عامر كلهم لو أسلموا، لما كان بمقدورهم أن يحموا محمداً في مكة من قريش.

بقى فرض اصطحاب محمد إلى ديارهم واعتباره واحداً منهم. إن هذا الفرض مقبول من الناحية النظرية، وفي السيرة أمثلة لأشخاص غيروا قبيلتهم. لكن، إذا كان هذا هو الحال، ما الخطر الذي كان النبي ﷺ يطلب الحماية لمواجهة؟

إن إحدى الإجابات الممكنة عن هذا السؤال واردة في القصة التالية:

رجل اسمه بَيْحَرَة بن فِرَاس، من بنى عامر بن صَعْصَعَة، هتف، بعد أن سمع عرض الرسول على قبيلته: «والله، لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش، لأأكلتُ به العرب»، ثم قال للرسول: أرايتَ إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أ يكون لنا الأمر من بعدك؟ قال الرسول ﷺ: الأمرُ إلى الله يضعه حيث يشاء. فقال له بَيْحَرَة: أَفَتُهْدَفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك. فلما صدر الناسُ رجعتُ بنو عامر إلى شيخ لهم،

قد كانت أدركته السن، فحدثوه عن «فتى من قريش، ثم أحد بني عبدالمطلب، يزعم أنه نبيّ، يدعوننا إلى أن نمنعه ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا» (*). وهذا يعنى أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان ينوى الرحيل مع بني عامر إلى بلدهم.

لكن هذه الإجابة الواردة فى النص ليست إجابة، ويظل السؤال قائما: ما هو الخطر الذى كان الرسول يطلب من مخاطبيه أن يحموه منه إذا قبلوا أن يخرجوا به إلى بلادهم؟ وحين تحدث بيّحرة عن احتمال أن يظهر الله محمدا ﷺ على من خالفه، ما الذى كان يقصده بالضبط؟ هذا السؤال بدوره يظل معلقا، وليس فى النص ما يسمح بالإجابة عنه.

١١- قصة إسلام سويد بن صامت، أخى بني عمرو بن عوف
تستدعى الملاحظات الآتية:

(أ) النص يخصص لها صفحة كاملة، وهو حيز لم يخصص لإسلام أحد من أهل مكة، باستثناء عمر.

(ب) سويد يقدم لنا كخيرة أهل المدينة: رجل بلغ من جلدِه وشِعْرِه وشرفه ونسبه حتى أسماه قومه بالكامل. وقد بلغ من أهمية شخصيته أن وافى النص القارئ بالحقائق التالية المتعلقة به:

كاهنة من كهّان العرب قضت على رجل من بني سلّيم فى خلاف كان له مع سويد بمائة ناقة. وبعد صدور هذا الحكم انصرف الخصمان معا. فلما فرقت بينهما الطريق قال سويد: مالى، يا أخا بني سلّيم. قال: أبعثُ إليك به، قال: فمن لى بذلك إذا فتّنى به؟ قال: أنا، قال: كلا، والذى نفس سويد بيده، لا تفارقنّى حتى أوتى بمالى، فتشاجرا

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٤٢٤ - ٤٢٥.

فضرب سويد بخصمه الأرض، ثم أوثقه رباطا، ثم انطلق به إلى دار بنى عمرو بن عوف، فلم يزل عنده حتى بعثت إليه سليم بالذى له. فما أهمية هذه القصة فى سيرة الرسول؟

جـ) لا يقول النص شيئا عن حكمة لقمان التى كان سويد بن صامت حائزها الوحيد، كما لا يشرح العلاقة بين محتواها والآيات القرآنية التى نزلت عن لقمان.

د) أخيرا فإن النص لا يفسر السبب الذى من أجله قتل رجل فى مثل أهمية سويد من الخزرج فى المدينة، كما لا يقول كلمة عن ملابسات قتله.

جيم - المحصلة

الانطباع الذى يخلص إليه المرء من قراءة حديث هذه الفترة هو أن صمت النص عن ذكر النتائج التى ترتبت على موت أبى طالب يسوغ كل الشكوك فيما يتعلق بمجموع البيانات التى يقدمها عن الفترات الثلاث الأولى. ذلك أن النص، الذى جعل من أبى طالب:

١- الشخصية المهيمنة فى مكة، التى كان أعظم سادة قريش وأشرافها يسعون إليها باحترام حين يكون لديهم مشكل مع محمد.

٢- أكبر شخصيات بنى عبدالمطلب وبنى هاشم نفوذا، بدليل أن كلمة منه كانت كافية كى تشكل القبيلتان جبهة تحمى محمدا، فى الوقت الذى عجز فيه أبولهب عن ضم أى عضو من أعضائهما إليه.

٣- شخصية عظمى، أعظم من محمد عليه الصلاة والسلام، إذ أنه كان الحامى وكان محمد المحمى.

٤- رجل كان الإسلام مدينا له، كأمر واقع، بوجوده إذ لولاه لقتلت قريش محمدا أو لألزمته الصمت.

أقول إن النص الذى جعل من أبى طالب كل هذا يفاجئنا بعد موته،
كأنما بسحر ساحر، باختفاء:

(أ) النزاع بين قريش من جهة وبنى عبدالمطلب وبنى هاشم من جهة
أخرى، وهو النزاع الذى جعل منه النص الموضوع الرئيسى فى الفترة
الثالثة.

(ب) الأحداث: الهداية إلى الإسلام والاضطهاد والهجرة التى تتعلق
بالمسلمين.

(ج) المخاطر التى كان يتعرض لها الرسول عليه الصلاة والسلام.
والنقطة الأخيرة فى غاية الأهمية، إذ أن النص يقدم لنا الرسول عليه
الصلاة والسلام، طوال السنة التى تتكون منها هذه الفترة الرابعة، وهو
يخرج وحده بلا رفيق ولا حارس، إلى الطائف وإلى الحجاج القادمين
إلى مكة، كما أن النص لا يتحدث عن أية مؤامرة دبّت ضده أو اعتداء
وقع عليه. (*)

(*) ألا يمكن القول إن إجارة المُطعم بن عدى للرسول دليل على أنه ﷺ كان يخشى
على نفسه؟ لا. إن قصة هذه الإجارة هى فى الواقع واحدة من الحكايات العديدة
غير المعقولة التى نجدّها فى النص. واحتمال صدقها أقل حتى من احتمال صدق
مقولة حماية بنى عبدالمطلب وبنى هاشم للرسول، إذ أن المُطعم لم تكن تربطه أية
صلة قريى بالرسول، ولم يكن له مصلحة فى حمايته، ولم يكن فى مقدوره أن
يقارع بالسلاح قريشا بالإضافة إلى قبيلة الرسول. ويلاحظ أن هذا السيد من سادة
ثقيف، الذى كان يعيش بمكة، كان خصما للرسول هجاء أبو طالب بالاسم فى
قصيدته الأولى والثالثة، كذلك فإن هذا الجوار إن صح لكان حدثا فى غاية الأهمية
ولخصص المؤلف له مكانا كبيرا فى نصه. والحاصل أن النص لا يشير إلى هذا
الموضوع إلا فى تقديم قصيدة من ثمانية أبيات يدعى أنها لحسان بن ثابت، يزجى
فيها ثناء عاطر للمُطعم لدوره فى نقض المقاطعة المزعومة، لا فى سياق الفترة الرابعة
التي يحاول النص فيها أن يثبت أن الرسول ﷺ كان لا يتمتع بأية حماية (ولولا ذلك
لما التمس منعة القبائل العربية التى تفد إلى مكة للحج).

وفى هذا دلالة واضحة على أن الرسول ﷺ كان فى غنى عن حماية قبيلته . وفيه أيضا دلالة على أن هذه الحماية لم توجد قط فى الواقع . وإذا كانت هذه الحماية، التى أسس النص عليها عرضه للفترات السابقة جميعا، لم توجد قط، فإن التراع الذى نشأ عنها بين قريش وقبيلتى الرسول لم يكن له بدوره وجود.

إذن فإن حديث الفترة الرابعة يهدر دعوى حماية الهاشميين للرسول . وهو يسمح للمرء فى الوقت ذاته بأن يعتبر أن الصراع الحقيقى خلال الفترة المكية كان ذلك الذى واجهت فيه قريش (بمن فيها بنو عبدالمطلب وبنوهاشم) الرسول ﷺ والمسلمين؛ وهو يؤيد أخيرا الفكرة التى مؤداها أن الدعوى المذكورة قد اخترعت لخدمة مصالح الخلافة العباسية التى حاولت أن تسوغ استيلاءها على السلطة باتتمائها الى القبيلة التى يفهم من نص ابن إسحاق أن الإسلام مدين لها بوجوده.

لكن من الممكن، بغض النظر عن الاعتبارات السابقة، أن نقول إن الطريقة التى عولجت بها هذه الفترة الرابعة فى النص تشير عدة تساؤلات، مثل:

١- لماذا أسدل النص الستار على كل الأحداث (من اضطهاد وهجرة، إلخ) التى لا بد أن مكة اهتزت لها خلال السنة موضع البحث؟ لماذا، بعبارة أخرى، توقف تاريخ مكة والإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام فلم يسجل النص منه سوى زيارة قام بها الرسول للطائف، واتصال بأربع قبائل من الحجاج غير المكين وحالتى «شبه إسلام» شخصين من أهل المدينة؟

٢- لماذا أغفل النص تماما ذكر جميع سور القرآن التى نزلت خلال هذه الفترة؟

٣- لماذا يعرض علينا محمداً ﷺ وهو نبهة للشعور بالخطر المحدق به والحاجة إلى الحماية، مع أن الذي أرسله للناس هو الله ذو القوة وأن القرآن، كما رأينا، ينهاء عن اتخاذ عاصم أو ولي من البشر.

٤- لماذا تحدث يَحْرَة بن فِرَاس عن إهداف نحور رجال قبيلته للعرب دون محمد، مع أن هجرة الرسول إلى ديار بني عامر لم تكن تمس مصالح أحد أو تشكل عملاً عدائياً قد يؤدي إلى قيام حرب، لاسيما مع قريش التي كان لديها من الأسباب ما يجعلها ترحب بهذه الهجرة؟

٥- لماذا بَعُدَ القرشيون عن الصورة التي يرسمها النص للفترة، ولماذا كان اثنان من القرشيين الثلاثة الذين يظهرون فيها في الطائف؟

٦- لماذا غاب المسلمون، بدورهم، غيباً تاماً عن هذه الصورة، ولماذا يصفهم النص بالقليل المستضعفين، مع أنهم كانوا في الفترة السابقة عديدين، وأن إسلام حمزة وعمر جعلاهم قوة يحسب حسابها؟

٧- ما السر في كون حالتى «شبه» إسلام شخصين على يد الرسول خلال العام كله تتعلقان باثنين من أهل المدينة؟

٨- لماذا كان العرب الوحيدون الذين نصادفهم خلال هذه الفترة، باستثناء أبى لهب وابنى ربيعة، من غير المكين؟

عيشاً يبحث المرء عن عناصر تسمح بالإجابة عن هذه التساؤلات في حديث هذه الفترة. والواقع أن كل شيء في هذا الحديث يوحي بأن المؤلف لم يكن يهتم حقيقة بحياة الرسول ﷺ أو بتاريخ الإسلام وإنما كان يرمى إلى تعبيد الأرض لحدث جديد في كتابه.

وتشبه الفترة الرابعة، منظوراً إليها من هذه الزاوية، الفترتين الأولى والثانية اللتين كانت وظيفتهما الأساسية هي تعبيد الأرض للفترة الثالثة،

أى لتصوير أبى طالب على أنه الشخصية المركزية فيها، ولجعل حمايته للرسول عليه الصلاة والسلام تبدو وكأنها الغرض والعامل الذى تتقرر به جميع الأحداث. وكما أن تحليل حديث الفترة الرابعة قد سمح باستكناه تطورات الفترة الثالثة، فقد يسمح تحليل حديث الفترة الخامسة، بدوره، بالعثور على مفتاح للتساؤلات التى أثارها حديث الفترة الرابعة.

الفرع الثانى. الفترة الخامسة

تمتد هذه الفترة من أول لقاء للرسول ﷺ بستة من حجاج المدينة فى العقبة، إلى الهجرة. وسنقف فيها عند المراحل الثلاث الآتية:

- إسلام بعض أهل المدينة.

- عقد بيعة العقبة الثانية، المسماة ببيعة الحرب.

- هجرة المسلمين والرسول ﷺ إلى المدينة، التى تنتهى بها الفترة المكية.

§ ١ - إسلام بعض أهل المدينة

ألف - النص

لما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز مواعده له، خرج رسول الله ﷺ فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع فى كل موسم. فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج من موالى يهود يتكون من خمسة رجال وامرأة. وكان اليهود كلما اختلفوا مع حلفائهم فى شىء، قالوا لهم: إن نبيا مبعوث الآن، قد أظلم زمانه، نبيه فقتلكم معه قتل عاد وإرم. وعرض الرسول ﷺ الإسلام على الحجاج الستة وتلا عليهم القرآن. وبعد أن استمعوا إليه قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله

إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه . فأجابوا الرسول فيما دعاهم إليهم ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فدعوههم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوههم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دُور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ .

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلحقوه بالعقبة ، وهي العقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تُفرض عليهم الحرب . وكانت بيعتهم «على أن لا نُشرك بالله شيئا ، ولا نَسْرِق ، ولا نَزْنِي ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفترية من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف» ، وقال لهم الرسول ﷺ : «إِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ غَشَّيْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنْ شَاءَ عَذَّبَ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ . وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى أَنَّ الرَّسُولَ قَالَ لَهُمْ : «إِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمْ الْجَنَّةَ ، وَإِنْ غَشَّيْتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَخَذْتُمْ بِحَدِّهِ فِي الدُّنْيَا ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ» . (*)

ولما انصرف عنه القوم ، بعث رسول الله ﷺ معهم مُصعب بن عُمير وأمره أن يُقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين . وقد جمعت أول صلاة جمعة أقيمت في المدينة أربعين رجلا . وذات يوم خرج أسعد بن زُرارة بمُصعب بن عُمير يريد به دار بني عبد الأشهل ودار

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٤٣٤ .

بنى ظَفَر. ودخلا بستانا من بساتين بنى ظَفَر، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ، وأُسَيْد بن حُضَيْر، يومئذ، سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه.

وقال سعد بن معاذ لأُسَيْد بن حُضَيْر: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضُعفاءنا، فازجرهما وانتهما عن أن يأتيا دارينا. وأخذ أُسَيْد بن حُضَيْر حَرَبته ثم أقبل إلى أسعد بن زرارة ومُصْعَب بن عمير. فلما رآه أسعد بن زرارة، قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه. قال مصعب: إن يجلس أكلّمه.

فوقف أُسَيْد بن حُضَيْر عليهما مُتَشَتِّمَا، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضُعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حَرَبته وجلس إليهما، فكلّمه مُصْعَب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا، فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم في إشراقه وتسهّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إن أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلى. فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حَرَبته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مُقبِلا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْدٌ بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم؟ فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسا، وقد نهيتُهما، فقالا: نفعل ما أحييت، وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليُخْفِرُوكَ (*). فقام سعد مُغْضَبًا مبادرا، تخوفا للذي ذُكر له من بنى حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغيت شيئا، ثم خرج إليهما. فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشّما، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رُمّت هذا منى، أتَغْشَانَا فى دارينا بما نكره - وقد قال أسعدُ بن زرارة لمصعب بن عمير: أى مُصْعَب، جاءك والله سيّد مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان. فقال له مُصْعَب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزكنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالوا: فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم، لإشراقه وتسهّله؟ ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ قالوا: تغتسل فتطهر وتُطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامدا إلى نادى قومه ومعه أسيد بن حضير.

فلما رآه قومه مُقبلا، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبدالأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا

(*) الإخفار : نقض العهد والغدر.

وأيمنا نقيبة؛ قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بنى عبدالأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة. وبقي مصعب في المدينة، يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دُور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بنى أمية ابن زيد، وخطمه ووائل وواقف، وتلك أوس الله. وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، وكان شاعرا لهم، فائدا، يستمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام.

وفي العام التالي (أى بعد سنتين من لقاء الرسول ﷺ بالخزرج الستة) خرج من خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم مع حُجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، فواعدوا رسولَ الله ﷺ وسلم العقبة، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته، والنصر لنيّته، وإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله. وخرج معهم البراء بن معرور، سيدهم وكبيرهم. وقال لهم البراء منذ البداية إنه سيصلى إلى الكعبة، وذلك على الرغم من اعتراض الحجاج المسلمين الذين قالوا إنهم لا يريدون أن يخالفوا نبيهم ﷺ الذى كان يصلى إلى الشام. وما أن وصلوا مكة حتى أعلن البراء عزمه على لقاء الرسول ليسأله عن القبلة، وصحب معه الشاعر كعب بن مالك أحد الحجاج المسلمين فخرجا يسألان عنه فلقيهما رجل من أهل مكة فسألاه عن رسول الله ﷺ فقال: هل تعرفانه؟ فقالا: لا، قال: فهل تعرفان العباس بن عبدالمطلب عمّه؟ قالا: نعم (وكانا يعرفان العباس الذى كان يقدم عليهم فى يثرب تاجرا). قال فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. فدخلا المجلس فإذا العباس جالس، ورسول الله ﷺ جالس معه. وعرض

البراء مسأله على الرسول ﷺ فأخبره الرسول بأن يصلى إلى الشام .
وانتهز مسلمو المدينة الفرصة وطلبوا من الرسول ﷺ أن يلقي أعضاء
وفدهم جميعا وكانوا خمسة وسبعين منهم امرأتان . وواعدوا الرسول
بالعقبة قرب مكة . ولما فرغوا من الحج نجحوا فى إقناع عبدالله بن عمرو
بن حرام ، الذى كان سيدا من ساداتهم وشريفا من أشرافهم بالدخول فى
الإسلام ودعوه إلى شهود اجتماعهم مع الرسول ﷺ .

باء . التحليل

سأقسم تحليل ما تقدم من رواية إلى ثلاثة أجزاء : دعوى النص ،
والملاحظات التى تثيرها ، وعرض للوقائع يبدو لى أقرب إلى التصديق ،
ثم ألقى على ذلك بالحصلة .

١ - دعوى النص :

أ) المدينة ، على خلاف مكة ، كانت للإسلام أرضا خصبة للغاية ،
فلئن كانت إحدى عشرة سنة من الدعوة إلى هذا الدين فى مكة لم
تجذب إلا « قليلا مُستضعفين » ، كما أن لقاءات الرسول ﷺ بالقبائل غير
المكية كانت غير مثمرة ، فإن نجاح الإسلام فى المدينة كان نجاحا غير
عادى . ولم يكن هذا النجاح راجعا إلى جهود الرسول أو صحابته ، بل
إلى جهود أهل المدينة الستة الذين قابلوه ﷺ فى العقبة فى السنة
السابقة . وكون مُصعب بن عُمير ، من صحابة رسول الله ، قد أسهم فى
إحراز هذه النتيجة لا يمنع أن إحرازها ما كان يمكن أن يتحقق لولا
استعداد أهل المدينة الاستثنائى لتقبل دين الإسلام .

ب) ما من شخص من أهل المدينة يظهر فى النص ، خلال هذه
الفترة ، كعدو للإسلام ، على غرار أبى جهل ، والوليد بن المغيرة ،

والعاص بن وائل، وأبى سفيان بن حرب، وغيرهم من سادة قريش وأشرافها الذين رفضوا في مكة دين محمد، وقالوا عن رسوله ﷺ إنه كاذب، وضليل، وساحر، وشاعر؛ وادعوا أنه يردد كلاما تعلمه من غيره أو ينسب إلى الله كلاما من إنشائه هو. هؤلاء القوم الذين أعلنوا على الرسول ﷺ وعلى دينه حربا من التجنى، وتشكروا منه إلى عمه، والذين طالبوا بتسليمهم محمدا كي يقتلوه، والذين قاطعوا قبيلته بسببه، والذين اضطهدوا المسلمين وحاولوا بكل الوسائل أن يردوهم عن دينهم.

ج) كان الإسلام، خلال الفترة الخامسة، يكسب باستمرار أرضا جديدة في المدينة ولم يكن يصادف فيها أدنى مقاومة. وما من مسلم أذى في هذه البلدة بسبب دينه. وترك رؤساء الأوس ورؤساء الخزرج لأعضاء قبيلتهما مطلق الحرية في اعتناق دين الإسلام، وقد اعتنقه بالفعل عدد كبير منهم، وكان عدد من هؤلاء ضمن الحجاج الذين عقدوا مع الرسول ﷺ بيعة العقبة الثانية.

د) أما اليهود، الذين كانوا يعلمون أن محمدا هو الرسول الذي كانوا ينتظرون بعثته والذين كانوا يهددون الأوس والخزرج باتباعه قبلهم وبالتنكيل بهم بعد اتباعه، فإن أحدا منهم لم يسلم، لكنهم لم يقفوا في وجه دينه، بل تركوا الموجة الإسلامية تغمر المدينة دون أن يقولوا لحلفائهم من الأوس والخزرج عن دين محمد مثل الذي سبق أن قالوه لقريش حين استشارتهم في شأنه، أي أن دين قريش خير من دينه، ولم يشعروا بالخطر الذي كان يمثله الإسلام بالنسبة لهم، ولم يتخذوا أي إجراء لتوقيه، كما أنهم لم يبذلوا أي جهد لمعارضة دين محمد بالاستناد إلى ما جاء في كتبهم، ولم يقولوا، مثلا، بصدد مقارنة بعض فقرات القرآن بنظيرتها في نصوصهم المقدسة، إن كل ما فعله محمد هو أن «سرق» بعض هذه النصوص، ولم يحاولوا، مثلا، أن يقولوا إن محمدا

ﷺ ليس المسيح الذى كانوا ينتظرونه، كما أنهم لم يشرحوا لخلقهم الأسباب التى جعلتهم لا يتبعوه بعد أن أعلنوا عن مجيئه.

هـ) قدم النص، فى معرض حديثه عن حالات الهداية إلى الإسلام فى المدينة، سبع شخصيات: سُويّد بن صامت، وإياس بن معاذ (فى الفترة الرابعة). وأسعد بن زُرارة، وسعد بن معاذ، وأُسَيْد بن حُضَيْر، والبراء بن مَعْرُور، وابن حَرَام أبو جابر، وهم جميعا سادة أو شخصيات فذة.

أما سُويّد بن صامت فكان شاعرا، وكان ذا شرف ونسب وجلد. وقد أثبتت قصته مع رجل بنى سُلَيْم أنه رجل ذو حزم وذو قوة جسدية، وأنه الوحيد الذى يحوز حكمة لقمان، وأنه، باختصار الرجل «الكامل» بكل معنى هذه الكلمة.

كذلك فإن إياس بن معاذ، الذى كان لا يزال غلاما، فهم على الفور، حين استمع إلى الرسول ﷺ، أن دينه خير مما جاء قومه له من حلف قريش ضد الخزرج، وأوتى من الشجاعة ما جعله يجاهر برأيه هذا ويتعرض لحفنة من تراب البطحاء ضُرب بها وجهه.

وأُسعد بن زُرارة السيد الذى استضاف مُصعب بن عُمير، صاحب رسول الله ﷺ الذى كلفه بتعليم الإسلام والقرآن لأهل المدينة، سنة بأكملها، والذى كان أول من جمع المسلمين من الأوس والخزرج لصلاة الجمعة.

وأُسَيْد بن حُضَيْر وسعد بن معاذ، هذا السيدان الشريقان من أهل المدينة، اللذان كانت جلسة واحدة مع مُصعب بن عُمير كافية لهدايتهما إلى الإسلام، واللذان نجح ثانيهما، بتهديد أعضاء قبيلته بمقاطعتهم حتى

يؤمنوا بالله وبرسوله، في جعلهم، عن بكرة أبيهم، يدخلون في الإسلام، في اليوم ذاته.

والبراء بن معرور، «سيدنا وكبيرنا»، الذي أصر، بالرغم مما قاله الرسول ﷺ، على الاتجاه في صلاته إلى الكعبة لا إلى بيت المقدس، والذي أيده في ذلك قرآن لاحق.

وعبدالله بن عمرو بن حرام، وهو بدوره، «سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا» نجح مسلمو المدينة في هدايته إلى الإسلام قبل اجتماعهم مع الرسول بوقت قصير، هذا الاجتماع الذي تمخض عن بيعة العقبة الثانية.

إنهم إذن جميعاً رؤساء ورجال عظام. ولو نظرنا إليهم في جملتهم لوجدنا أنهم أفضل من أفضل مسلمي مكة: فليس من بينهم بكاءً فراراً مثل أبي بكر، وليس من بينهم من كان يعذب المسلمين ويعاقب الخمر ويريد أن يقتل الرسول قبل إسلامه، مثل عمر، أو شخص نكرة، مثل عثمان، بل كلهم رجال لا تشوبهم شائبة.

٢. الملاحظات،

تثير رواية النص ودعواه ما يلي من ملحوظات:

أ) مسلمو المدينة يسمون في عنوان هذه الفترة، الذي هو «بدء إسلام الأنصار»، وفي مواضع عديدة من السياق، بالأنصار، وهي تسمية غير سليمة، كما أنها تنطوي على تجاوز. تسمية غير سليمة لأن كلمة «الأنصار» مقصورة في القرآن على فئة من المسلمين محددة بدقة. وليس في النص أية إشارة تسمح، بصورة يقينية، بمعرفة الوقت الذي استخدمت فيه للمرة الأولى، على أننا نجد في القرآن الكريم عدة آيات استخدم فيها هذا اللفظ بصيغة الفعل، مثل:

قوله تعالى :

﴿... فَأَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ [الأعراف : ١٥٧]

وقوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا
أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)﴾

[الأنفال : ٧٤]

وفى القرآن الكريم كذلك آيات استخدام فيها هذا اللفظ بصيغة
الاسم، مثل :

قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ قَامَتْ طَائِفَةٌ
مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا
ظَاهِرِينَ (١٤)﴾ [الصف : ١٤]

وقوله تعالى :

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ
بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ [التوبة : ١٠٠]

وقوله تعالى :

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي

سَاعَةُ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ
رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾

[التوبة : ١١٧]

والحاصل أن المجموعتين الأولى والثانية من أهل المدينة اللتين لقيتا
الرسول ﷺ في العقبة لا ينطبق عليهما وصف الانتصار الوارد في الآيات
المذكورة .

وهي تسمية تنطوي على تجاوز، لأن وصف الانتصار في الآيتين
الأولى والثانية هو بمثابة لقب أنعم به على فئة من المسلمين رضى الله
عنهم بعبارة صريحة . ولكي يستحق المسلم هذا اللقب كان لابد أن
يستوفى شرطين : أن يكون قد نصر المهاجرين ، وأن يكون قد اتبع
الرسول ﷺ في ساعة العُسرة ، ولم يكن هذان الشرطان متوافرين لدى
جميع أهل المدينة ممن أسلموا في الفترة المدنية . وقد كان من هؤلاء
منافقون كانت نسبتهم من الارتفاع بحيث تحدث القرآن عنهم في الآية
التالية :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى
النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ
﴿١٠١﴾

[التوبة : ١٠١]

وكان هؤلاء المنافقون، يمثلون فضلا عن ذلك، في حديث غزوة
أحد، ثلث جيش المسلمين، وكان انخدالهم فيما يبدو السبب الرئيسى
للهزيمة التى منى بها المسلمون في هذه الموقعة . ولم يكن هذان الشرطان
أيضا متوافرين لدى المسلمين الذين يشير إليهم النص في هذه الفترة،
سواء في ذلك من كانوا بالمدينة أو الحجاج الستة أو الاثنا عشر أو الثلاثة
والسبعون الذين التقوا بالرسول ﷺ ، إذ أن هذه اللقاءات تمت قبل
الهجرة .

ب) الجملة الأولى فى رواية هذه الفترة الخامسة، التى تقول: «فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإنجاز مواعده له، خرج رسول الله ﷺ فى الموسم الذى لقيه فيه التفير من الأنصار..» صريحة فى أن لقاء الرسول بالخرزج الستة نقطة تحول فى تاريخ الرسول والإسلام: النقطة التى تغير فيها كل شىء من التقيض إلى التقيض، فإن الدين الجديد لم يعرف، قبل هذا اللقاء، سوى الهزيمة. أما بعده، فكان النصر. قبل هذا اللقاء، كان الرسول مهانا، أما بعده، فقد عزّ. معنى ذلك أن هذا اللقاء كان النقطة الفاصلة التى انتهى عندها ماضى الإسلام الصعب والتى بدأت فيها مرحلة الانطلاق التى أدت إلى نصره النهائى. ويشير هذا التأكيد الملحوظات الآتية:

١- هو يتفق مع رأى الذى عبر عنه النص بشأن الفترة السابقة والذى مؤداه أن الرسول ﷺ وأصحابه لم يهدوا إلى الإسلام إلا نفرا «قليلًا مُتضعفين» من أهل مكة، علاوة على عشرين من النصارى ورجلا واحدا، هو الطفيل بن عمرو الدؤسى، من عرب الجزيرة.

٢- تخلص النص عن الحيدة الظاهرة التى أخذ نفسه بها حتى الآن بالامتناع عن التعبير عن رأى المؤلف بصورة مباشرة وبترك الكلمة لشهود العيان، والمتحدثين عن أنفسهم، والأخبار القصيرة، والشعر والاقبياسات القرآنية، فهو هنا يعبر، مباشرة وبقوة، عن رأى مؤلفه الأصلى.

٣- تجاوز النص المرحلة التى كان يربط فيها بين ما قاله هذا الشخص أو ذاك، وهذه الفقرة أو تلك من القرآن، وادعى العلم بإرادة الله سبحانه وتعالى اعتمادا، لا على قول للرسول، ولا على شىء فى القرآن، بل على إلهام المؤلف. ومن الواضح، مع ذلك، أن دور الإلهام فى هذه المعلومة معدوم، وأنها ليست سوى انعكاس لرأى المؤلف الشخصى فى

فضل أهل المدينة في المراحل التالية من حياة الرسول ﷺ ، ومن انتشار الإسلام بينهم.

(ج) الفترة المكية الخامسة لم تكن إذن ، في واقع الأمر ، إلا فترة مدنية ، إذ أنها تتعلق بإسلام أهل المدينة وبعملهم . وما يمكن تسميته بالتدخل المدني في الفترة المكية ، الذي رأيناه ، في الفترة الثالثة ، يتخذ شكل قصائد نظمها شعراء مدنيون كحسان بن ثابت ، وأبوقيس بن الأسلت ، ورأيناه في الفترة الرابعة ، في قصة إسلام سويد بن صامت ، ثم إسلام إياس بن معاذ ، اتسع في الفترة الخامسة حتى شمل الحيز المكي كله .

(د) من الصعب التوفيق بين القول الذي مؤداه أن أول اتصال لأهل المدينة بالإسلام كان لقاء الخزرج الستة بالرسول ﷺ وبين معلومة أخرى وردت في النص ، سابقة على إسلام حمزة ، يقول فيها النص : « فلما انتشر أمر رسول الله ﷺ ، في العرب ، وبلغ البلدان ، ذكر بالمدينة ، ولم يكن حتى من العرب أعلم بأمر رسول الله ﷺ ، حين ذكر وقبل أن يذكر ، من هذا الحى من الأوس والخزرج ، وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار اليهود ، وكانوا لهم حلفاء ، ومعهم في بلادهم . . . » (*) . ولو كان هذا صحيحا لكان أهل المدينة بين من سبقوا وقتها إلى لقاء الرسول ﷺ واعتناق الإسلام .

(هـ) معلومة أن مسلمي مكة كانوا « قليلا مُستضعفين » تناقضها معلومتان أخريان وردتا في النص هما :

(أ) معلومة سابقة عليها بثماني سنوات جاء فيها ، بعد نهاية فترة الاستخفاء وإسلام الرعيل الأول من مسلمي مكة البالغ عددهم ثلاثة

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٢٨٢ .

وخمسون: «ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به» (١).

(٢) المعلومة الناتجة عن ضرب عدد مهاجري الحبشة، الذين كان عددهم ٨٣^(٢)، في عشرة، والتي كان من مقتضاها في رأينا، أن مسلمي مكة، في منتصف الفترة المكية، كانوا ٨٣٠ وأن عددهم، في آخر هذه الفترة، كان يبلغ ضعف هذا الرقم على أقل تقدير.

(و) شرح العملية التي أسفرت عن دخول مئات الأشخاص من أهل المدينة في الإسلام، وهو الحدث الذي يشكل أهم الجوانب في حياة أي رسول وأي دين، وفي حياة نبي الإسلام، يقتصر في النص على ثلاث جمل وعلى رواية تتحدث عن هداية شخصين إلى الإسلام، وعلى فقرة صغيرة تتعلق بإسلام إحدى العشائر، وعلى ثلاث قوائم بأسماء. والجمل الثلاث هي تلك التي يقول فيها النص، في آخر حديث السنة الأولى: «فلم يبق ذارٌّ من دور الأنصار إلا وفيها ذكرٌ من رسول الله ﷺ» (٣). وتلك التي يقول فيها، في نهاية السنة الثانية: «حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون». وتلك التي ذكرت فيها أسماء العشائر الثلاث التي رفضت الإسلام تحت تأثير الشاعر أبوقيس بن الأسلت. والفقرة الصغيرة هي تلك التي تتعلق بدخول بني عبد الأشهل في الإسلام تحت ضغط رئيسهم سعد بن معاذ. أما القوائم، فهي تلك التي وردت فيها أسماء الخزرج الستة الأوائل، ثم «الأنصار» الاثنا عشر الذين اشتركوا في بيعة العقبة الأولى، والثلاثة

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٢٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٣٠.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٤٣٠.

والسبعون الذين اشتركوا في بيعة العقبة الثانية. وتتضمن هذه القائمة الأخيرة بياناً عن كل شخص من الأشخاص الذين اشتركوا في البيعة والمعارك التي شهدوها أو التي استشهد فيها. والفراغ في وصف مراحل وظروف هذه الظاهرة الكبرى، أي ظاهرة الدخول في الإسلام، أكبر حتى من ذلك الذي شاهدناه في مكة، نظراً إلى أن عدد من أسلموا في مكة أقل بكثير، فيما يقول النص، من عدد من أسلموا في المدينة.

ز) تصوير نجاح الإسلام في المدينة بأنه كان نجاحاً ساحقاً وسريعاً تصوير غير واقعي، والنص، على عادته، يقدم للقارئ هنا معلومات ودعوى لا أساس لها من الصحة ولا يزوده بالحد الأدنى من الشرح الذي يسمح له بفهمها. وإحدى هذه المعلومات تتعلق بالخزرج الستة الذين كانوا، بعد إحدى عشرة سنة من بدء الدعوة، على عجلة للدخول في الإسلام مخافة أن يسبقهم إليه يهود المدينة. وهذه المعلومة غير مفهومة للأسباب الآتية:

- اليهود كانوا حلفاء الخزرج ولم يكن لديهم، لهذا، ما يخشونه من جانبهم.

- لا بد أن هؤلاء الخزرج كانوا على علم بأن اليهود كانوا يدرون بدين محمد منذ مدة، لأن قريشا طلبت مشورتهم بشأنه؛ ولو أن اليهود كانوا يريدون أن يدخلوا في الإسلام لفعلوا ذلك منذ وقت طويل.

- حقيقة أن اليهود سيسبقون الخزرج إلى الإسلام لم تكن تخولهم امتيازاً خاصاً.

- إذا افترضنا جدلاً أن اليهود أسلموا قبلهم ، فقد كان أمام الخزرج ، لمواجهة الخطر الذى كان يهددهم به اليهود ، وسيلة عملية هى أن يسلموا بدورهم ويصبحوا إخوانهم فى الدين .

كذلك لم يفسر النص الأسباب التى أدت الى نجاح الإسلام فى المدينة . صحيح أنه ذكر ، فى جملة ، الأمل الذى عبر عنه الخزرج السنة الأوائل فى أن ينهى الإسلام ، الذى كان فى نيتهم أن يدعوا أهل بلدتهم إليه ، ما كان بين قبيلتيهما من عداوة وشر ، لكن النص لم يشر ، لا فى السنة الأولى ولا فى السنة الثانية ، إلى محاولة ما بذلها المسلمون للتقريب بين القبيلتين .

ح) من الصعب أن يتصور المرء أن أولى حالات اعتناق الإسلام فى المدينة لم تحدث إلا بعد إحدى عشرة سنة من البعثة ، وأن الناس دخلوا فى الإسلام بالجملة فى فترة ستين .

ط) من الصعب أن يعقل المرء أن أحداً من مشركى المدينة ، الذين كانوا على دين مكة الوثنى ، ممن كانوا يؤمنون هذه البلدة كل عام للحج ، وكان بعضهم مرتبطاً بأهلها بمصالح تجارية أو بصلة قبرى ، لم يرفع صوته فى المدينة مردداً الإشاعات المغرضة والمناقشات والاتهامات التى كانت توجهها مكة إلى محمد ودينه .

ي) من الصعب أن يظن المرء أن اليهود ، الذين قالوا قبلها لقريش إن دينهم خير من دين محمد ، لم يحسوا بأن تقدم الإسلام فى مكة وفى المدينة ينطوى على خطر لدينهم ولمصالحهم ، وأنهم لم يعبروا عن معارضتهم لمحمد عليه الصلاة والسلام ولا أقدموا على عمل من أى نوع لمحاربة دينه .

(ك) لم يذكر النص، من كل عشائر المدينة وقبائلها التي عُرض عليها الإسلام، سوى عشيرة واحدة هي بنو عبد الأشهل، عشيرة سعد بن معاذ وهي عشيرة لا يبدو، على العموم، أن إسلامها كان حالة يقاس عليها، إذ أنه لم يحدث نتيجة اقتناع شخصي من جانب أعضائها، وإنما تحت ضغط سيدها وشريفها. ولم يذكر النص عدد بني عبد الأشهل الذين أسلموا على هذا النحو، لكن قائمة الأنصار الذين شهدوا غزوة بدر، التي تبين عدد محاربهم في هذه الغزوة، تفيد أن أربعة فقط من بني عبد الأشهل، منهم سعد بن معاذ ذاته، اشتركوا فيها.

(ل) قصة إسلام أُسَيْد بن حُضَيْر وسعد بن معاذ، الشخصين الوحيدين من أهل المدينة اللذين شرح النص قصة إسلامهما، من بين المئات الذين أسلموا خلال الفترة الخامسة، تثير الملاحظات الآتية:

(١) هي قصة حُكِيتْ بقدر كبير من التفصيل شأن روايتي إسلام عمر. وهناك، فضلا على ذلك، شيء من الشبه بين «سيناريو» أولى هاتين الروايتين، و«سيناريو» إسلام عمر: فكرة أولى سيئة عن الإسلام، ورجال غاضبون، في أيدي كل منهم حربة ونية شر، وتلاوة للقرآن، وتغيير مفاجيء في الهيئة، واعتناق للإسلام، واغتسال للتطهر، وركعات.

(٢) تطابق شبه كامل في الخطوات والحركات والعبارات بين قصتي إسلام أُسَيْد بن حُضَيْر وسعد بن معاذ.

(٣) إذا كان في استطاعة عمر أن يغتسل ويتطهر لأنه كان، عند إسلامه، في بيت أخته، فإن النص لم يذكر أين استطاع أُسَيْد وسعد أن يغتسلا ويتطهرا، علما بأن لقاءهما بمصعب بن عمير تم في بستان، وبحضور نفر كثير.

٤) كان يبدو على أُسَيْد وسعد، في القصة، أنهما يجهلان كل شيء عن الإسلام والقرآن مع أن عشرات من الأوس والخزرج كانوا قد دخلوا الإسلام، طبقاً للنص، خلال السنة الأولى من الفترة الخامسة، وأنه، كما يقول النص في بداية الفترة المكية الثالثة: «لم يكن حتى من العرب أعلم بأمر رسول الله ﷺ . . من هذا الحى من الأوس والخزرج».

م) من الغريب أن النص لم يشير بكلمة إلى أبى سلمة، هذا الصحابى الذى هاجر إلى الحبشة والذي يذكر النص إنه، بعد أن عاد إلى مكة فى السنة الحادية عشرة من البعثة، هاجر مرة ثانية إلى المدينة. وإذا كانت قصة إسلام النجاشى التى حضرها أبو سلمة صحيحة فلا بد أن أبى سلمة حكاهما لأهل المدينة وأنها خلبت ألباب المستمعين وجعلت بعضهم يسلمون.

ن) عبارات بيعة العقبة الأولى هى ذاتها عبارات الآية ١٢ من سورة المتحنة التى نصها:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهَتَّانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَائِعِهِنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) ﴾ [المتحنة : ١٢]

كل ما فى الأمر هو أن هذه الآية تتحدث عن النساء وحدهن.

س) المعلومة التى فحواها أن الرسول ﷺ أضاف فى بيعة النساء، : «فإن وقَّيتم فلکم الجنة، وإن غَشَّيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحدِّه فى الدنيا، فهو كفَّارة له»، معلومة خاطئة تماماً لأن الحدود لم تُفرض إلا فى الفترة المدنية.

٣- نظرة أكثر واقعية،

إذا جردنا صورة الإسلام في المدينة مما علق بها في النص من مبالغات وتحيز فإن في الإمكان عرضها على النحو الآتي:

لا بد أن أمر محمد ﷺ وأبناء القرآن والإسلام قد بلغت المدينة منذ بداية البعثة. لا لأن اليهود تنبأوا بمقدمه وأخبروا بذلك حلفاءهم من الأوس والخزرج، بل لأن الاتصالات بين مكة والمدينة كانت مستمرة. فقد كان كفار المدينة يقدون كل موسم إلى مكة للحج وللعمرة، كما أن من أهل المدينة من كان يؤم مكة للزيارات أو للتجارة. وكان بعض أهل مكة بدورهم يترددون على المدينة للتجارة، أو لزيارة أقاربهم.

وبما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن في النص عدة إشارات تفيد أنه كانت هناك بين أهل هاتين البلدين علاقات متصلة في مجالات عدة. فتحن نعرف من النص مثلاً أن العباس وجبير بن مطعم والحارث بن حرب كانوا كثيراً ما يذهبون إلى المدينة في تجارتهم. ورأينا، من جهة أخرى، أن وفداً من الأوس ذهب إلى مكة ينشد حلف قريش ضد الخزرج. وكان لشاعر المدينة قيس بن الأسلت زوجة قرشية، وكان يتردد على مكة ويقيم فيها فترات طويلة. وليس هناك، ولو أن النص لم يذكر ذلك، ما يمنع من تصور أن الرسول ﷺ ذاته، الذي صحبته أمه إلى المدينة وهو صغير لزيارة بنى عدى بن النجار، عشيرة أم عبدالمطلب، قد زار المدينة عدة مرات بعد أن أرسله الله بالإسلام. وكل الناس، من أهل المدينة أو من غيرهم، الذين اتبحت لهم الفرصة لزيارة مكة أو للسفر من مكة إلى المدينة، بما في ذلك العرب غير المكين، كانوا، ولاشك، يذيعون في المدينة أنباء الضجة التي أحدثها دين محمد في مكة وفي غيرها من أنحاء الجزيرة. ولابد أنهم كانوا يذكرون أيضاً أن قريشا كانت

منقسمة على نفسها بشأن محمد، وأن من القرشيين، لاسيما بين الفقراء، من آمنوا بهذا النبي، بينما كان آخرون يدعون أنه مجنون أو شاعر أو كذاب.

ولابد أن يهود المدينة أو الجهات الدينية التي كانوا يتبعونها قد تردوا طويلا في تحديد الموقف الذي كان عليهم أن يتخذوه من محمد ﷺ في الخلاف الذي كان قائما بينه وبين قومه وبينه وبين كفار المدينة. ولابد أن بعضهم اقترح الوقوف على الحياد. ولابد أن بعض حكمائهم، من جهة أخرى، قالوا إن دين محمد، وهو دين توحيد، وإن لم يكن صادرا عن إلهام رباني، وعلى الرغم من كونه يختلف عن اليهودية في غلة أمور، إلا أنه دين فرصته كبيرة في الفوز في الجزيرة العربية، لأن الأسس التي قام عليها أقوى بكثير من أسس الوثنية والشرك.

ولابد أن من اليهود من استرعى النظر كذلك، في المراحل اللاحقة من الرسالة، إلى أن محمدا كان يقول إنه ينتمي إلى ملة إبراهيم، ويعترف باليهودية، ويوقر أنبياء اليهود، ومن قال أنه لهذا السبب يستحق أن يسانده اليهود ضد خصومه وأعدائه. ولكن لا أنصار الحياد ولا دعاة مساندة محمد كانت لهم الكلمة الأخيرة بين اليهود.

لقد كانت مصالح اليهود في الجزيرة العربية منذ قرون متشابكة مع النظام الاجتماعي والاقتصادي، بل والنظام الديني، لمكة والمدينة، وكان هذا التشابك قويا لدرجة كان يستحيل معها على اليهود الوقوف على الحياد أو السماح بانهيار النظام القائم تحت ضربات المسلمين.

ولذلك انتصر منطق المصلحة السياسية العاجلة، في القرار اليهودي، على الاعتبارات الإيديولوجية والنظرة الطويلة الأمد. ومن ثم قال يهود

المدينة لقريش، حين التمس مشورتهم، إن وثبتهم أفضل من دين محمد، ولا بد أنهم قالوا الشيء نفسه لمشركي المدينة.

ولأن اليهود انحازوا إلى صف خصوم محمد، ما كان يسعهم إلا أن يعارضوا الإسلام في المدينة. ولما كانت حالات الدخول في الإسلام بينهم قليلة - والنص في حديثه عن الفترة المدنية يذكر بعضها - فإن معارضتهم لم تتخذ على الأرجح شكل الاضطهاد. لكن شعراءهم لا بد أن يكونوا قد شاركوا في حملات الدعاية ضد الإسلام، شأنهم في ذلك شأن شعراء المشركين. كذلك فلا بد أن أحبارهم كانوا، من جانبهم، يصدرون تصريحات تشكك في صحة الرسالة المحمدية والقرآن. ولا بد أن أجزاء من كتاباتهم الدينية أذيعت للتدليل على أن محمدا نقل منها. ولا بد أن هذه العناصر قد أبلغت أيضا إلى قريش في مكة كي يستخدمها عملاؤهم وشعراؤهم في حملات الدعاية التي كانوا يشنونها على الإسلام.

هذه هي العراقيل التي واجهت دين محمد ﷺ في المدينة. وكانت المدينة، على الأرجح، هي الجبهة الثانية التي كان على المسلمين أن يجاهدوا فيها لنشر دينهم. ولا بد أن جبهات أخرى ظهرت في الجزيرة، لكن النص لا يقول عنها شيئا. وقد أدى تدفق الحجاج المستمر على مكة والاتصال التجاري والعائلي بأهلها إلى إذاعة الإسلام في المدينة وفي غيرها في الوقت ذاته، وإلى ظهور مشكلات من نوع مشكلات مكة في المجتمعات العربية، وبالنسبة للمسلمين الذين كانوا يقطنون فيها.

ومن هنا يمكن أن يقال إن الإسلام، في اللحظة التي حدث فيها لقاء الرسول ﷺ بالخزرج الستة، كان موجودا بالمدينة منذ عدة سنوات، وأنه اتسع فيها بالرغم من كونه لقي فيها أحيانا معارضة لا تقل في ضراوتها

عن معارضة قريش له في مكة . وكانت هذه المعارضة ، من بعض النواحي ، أعتى إيديولوجيا من تلك التي صادفها المسلمون في أنحاء الجزيرة الأخرى ، لأن خصومهم في المدينة كان من بينهم أمة موحدة بالله ، لها كتاب ، وتاريخ طويل ، ودين قديم ، وسلالة طويلة من الأنبياء . أمة كانت نسبة من يعرفون القراءة والكتابة فيها ، أغلب الظن ، أعلى نسبة في شبه الجزيرة ، ولم تكن مجادلتها في الدين أمرا سهلا .

على أن المسلمين لم يكونوا يتمتعون في المدينة ، من ناحية المشركين كذلك ، بجميع التسهيلات التي كانت متاحة لهم في مكة . فإن المدينة لم يكن يتوافر فيها جو التسامح الذي كانت تتم به مكة بوصفها عاصمة العرب الروحية والتجارية والتي كان يقدم إليها العرب من كل مكان ليمارسوا شعائر عباداتهم المختلفة .

ومن جهة أخرى لم يكن المسلمون يستفيدون في المدينة من حرية الكلمة والاجتماع التي كانت تكفلها لهم الأشهر الحرم الأربعة ومواسم الحج في مكة .

وأخيرا ، وعلى الرغم من أن النص لا يقدم أية معلومات عن سكان هاتين المدينتين ، فإن أهل المدينة كانوا ، على الأرجح ، أقل تنوعا بكثير من أهل مكة ، كما أنهم كانوا ، فيما يبدو ، أقل عددا من أهل مكة ، وكان هذا يسهل عملية الرقابة على أعضاء قبيلتي المدينة الكبيرين .

كيف أتيح للإسلام ، في هذه الظروف الصعبة ، أن يحرز في المدينة ، في غير حضور الرسول ، نجاحا لا محل للتشكيك فيه ؟

لقد كانت مبادئ هذا الدين ، وكتابه ، في المدينة وفي غيرها ولاشك ، هي العوامل الرئيسية ولا بد أن الإسلام ، على الرغم من

المعارضة، ورغم مقاومة الرؤساء المحافظين، قد خلب الباب جماهير الناس فى المدينة بصورة لا تقاوم، بحديثه عن البعث، وعن الجنة والنار، ويقواعد سلوكه الأخلاقية، وبحديثه عن حساب الأعمال، والمسئولية الشخصية، والأخوة فى الدين، وحقوق الفقراء وحملته على الأغنياء. وكانت هناك، ولابد، عوامل أخرى هيات ظروفًا مواتية لنجاح الإسلام فى المدينة يمكننا أن نذكر من بينها: مثل مكة، وكون بعض التجار المكيين، الذين أصابهم الضرر نتيجة للمقاطعة التى طبقتها قريش ضدهم، ذهبوا إلى المدينة برؤوس أموالهم وأقاموا فيها؛ وكون مسلمين آخرين، مثل أبى سلمة، قد هاجروا إليها؛ وكون دعاة مثل مصعب بن عمير، قد أوفدوا إليها من قبل الرسول ﷺ لتعريف أهلها بالإسلام ولقراءة القرآن عليهم.

ومن غير المستبعد أن يكون الاضطهاد الذى تعرض له المسلمون والضحايا الذين أودوا فى سبيله، من هذه العوامل أيضا. وهناك أخيرا عامل من الممكن أن يكون قد لعب دورا كبيرا فى إقبال أهل المدينة على الإسلام، هو رغبتهم، التى لم تكن بالضرورة رغبة واعية، فى التغلب على شعورهم بالدنية حيال اليهود.

ولم يكن موقف المدينة، فى هذا المجال، مشابها لموقف مكة، فإن مكة، عاصمة الشرك، ومدينة الكعبة، ومقصد الحجاج العرب من جميع أنحاء الجزيرة منذ غياهب التاريخ، لم تكن لديها شكوك فيما يتعلق بتفوقها على المستوى الدينى، وكان اتصال المكيين باليهود والنصارى، من اتباع دين إبراهيم، فى الشام والعراق واليمن، وبالجالية اليهودية النصرانية التى من المحتمل أنها كانت موجودة فى مكة ذاتها، اتصالا عارضا وسطحيا، ولم يكن من القوة بحيث يخلخل أسس شركهم.

أما فى المدينة فإن اتصال أهلها الكفار باليهود كان دائما ، ولا بد أن تفوق أهل الكتاب هؤلاء من النواحي الروحية والمعنوية ، فضلا على تفوقهم المادى ، كان يثير حسدهم وغيبتهم . للدرجة أن بعضهم اعتنقوا اليهودية وأن عشائر مثل بنى عوف وبنى ساعدة وبنى الحارث وبنى جشم وبنى النجار كان بعض أفرادها من اليهود (*) . لذلك فمن المحتمل جدا أن تكون جماعات متزايدة العدد من أهل المدينة قد انجذبت إلى الإسلام ، الذى أهداهم نبيا ، كأنبياء اليهود ، وكتابا ككتبهم ، أنزل بلغتهم ، وقواعد سلوك أخلاقية هى القواعد ذاتها التى ألزم بها اليهود ، وديننا يعترف بالأنبياء السابقين ، ويعترف فى الوقت ذاته بقداصة الكعبة وبشعائر الحج التى تمثل مركز عبادتهم ، ومن ثم كان باستطاعة أهل المدينة أن يصبحوا بالإسلام أندادا لليهود وأن يؤكدوا هويتهم بالنسبة لهم .

أما الدعاية المناهضة للإسلام التى لا بد أنها استمرت منذ بداية البعثة على يد كفار المدينة ويهودها ، فالأرجح أنها ضعفت وفقدت من فعاليتها بمرور الوقت ، وذلك للأسباب الآتية :

(أ) نقد الكفار وافتراءاتهم ضد محمد ودينه والقرآن كانت ، على الأرجح ، هى ذاتها التى كانت ترددها قريش فى مكة ، ولم يكن فيها جديد . وقد تكفل القرآن الكريم بالرد عليها تفصيلا ، وبالتنديد بمن كانوا يروجونها . كذلك فإن أهل المدينة ، مثلهم فى ذلك مثل أهل مكة ، لم يكن فيهم من قبل التحدى الذى وجهه القرآن إلى الكفار ، الذين كانوا يدعون أن هذا الكتاب من صنع محمد ، أو أن محمدا كان يتعلمه من غيره ، بأن يأتوا ولو بسورة واحدة مثله .

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .

(ب) أما أوجه النقد والافتراءات التي كان يروجها اليهود، فلا بد أن المسلمين قد ردّوا عليها بطريقتين:

(١) بإخزاء مخاطبيهم من اليهود بحجج مثل:

- كيف تسمحون لأنفسكم بانتقاد ديننا وديننا مع أننا، مثلكم، نؤمن بإله واحد، وأننا نعترف بجميع أنبيائكم، وأننا، على الرغم مما بيننا وبينكم من خلاف، نتبنى مبادئ دينكم؟

- أظنون أن الله الذي تعبدونه سيغفر لكم هجومكم على دين يأمر بعبادته ويعمل على تحطيم دعائم الشرك والوثنية والكفر وعلى إعلاء ملة إبراهيم، ملة الإله الواحد الأحد؟

- أظنون أن أنبياءكم - وموسى بوجه خاص - كانوا يقرّون تحالفكم مع المشركين وعبيدة الأصنام والكفار ضد ديننا الذي لا يكف قرآنه عن ذكر نضال موسى ضد فرعون مصر وعن مواساتنا فيما نلقاه من آلام من جانب الكفار بتذكيرنا بالآلام التي كان اليهود يكابدونها على يد فرعون؟

(٢) بتلاوة فقرات القرآن التي ينعى الله تعالى فيها على اليهود خيانتهم لميثاقهم معه سبحانه وتعالى وتنكرهم لتعاليم أنبيائهم، ويعقد المقارنات المتوازية بين أخطائهم الماضية وموقفهم حيال المسلمين.

(٣) بدعوتهم، باسم وحدانية الله تعالى وأخوة تابعي إبراهيم، بمراجعة موقفهم والانضمام إليهم في الكفاح ضد أعداء الله.

٤. النتيجة:

يمكن تلخيص النتائج التي تستخلص من التحليل السابق فيما يأتي:

(أ) يتضمن النص بؤادر واضحة الدلالة على تحيزه الصارخ لأهل المدينة: (١) فأهل المدينة هم وحدهم الذين يظهرون على مسرح

الأحداث فى الفترة المكية الخامسة ؛ (٢) منح النص لقب «الأنصار» لجميع أهل المدينة، حتى قبل إسلامهم ؛ (٣) اختار الله تعالى «الأنصار» (أى أهل المدينة) لنصرة نبيه والإسلام ؛ (٤) أول لقاء بين الرسول ﷺ مع أهل المدينة هو نقطة التحول بين هزيمة الإسلام ونصره (٥) إسلام أهل المدينة تم بسرعة فائقة ؛ (٦) لم يلق الإسلام أدنى معارضة فى المدينة ؛ (٧) من نراهم من مسلمى المدينة أشخاص لا تشوبهم شائبة .

ب) هذه الصورة المضيئة للإسلام المدنى خلال الفترة الخامسة معروضة على خلفية سوداء يشكلها أداء الإسلام السيئ عند قريش والقبائل الأخرى فى شبه الجزيرة .

ج) الادعاء بأن الإسلام المكى كان فاشلا، حتى من خلال الوصف المشوه الوارد فى النص، هو رأى متحيز، وحقيقة أن المسلمين كانوا مضطهدين وأن ذويهم قد اضطروهم إلى الهجرة إن صورت شيئا لا تصور الهزيمة بالضرورة. بل إن للمرء أن يرى فيها، على النقيض، دلالة على النجاح، إذ أن اضطهاد المسلمين كان ناجما عن شعور قريش بأن الإسلام يشكل خطرا حقيقيا على ديانة المجتمع المكى ومؤسساته، وأن كل الجهود والتدابير التى اتخذتها الهيئة الحاكمة لم تنجح فى القضاء عليه أو فى كبح جماحه .

والنص ذاته يذكر، فى رواية آخر حديث بين سادة قريش مع الرسول ﷺ عند أبى طالب، أن الإسلام قد فشا فى مكة، وقريش تبدو فيه على استعداد لتقديم تنازلات، فى حين يبدو ﷺ متمسكا بموقفه على الرغم من أنه كان يعلم أن عمه وحاميه موشك على الموت . وإذا كان محمد ﷺ لم يدبر انقلابا للنظام القائم فى مكة ولم يستول على السلطة، فلا يجب أن يفسر ذلك على أنه دليل على الهزيمة ، فإن الاستيلاء

على زمام الأمور فى مكة لم يكن الهدف الذى أُرسِل هذا الرسول من أجله .

لقد كان محمد ﷺ ، قبل كل شيء ، فى وصف القرآن له ، بشيرا ونذيرا ، وكانت رسالته تتحصل أساسا فى تبليغ القرآن الكريم للناس ودعوتهم إلى الإيمان به واتباعه .

ولما كانت ديانة الرسول تهاجم ديانة قريش المتأصلة ونظامها الاجتماعى ذا الجذور العميقة ، فقد حاربتها بلدة الرسول ﷺ . وكان هذا شيئا طبيعيا . ولكن ، لأن دين محمد كان أرقى من عبادات البلد الذى أُرسِل فيه ، ولأنه ﷺ كان يملك الصفات اللازمة للنهوض بالرسالة ، فقد اتبعه فريق من الناس وتعرضوا فى سبيل ذلك لشتى صنوف المخاطر .

ولو أن هؤلاء التابعين كانوا ، بعد أحد عشر عاما من بدء الدعوة ، «قليلًا مستضعفين» ، كما يقول حديث الفترة الرابعة ، لجاز التحدث عن الهزيمة . لكن عدد المسلمين فى مكة كان لا بد يفوق بكثير ما يستفاد من هاتين الكلمتين ولا بد أن كثرتهم هذه كانت مسئولة عن مجموعة التدابير التى اتخذتها قريش لمحاربة المسلمين .

(د) ومن صور التشويه الأخرى للحقيقة ادعاء أن الرسول ﷺ انتظر حتى يموت عمه أبوطالب كى يتصل بقبائل شبه الجزيرة ، وأن واحدة من هذه القبائل لم تؤمن بدينه خلال الفترة المكية بأكملها .

(هـ) كرر مؤلف النص ، بإغفاله سور القرآن التى نزلت خلال السنوات الثلاث المكية الأخيرة ، الخطأ الذى ارتكبه فى وصفه للفترات السابقة ، وهو إغفال الجوهر . وسأعود إلى هذه النقطة فيما بعد .

و) من المستغرب أن أيا من شعراء المدينة المسلمين، كبارهم وصغارهم، الذين كثرت أشعارهم خلال الفترة المدنية، لا سيما تلك التي تتعلق بالغزوات، لا تظهر له في النص خلال عملية إسلام أهل المدينة بأكملها قصيدة واحدة تعبر عن المشاعر والآراء المستلهمة من اعتناق الإسلام كدين، أو من القرآن، أو من محبة الرسول أو من المصير المفجع الذي لقيه إخوانهم في الدين المضطهدون.

ومن الأمور الملفتة للنظر أن حديث هذه الفترة غفلٌ من أى شعر لحسان بن ثابت، مع أننا رأينا قصائد لحسان في شعر الفترة الثالثة. وهذا الإغفال يذكرنا بإغفال مماثل لكل شعر قاله مسلمون من شعراء مكة عن دينهم. وهذه الظاهرة المزدوجة تؤكد الفكرة التي عرضتها وهي أن كل ما لا يتعلق بالحرب - بما في ذلك الهداية إلى الدين والتقدم السلمى للإسلام - ليست له أهمية حقيقية عند مؤلف النص.

ز) هنا، كما في الفترة الرابعة، يلاحظ في النص فراغات كثيرة وصمت كبير:

١) بشأن النزاع بين قريش والمسلمين، والنص يصور لنا الأمور هنا وكأن تاريخ هذا النزاع قد توقف بموت أبى طالب، فنحن نجهل:

- ماذا كان موقف بنى عبدالمطلب وبنى هاشم من محمد، وما إذا كانت هاتان القبيلتان ظلتا تحميانه، وما إذا كانتا قد وقفتا صفا واحدا وراء أبى لهب وقبائل قريش الأخرى ضد محمد أو أن بعض أفرادها فضلوا الدخول في الإسلام.

- هل كانت قبائل قريش المختلفة - بما في ذلك بنو عبدالمطلب وبنو هاشم - استمرت في اضطهاد المسلمين، وما إذا كان هذا الاضطهاد

قد أثار حركات هجرة أخرى الى الحبشة أو إلى غيرها: وما أسماء المسلمين الذين اشتركوا في هذه الهجرات، وأى استقبال قوبلوا به في بلاد المهجر، وماذا كانت أشكال الأذى والاعتداءات التي دبرت ثم نفذت ضد الرسول من جانب قريش أو من جانب قبيلته ذاتها بعد اختفاء حاميه.

- هل كانت ينابيع الشعر المكي قد نضبت بموت أبي طالب، وما إذا كان شعراء آخرون، لم تُسجل أشعارهم، قد استمروا في التغنى بمفاخر بني هاشم، وفي هجاء قبائل قريش الأخرى، وفي إعلان أنهم لن يسلموا محمدا أبدا.

- ما إذا كان سادة قريش، وفقا لعاداتهم القديمة، قد استمروا أو قد كفوا عن توجيه أسئلة محرجة إلى الرسول في المسجد الحرام، هل كان كلامهم قد تسبب في نزول آيات جديدة من القرآن.

(٢) بشأن تطور الإسلام في مكة، لم يشرح النص هل كانت قاعدة الإسلام قد اتسعت خلال الفترة الخامسة، أو هل كانت قد انكمشت، وهل كان الرسول ﷺ قد استطاع، بعد حالات الإخفاق التي تحدث عنها النص في الفترة الرابعة، أن يستميل إلى الإسلام بعضا من ألوف حجاج القبائل غير المكية، وهل كان أبوبكر، الذي أدخل في الإسلام ستة من أصحابه في الفترة الأولى، لم يتمكن من إدخال غيرهم فيه خلال الفترة الخامسة، وهل كان عمر وعثمان وياقوت صحابة الرسول ﷺ، الذين لم تحسب لهم - بخلاف إخوانهم المسلمين من أهل المدينة - أية حالة من حالات الهداية إلى الإسلام، أكثر توفيقا مع مواطنيهم من أهل مكة ومع القبائل العربية الأخرى التي استطاعوا الاتصال بها خلال مواسم الحج، أو خلال رحلاتهم. ونحن لا نعرف هل كان

المسلمون قد عذبوا من قبل ذويهم، وهل كان بعضهم قد ارتد عن دينه أو فضل النفي.

وفيما يتعلق بحياة الرسول ﷺ ذاته، نحن نجهل كل شيء باستثناء لقاءاته الثلاثة مع ستة، ثم اثني عشر، ثم ثلاثة وسبعين من «الأنصار»، وهي لقاءات لم تستغرق سوى ساعات قليلة من السنتين اللتين تتكون منهما الفترة الخامسة.

(٣) بشأن مسيرة الإسلام في المدينة، على الرغم من أن النص جعل منها موضوع هذه الفترة الوحيد.

ح) قصة هذه المسيرة تتحصل في الواقع في حديث الرسول ﷺ مع المجموعة الأولى، وفي نص بيعة العقبة الأولى، وفي فقرة من أحد عشر سطرا عن أول صلاة جمعة تقام في المدينة، وفي صفحة ونصف تحكى إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، وفي فقرة من سبعة أسطر عن إسلام بني عبد الأشهل، وفي قصيدة من ستة أبيات لأبي قيس بن الأسلت، ومن جملتين قيل فيهما إنه «لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ»، ثم «لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون». يضاف إلى ذلك، أخيرا، ثلاث قوائم بأسماء «أنصار» المجموعات الثلاث الذين لقوا الرسول ﷺ.

وإذا حذفنا من هذا الحديث الصفحات التي خصصت لهذه القوائم الثلاث والقصة المتعلقة بإسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، فإن ما يتبقى، في نهاية الأمر، هو فقرة من أربعة أسطر عن لقاء الرسول بمجموعة الستة الأولى، ونص بيعة العقبة الأولى الذي ورد في اثني عشر سطرا، وفقرة من سبعة أسطر عن إسلام بني عبد الأشهل والجملتان اللتان تسجلان مرحلتى دخول أهل المدينة في الإسلام. أي

مالايزيد مجموعته على صفحتين . هذا تقريبا، هو كل الحيز الذي يخصصه النص لما يمكن أن يعتبر الحدث الأكبر الذي شهدته المدينة خلال الفترة الخامسة.

ومن الطريف في هذا الصدد أن يلاحظ أن قائمة أسماء أنصار بيعة العقبة الثانية تتضمن أسماء ثلاثة أشخاص هم ذُكْران بن عبد قيس، والعباس بن عباد، وعُقبة بن وهب، سبق أن هاجروا إلى رسول الله ﷺ من المدينة فكان يقال لكل منهم: مهاجرى أنصارى.

هل هاجر هؤلاء الثلاثة إلى مكة فرارا من الاضطهاد، أم لمجرد أن يكونوا بالقرب من الرسول؟

النص لا يجيب عن هذا السؤال، ولا يقدم أية معلومات عن حالة هؤلاء المهاجرين الأنصارين الثلاثة على الرغم من أنها كانت تستحق التوضيح.

ط) العرض الذي يقدمه النص غير مقنع في نقطتين: المدة، وعدم المعارضة. ذلك أن حالات الدخول في الإسلام لا بد أن تكون قد حدثت قبل سنوات من العام الثانى عشر للبعثة، وأن معارضة ضارية لا بد أن تكون قد حدثت من جانب المشركين المحافظين من قبيلتي المدينة الكبيرين، ومن جانب اليهود. ولا بد أن تكون هذه المعارضة قد اتخذت، لاسيما عند المشركين، شكل الاضطهاد والإخراج وعند المسلمين شكل الهجرة.

ي) مؤلف النص، كعادته التي سجلناها لدى تحليل حديث الفترات السابقة، يترك دون تفسير معظم التأكيدات غير المعقولة وغير المفهومة التي يسوقها، فهو مثلا لا يفسر: لماذا انتظر أهل المدينة اثنتى عشرة سنة كي يبدأوا الدخول في الإسلام على الرغم من أنهم كانوا، قبل كل

قبائل العرب الأخرى، يعلمون أن نيا سيرسل؟ كيف لم يقابل حجاجهم وتجارهم وزوارهم، الذين كانوا يقدون إلى مكة منذ بداية البعثة، محمدا ﷺ ولا أحدا من أصحابه؟ كيف لم يسمع أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، بعد اثني عشر عاما من البعثة، قط، عن الإسلام، وكيف لم تصل إلى علمهم بعض فقرات القرآن؟ لماذا عجز مُصعب بن عمير، الذي استطاع في سنة واحدة أن يستميل إلى الإسلام منات من أهل المدينة، عن استمالة مكى واحد إليه؟ ما الذى جعل اليهود، الذين كانوا يعلمون أن نيا سيعث وكانوا يهددون باتباعه ويقتل حلفائهم من الأوس والخزرج، لا يتبعون محمدا ويرفضون دعوته ﷺ إلى الإسلام، وكيف لم يعارضوا هذا الدين حين انتشر فى المدينة وهدد مصالحهم الحيوية؟ ما الذى جعل أهل المدينة ورؤساءهم، الذين كانت مصالحهم الدينية والتجارية ترتبط بالنظام القائم فى مكة ارتباطا وثيقا، ينضمون إلى الإسلام بهذه السهولة؟ ماذا كانت ردود الفعل أو الجزاءات التى ترتبت على إسلام أعداد كبيرة من أهل المدينة لدى حلفائهم اليهود ولدى شركائهم وأصدقائهم المكيين؟

(ك) من المرجح أن مؤلف النص اصطنع دعوى إسلام المدينة السريع لغاية واحدة هى تفضيل أهل المدينة على أهل مكة. ومن المؤكد أنه لم يتنبه إلى أن دعواه تضر، فى التحليل الأخير، بالقضية التى يترافع فيها.

لقد كان الفضل الحقيقى للمسلمين يتمثل، فى الواقع، فى كونهم عرفوا كيف ينشرون دينهم فى مناخ مُعادٍ، فى الغالب، كمناخ مكة، بإقناع مواطنيهم بمحاسن الإسلام وبأنهم متى أسلموا استطاعوا، كميزة إضافية، أن يكونوا أندادا لليهود. ولا بد أنهم دفعوا ثمنا غالبا للتوصل إلى هذه النتيجة. لكن روح التحيز التى كتب بها النص، والرغبة فى

قصر التكريم على «الأنصار» دون غيرهم، كانتا من القوة بحيث جعلته يفضل التضحية بفضل مسلمي المدينة الحقيقي ليظهر هذه البلدة، بالمقارنة بمكة، بمظهر الأرض التي يكفي أن تبذر فيها كلمات قليلة عن الإسلام وآيات قليلة من القرآن كي يكون محصول الهداية فيها محصولاً وفيراً.

ل) في المقدور تشبيه منحى النص هنا، الذي يبدو وكأنه يقول: «معارضو محمد والإسلام، ومضطهدو المسلمين، ليسوا هم أهل المدينة، ليسوا هم على الإطلاق، بل هم الآخرون، قریش!»، بمنحاه وهو يبرىء بنى عبدالمطلب وبنى هاشم من كل شبهة. ومن المحتمل جداً أن أسماء وقصص العديد من أبطال الإسلام وشهادته في المدينة أخفيت على هذا النحو، كما أخفيت أسماء وقصص من اضطهدهم بنو عبدالمطلب وبنو هاشم، وغيرهم من أهل مكة.

م) النص، حين استبعد عرب شبه الجزيرة من نطاق الفترة الرابعة، حصر الإسلام كله في محور مكة/ المدينة. وكان الغرض من عملية الاستقطاب هذه، فيما يبدو، هو التمهيد لتنفيذ المخطط، المستوحى من اعتبارات سياسية، الذي توخاه مؤلف النص ابتداءً من هذه الفترة المكية الخامسة، أي مخطط الانتقام وتصفية الحسابات الذي كانت «أسلمة» المدينة السريعة، على خلفية من رفض قریش للإسلام، خطوته الأولى.

ن) من الممكن أن نجد في التحليل والملاحظات السابقة إجابة عن بعض الأسئلة التي أثارها الطريقة التي عالج بها النص الفترة المكية الرابعة. ففي الإمكان أن يقال:

- إجابة عن السؤال (١)، إن السبب الذي جعل المؤلف يسدل الستار على الأحداث (إسلام من أسلم، والاضطهاد، والهجرة، إلخ) التي لا بد أن مكة شهدتها في السنة الحادية عشرة من البعثة، ولم يسجل إلا زيارة

النبي ﷺ للطائف ولقاءاته بأربع مجموعات من الحجاج غيرالمكيين، هو أن المؤلف لم يكن يهتم، فيما يتعلق بالفترة الرابعة، بوقائع الأحداث وتاريخها، بل كان الذى يهمله هو تعييد الأرض للتدليل، فى حديث الفترة الخامسة، على أن أهل المدينة كانوا، من بين كل القبائل غير المكية، الوحيدين الذين فتحوا أذرعهم للإسلام.

- إجابة عن السؤال (٦)، إن السبب فى غياب مسلمى مكة كلية عن الصورة التى رسمها النص للفترة الرابعة، وفى وصفهم بالقلة المستضعفين هو، هنا أيضا، الرغبة فى تعييد الأرض للتدليل، فى حديث الفترة الخامسة، على أن مسلمى المدينة كانوا، بعد سنتين من اتصالهم بالرسول ﷺ، أكثر منهم عددا بكثير، على الرغم من أن هؤلاء المدنيين لم يفيدوا، كإخوانهم المكيين، من وجود الرسول ﷺ بين ظهرائهم ولم يكونوا يتلقون مثلهم، بصورة مباشرة، ما ينزل من القرآن أولا بأول. ومن الواضح أن هذا كان، فى نظر مؤلف النص، خير دليل على أن المدينة - بعكس مكة - كانت الأرض التى أنتجت للإسلام خير محصول.

- إجابة عن السؤال (٧)، إن السر فى كون الشخصين الوحيدين اللذين أسلما على يد الرسول ﷺ فى الفترة الرابعة كانا من أهل المدينة هو أن مؤلف النص كان يعتبر أن صفحة الإسلام فى مكة قد طويت بوفاة أبى طالب، وأن صفحة جديدة، هى صفحة قبائل الجزيرة العربية من غير أهل مكة، قد فتحت، وهى صفحة يستفاد من النص أنها كانت قائمة كالصفحة المكية. على أنه كان من المفيد لإبراز رفض هذه القبائل للإسلام خلال هذه الفترة التمهيدية لدخول أهل المدينة على مسرح الأحداث، وإبرازه بصورة أفضل، أن تعتق الإسلام شخصية أو

شخصيتان مدنيتان . وهذا هو الدور الذى قام به «الرجل الكامل» سويد ابن صامت والغلام الحدث إياس بن مُعَاذ (الأخ الأصغر لسعد بن مُعَاذ)، اللذان لم يعلننا إسلامهما على الملأ بعد لقائهما بالرسول ﷺ ، (ربما لعدم تقليل الأثر القوى الذى أريد أن يحدثه لقاء الرسول ﷺ بالسته، وهو اللقاء الذى قصد المؤلف أن يفتتح به عصرا جديدا فى تاريخ الإسلام)، لكن أسرتيهما اعتبرتاها مسلمين حكما ساعة موتهما .

- إجابة عن السؤال (٨)، بشأن السبب الذى من أجله كان جميع العرب الذين يصادفهم المرء خلال الفترة ، باستثناء أبى لهب وأخوى ربعة (الذين كانا فى الطائف)، من غير المكين هو أنه كان من اللازم، لإظهار دعوى أن أهل المدينة انفردوا بنصرة الإسلام فى الجزيرة العربية، أن تستبعد القبائل غير المكية من أرض الإسلام.

س) الحديث الذى يحكى قصة لقائى الرسول مع حجاج المدينة، وبيعة العقبة الأولى، وحالات دخول الناس فى الإسلام التى حدثت فى المدينة بين اللقاء الأول واللقاء الثالث بين حجاج المدينة والرسول ﷺ حتى إسلام عبدالله بن عمرو، وكذلك قائمة أسماء الحجاج الثلاثة والسبعين، تحتل ١٨ صفحة من النص (الذى خصص أكثر من نصفه لذكر الأسماء). وتمثل هذه المساحة من حيث عدد الصفحات، أقل من عشر المساحة التى خصصها النص لحديث غزوة بدر (*) ، وهذا دليل على أن ما أصابه الإسلام من نجاح على مستوى الهداية إلى الدين، سواء فى المدينة أو فى مكة، أمر لا يحفل به المؤلف إلا قليلا . وفى هذا ما يحمل على الظن بأن المؤلف (الذى عاش فى آخر فترة الفتوح الإسلامية الكبرى فى آسيا وأفريقيا)، حين ذكر إظهار الدين فى عبارة

(*) اعتمدت فى حساب هذه الصفحات على طبعة أخرى للسيرة ليس فيها حواش .

«فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه»، التي استهل بها النص أول لقاء بين الرسول ﷺ ومجموعة الخزرج الستة، في بداية الفترة الخامسة، لم يكن يولى مسيرة الإسلام في المدينة إلا جانبا صغيرا من اهتمامه، وأن ما كان ماثلا أمامه هو حروب الرسول ﷺ . أى أنه، بعبارة أخرى ، كان يرى أن النصر الحقيقي للإسلام إنما هو النصر العسكرى .

ع) وملحوظتى الأخيرة تنصرف إلى بيعة العقبة الأولى . إن مؤلف النص، حين استخدم عبارات التوجيه الإلهى العام، الذى أنزل على الرسول ﷺ فى وقت متأخر جدا من الفترة المدنية، التى شرعت فيها أسس الإيمان وقواعد السلوك التى يجب على جميع النساء المسلمات مراعاتها، كمادة لاصطناع بيعة خاصة مزعومة بين الرسول ﷺ ومجموعة من اثنى عشر رجلا من أهل المدينة، فى مكة، قبل الهجرة بسنة، لم يرتكب سرقة فحسب ، بل تلاعب فى مناسبة نزول آيات القرآن الكريم.

§ ٢ - بيعة الحرب

ألف. النص

فى الموعد المتفق عليه للقاء بين الرسول ﷺ ومسلمى المدينة، بعد الفراغ من الحج، نام الحجاج المسلمون مع قومهم من الحجاج المشركين، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجوا من رحالهم يتسللون تسلُّل القطا مُستخفين حتى اجتمعوا فى الشَّعب عند العقبة. وجاء رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس، وهو يومئذ على دين قومه. وكان أول مُتكلم العباس ابن عبدالمطلب، فقال للأنصار: إن محمداً منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عزٍّ من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن

كُتِمَ تَرَوْنَ أَنْكُمْ وَأَفُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ، وَمَا نَعُوهُ مِنْ خَالَفِهِ، فَأَنْتُمْ وَمَا تَحْمَلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كُتِمَ تَرَوْنَ أَنْكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ، فَمِنْ الْآنَ قَدَعُوهُ، فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنْعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبِلَدِهِ (١).
 ودعى الرسول ﷺ إلى الكلام، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم. فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبيا، لنمنعنك مما تمنع منه أئمتنا (أى نساءنا) فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة (أى السلاح) ورثناها كابرا عن كابر. فاعترض القول، والبراء يُكَلِّمُ رسول الله ﷺ، أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالتهم. (٢)

وقال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيبا، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس. وقال رسول الله ﷺ للنقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي - يعنى المسلمين قالوا: نعم. وهنا قال العباس بن عباد: يا معشر الخزرج (وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار: الخزرج، خزرجه وأوسها) هل تدرون علام تُبايعون هذا الرجل؟ قالوا «نعم». قال: إنكم تُبايعونه

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٤٤١، ٤٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤٢.

على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مُصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافئون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال (أى نقصها)، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإننا نأخذه على مُصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة. قالوا: أبسط يدك، فبسط يده فبايعوه^(١) وبهذا تمت البيعة.

وفى اللحظة ذاتها صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعه الناس: يا أهل المنازل (أى منازل منى)- هل لكم فى مُذَمَّم (أى المذموم جدا) والصباة معه، قد اجتمعوا على حربكم. فقال رسول الله ﷺ: هذا أرب العقبة، هذا ابن أزيب ثم قال: أسمع، أى عدو الله، أما والله لأفرغن لك^(٢).

ثم قال رسول الله ﷺ: ارفضوا إلى رحالكم، فقال له العباس بن عباد: والله الذى بعثك بالحق: إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيا فنا؟. فقال رسول الله ﷺ: لم تؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم.

فلما أصبحوا غدت عليهم جلة قريش، حتى جاءوهم فى منازلهم، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا، أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم؛ فانبعث من هناك من مشركى قومهم يحلفون بالله ما كان من هذا شىء، وما علموه، وقد صدقوا، لم يعلموه^(٣).

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٤٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤٧.

(٣) المرجع السابق نفسه ص ٤٤٨.

وبعد رحيل الحجاج من منى تأكد لقريش صحة الإشاعة التي بلغتهم فخرجوا في طلب القوم. فأدركوا سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيبا. فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجُمته (مجتمع شعر رأسه)، وكان ذا شعر كثير. وإنه لفي أيديهم يسحبونه إذ رَقَّ له رجل ممن كان معهم، فقال: ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال: بلى، والله، لقد كنت أجير لجُبَيْر بن مُطْعَم بن عدي تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم بيلادي، وللحارث بن أُمَيَّة. قال: ويحك! فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما. ففعل، وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما في المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلا من الخزرج الآن يُضْرَب بالأبطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جوارا، وذكر لهما اسمه فجاءا فخلّصا سعدا من أيديهم فانطلق. (١)

وكانت بيعة الحرب، حين أذن الله لرسوله ﷺ في القتال، شروطا سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى، كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ في الحرب، فلما أذن الله له فيها، وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربّه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة. وقد بايعوا رسول الله ﷺ كما قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في عُسْرنا وَيُسْرنا وَمُنْشَطِنا ومُكْرَهْنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم. (٢)

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٤٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٤.

وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يُؤذن له فى الحرب ولم تحلل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنّوهم عن دينهم ونفّوهم من بلادهم، فهم من بين مَفْتُونٍ فى دينه، ومن بين معذّب فى أيديهم، وبين هارب فى البلاد فرارا منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة، وفى كل وجه، فلما عتّت قريش على الله عزّ وجلّ، وردّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيه ﷺ وعذبوا ونفّوا من عبده ووحدّه وصدّق نبيه، واعتصم بدينه، أذن الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ فى القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم(*)، فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له فى الحرب، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم، قوله الله تبارك وتعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩)
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا
اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ
مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ
الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾

[الحج: ٣٩ - ٤١]

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه :

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (١٩٣) ﴿[البقرة: ١٩٣]

(*) السيرة، القسم الاول ، ص ٤٦٧ .

باء - التحليل

سأتناول بالتحليل ، بادىء ذى بدء ، آيات القرآن الكريم التى أوردها النص ، ثم أنتقل إلى تحليل ما قاله المتحدثون فى الاجتماع الذى أفضى إلى عقد بيعة الحرب ، ثم بعد ذلك أختتم بحثى بتحليل المعطيات الأخرى التى تضمنها حديث هذه البيعة .

١- الاستشهادات القرآنية :

يؤخذ من النص أن الآيات ٣٩ و ٤٠ و ٤١ من سورة الحج ، وكذا الآية ١٩٣ من سورة البقرة ، وهى الآيات التى تشكل الأساس الذى تركز عليه بيعة الحرب كلها ، قد نزلت فى مكة . والحاصل :

(أ) أن سورة الحج سورة مدنية . وقد وردت فى ترتيب بلاشير لسور القرآن تحت رقم ١٠٩ . وهى عند بلاشير سابقة على سورة الفتح التى وردت عنده تحت رقم ١١٠ . والتى نزلت بعد صلح الحديبية (*) . ولما كان هذا الصلح قد عقد ، وفقا للنص ، فى نهاية السنة السادسة من الهجرة ، فمن المحتمل أن آيات سورة الحج المذكورة نزلت فى حوالى السنة الخامسة من الهجرة (٦٢٦ م) ، لا ، كما يدعى النص ، فى مكة قبل الهجرة .

(ب) تأويل هذه الفقرة على أنها «تفويض على يياض» للرسول ﷺ يحلل الله تعالى له بمقتضاه دماء أولئك الذين بغوا بالتعذيب والنفى على المسلمين واضطهدوهم ، تأويل يشوه معناها . والكلمة الثالثة فى الآية

(*) السور المدنية ، عند بلاشير ، تبدأ بسورة البقرة ، وترتيبها هو ال- ٩٣ . وسورة الحج فى المصحف مدنية وترتيبها ١٠٣ وهى - كما عند بلاشير - سابقة على سورة الفتح وترتيبها فى المصحف ١١١ .

الأولى ، وهى كلمة «يقاتلون» فعل مبنى للمجهول يفيد - خلافا لترجمة بلاشير للكلمة ذاتها ولكن مع كسر التاء - أن المسلمين شُنت عليهم الحرب ولم يكونوا هم الذين شنوها . والسياق هنا ليس سياق الرد على البغى وتعذيب المسلمين ونفيهم عن طريق الحرب ، بل هو ، صراحة ، سياق حمل السلاح لدفع من حملوا السلاح ضد المسلمين ، بعد أن أخرجوهم من ديارهم بسبب دينهم ، وهذا وضع لم يحدث أبداً فى مكة ، إذ أن التعذيب والإخراج كانا يتمان بفعل القبائل ذاتها ضد مسلميها .

(ح) سورة البقرة التى تدرج فيها الآية موضوع الاقتباس الثانى هى أولى سور الفترة المدنية . ومعنى هذا أن آيتها رقم ١٩٣ أنزلت ، خلافا لما يقوله النص ، قبل آتى سورة الحج المشار إليهما ، لا بعدهما . وفى هذه الآية فعلا إذن بالقتال ، إذ أنها تبدأ بكلمة «وقاتلوهم» ، لكنها أخرجت فى النص من السياق الذى وردت فيه وهو :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انتهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾

[البقرة : ١٩٠ - ١٩٤]

ومعنى ذلك أن هذا الإذن بالقتال ليس مطلقا بل يخضع لشروط .
والحرب ، وفقا لهذه الآيات ، لا بد لجوازها من توافر عدة شروط :

- فلا بد أن تكون دفاعا عن قضية عادلة: «فى سبيل الله»،
«وأخرجوهم من حيث أخرجوكم»، «حتى لا تكون فتنة».

- ولا بد أن تكون دفاعية: «قاتلوا... الذين يُقاتلونكم»، «فمن
اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم»،

- ويجب ألا يكون فيها اعتداء: «ولا تعتدوا».

- ويجب تحاشي القتال عند المسجد الحرام: «ولا تقاتلوهم عند
المسجد الحرام».

- ويتعين وقف القتال إذا أوقفه العدو: «فإن انتهوا فلا عدوان إلا
على الظالمين».

(د) ابن إسحاق ، حين اقتبس الآية ١٩٣ خارج سياقها، لم يتجاهل
فحسب القيود التي أخضع لها الإذن بالقتال، بل تجاهل أيضا حقيقة أن
هذه الشروط فرضت فى إطار لم يكن يمكن أن يكون الإطار المكي
عندما عقدت بيعة الحرب: إطارا من العدوان الموجّه ضد المسلمين
يفترض وجود حالة حرب.

هـ- ليست هناك، علاوة على ما تقدم، غرابة فى أن تكون الآيات
المذكورة مدنية. بالعكس، بل يكون من الغريب أن يتحدث القرآن
الكريم عن حرب أو عن إجراء يشبه الحرب، ولو من بعيد، فى مكة،
فى ذلك الوقت، سواء من جانب قريش، أو من جانب الرسول عليه
الصلاة والسلام: من جانب قريش، لأن صور التكيل التي سلطتها على
مسلمى مكة، كما لاحظنا، كانت إجراءات فردية اتخذتها كل قبيلة
حيال أفرادها أو اتخذها السادة ضد عبيدهم. والعمل الجماعى الوحيد
الذى يذكره النص كان فى المقاطعة التي فرضت على قبيلتى بنى

عبدالمطلب وبنى هاشم، وكانت هذه الحالة استثنائية ندمت عليها القبائل التي فرضت هذه المقاطعة فأنهتها بعد ستين أو ثلاث سنوات. ومن جانب الرسول عليه الصلاة والسلام، لأن فكرة حمل السلاح ضد مخالفيه ما كان من الممكن أن تخطر على باله، ليس فقط لأنه لم يكن يملك الوسيلة لحمله ولا - كما يقول النص - لأنه لم يؤذن له فيها، بل أيضا لأن القرآن لم يزوده بأمثلة لأنبياء حاربوا أقوامهم دفاعا عن أنفسهم.

و) وفي الإمكان أن نضيف إلى الاعتبارات السابقة أن عدم وجود شيء في النص يفهم منه أن محمدا ﷺ كان له باع في استخدام السلاح، أو أنه كان يوصى المسلمين بالتمرس فيه وبالاستعداد لثورة مسلحة، أو أنه كان من المعجبين بالغزاة الفاتحين، يرجح لدى المرء أن احتمال القيام بعمل عسكري في المستقبل ضد قومه لم يرد على ذهنه ﷺ.

ز- ومع الاكتفاء بما ذكرته حتى الآن عن هذه النقطة التي سأعود إليها فيما بعد، فإن للمرء أن يتساءل عما إذا كان في النص إجابات عن الأسئلة التالية التي يثيرها التأكيد الأساسي الذي فحواه أن آيات القتال نزلت في مكة بين بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية، وعن القدر الذي وردت به هذه الإجابات:

- كم من الوقت انقضى، بالأيام أو الأسابيع أو الشهور، بين اللحظة التي نزلت فيها الآيات المذكورة في مكة، واللحظة التي عقدت فيها بيعة الحرب؟

- ما الذي حدث خلال هذه الفترة؟ هل أعلن الرسول ﷺ أنه الآيات أم أخفاها؟

- إذا كان قد أخفاها فما الذى حمّله على ذلك؟

- إذا كان قد أعلنها، ماذا كان رد فعل مسلمى مكة أمام مثل هذا التكليف الإلهى الذى يأمرهم بشن الحرب على إخوتهم وأبناء أعمامهم وأفراد عشائهم؟

- هل كان منهم من أطاع هذا الأمر؟ من كانوا، وكم كان عددهم؟

- ما الذى فعلوه لقتال قريش؟ من أين وكيف استطاعوا أن يحصلوا على السلاح؟ كم قتلوا من الرجال؟ ما أسماء من قتلوهم من قريش وكيف قتلوهم؟

إن سكوت النص عن هذه النقاط البدائية يعنى أنه لم يكن هناك قتال من جانب المسلمين وأن الإذن الذى أعطاه الله تعالى للمسلمين بالقتال لم يوضع موضع التنفيذ. لكن ، فى هذه الحالة :

- ماذا كانت اعتراضات المسلمين الذين تلا عليهم الرسول ﷺ الآيات المذكورة، ومن الذى أثارها؟

- هل كان من المسلمين من ارتد إزاء مثل هذا التكليف المبهظ؟

النص، هنا أيضا، لا يرد.

ومن جانب قريش :

- ماذا كانت ردود فعل القبائل، بدورها، حين علمت بنزول آيات من القرآن تأذن بإعلان الحرب عليها ؟ هل سخرت من الرسول ﷺ ومن المسلمين، أم حملت الأمر، على النقيض، على محمل الجد واتخذت منه ذريعة إضافية للتنكيل بهم؟

- إذا كان المسلمون قد قاتلوهم، فكم من المسلمين قتلوا؟

هنا أيضا، لا إجابة في النص.

إن النتيجة التي تستخلص مما تقدم هي إذن أن آيات القتال، خلافا لما يقوله النص، لا يمكن أن تكون قد نزلت في مكة.

٢- أقوال المتحدثين في الاجتماع

١) العباس بن عبد المطلب

الذي يقرأ بعناية أقوال العباس بن عبد المطلب، فيما يمكن وصفه بمحضر الاجتماع، يكتشف أن هذا الاجتماع سبقه لقاء بين الرسول ﷺ وحجاج المدينة تم فيه اتفاق مبدئي على خروج الرسول إلى المدينة، وأن الاجتماع الذي حضره العباس لم يكن له موضوع سوى استيضاح بعض النقاط، ثم إعطاء الاتفاق شكلا رسميا و«التوقيع» عليه، فإن عم الرسول ﷺ يشير بكلمات «ما دعوتوه إليه» إلى ارتباط التزاموا به حيال محمد، ويسأل الحجاج عما إذا كانوا يتتوون الوفاء بهذا الارتباط لاسيما فيما يتعلق «بمنعه ممن خالفه»، وهو شرط لابد، منطقيا، أن يكون الاتفاق المبدئي قد نص عليه.

ومن جهة أخرى فإن العباس يتحدث عن عزم محمد الأكيد على الانحياز إليهم واللعوق بهم، وهو عزم يستحيل تصوره لو أن محمدا ﷺ كانت لديه شكوك فيما يتعلق بوفاء مسلمي المدينة بالتزامهم. ومقالة العباس تفترض أن محمدا قد فاتحه في أمر الاتفاق الذي أبرمه مع هؤلاء المسلمين، وأن عشيرة الرسول ﷺ حاولت أن تثنيه عن عزمه لكن دون جدوى. وواقع الأمر أن النص ليست فيه أية إشارة إلى مثل هذا الاتفاق، وأن اللقاء الوحيد الذي سبق الاجتماع بين الرسول وبين مسلمي المدينة في ذلك الموسم كان اللقاء الذي تم بينه وبين البراء

بن مَعْرُور مع مجموعة من حجاج المدينة وسأل فيه البراء عما إذا كان عليه أن يتجه في صلاته إلى الكعبة أو إلى الشام. ونقطة أخرى تسترعى الانتباه في كلمة العباس بن عبدالمطلب هي قوله «وقد منعناه من قومنا» وأن الرسول ﷺ «فى عز من قومه ومنعة فى بلده»، وهو تأكيد تناقضه عدة معطيات - أو معطيات غائبة - فى النص. هو تأكيد يناقضه:

- خبر تكرر، فى العبارة نفسها تقريبا، تحت عنوان «وفاة أبى طالب وخديجة» وتحت عنوان «سعى الرسول إلى ثقيف يطلب النصر» مؤداه أن قريشا نالت من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع به (أو: تنال منه) فى حياة عمه أبى طالب.

- عدم وجود أية معلومة فى النص يفهم منها أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم قرروا الاستمرار فى التأييد والحماية اللتين كانوا يشملون بهما محمدا ﷺ فى حياة عمه.

- عدم وجود أى خبر فى النص عن مسعى قام به سادة قريش لدى رئيس القبيلتين الجديد (لو أن أبا طالب كان الرئيس السابق) أو لدى أية شخصية من شخصيات بنى عبدالمطلب أو بنى هاشم، من نوع المساعى التى قاموا بها لدى أبى طالب وطلبوا فيها تسليم محمد ﷺ إليهم أو كفه عن مهاجمة دينهم أو عرضوا حلا وسطا معه.

- كون محمد ﷺ كان يلتمس من جميع القبائل غير المكية التى كان يعرض عليها الإسلام «النصرة والمنعة بهم من قومه».

- كون الشخصية الوحيدة من بنى عبدالمطلب وبنى هاشم التى قدمها النص فى مكة، خلال السنوات التى انقضت بين موت أبى طالب ووصول حجاج المدينة الثلاثة والسبعين، هى شخصية أبى لهب عدو الرسول ﷺ.

ب) الرسول صلى الله عليه وسلم:

- من الغريب أن الرسول ﷺ لم يشر أدنى إشارة لدى اجتماعه مع الحجاج الثلاثة والسبعين إلى آيات القرآن التي أذن له فيها بالقتال. وإذا كانت هذه الآيات قد نزلت بالفعل قبل هذا الاجتماع لما فاتته أن يذكرها صراحة.

- تعهد الرسول ﷺ في قوله «أحارب من حاربتم» لمسلمي المدينة كان يعنى عدوله عدولا تاما ، في مسألة حيوية كمسألة الحرب والسلام ، عن دوره كرسول ، لصالح أشخاص لم يعرفوا الإسلام إلا منذ عام أو عامين ، وهذا شيء ما كان ﷺ يسمح به لنفسه ، فضلا عن كون مثل هذا التعهد يتنافى ومضمون آيات القتال التي أوردتها النص.

- من الغريب جدا أن يشير الرسول ﷺ إلى السيد المسيح في إطار اجتماع مع مسلمي المدينة يدور حول الحرب ، مع أن القرآن لم ينسب إلى المسيح عليه السلام أى عمل حربي.

ج) البراء بن معرور :

لا يذكر النص الأسباب التي حدثت بالبراء بن معرور إلى أن يذكر ، في اجتماع الثلاثة والسبعين مع الرسول ﷺ بشأن حمايته عليه الصلاة والسلام ، بأن قومه «أبناء الحروب ، وأهل الحلقة» ورثوها كابرا عن كابر.

د) أبو الهيثم بن التيهان :

مقالة أبي الهيثم لا توضح:

- السبب الذي يرتب على عقد بيعة عسكرية مع محمد ﷺ ، بالضرورة ، نقض الحلف الذي كان بين مسلمي المدينة واليهود ، ما دام

النص لم يشر، فى الصفحات التى خصصها للحديث عن إسلام أهل المدينة، إلى معارضة من قبلهم للإسلام.

- باسم من كان يتحدث أبو الهيثم: باسم مسلمى المدينة؟ باسم قبيلته، أى الأوس؟ باسم الأوس والخزرج معا؟ إن الدمج بين هذه الاحتمالات الثلاثة مستحيل. وأبو الهيثم - الذى لم يكن حتى نقيبا من نقباء البيعة الاثنى عشر - لم تكن له صفة للتحدث باسم مسلمى المدينة. كذلك لم تكن له صفة للتحدث باسم قبيلته ذاتها، بمن فيها من مسلمين ومشركين، لأنه لم يكن سيد الأوس. وأخيرا فإنه، من باب أولى، لم يكن يملك التحدث باسم جميع الأوس وجميع الخزرج، ولا حتى باسم حجاج المدينة المشركين، الذين كانوا نائمين ملء أجفانهم فى مكة بينما كان هو يتحدث، والذين كانوا يجهلون كل شئ عما يجرى فى العقبة.

- بيعة الحرب كانت موجهة ضد قريش؛ وحيث أن النص ليس فيه أية معلومة تشير إلى تحالف بين اليهود وبين أهل مكة ضد الرسول، فما هو السبب الذى يرتب على عقد هذه البيعة نقض مسلمى المدينة أو قبائلهم حلفهم مع اليهود؟

- لما كان حديث الإسلام فى المدينة لا يفهم منه أن الأوس والخزرج - أو غالبيتهم - قد أسلموا، فقد كان المفروض أن يعلم أبو الهيثم أن مشركى هاتين القبيلتين - على فرض أنهم لم يعارضوا الإسلام - لم تكن لهم أية مصلحة فى حماية محمد ضد مكة أو للدخول فى حرب ضد مكة لحمايته ﷺ. ولهذا فلم يكن من المنتظر أن يوافق هؤلاء المشركون على بيعة عسكرية تضر بمصالحهم فضلا عن كونهم لم يشتركوا فى عقدها. كذلك لم تكن لهم مصلحة فى نقض تحالفهم مع اليهود.

- من الغريب أن أيا من الحجاج الذين حضروا الاجتماع لم يذكر أبا الهيثم أنه عليه، منذ اللحظة التي دخل فيها الإسلام، أن يترك للرسول ﷺ تقرير ما يقتضى عمله أو تركه في التوجهات السياسية الكبرى المتعلقة بالأمة، وأن الرسول هو الذى كان له أن يقرر ما إذا كان من الواجب نقض الأحلاف القائمة مع اليهود أو عدم نقضها.

هـ- العباس بن عبادة :

لا يفسر النص كذلك الحكمة في أن العباس بن عبادة لفت انتباه الحجاج إلى أن مبايعتهم للرسول ﷺ ترتب عليهم التزاما بحرب الأحمر والأسود من الناس وقبول نهكة الأموال وقتل الأشراف، فإن شيئا في حديث الفترة الرابعة أو الفترة الخامسة لم يكن يسمح لأى شخص بتصور أن مكة لن ترضى عن رحيل محمد أو أنها ستفكر، فى حالة رحيله، فى محاربة القبائل أو القوم الذين يؤوونه. ولو افترضنا جدلا أنه، بالرغم من فشل الإسلام فى مكة، الثابت من مقولة أن المسلمين لم يكونوا إلا «قليلا مستضعفين»، وأن جميع القبائل غير المكية التى اتصل بها الرسول أدارت له ظهورها، وأن قريشا كانت تخشى أن تضار من نجاح الإسلام فى المدينة أو غيرها، وأن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، من الجهة الأخرى، استمروا فى شمول محمد صلى ﷺ بالحماية التى كان يتمتع بها فى حياة أبى طالب، لقد كان أمام قريش حل أسير وأقل تكلفة هو قتل محمد محليا فى مكة بدلا من الدخول، فى وقت لاحق، فى مغامرة عسكرية لاسترداده وقتله. ولم يكن بنو عبدالمطلب وبنو هاشم، الذين لم يكن قد أسلم من بينهم سوى ثلاثة أفراد، والذين كانوا على دين قريش، من كثرة العدد أو من قوة السلاح بحيث يتصدوا،

عسكريا، لمجموع قبائل قريش، وكانوا سيقبلون الدية التي كانت قريش ستدفعها لهم عن قتله عن طواعية.

وأخيرا، إذا ترك محمد مكة، كانت لدى قريش وسيلة أسهل جدا من الحرب للتخلص منه: كان يوسعها أن تدبر مؤامرة لاغتياله بيد أحد مشركي مكة أو بيد أحد الأرقاء، مقابل مكافأة.

أما سؤال العباس بن عباد للرسول، وحجاج المدينة يتأهبون للرحيل بعد الاجتماع، عما إذا لم يكن يريد أن يميلوا على أهل منى بأسيا فهم في الغد فهو سؤال مضحك بقدر ما هو غير معقول:

- فابن عباد كان يعلم ولا شك أن الإسلام يحرم القتال في الأشهر الحرم.

- ولأن الاعتداء الدموي على الحجاج، ولو كانوا مشركين، كانت ستترتب عليه نتائج وخيمة بالنسبة للرسول ﷺ وللإسلام.

- ولأن حجاج المدينة لم يكونوا من كثرة العدد بحيث يقوموا بعمل حربي يمثل هذه الضخامة، وإن هم أقدموا عليه لكان في مقدور حجاج منى، الذين كانوا يحصون بالآلاف، أن يقضوا عليهم في لمح البصر.

- أن الأمر إذا كان يقتضي الميل على أهل منى بالأسياف لكلف الرسول به مسلمي مكة.

- إذا كان لابد لمسلمي المدينة من فرصة لإعمال أحكام بيعة حربهم مع الرسول ﷺ، فقد كان من اليسير عليهم أن يميلوا بأسيا فهم على مواطنيهم المشركين الذين كانوا لا يزالون يَغْطُونَ في نومهم حين عاد المسلمون إلى مضاجعهم، ولم يكونوا بالتالي يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

- لأن المقروض أن بيعة الحرب كانت سرية ومثل هذا العمل كان سيذيعها على الملأ.

- لأن شروط البيعة لم تكن تنص على القيام بعمل عسكري هجومي ضد مكة، بل كانت تنص على عمل دفاعي لحماية الرسول ﷺ.

- لأن الرسول ﷺ لم يكن يضمن أن يقرّ مسلمو المدينة - الذين كان يمثلهم الحجاج - مثل هذا العمل.

- لأن الرسول ﷺ إذا كان يفكر في تكليف حجاج المدينة بالميل بأسيا فهم على الحجاج المشركين، سواء كانوا مكين أو غير مكين، لتناول هذا الموضوع في الاجتماع، ولما انتظر أن يطرحه عليه العباس بن عباد فجأة بعد الاجتماع.

٣- ملحوظات أخرى:

(أ) من الغريب ألا يجد البراء من يدلّه على محمد إلا نفرا من حجاج المدينة لم يقابله منهم أحد مع أن عشرة من مجموعة الثلاثة والسبعين سبق لهم لقاء رسول الله ﷺ ومصافحته في اجتماعي العقبة السابقين.

(ب) لا يفسر النص لماذا حدد موعد لقاء الرسول مع الحجاج الثلاثة والسبعين في ساعة متأخرة من الليل في العقبة مع عدم وجود أية إشارة سابقة على الاجتماع تنبئ بأن موضوع هذا اللقاء سيكون عقد بيعة حرب.

(ج) حقيقة أن ثلاثة وسبعين حاجا مسلما استطاعوا، بعد أن قضوا ثلث الليل رقودا بين مواطنيهم المشركين، أن ينهضوا، ويتسللوا، ويخرجوا من الخيام ومن المعسكر، ويذهبوا إلى العقبة ويحضروا الاجتماع مع الرسول ﷺ ويعودوا بعد ثلاث أو أربع ساعات،

ويتظاهروا بأنهم ناموا طوال الليل، دون أن يستيقظ أى من أولئك الحجاج ودون أن يثيروا أى شك، شئ يمكن تصوره لو أن الحجاج المشركين كانوا تحت تأثير منوم قوى، وإلا فإن هذه حكاية من العسير تصديقها.

(د) من الغريب أن الرسول ﷺ لم يختار لاصطحابه إلى الاجتماع السرى الذى كان سيلتقى فيه بمسلمى المدينة أبا بكر، ولا عمر، ولا ابنه بالتبني زيد بن ثابت، ولا ابن عمه على بن أبى طالب، ولا عمه حمزة، وكلهم مسلمون من أصحابه المقربين، وأنه اصطحب عمه الوثنى، العباس. ولا يقل عن ذلك غرابة أن هذا الشريف القرشى، الذى كانت تربطه علاقات وثيقة بالسلطة القائمة، والذى فضل أن يبقى بمكة حتى سقوط هذه المدينة بعد بيعة العقبة الثانية بعشر سنوات، قبل على نفسه شبهة الاشتراك فى عملية خطيرة كيعة حرب ضد مدينته.

(هـ) هناك مشكلة تتعلق بالصفة التمثيلية لنقباء بيعة الحرب الاثنى عشر، المفروض أنهم أخرجوا إلى الرسول ﷺ ليكونوا على قومهم بما فيهم. إن هؤلاء النقباء، الذين انتخبهم الحجاج الثلاثة والسبعون، لم يكونوا يمثلون فى الواقع سوى من قاموا بانتخابهم، وليس فى النص شئ يشير إلى أن هؤلاء الاثنى عشر، أو حتى الثلاثة والسبعين الذين انتخبوهم، خوَّلت لهم السلطة فى ترتيب ارتباطات على عشائرتهم وقبائلهم فى عقد اتفاق أيا كانت طبيعته أو فى عقد بيعة حرية تفرض على هذه العشائر والقبائل التراما بالقتال وتحمل ضياع أموالهم وقتل أشرافهم.

(و) حجاج المدينة المسلمون الثلاثة والسبعون الذين شهدوا العقبة - وفقا للقائمة التى تخصهم - كانوا يتمنون لما يزيد على ثمانى عشرة

عشيرة من عشائر المدينة، ولم يكونوا يملكون من ثم ترتيب ارتباطات على عشائر جميع مسلمي المدينة (التي أرسل أربعون منها مقاتلين إلى بدر بعد ذلك بعام ونصف عام). وما كانت مثل هذه المسألة تقوت على رجل ذي فطنة كرسول الله ﷺ.

(ز) لو أن الرسول ﷺ كان قد فكر في الهجرة إلى المدينة، وفي احتمال أن تطالب قريش مسلمي المدينة برأسه، وأن يقول هؤلاء «لن نسلمه لكم أبداً وسنمشق السلاح إذا اقتضى الأمر دفاعاً عنه»، وأن تقوم حرب بين مكة والمدينة بسببه، لذهب بنفسه إلى المدينة لبحث الموضوع من جميع نواحيه مع مسئولى الأمة الإسلامية فيها: هل كانوا من حيث العتاد والعدة قادرين على مواجهة جيش تحشده مكة عاصمة الجزيرة؟ هل كانوا على ثقة من أن كفار المدينة ويهودها لن ينضموا إلى مكة ضدهم؟ أما من وسيلة لتلافي مجابهة عسكرية غير مضمونة النتائج مع مكة بأن يقال لقريش مثلاً: «الآن وقد أصبح محمد واحداً منا، ليس هناك ما نخشونه من جهته؟ إنه سيدعو لدينه بيننا ونحن نعدكم بأنه لن يطأ أرض مكة بعد الآن!»؟ وإذا اقتنع الرسول ﷺ ، بعد زيارته إلى المدينة، بأن الفرصة سانحة لعقد بيعة حربية مع هؤلاء المسلمين، فإنه كان يعقدها في السر مع رؤساء الأمة الإسلامية من ذوى الصفة، باسم جميع أعضاء قبيلتي الأوس والخزرج الذين اتخذوا الإسلام ديناً لهم.

(ح) حماية المسلم للرسول حمايته لامراته وأبنائه واجب أولى، فإن الذى يحمى الرسول إنما يحمى الدين. لذلك، وعلى فرض أن الرسول قد تلقى الآيات التى تأذن له بالقتال فى مكة، فإنه ﷺ لم يكن بحاجة إلى عقد بيعة خاصة مع هذه الفئة أو تلك من فئات المسلمين كى تتولى حمايته. وقد اضطلع مسلمو مكة بهذه المهمة، بعد الهجرة، على الرغم

من كونهم لم يعقدوا بيعة مع الرسول، ولقى بعضهم مصرعهم فى الغزوات التى اقتضت الظروف أن يخوضوها.

ط) اكتشاف مكة أن بيعة عسكرية موجهة ضدها قد عقدت بين واحد من مواطنيها ومدينة أخرى لم يكن خبيرا عاديا بل كان حدثا ذا أهمية كبرى. والنص يتحدث عن مطاردة قامت بها مكة ضد المتآمرين من أهل المدينة وأنها قبضت على اثنين منهم، لكنه لا يقول شيئا عن النتائج الأخرى التى تترتب عادة على مثل هذا الاكتشاف. فليس فى النص مثلا أية إشارة:

- إلى إجراء من أى نوع اتخذته مكة ضد محمد، مع أن العمل الذى ارتكبه كان يعتبر فى نظرها ولاشك، حتى فى مجتمع ذلك الوقت، أخطر جريمة يمكن لأحد أن يرتكبها ضد بلدة - دولة كمكة. كذلك ليست هناك أية إشارة إلى اتخاذ مكة إجراء من أى نوع ضد عمه الذى أصبح، بحضوره الاجتماع والقيام فيه بدور إيجابى، شريكا فى الجريمة التى ارتكبت ضد بلده.^٤

٥- إلى الأسباب التى منعت قريشا من القبض على محمد ﷺ ومحاكمته وإدانته هو وعمه بتهمة الخيانة العظمى والتآمر ضد أمن مكة، وقد كانت هذه بالنسبة لقريش فرصة ذهبية للتخلص من محمد بصورة قانونية لا شائبة فيها، والحكم عليه بالإعدام.

- إلى إرسال مكة مبعوثين للمدينة للاحتجاج على التصرف العدائى من بعض حجاجها، وجواسيس لجمع معلومات عن النوايا الحقيقية لمسلمى هذه المدينة حيالها وعن قوتهم العسكرية.

- إلى أزمة خطيرة فى العلاقات بين المدينتين أو إلى مناقشات فى مجلس حكومة مكة بشأن ما إذا كان الأمر يقضى قطع العلاقات التجارية

وغيرها مع المدينة وفرض قيود على وصول حجاجها، أو إخضاع هؤلاء لرقابة مشددة.

- إلى اتخاذ مكة تدابير لحماية مصالحها الحيوية، لاسيما قوافلها، من هجوم مسلمي المدينة، وذلك مثلاً بتغيير خط سيرها وتقوية الفرق المسلحة المكلفة بحمايتها أو الأحلاف مع القبائل التي تعبر هذه القوافل أراضيها.

- إلى إجراءات اتخذتها مكة استعداداً للحرب، كاستيراد أسلحة إضافية أو شراء عبيد - جنود... إلخ.

- إلى اقتراحات مقدمة في مجلس الحكومة لشن هجوم على المدينة أو لعقد أحلاف ضدها مع قبائل عربية أخرى.

- إلى إجراء من جانب مسلمي المدينة، أو فكرة اتخاذ إجراء في الاتجاه الذي أعلن عنه أبو الهيثم بن التيهان في اجتماع العقبة، يرمى إلى قطع العلاقات مع حلفائهم اليهود.

٤ (ي) من المستغرب أن قُرِشا، التي ألقت القبض على سعد بن عبادة، أطلقت سراحه نتيجة لتدخل اثنين من أهل مكة، وكان المقروض أن تجرى معه استجواباً دقيقاً للحصول منه على أكبر قدر من المعلومات عن البيعة وأطرافها وموضوعها، ليحاكم على أساسها محمد والعباس (أو لتحاكمهما على أساسها قبيلتهما)، وكذا للاحتجاج لدى مشؤلى قبيلتى الأوس والخزرج لأن حجاجها الذين وفدوا إلى مكة لعبادة الكعبة وأصنامهم تأمروا على سلامة مكة بالاشتراك في عقد بيعة حرب ضدها. وقد ارتكب سعد بن عبادة باشتراكه في هذه المؤامرة جريمة بالغة الخطورة ضد مكة وكان الواجب، إن صحت هذه الواقعة، أن يحاكم عليها وأن يعاقب وفقاً لقانون هذه البلدة.

جيم - النتيجة

إن ثبوت كون الآيات القرآنية التى أسس النص عليها دعوى بيعة العقبة الثانية كلها آيات مدنية لا مكية يكفى فى حد ذاته لنزع كل مصداقية عن حديث النص المتعلق بهذه البيعة . وهو كاف - بعبارة أخرى - للقول بأنه لم تكن ، وما كان يمكن أن تكون ، هناك بيعة حرب بين الرسول ﷺ ومسلمى المدينة . لكن مجموع النقاط التى أبديتها فى تحليل هذا الحديث وبعض أجزاء هذا الحديث تؤكد أيضا هذه الحقيقة . كذلك فإن هذه النقاط تسمح باستخلاص بعض النتائج الهامة الأخرى عن حبكة هذه الخدعة وبواعثها وبإضاعة بعض جوانبها .

أ) فمن الطريف أن نلاحظ ، أولا ، أن الاجتماع الذى عقدت فيه بيعة العقبة المزعومة كان النقطة التى التقى عندها المؤثران الكبيران اللذان طبعا بطابعهما هذه الفترة بل أيضا - إلى حد كبير - كل السيرة ، وهما : المؤثر العباسى ، والمؤثر المدنى ، فى الموضوع الذى يستخدمانه محورا لهما وهو موضوع حماية الرسول ﷺ .

فإن الرسول قد انتقل فى هذا الاجتماع ، وكأنه طفل رضيع ، من أيدي بنى عبدالمطلب وبنى هاشم الحامية إلى أيدي أهل المدينة الحامية ، فالعباس يقول ، باسم بنى عبدالمطلب وبنى هاشم إلى حجاج المدينة ما معناه : «لقد حميناه حتى الآن ، وقد جاء دوركم فى حمايته» .

ولكى يقوم مؤلف النص بهذه النقلة ، كان عليه أن يخرج من الظلام فردا من بنى عبدالمطلب وبنى هاشم . وكان المفروض ان يكون هذا الفرد رئيس إحدى القبيلتين أو أحد أفرادها الذين أسلموا : حمزة مثلا . ولكن ، لا . الشخص الذى اختير لهذه المهمة لم يكن رئيس هاتين القبيلتين ولا رئيس إحداهما ، ولا أحد المسلمين ، بل كان العباس .

وتشاء الصدف أن يكون العباس مع الرسول في المسجد في اليوم الذي ذهب البراء بن معرور لبحث عن الرسول لي طرح عليه السؤال الذي كان يؤرقه . والعباس، هو أيضا - الذي لم يكن رئيس بنى عبدالمطلب، ولو كان هو الرئيس لذكر النص ذلك - الذي حضر اجتماع العقبة . العباس، سلف الرجل الذي أسقط الخلافة الأموية وأسس مكانها الخلافة التي قدر لها أن تحمل اسم هذا الرجل، عم الرسول ﷺ .

ب) لتفادى أن يتصور أحد، مدى لحظة، أن مسلمى مكة لعبوا أقل دور في حماية رسولهم، ولإثبات أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم تحملوا وحدهم هذه المسئولية، حرص النص على عدم حضور أحد من مسلمى مكة هذا الاجتماع . لا أبوبكر ولا عمر، ولا عثمان، ولا حمزة، الذي كان هو أيضا عمّا للرسول ﷺ ، ولا على ابن عمه، ولا حتى مصعب ابن عمير، الصحابي الذي أوفده الرسول مع المدنيين الاثنى عشر الذين حضروا بيعة العقبة الأولى، والذي يرجع له الفضل في إسلام اثنين من رؤساء بنى عبد الأشهل وعدد كبير من أهل المدينة .

ج) هذا الغرض من قدر مسلمى مكة يقابله في النص جهد ملحوظ لرفع شأن مسلمى المدينة . إنه يجعل الرسول يقول للثلاثة والسبعين : «أنا منكم، وأنتم منى» ، وهو قول لم يقل مثله لصحابته المكين . والنص لا يكتفى بذلك بل يُشبهه نقباء الثلاثة والسبعين الاثنى عشر بحواريي المسيح عيسى بن مريم . وقد أكسبهم وصف «حواريي عيسى بن مريم» هذا، علاوة على ذلك، بصورة ضمنية، لقبا فخريا آخر هو لقب «أنصار الله» بموجب الآية التالية، التي سبق ذكرها، في قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ
مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا
ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصَّف: ١٤]

(د) حرص النص على إعطاء اسم عسكري لبيعة العقبة الثانية،
وتفريقه الواضح بين طبيعة هذه البيعة والبيعة الأولى، التي أسماها بيعة
النساء لكونها لا تتعلق بالحرب، ولغة الحرب التي جعل البراء بن معرور
وأبا الهيثم بن التيهان والعباس بن عباد يتحدثون بها، وجعله الحرب
موضوع البيعة الوحيد، دلائل تشير إلى أن النص يريد أن يقول إن
مسلمى المدينة كانوا، مثل بنى عبدالمطلب وبنى هاشم في شعر أبي
طالب، على استعداد للتضحية بأرواحهم وأموالهم وأشرفهم في سبيل
حماية الرسول ﷺ . لكنه كان يريد أيضا، طبقا للشواهد، أن يقرر أن
البيعة كانت نقطة الانطلاق في سلسلة الفتوحات التي بدأت في الفترة
المدنية والتي استمرت بعد وفاة الرسول ﷺ لأكثر من قرن، وأن يعزو
إلى أهل المدينة الفضل في أنهم كانوا أول من بدأ به تاريخ الإسلام
المجيد.

(هـ) من الواضح أن كل هيكل اجتماع بيعة العقبة الثانية يرتكز لا
على أحداث تاريخية حقيقية وإنما على استغلال أحداث تاريخية لاحقة.

(و) الطريقة نفسها، أي طريقة استغلال التاريخ اللاحق لكتابة التاريخ
السابق، استخدمها النص في صياغة السؤال الذي أراد به أبو الهيثم بن
التيهان معرفة ما إذا كان في عزم الرسول ﷺ أن يرجع إلى قومه
ويدعهم إذا أظهره الله، وصياغة جواب الرسول عن هذا السؤال بالنفي.

ز) تحليل المعلومات المتعلقة ببيعة العقبة الثانية يزودنا بالإجابة عن اثنين من الأسئلة التي ثارت بشأن الفترة المكية الرابعة، فإن في الإمكان أن نقول:

- إجابة عن السؤال (٣): لماذا يصف النص محمدا ﷺ وهو نهيبة للشعور بالخطر المهدق به والحاجة إلى الحماية، بأن النص يريد أن يجعل من رفض القبائل غير المكية حماية الرسول، الخلفية التي كان ينوي أن يرسم في إطارها، في الفترة الخامسة، عرض الحماية المقدم للرسول ﷺ من مسلمي المدينة.

- إجابة عن السؤال (٤): أن السبب الذي جعل يَحْرَ بن فِرَاس يتحدث عن إهداف تحور رجال قبيلته دون محمد، أن النص أراد أن يثبت أولا أن مسلمي المدينة لم يكونوا وحدهم الذين كانوا يعتقدون أن مكة قد تقوم بعمل عسكري ضد القبيلة التي تؤوي محمدا، وأنه أراد كذلك أن يبرز حقيقة أن مسلمي المدينة قبلوا ما سبق أن رفضه يَحْرَ.

ح) من الطريف أن نلاحظ أن الفقرة التي يذكر فيها النص، تحت عنوان «نزول الأمر لرسول الله ﷺ في القتال»، الظروف التي نزلت فيها الآيات التي تأذن للرسول بالقتال، تتضمن للمرة الأولى اعترافا:

- بأن قريشا كانت تنفي المسلمين من مكة.

- أنه كان هناك، بخلاف مسلمي مكة الذين هاجروا إلى الحبشة أو إلى المدينة، مسلمون هاجروا إلى جهات أخرى أو، كما يقول النص، «في كل وجه».

- أن النص، الذي كان يطلق اسم «الأنصار» على كل مسلمي المدينة، لكي يكون منطقيا مع نفسه، أطلق اسم «المهاجرين» على كل مسلمي مكة.

وكما أن الاستعمال غير السليم لكلمة «الأنصار» جعله يطلقها على الخزرج الستة الذين لقوا الرسول صلى الله عليه وسلم في العقبة قبل إسلامهم، فإن الاستعمال غير السليم لكلمة «المهاجرين» جعله هنا يطلقها على المسلمين المكين الذين لم يعودوا مسلمين لأنهم فتوا عن دينهم، أو الذين لم يهاجروا لأن قريشا كانت تعذبهم.

- أن مسلمي مكة كانوا ينقسمون إلى أربع فئات:

- ١- من فتوا عن دينهم.
- ٢- من كانوا يعذبون.
- ٣- من نفوا من بلادهم.
- ٤- من هربوا في البلاد فرارا، منهم من بأرض الحبشة ومنهم من بالمدينة، وفي كل وجه.

وهذا التقسيم يستدعي ملحوظات ثلاث:

- أن صياغة الجملة التي نتحدث عنه تدل على أنه تقسيم جامع مانع، فهي لا تترك مكاناً لفئة خامسة تضم الأشخاص الذين لا يدخلون في هذه أو تلك من الفئات المذكورة.

- أنه يسير في الاتجاه ذاته الذي يسير فيه وصف «قليلا مستضعفين» الذي استعمله النص لوصف المسلمين في حديث الفترة الرابعة.

- ليس من الواضح ما إذا كان المسلمون الذين فروا إلى المدينة هم أولئك الذين ذهبوا للإقامة فيها قبل عقد بيعة الحرب أو بعد هذه البيعة.

فإذا كان المقصود هنا هم مسلمو مكة الذين كانوا في المدينة قبل بيعة العقبة، فإن هؤلاء الصحابة لا بد أنهم اشتركوا في حركة «الأسلمة» التي حدثت في المدينة قبل لقاء الرسول ﷺ بالخزرج الستة وبعد هذا اللقاء.

والحاصل أن حديث دخول أهل المدينة في الإسلام لا يشير أية إشارة إلى وجود مثل هؤلاء المسلمين في المدينة. وإذا كان المقصود، على العكس، هم مسلمو المدينة الذين هاجروا بعد عقد البيعة، فإن هجرتهم لا يمكن منطقياً أن تكون من بين الأسباب التي أدت إلى نزول الآيات القرآنية التي تأذن بالالتجاء إلى الحرب.

(ط) هناك ، في الفقرة ذاتها، جملة يمكن أن تضاف إلى الأمور التي تكشف عن تحيز مدني ضد قريش، ونعني بذلك الجملة التي تقول: «فلما عتت قريش على الله عز وجل، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيه ﷺ، وعذبوا ونفوا من عبده ووحدته وصدق نبيه، واعتصم بدينه، أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم». والتحيز ضد قريش في مثل هذه الجملة ذو دلالة لا تنكر. إنه إدانة لقريش جميعها. وهو أيضاً تفسير للقرآن تتحكم فيه الاعتبارات السياسية، كما أن فيه ما يشبه المحاولة لجعل الله سبحانه وتعالى ينضم إلى المؤلف في موقفه.

ي- من غير المستبعد أن يكون أحد البواعث التي أوحى للمؤلف بفكرة اختلاق بيعة الحرب رغبته في إعطاء مواطنيه بيعة كيعة الرضوان، هذه البيعة التي شرفها القرآن في هذه الآيات من سورة الفتح:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾ ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٢)﴾
(٣) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ
إِيمَانِهِمْ (٤) لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا
(٥) وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ

ظَنَّ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ
اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ
عَلَيْهِ اللَّهُ فَسِيَّئُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٨﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ
شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ
فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ
اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنُّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا
﴿١٠﴾ ﴿١١﴾ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ
فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٢﴾ وَمَغَانِمَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴿١٣﴾ [الفتح]

وتقول السيرة إن هذه الآيات المدنية نزلت في السياق الآتي (*):

في آخر سنة ست من الهجرة (٦٢٨م)، أعلن الرسول ﷺ عن عزمه
الخروج إلى مكة معتمرا واستنفر العرب من المدينة ومن حوله من أهل
البوادي من الأعراب ليخرجوا معه. وأبطأ عليه كثير من الأعراب خشية
أن يتخذ رد فعل قريش شكل عمل عسكري. وخرج رسول الله ﷺ بمن
معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب (٧٠٠ أو ١٤٠٠)
وأحرم بالعمرة وساق معه الهدى. ولما سمعت قريش بمسيرة هذا
«الجيش» إلى مكة أبلغوا الرسول ﷺ أنهم لا يسمحون لهم بدخول
بلدتهم. وأرسل الرسول إليهم عثمان ليخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه
إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمة.

(*) السيرة، القسم الثاني، ص ٣١٥ - ٣١٦.

وتأخرت عودة عثمان وبلغ رسول الله ﷺ أنه قتل فقرر أن يناجز القوم، ووقف تحت شجرة ودعا أولئك الذين لديهم استعداد للقتال أن يبايعوه. وبايعه الناس، لم يتخلف عنه أحد، وكانت هذه هي بيعة الرضوان.

وبعد قليل، اتضح أن عثمان لم يقتل وتم صلح بين الرسول ﷺ وقريش على وضع الحرب عن الناس عشر سنين. وقبل الرسول أن يعدل عن العمرة ذلك العام مقابل وعد من قريش بالسماح له بالحج في العام القابل بأصحابه والإقامة بها ثلاثة أيام. واتضح بعد ذلك أن هذا الصلح، الذي كان موضوع سورة الفتح الرئيسى، كان نصرا «دبلوماسيا» من الدرجة الأولى.

وليس فى النص أى بيان عن عدد أهل المدينة الذين بايعوا الرسول ﷺ تحت الشجرة فى الحديبية. على أنه من الجائز أن المهاجرين، الذين قطعت العلاقات بينهم وبين بلدتهم وذويهم منذ أكثر من ست سنوات، كانوا أكثر تحمسا للخروج مع الرسول إلى العمرة من الأنصار.

ومما هو جديد بالذكر فى هذا المقام أن الحديبية، رغم الأهمية التى يضيفها عليها القرآن لم ترد فى قائمة أسماء من اشتركوا فى بيعة العقبة الثانية ضمن المشاهد الكبرى مثل بدر وأحد والخندق، وأن أحدا ممن اشتركوا فى بيعة الحرب الثلاثة والسبعين لم يذكر فى هذه القائمة أنه شهدا مع الرسول ﷺ.

ك) لإثبات أن الرسول ﷺ، لولا أهل المدينة، لأصبح فى حالة عجز عن المضى فى الدعوة، وأن الإسلام كان مصيره الفشل، استخدم النص حيلتين سبق له استخدامهما ليثبت، فى الفترات المكية الثلاث الأولى، أن الرسول ﷺ إذا كان لم يقتل، وأن الإسلام إذا كانت لم

تقضى عليه هجمات قريش، فالفضل فى ذلك إنما يرجع لحماية أبى طالب وقبيلتى بنى عبدالمطلب وبنى هاشم. وهاتان الحيلتان هما:

- حيلة اختلاق اللقاءات: هناك لقاءات بين سادة قريش وأبى طالب أو بين قريش ومحمد، وهنا لقاء بين حجاج المدينة الثلاثة والسبعين ومحمد ﷺ، مع فارق هو أن محمدا ﷺ لم يطلب أبدا من عمه أو من قبيلته أن يحمياه وأنه طلب ذلك من الثلاثة والسبعين.

- الحيلة التى تتمثل فى عرض الرسول منفردا، منقطعا عن صحابته المكين.

على أن النص قد استحدث هنا حيلتين أخريين أولاهما هى التلاعب بالقرآن.

إن الطريقة التى يستعمل بها النص الآيات القرآنية التى يسوقها هنا تختلف عن تلك التى كان يستعملها بها فى الفترة الثالثة، فقد كانت الآيات القرآنية الخاصة بالفترة الثالثة تساق، فى معظم الحالات، لتصوير عدااء قريش للإسلام أو لتعيين خصوم الرسول ﷺ بالاسم. وكانت تصور أوضاعا كانت موجودة بالفعل، طبقا لما يقوله القرآن الكريم، ولو أن الشبهات واضحة فى التقديم أو التعقيب اللذين كانت تقترن بهما فى النص، لأن هذا التقديم أو التعقيب كان يهدف إلى الغض من قدر أعداء المؤلف أو أعداء الخليفة العباسى.

أما فى الحالة الراهنة، فالتلاعب أعمق بكثير. إن النص يستخدم آيات القرآن كمادة لاختلاق حدث، هو بيعة العقبة، ويقدم لهذه الآيات بجمل تشوّه الحقيقة فى ثلاث نقط أساسية: مناسبة نزولها، بجعلها آيات مكية مع أنها مدنية، وأهمية أمة الإسلام العددية فى مكة، بجعلها تنحصر -

بعد الهجرة - فيمن فتنوا عن دينهم، ومن عذبوا أو من لاذوا بالفرار؟ والإدانة «العنصرية» القاطعة الموجهة ضد قريش التي من المحتمل جدا أن نسبة غير قليلة منهم قد اعتنقت الإسلام.

والحيلة الجديدة الثانية التي استخدمها النص في الحالة الراهنة تتمثل في كونه، بصورة ما، «صادر» الرسول ﷺ لصالح من أسلموا من أهل المدينة قبل الهجرة بسنة أو سنتين بجعله ﷺ يقول لهم: «أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم، وأسالم من سالمتم». أما صحابته المكيون، أولئك الذين آمنوا به منذ بداية بعثته والذين عذب بعضهم واضطهدوا أو نفوا من بلادهم، فإنهم لم يحظوا منه بشيء من هذه الكلمات التي تطرب لها القلوب والأسماع. وفي الاتجاه نفسه، فإن النص يعقد توازيا في كلام الرسول ﷺ بين نقباء المدينة الاثنى عشر وبين حواربي السيد المسيح الاثنى عشر كي يسبغ على أهل المدينة شرفا إضافيا.

بقي لاستكمال هذه «التركيبة» الذكية أن يعلن أحد على العالم أن الرسول وأهل المدينة ينوون الحرب. وقد أسند النص هذا الدور إلى شيطان، هو شيطان العقبة المحلي، الذي كان اسمه، فيما يبدو، أرب بن أزيب، وادعى أن الرسول ﷺ عرفه وهدده.

ل) رغبة المؤلف في تبييض صفحة مشركي المدينة الذين كانوا، ولا بد، شأنهم في ذلك شأن إخوانهم في مكة، أعداء للإسلام، واضحة في النص. ذلك أنه:

- لا أبو الهيثم بن التيهان، الذي تحدث عن احتمال قطع العلاقات مع اليهود كنتيجة لعقد البيعة، ولا غيره من الثلاثة والسبعين أشار أية إشارة إلى أدنى معارضة من قبل مشركي المدينة للإسلام.

- فى الوقت الذى كان كفار مكة يضطهدون فيه المسلمين ويخرجونهم من كنفهم، كان كفار المدينة يخرجون للحج إلى مكة مع مواطنهم المسلمين ويشاركونهم خيامهم أو معسكرهم ثم يقفلون راجعين إلى المدينة بصحبتهن فى سلام ووئام.

م) من الممكن جدا أن يكون قد تم بالفعل لقاء بين الرسول ﷺ وبين حجاج المدينة الثلاثة والسبعين فى الفترة التى يذكرها النص، لكنه كان، ولابد، لقاء من هذه اللقاءات التى كان يجريها الحجاج المسلمون من مختلف القبائل العربية التى أسلم كل أو بعض أفرادها، مع رسولهم، والتى كانوا يعبرون فيها لنبيهم عن سعادتهم برؤيته ويجددون تعهدهم باحترام أوامر دينهم ونواهيهم، ويعربون عن عرفانهم بكل الخير الذى عاد عليهم من رسالته، وي طرحون أسئلة عملية عن بعض المشكلات التى تصادفهم، ويلتمسون منه المشورة أو الدعوات.

وقد استخدم النص هذا اللقاء - عن طريق التلاعب بالقرآن، ونسبة أقوال إلى الرسول لم يقلها وبوسائل أخرى - لتزييف الحقيقة وإبتداع صورة منحازة ترفع أهل المدينة، فى مجموعهم، إلى السماء وتضع القرىشيين فى مجموعهم، فى سلبات الإسلام. والصورة التى يعطيها لنا النص هنا هى صورة تظهر فيها الحرب من منظور مختلف تماما عن ذلك الذى يستخلص من الآيات القرآنية التى يسوقها النص بخصوصها.

٣ - الهجرة إلى المدينة

ألف - النص

يقدم النص تحت عنوان «ذكر المهاجرين إلى المدينة» معلومات مختلفة عن هذه الهجرة، ويخصص صفحة ونصف لهجرة أبى سلمة من بنى سلمة وزوجه اللذين يقول إنهما أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب

رسول الله ﷺ من المهاجرين من قريش . وكان قد سبق لهذا الصحابي أن هاجر وزوجته إلى الحبشة ، ثم قدم على رسول الله ﷺ مكة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجرا ، وذلك قبل بيعة الحرب بسنة .

ويذكر النص بعد ذلك أسماء مهاجرين آخرين وصلوا إلى المدينة بعد هذه البيعة كان من أولهم عبدالله بن جحش . ويأتى بعد ذلك حديث يستغرق صفحتين عن عمر الذى خرج مع عيَّاش بن ربيعة وهشام بن العاص . وقد وقع عيَّاش وهشام فى كمين وفتنا فافتنا . لكنهما استردا إيمانهما بعد فترة .

ويذكر النص أخيرا أسماء مهاجرين وكذا أسماء من نزلوا عندهم من مسلمى المدينة . ويبلغ مجموع من وردت أسماؤهم تحت عنوان «ذكر المهاجرين إلى المدينة» أربعة وسبعين شخصا . على أن هذه القائمة ليست كاملة ، فإن النص يضيف ، بالنسبة لعمر «ومن لحق به من أهله وقومه» ، كما يضيف بالنسبة لمجموعة أخرى ، هم بنو البكير ، عبارة «وحلفاؤهم من بنى سعد بن ليث» . وبعد اسم عبدالرحمن بن عوف ، يضيف النص : «فى رجال من المهاجرين» . وهو يقول فى نهاية القائمة : «نزل الأعزاب من المهاجرين على سعد بن خيثمة» (*) .

وتحت عنوان «هجرة الرسول ﷺ» ، يقول النص فى مستهل حديثه : «وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن ، إلا على بن أبى طالب ، وأبوبكر بن أبى قحافة الصديق رضى الله عنهما» .

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٤٦٨ - ٤٨٠ .

ولما رأت قريش أنه قد أجمع لحربهم، اجتمعوا يتشاورون فيما يصنعون في أمر محمد ﷺ الذي صارت له شيعة وأصحاب بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين من مكة إلى المدينة ووجدوا فيها دارا ومنعة. واعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل وطلب أن يحضر الاجتماع وأذن له بذلك.

وفي هذا الاجتماع قُدم اقتراح أول قال صاحبه: «أحبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيرا والنابعة، ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم» فقال الشيخ النجدي: «لا والله، ما هذا لكم برأى. والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلاوشكوا أن يشبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم». ثم قال قائل منهم: «نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا عنه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت». فقال الشيخ النجدي: «لا والله، ما هذا لكم برأى، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمتن أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم». فقال أبو جهل بن هشام: «أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتي شابا جليدا نسيا وسيطا فينا، ثم نعطي كل فتي منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالعقل أي بالدية فعقلناه

لهم». فقال الشيخ النجدي: «القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا أرى غيره». فتفرق القوم على ذلك وهم مجتمعون له (١).

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، فقال: «لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه»، فلما كانت عتمة من الليل، اجتمعوا على يابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلي بن أبي طالب: «نم على فراشي وتسج ببردي هذا الأخضر فثم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم». وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل يثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس: (٢)

﴿يَسَّ (١) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩)﴾ [يس: ١ - ٩]

ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب. فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال: «ماذا تنتظرون ها هنا؟» قالوا: «محمد»، قال: «خبيكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟». فوضع كل رجل منهم بيده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائما، عليه

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٤٨٠ - ٤٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٨٢، ٤٨٤.

برده». فلم يترحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام على رضى الله عنه عن الفراش فقالوا: «والله لقد صدقنا الذى حدثنا». وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن فى ذلك اليوم، وما كانوا أجمعوا له:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال: ٣٠]

وقول الله عز وجل:

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبُّوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١)﴾ [الطور: ٣٠ و٣١]

وابتاع أبوبكر، الذى كان كلما استأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة، قال له الرسول «لا تعجل»، راحلتين ودفعهما إلى رجل استأجره ليكون دليلا لهما فى رحلتهم إلى مكة. وفى يوم من الأيام، أتى رسول الله ﷺ أبا بكر فى بيته بالهجرة وقال له إن الله قد أذن له فى الخروج والهجرة. فقال أبوبكر: «الصحبة يا رسول الله» قال: «الصحبة»، وبكى أبوبكر من الفرح. ولم يعلم بخروج رسول الله ﷺ أحد، حين خرج، إلا على بن أبى طالب، وأبوبكر الصديق، وآل أبى بكر. أما على، فإن رسول الله ﷺ أخبره بخروجه، وأمره أن يتخلف بعده بمكة، حتى يؤدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم عن صدقه وأمانته.

فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج، أتى أبابكر، فخرجا من خوخة لأبى بكر فى ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بثور - جبل بأسفل مكة - فدخلا، وأمر أبوبكر ابنه أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من خبر، وأمر مولاة أن يرعى

غنمه نهاره، ثم يريحها عليهما، يأتيهما إذا أمسى في الغار. وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما.

فأقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثا ومعه أبوبكر، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مئة ناقة لمن يرده عليهم. حتى إذا مضت الثلاث، وسكن عنهما الناس أتاها صاحبهما الذي استأجراه ببيعريهما وبيع له، وانطلق الرسول وأبوبكر ومولاه والدليل (*).

ولما خرج الرسول وأبوبكر أتى دار أبي بكر نفر من قريش وسأل عن الرسول فقالت لهم أسماء بنت أبي بكر لا أدري، لكن رجلا من الجن جاء من أسفل مكة، يتغنى بأبيات من شعر غناء العرب، وإن الناس ليتبعونه، يسمعون صوته وما يرونه.

وهو يقول:

جزى الله رب الناس خيراً جزائه رفيقين حلاًّ خيمتى أم مَعْبِدِ
هُمَا نَزَلَا بِالْبَرِّ ثُمَّ تَرَوَّحَا فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم ومقعدا للمؤمنين بمرصدا

وفهم الناس من قوله أن الرسول ﷺ متجه إلى المدينة.

وأراد سراقه بن مالك أن يفوز بالناقات المئة التي جعلتها قريش لمن رد رسول الله ﷺ عليهم، ولبس لأمتّه، أى درعه وسلاحه، وأمر بفرسه. وعلى الرغم من أنه، حين استقسم بقداحه مرتين، خرج السهم الذى يكره «لا يضره»، فإنه أبى إلا أن يتبع الرسول ﷺ، فركب فى أثره. فلما بدا له القوم ورآهم، عثر به فرسه مرتين، فذهبت يداه فى الأرض،

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٤٨٤ - ٤٩٠.

وسقط هو عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما في المرة الثانية دخان كالإعصار، فعرف سراقه حين رأى ذلك أن الرسول ﷺ قد منع منه (١).

ويذكر النص خط السير الذي اتبعه الدليل بالرسول وصحبه إلى أن بلغوا قباء. وبقى الرسول ﷺ في قُباء ثلاثة أيام قبل أن يتجه إلى المدينة. وينهى النص حديث هجرة الرسول بالملاحظة الآتية: «وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ، فلم يبق بمكة منهم أحد، إلا مفتون أو محبوس» (٢).

هذا وقد وردت بيانات أخرى عن الهجرة في سرد الأحداث التي تلت وصول الرسول ﷺ إلى المدينة، قيل فيها إن أهل دور مُسمين أوعبوا بأهليهم وأموالهم إلى المدينة وإن دورهم غُلِّقت بمكة هجرة ليس فيها ساكن، وكان من هذه الدور دار بنى جحش بن رثاب، حلفاء بنى أمية، وقد عدا عليها أبوسفیان بن حرب. (٣)

باء- التحليل

سأتناول في هذا التحليل أربعة موضوعات: مسألة ما إذا كان الرسول ﷺ قد هاجر أم أنه أُخرج من المدينة، وهجرة المسلمين، والقرآن والهجرة، وأخيرا، القرآن وإخراج المسلمين.

١- هجرة أم إخراج للرسول؟

هناك، فيما يقول النص، علاقة سببية بين بيعة العقبة الثانية، أي بيعة الحرب، وهجرة الرسول ﷺ. وتتضح هذه العلاقة من كل جملة، بل

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٤٨٤ - ٩٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٩٠ - ٤٩٩.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٤٩٩.

وتكاد تتضح من كل كلمة جاءت على لسان كل شخص من الأشخاص الذين تحدثوا في اجتماع الرسول مع حجاج المدينة الثلاثة والسبعين:

(أ) فإن العباس، عم الرسول ﷺ، شدد على أن الرسول، على الرغم من كونه في عز من قومه ومنعة في بلده، أبى إلا الانحياز إلى مسلمي المدينة واللاحق بهم. فما من شك إذن من أن قرار الرسول ﷺ بترك مكة إلى المدينة كان قرارا اتخذته بمحض إرادته، وأن عدااء قريش له لم يكن له أي دور في اتخاذها، ما دام ذروه قد منعه من قومه.

(ب) حين سأل الرسول ﷺ حجاج المدينة هل يمنعون، فإنه كان، ولا شك، يتحدث عن المستقبل، بعد أن يهاجر إليهم.

(ج) حين تحدث البراء بن معرور عن الحروب والحلقة، وحين تحدث أبو الهيثم بن التيهان عن قطع جبالهم مع اليهود، وحين لفت العباس بن عبادة انتباه مواطنيه إلى النتائج التي ستترتب على مبايعتهم للرسول، فإن ثلاثهم كانوا يردون - عن علم - على سؤال الرسول عليه الصلاة والسلام. وكان من الطبعي أن الرسول ﷺ، لو لم يتلق ردا إيجابيا ممن كان يخاطبهم، لما عقد البيعة وأفضل البقاء في مكة التي كان فيها، على حد قول عمه، «في عز من قومه ومنعة في بلده». والسؤال الذي لا مفر من طرحه في بداية هذا التحليل هو: هل تظل علاقة السبية التي أشرنا إليها بين بيعة الحرب وهجرة الرسول قائمة إذا ثبت أن هذه البيعة لم يكن لها وجود؟ إن الإجابة عن هذا السؤال لا يمكن أن تكون إلا بالنفي.

لكن هناك ما هو أكثر من هذا: إن مؤلف النص، الذي جعل من هجرة الرسول الطوعية النقطة المركزية التي بنيت حولها بيعة الحرب،

غاب عن فطنته أن بعض آيات القرآن الكريم تعطى عن خروج الرسول ﷺ من مكة صورة تختلف عن تلك التي صور به. وهذه الآيات هي:

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (١٣) ﴿[محمد: ١٣]

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّعُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ قَالَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٣) ﴿

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٠) ﴿[التوبة: ١٣ و ١٠]

إن هذه الآيات تتحدث بلغة واضحة لا تحتمل اللبس عن إخراج لا عن هجرة. ويلاحظ في هذا الصدد كذلك أنه ما من آية من آيات القرآن الكريم استعملت كلمة «الهجرة» فيما يتعلق بالرسول ﷺ.

ولما كان الفرق بين الهجرة والإخراج، كما هو بديهي، هو أن الهجرة عمل إرادى حتى إذا كان الشخص قد أقدم عليه تحت ضغط الظروف، وأن الإخراج عمل ليس لإرادة الشخص الذى يجرى إخراجه فيه دخل، فإن مؤدى صياغة القرآن هو أن الرسول ﷺ، خلافا لما قاله العباس بن عبدالمطلب فى النص، لم يكن قط يريد أن يترك مكة، وأنه لو خير لاختار أن يبقى فيها، وأنه إذا كان قد تركها فإنما كان ذلك لأنه أجبر على تركها إجبارا.

وإذا كان الأمر كذلك:

- فمن بين الخيارات الثلاثة (الاعتقال أو القتل أو الطرد) الواردة في آية:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]

التي أشار إليها النص، اختارت قريش الأمر الثالث أى الإخراج، لا الأمر الثانى، أى القتل. لا، ربما، لأن الرغبة فى قتل الرسول ﷺ كانت تعوزهم، وإنما لأنهم، بعد أن فكروا فى قتله، عدلوا عن هذه الفكرة، أو لأنهم، بعد أن حاولوا قتله، فشلت محاولاتهم.

د) الآية ٣٠ من سورة التوبة لا تشير، كما يدعى النص، إلى الاجتماع الذى ذكره، بل تشير، على الأرجح، إلى سلسلة من الاجتماعات كانت قريش تناقش خلالها، منذ بداية البعثة، المشكلة التى تسبب فيها محمد ودينه هلكة، وخير الوسائل لحلها.

هـ- المشهد الذى نرى فيه مجموعة من فتية قريش يتمون إلى كل قبائلها ويبد كل منهم سيف صارم وهم يحيطون ببيت الرسول ﷺ فى انتظار أن ينام ليقتلوه تنفيذا للقرار الذى اتخذته قريش فى اجتماعها، لم يحدث فى الحقيقة، للأسباب التى سبق ذكرها.

و) آية سورة يس: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ التى يذكر النص إن الرسول ﷺ تلاها حين خرج من بيته دون أن يراه أحد، نزلت قبل اللحظة التى يذكرها النص بمدة طويلة، وهذه الآية، على أى حال تتحدث عن مشاهد للقيامه لا تمت بصلة للظروف التى يتحدث عنها النص.

ز) قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ من سورة الطور نزلت في الفترة المكية الأولى، وهذا شيء طبيعي، ومضمونها وارد في كثير من آيات القرآن.

ح) من غير المعقول أن تكون قريش، بعد أن أخرجت الرسول ﷺ، قد وعدت بتقديم مئة ناقة لمن يقبض عليه ويعيده إلى مكة. وقصة سراقه الذي يخرج بمفرده لطاردة محمد وأصحابه الثلاثة، الذين من المفروض أنهم كانوا بدورهم مسلحين، هي أيضا محض خرافة. على أن هذا لا يعنى أن قريشا، بعد أن أخرجت الرسول ﷺ من مكة، لم تفكر في قتله وأنه ﷺ، الذي لم يغب عنه الخطر الذي كان يتعرض له متى عبر حدود هذه المدينة، لم يأخذ لنفسه الحيطة ويختفى، كما يقول القرآن، مع صاحبه في الغار.

ط) وما يلاحظ بهذه المناسبة أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، لو كانوا حريصين حقا على سلامة الرسول ﷺ، لعارضوا في إخراجه لأن إخراجه كان من شأنه أن يتعد به عن نطاق حمايتهم؛ وإذا كانوا، مع ذلك، قد قبلوا هذا الإخراج نزولا على ضغط قبائل قريش الأخرى، فقد كان من واجبهم أن يحموه بعد إخراجه من مكة إلى أن يصل إلى مقصده. كذلك فإن كون الرسول ﷺ قد اختار أبا بكر رفيقا له في رحلته ولم يختار العباس أو أيا من أفراد قبيلته هو في الواقع قرينة على أنه لم يكن يثق فيهم، وهو ما يقوى فكرة أن هاتين القبيلتين كانتا من بين القبائل التي قررت إخراجه.

٢- هجرة المسلمين

تثير هذه الهجرة المسائل الآتية:

- هل هناك علاقة بين بيعة الحرب وهجرة المسلمين إلى مكة؟

- هل هاجر كل مسلمى مكة إلى المدينة؟

- هل أُخرج بعض مسلمى مكة؟

أ- البيعة والهجرة

«فلما أذن الله تعالى له ﷺ فى الحرب، وبإيعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه، وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا يأمنون بها. فخرجوا أرسالا» (*).

هذه الفقرة، التى وردت فى النص فى بداية حديث الهجرة إلى المدينة، توضح بجلاء أنه كان هناك «أمر» من الرسول ﷺ إلى مسلمى مكة بالهجرة إلى المدينة وأن هذا الأمر صدر، من جهة، بموجب الإذن الإلهى الذى تلقاه بالحرب، ومن جهة أخرى، بناء على تعهد «الأنصار» بنصرة المهاجرين وإيوائهم. وواقع الأمر:

(١) أنه لم يكن من عادة الرسول ﷺ أن يصدر أوامر، بل كان فى جميع المناسبات يترك لكل امرئ حرية التصرف، بمقتضى آية «لا إكراه فى الدين»؛ والنص ليس فيه أبدا ما يدل على أن الرسول فرض على أحد من المسلمين تضحية أو سلوكا. ومن أمثلة ذلك أن الهجرة إلى الحبشة لم يؤمر بها، فيما يقول النص، بل نُصح بها.

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٤٦٨.

(٢) موضوع هجرة مسلمى مكة لم يطرح إطلاقاً على بساط البحث فى اجتماع الرسول ﷺ بالحجاج الثلاثة والسبعين فى العقبة. ولم يتعهد مسلمو المدينة، فضلاً عن ذلك، بشيء فيما يتعلق بهم، والشىء الوحيد الذى كان موضع بحث فى هذا الاجتماع، من أوله لآخره، كان سلامة الرسول الشخصية.

(٣) نظراً إلى أن الآيات التى تأذن بالحرب كانت مدنية، وإلى أنه لم تكن هناك بالتالى بيعة حرب بين النبی ﷺ والحجاج الثلاثة والسبعين، فإن دعوى النص غير مقبولة.

على أن من المحتمل جداً، إذا كان قد عقد مثل هذا الاجتماع، أن يكون الرسول ﷺ، لفرط المشاق التى كان يعانيتها أصحابه المكيون فى مواجهة الاضطهاد والمقاطعة، قد سأل هؤلاء الحجاج، وربما غيرهم قبلهم، ما إذا لم يكن بوسعهم أن يؤووا عدداً من أصحابه، وأن يكون قد بين لهم المزايا التى يمكن أن تتحقق لهم من وجودهم بينهم، سواء من الناحية الدينية، أو من الناحية الاقتصادية، إذ أن هؤلاء المهاجرين المكيين كانوا ذوى خبرة تجارية كبيرة، وكانت لدى بعضهم رؤوس أموال قد تعود عليهم بالخير، وأن بعضهم الآخر يمثل يداً عاملة قليلة التكاليف.

ومن الممكن جداً أن يكون حجاج المدينة قد وعدوا، أو حتى تعهدوا، بإيواء إخوانهم المكيين وتقديم جميع التيسيرات الممكنة لهم للإقامة فى المدينة. وبهذا تكون بيعة العقبة الثانية، فى نهاية الأمر، اتفاقاً يتعلق بهجرة بعض مسلمى مكة، لا بيعة للحرب.

ب) هل هاجر إلى المدينة كل مسلمى مكة ؟

رأينا فى حديث البيعة أن مسلمى مكة كانوا «من بين مفتون فى دينه، ومن بين معذب فى أيديهم، وبين هارب فى البلاد فرارا منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة، وفى كل وجه»، ولاحظنا أن النص لم يتحدث عن فئة إضافية تتضمن مسلمى مكة الذين لم يفتنوا فى دينهم، ولم يعذبوا، ولم يفرّوا.

وقد جاء فى حديث الهجرة، من الجهة الأخرى:

- قبل هجرة الرسول إلى المدينة : «وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن، إلا على بن أبى طالب، وأبو بكر: أبى قحافة الصديق رضى الله عنهما»؟

- بعد هجرة الرسول ﷺ : «وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ ، فلم يبق بمكة منهم أحد، إلا مفتون أو محبوس».

وإذا راعينا أن لفظة «المهاجرين»، فى لغة النص، لا تعنى - كما رأينا - مسلمى مكة الذين هاجروا بصفة فعلية، وإنما مسلمى مكة عموما، فإن هذين الخبرين يضيفان إلى الخبر الأول، الذى يتحدث عن فئات ثلاث هى من فتنوا، ومن عذبوا، ومن فروا، فئة من حبسوا. والخبر الأخير يختلف عن الخبر الثانى فى أنه يتحدث عن وصول المهاجرين إلى المدينة بعد وصول الرسول ﷺ ، بينما يفيدنا الخبر الثانى أن الرسول، مع على وأبى بكر، كانوا آخر من تركوا مكة. لكن الخبرين الثانى والثالث يشبهان الخبر الأول فى أن الفئات التى تضمنها ذكرت على سبيل الحصر. وإذا أخذنا فى الاعتبار كل ما جاء فى الأخبار الثلاثة، لخرجنا بالملاحظة الآتية: فيما عدا الأشخاص الذين عذبوا، وحبسوا، وفروا إلى

الحبشة أو إلى المدينة أو فى كل جهة، أو الذين فتنوا، لم يبق بمكة أحد من المسلمين بعد رحيل الرسول ﷺ بوقت قصير.

وللحكم على مدى صدق هذه المعلومة الهامة، يتعين أولاً معرفة عدد المهاجرين ثم، بعد ذلك، معرفة ما إذا كانت بعض عناصر السرد تؤيدها.

(١) عدد المهاجرين،

المعلومات المتعلقة بمهاجرى المدينة أقل دقة بكثير من تلك التى تتعلق بمهاجرى الحبشة، الذين ذكرت أسماؤهم، بما فى ذلك أسماء النساء والأطفال، وأعدادهم بالتفصيل مع ذكر عشائرتهم وقبائلهم. فقد رأينا، فيما يتعلق بمهاجرى المدينة، أن النص ذكر أسماء ٧٤ مهاجراً تحت عنوان «ذكر المهاجرين إلى المدينة»، وأن هذا الرقم لا يشمل من لحق بعمر من أهله وقومه، ولا بنى سعد بن ليث حلفاء بنى البكير، وأنه كان هناك عدد آخر من المهاجرين لم تذكر أسماؤهم. كم كان عدد المهاجرين الذين تضمهم هذه المجموعات الثلاث؟ لا أحد يدرى. على أن من المسموح به القول بأنهم لم يكونوا كثيرين وأنهم، على أى حال، كانوا أقل عدداً من المهاجرين الـ ٧٤ الذين ذكرت أسماؤهم. وعلى فرض أن عددهم كان مثل عدد هؤلاء المهاجرين فإن المجموع يناهز المائة والخمسين.

(٢) عناصر أخرى،

فئات المسلمين المكيين الأخرى التى لم تهاجر إلى المدينة بعد البيعة هى: من فتنوا، ومن عذبوا، والمحبوسون، والفارّون. والحاصل:

- أن النص لا يعطى أية معلومات عن فتنوا. وهو لم يذكر سوى حالتين: حالة عيَّاش بن أبى ربيعة، وحالة هشام بن العاص، اللذين عاد

بهما أبو جهل إلى المدينة بعد هجرتهما، بخدعة، ثم فتننا وحبسا لكنهما استطاعا أن يكسرا أغلالهما وينضما إلى إخوانهما في المدينة. وهم على أى حال ضمن من يشملهم رقم الـ ٧٤. لكن إذا كانت هناك حالات لأشخاص فتنوا نهائيا عن دينهم، فلا يجب، منطقيا، أن يدخلوا فى عداد المسلمين.

- ليست هناك أية معلومات عن المسلمين الذين كانوا تحت التعذيب.

- أما المسلمون الذين حبستهم قريش، فنحن لا نعرف منهم سوى ثلاثة أو أربعة، وكلهم ممن سبقت لهم الهجرة إلى الحبشة، ومنهم عياش ابن أبى ربيعة وهشام بن العاص ذاتهما.

على أن جزء النص الذى يتعلق بالفترة المدنية يخبرنا أن أبا بصير عتبة ابن أسيد بن جارية وسبعين رجلا غيره كانوا احتبسوا بمكة استطاعوا الإفلات من الأماكن التى كانوا محتبسين فيها بعد صلح الحديبية وخرجوا إلى العيص وضيقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر بهم غير إلا اقتطعوها حتى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ ألا آواهم فى المدينة (*). وهذا الخبر فى رأينا ترد عليه تحفظات مهمة (وذلك جزئيا لأنه، مثل أخبار أخرى فى الفترة المدنية، يظهر مسلمى مكة بمظهر القادرين على العنف وعلى ارتكاب أعمال مستهجنة).

- أما المسلمون الذين فروا من الحبشة (ومنهم ٢١ عادوا إلى مكة ثم هاجروا مع الرسول ﷺ)، والمسلمون الذين سبق أن فروا إلى المدينة (والذين يتجاهل النص وجودهم، باستثناء أبى سلمة وزوجه)، والمسلمون الذين فروا «فى كل وجه» (الذين يتجاهل النص كذلك

(*) السيرة، القسم الثانى، ص ٣٢٤.

وجودهم)، فإنهم لا يدخلون في الحساب، إذ أنهم كانوا خارج أرض مكة.

فإذا اعتبرنا أن المحتسبين كان عددهم ٧٠، وإذا أضفنا إليهم - وهو تقدير واسع جداً، إذ أن النص لم يقل عنهم شيئاً - من عذبوا (على فرض أنهم غير داخلين في رقم المحتسبين)، وقدّرنا عددهم بثلاثين، فإن عدد المسلمين الذين بقوا في المدينة بعد الهجرة اللاحقة على بيعة الحرب المزعومة يكون ١٠٠ لا أكثر.

والسؤال الآن هو : هل كان ذلك ممكناً؟ هل من المعقول، بعبارة أخرى، أن الرسول ﷺ لم يتمكن، هو وأصحابه، ومعهم القرآن الذي نزلت ثلاثة أرباعه في مكة، في ثلاث عشرة سنة من الدعوة، أن يقنعوا بالإسلام سوى ٢٥٠ شخصاً على أقصى تقدير؟

والإجابة عن هذا السؤال، في نظري، هي أن هذا شيء غير ممكن على الإطلاق. ذلك:

أ- أن النص هنا، كما في قائمة المسلمين التي أوردها في نهاية الفترة المكية الأولى، لا يأخذ في حسبانهم المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام سرا، خشية العقوبات التي كان يتعرض لها المسلمون على يد قبائلهم أو من جانب قريش.

ب- أن حملات الدعاية ضد الرسول والإسلام، واضطهاد المسلمين، وسياسة القمع التي كانت تطبقها القبائل لمعاينة من أسلموا ولإرهاب من يفكرون في اعتناق الإسلام إذا كانت قد أثبتت بعضهم عن ذلك فإنها، بما أدت إليه من حالات الاستشهاد والبطولات، قد حفزت آخرين على الدخول في الإسلام.

ج- أنه فى القبائل التى أسلم عدد كبير من أفرادها، لابد أن الرؤساء كانوا يترددون فى اضطهاد أفرادها المسلمين أو نفيهم، لأن الاضطهاد والنفى كان يضعفان مركز القبيلة إزاء القبائل الأخرى الأقوى أو الأكثر عدداً؛ كذلك فإن من المحتمل أن إسلام بعض سادة العشائر وأشرافها ترتبت عليه سلسلة من حالات اعتناق الإسلام فى عشائريهم.

د- بدراسة قائمة الـ ٧٤ من مسلمى مكة الذين هاجروا، يتضح الآتى:

- أن خمسة رجال فقط صحبوا معهم زوجاتهم.

- أنه كان بين الرجال الستين، الذين لم تكن معهم زوجات، رجال متزوجون مثل عثمان وجعفر اللذين هاجرا إلى الحبشة مع زوجتيهما. ولم يكن أولئك الذين لم يهاجروا إلى الحبشة، ممن لم يورد النص أية بيانات بشأنهم، عزابا كلهم. ولابد أنهم تركوا وراءهم فى مكة زوجات وأولادا. والرسول ذاته، ﷺ، كذلك أبوبكر، تركا وراءهما بنات. وباختصار فإن جانباً من الرجال والنساء، متزوجين كانوا أم غير متزوجين، الذين رحلوا إلى المدينة قبل الرسول ﷺ أو بعده مباشرة، كانت لهم فى مكة أسر كان بعض أفرادها على الأقل مسلمين. ومن المحتمل أن عدد هؤلاء كان أكبر من عدد من هاجروا. والذى حدث هو أن إحصائية النص أسقطتهم من حسابها.

هـ- أن مسلمى المدينة، الذين كانوا لا يمثلون كل المدينة أو أغلبها، لم يكونوا يملكون الوسائل المادية التى تسمح لهم بإيواء واستضافة جميع مسلمى مكة بصفة مستمرة.

و- أن وجود عدد كبير من الرجال والنساء دون عمل فى المدينة كان من شأنه أن يثير مشكلات اجتماعية تسيء إلى الإسلام.

ز- أن الالتزامات العائلية، والارتباط بالدار والأسرة، أو الخوف من المجهول، كانت عوامل لا بد أنها جعلت بعض المسلمين في مكة لا يتحمس لفكرة ترك مدينتهم.

ح- أن بعض المسلمين كانوا كذلك يرون أنهم يخدمون الإسلام بالبقاء في مكة بدلا من الهجرة إلى المدينة.

٣- القرآن والهجرة :

فيما يلي بعض الآيات التي يتحدث فيها القرآن عن الهجرة:

- ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)﴾

[النحل : ٤١ و ١١٠]

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)﴾

[البقرة : ٢١٨]

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)﴾ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾

[الأنفال : ٧٢ و ٧٤ و ٧٥]

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٥٨) ﴿ [الحج: ٥٨]

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١٠٠) ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٠١) ﴿ [التوبة: ١٠٠ - ١٠١]

من مجموع هذه الآيات والآيات من ٩٧ إلى ١٠٠ في سورة النساء يمكن استخلاص المعلومات الآتية بشأن الهجرة عموماً، وبشأن هجرة مسلمي مكة بوجه خاص:

أ) دعوة القرآن المسلمين إلى الهجرة ترجع إلى الفترة المكية الثالثة (آيتا سورة النحل، وهي مكية، وترتيبها عند بلاشير ٧٥، علماً بأن ترتيب سورة البقرة وهي أولى السور المدنية عنده هو ٩٣).

ب) تلبية لهذه الدعوة وبتشجيع من الرسول ﷺ، لابد أن عدداً من حالات الهجرة الفردية أو الجماعية تمت، انطلاقاً من مكة ومن غيرها من مناطق الجزيرة التي كان المسلمون مضطهدين فيها، إلى المدينة، أو إلى مناطق أخرى لم يكن المسلمون يتعرضون فيها للاضطهاد.

ج) إذا كان النص لم يتحدث عن هذه الهجرات، فمن المحتمل أن يكون باعته لذلك هو رغبته في إظهار يثرب بمظهر المدينة الوحيدة في الجزيرة العربية بأكملها، التي آوت الرسول ﷺ ومسلمي مكة، ولادعاء أن لقب «الأنصار» حق خالص لأهل المدينة دون غيرهم.

د) موقف النص في هذا الخصوص قريب الشبه بموقفه فيما يتعلق

بإسلام بعض قبائل عرب الجزيرة، فقد ضرب عنه صفحا كى يبرز ما يدعيه من تقبل أهل المدينة الذى لا يبارى للإسلام.

هـ) لو أن جميع مسلمى مكة - ومسلمى مكة وحدهم، لأنه لم يكن فى الجزيرة، طبقا للنص، مسلمين غيرهم، سوى مسلمى المدينة - هاجروا إلى المدينة مع الرسول ﷺ، لما كانت هناك هجرات جديدة. لكن آيات القرآن التى أوردناها من سورة البقرة وسورة الأنفال وسورة النساء وسورة التوبة، التى تحت المسلمين على الهجرة تنسحب على الجزء الأكبر من الفترة المدنية، فإن سورة البقرة هى أولى السور المدنية، وسورة التوبة هى السورة قبل الأخيرة من القرآن الكريم، فى ترتيب بلاشير. وهذا دليل على أنه كان فى مكة مسلمون عندما فتحها الرسول ﷺ سنة ثمان من الهجرة (٦٣٠ م). إذن فإن المسلمين من أهل مكة، عند الهجرة، كانوا أكثر عددا بكثير من المائة الذين يستخلصون من بيانات النص.

و) المستضعفون من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، والذين أسقط عنهم التزام الهجرة، كانوا، على الأرجح، يحصون بالمئات.

ز) بعد أن شجع القرآن الهجرة، فى بداية الأمر، بالثناء على المهاجرين فى سبيل الله، ووعدهم بالمكافأة على هجرتهم فى الدنيا وفى الآخرة، حتى إذا قتلوا أو ماتوا فى الطريق، إذا به يجعل من الهجرة واجبا ويهدد بجهنم من نكصوا عنها بذريعة أنهم كانوا «مستضعفين فى الأرض»، وفى هذا دليل على أن مكة لم تخل تماما من مسلميها بالهجرة الناتجة عن البيعة المزعومة.

ح) وهناك دليل آخر على هذا هو أن القرآن الكريم فرض على المسلمين الذين هاجروا، وعلى من آوهم، أن ينصروا من يستنصرونهم في الدين ممن آمنوا ولم يهاجروا.

ط) ما من شيء في الآيات التي سقناها يسمح بالقول بأن حديث الهجرة في القرآن وقف على مسلمي مكة، ولا بأن مسلمي المدينة وحدهم هم الذين آووا المهاجرين ونصروهم.

ي) حين تحدث القرآن الكريم في سورة التوبة عن أهل المدينة الذين مردوا على النفاق، والذين سيعذبون مرتين ثم يردون إلى عذاب أليم، كان ذلك في سياق الحديث عن الهجرة، ويتضح من هذه الآية أن القرآن لا يصفى جميع الفضائل على أهل المدينة قاطبة.

٤- القرآن وإخراج المسلمين:

رأينا فيما سبق أن المقدمة التي تشرح الظروف التي نزلت فيها الآيات التي تأذن للرسول ﷺ باللجوء إلى الحرب اعترفت بأن قريشا نفت بعض المسلمين عن مكة. وقد تحدث النص في هذه الفقرة بعبارات عامة ولم يعط فيها أو في أي موضع آخر أي مثال لأشخاص نفوا أو أخرجوا من هذه البلدة بسبب دينهم.

أما القرآن، فقد أولى هذه المسألة اهتماما كبيرا تشهد به آيات مثل:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُم عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾

[البقرة: ٢١٧]

﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (١٩٥) [آل عمران: ١٩٥]

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُتَّغَوْنَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٨)

[الحشر: ٨]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١) ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٩) [المتحنة: ١٠٨ و ١٠٩]

﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نُّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّءُواكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣)

[التوبة: ١٣]

ومن جملة هذه الآيات ومما جاء في النص، يمكن استخلاص المعطيات الآتية، فيما يتعلق بإخراج المسلمين:

(أ) هذه الظاهرة، التي خصص لها النص أقل من سطر، كانت من الأهمية بحيث أشار إليها القرآن الكريم في عدة سور تشمل الجانب

الأكبر من الفترة المدنية، إذ أن أولها هي أولى السور المدنية، وأخراها هي سورة القرآن قبل الأخيرة.

(ب) إحدى الآيات تتحدث عن «المسجد الحرام وإخراج أهله منه» وهؤلاء «الأهل» لا يمكن أن يكونوا سوى الرسول ﷺ والمسلمين. والحاصل أن النص لا يتحدث أبداً عن هذا الإخراج، بل إنه، على العكس، جعل من المسجد الحرام المكان الذي ظهر فيه الرسول أكبر عدد من المرات. أما المسلمون فإن قصة إسلام عمر يفهم منها أنه كان محظوراً عليهم الصلاة في المسجد، لا أن يدخلوه، لكنهم، على أي حال، استطاعوا أن يصلوا فيه، دون عائق، بعد إسلام عمر.

(ج) سبب إخراج الرسول والمسلمين، كما يذكره القرآن، هو مجرد كونهم آمنوا بالله ربهم.

(د) تدابير الإخراج الفردية ضد المسلمين اتخذت شكلين: الإخراج من الديار والإخراج من الأموال، أي المصادرة.

(هـ) - لا بد أن حالات الإخراج كانت مفاجئة لدرجة أنها اعتبرت، كوسيلة من وسائل الاضطهاد، أكبر من القتل.

(و) ليس في القرآن ما يفهم منه أن قريشا كانوا وحدهم هم الذين يخرجون مسلميهم.

ز- تتحدث الآية ١٣ من سورة التوبة عن أيمان نكث بها الكفار فهموا بإخراج الرسول ﷺ. والنص لا يعطى أي تفسير لهذه النقطة الهامة.

(ح) إخراج الرسول ﷺ، والهجوم المتكرر على المسلمين، تعتبر في الآية ذاتها حالة تبرر حرب المشركين (الذين تقول عنهم سورة البقرة إنهم لا يزالون يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم).

ط) الآيتان ٨ و ٩ من سورة الممتحنة تقرران مبدأ أن من غير المحظور على المسلمين أن يبروا من لم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم، وأن يقسطوا إليهم، وأن المحظور فقط هو تولى من قاتلوهم في الدين وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم. وهذا الحكم، على الرغم من تأخر نزوله، وكذلك ما تنص عليه الآية ٧٢ من سورة الأنفال من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ (*) فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ يختلفان في روحهما عن الإدانة الجماعية التي يوجهها النص ضد قريش في شرح الظروف المؤدية إلى نزول الآيات التي أذن لمحمد ﷺ فيها بالقتال.

جيم. النتيجة

في حديث الهجرة إلى المدينة ثلاث من السمات التي سجلتها في حديث الفترات السابقة، هي : التلاعب بالقرآن، والتزييف والاختلاق، وأخيرا الإغفال. وسأتعرض فيما يلي لكل سمة من هذه السمات.

١- التلاعب بالقرآن:

الاستشهادات القرآنية التي وردت في حديث الهجرة قليلة، وتتحصل فيما يأتي:

- الآيات من ١ إلى ٨ من سورة يس، وفيها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ التي تلاها الرسول ﷺ وهو يخرج من بيته ليلا دون أن يراه الفتية القريشيون الذين كانوا يحاصرون بيته لقتله.

(*) المقصود بهم الذين آمنوا ولم يهاجروا.

- الآية ٣٠ من سورة الأنفال . قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ التي يقول النص إنها نزلت بمناسبة خطة قتل الرسول ﷺ .

- الآية ٣٠ من سورة الطور : ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ .

وقد سبق أن أوضحنا أن هذه الآيات نزلت في مناسبات تختلف عن تلك التي ذكرها النص ، وأن آخر قرار اتخذته قريش حيال الرسول ﷺ ، على أية حال ، لم يكن قتل الرسول بل إخراجه . هذه إذن حالات ثبت فيها التلاعب .

لكن الأخطر من هذا هو عدم الإشارة في النص إلى الآيات التي ذكرتها ، التي تتصل بالمادة قيد البحث ، أي إخراج الرسول ﷺ ، من جهة ، وهجرة المسلمين وإخراجهم ، من جهة أخرى . وإغفال ذكر هذه الآيات على الرغم من عددها وأهميتها لا يمكن أن يكون قد حدث مصادفة أو دون قصد ، بل هو إغفال متعمد ، وهذا أيضا شكل من أشكال التلاعب بالقرآن لا يقل خطورة عما رأيناه في حالتى بيعة العقبة الأولى والثانية .

وكما سبق أن لاحظنا ، فإن التلاعب بالقرآن خلال هذه الفترة المكية الخامسة - التي جعل منها النص ، من الناحية العملية ، أولى الفترات المدنية - أوضح من ذلك الذى لاحظته فى حديث الفترة الثالثة باقتباساتها القرآنية الأربعين . وفى الإمكان إرجاع هذا التلاعب ، الذى يمكن تسميته بالتلاعب السلبي ، إلى الأسباب الآتية :

أ) القرآن الكريم لا يتحيز لأهل المدينة تحيز مؤلف النص . إنه لا يطلق اسم «الأنصار» إلا على الأنصار ولا يزكى إلا من نصروا الله

ورسوله ﷺ والمهاجرين؛ وهو لا يصور مسلمي المدينة، في مجموعهم، باللون الأبيض، ولا قریشا، في مجموعهم، باللون الأسود، بل إنه ينسب إلى المدينة وجود نسبة من المنافقين بين أهلها المسلمين لم يشر إلى مثلها في مكة، على الرغم من كل السوء الذي يذكره النص عن أهلها.

(ب) القرآن يزكى المهاجرين ويسعدهم بالجزاء الأوفى، وهو يقول إن هؤلاء المهاجرين «يرجون رحمة الله»، وأن الله تعالى سيرزقهم رزقا حسنا، وأنه تعالى يبوئهم في الدنيا حسنة وبأجر أكبر في الآخرة، وأن الله يغفر لهم ويرحمهم. وعلى الرغم من أن الأنصار - الحقيقيين - حظوا بدورهم بجزء من التزكية في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ . . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، فلا بد أن هذا الجزء بدا لمؤلف النص متواضعا جدا بالنسبة لرجال كانوا، في زعمه، الفيصل بين هزيمة الإسلام ونصره وأصحاب الفضل الوحيدين في خلق الظروف التي هيأت سبل هذا النصر.

(ج) القرآن الكريم يخصص عدة آيات لمسلمي مكة الذين أخرجوا من ديارهم ومن أموالهم، وهو يعتبر اضطهادهم أشد من القتل، لكن النص عمى على عملهم، وذلك لأن بطولتهم، وتفانيهم لدينهم ومصيرهم المفجع قد تقلل من شأن نفر من الشخصيات المدنية التي قدمها. ولم يخصص النص لهؤلاء المسلمين غير جملتين قصيرتين لا يجاوز طولهما سطرا واحدا في فقرة تهاجم القرشيين هجوما ضاريا.

(د) القرآن الكريم، حين تحدث عن المؤمنين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، تحدث في عبارات عامة ولم يقل إن الجنة كانوا من قریش وحدها، الأمر الذي يسمح بتصوير أن بعض حالات الإخراج حدثت أيضا في المدينة، وهو احتمال طبعي للغاية حرص النص حرصا شديدا

على استبعاده بتقديم دعوى انتشار الإسلام في هذه البلدة بصورة ناعمة وعامة وسريعة، وهى دعوى غير معقولة.

هـ) القرآن الكريم يصور رحيل الرسول ﷺ عن مكة تصويرا يختلف تماما عن ذلك الذى يقدمه النص. فهو، أولا، لا يتحدث، بالنسبة له ﷺ، عن هجرة وإنما عن إخراج. ثم إنه لا ينشئ أية علاقة بين هذا الرحيل وبيعة الحرب التى اختلقها مؤلف النص اختلاقا. وهو أخيرا خالٍ من أى ذكر لقصص المعجزات التى أوردها النص تأييدا لبنائه المصطنع.

و) القرآن الكريم لا يقيم كذلك أية علاقة بين البيعة - التى لم يذكرها بكلمة - وبين هجرة مسلمى مكة.

ز) القرآن الكريم، بالآيات التى تحت المسلمين على الهجرة، بل وتفرضها كواجب، يهدر دعوى النص التى مؤداها أن جميع مسلمى مكة قد هاجروا مع الرسول ﷺ، كما يهدر الدعوى الأخرى التى تقول إن هؤلاء المسلمين كانوا «قليلا مستضعفين».

ح) القرآن الكريم، لأنه لم يقل إن مكة هى المدينة الوحيدة التى هاجر منها المسلمون، وأن يشرب هى المدينة الوحيدة التى هاجر إليها المسلمون، ترك الباب مفتوحا لاحتمال وجود محاور أخرى للهجرة غير محور مكة / المدينة، الذى يحصر النص فيه تاريخ الإسلام كله فى الفترة المكية والذى سعى عن طريقه إلى إثبات أن لأهل المدينة حق الأولوية على منجزات هذا الدين.

ط) فالقرآن، فى كلمة، يحطم كل البناء الذى جهد النص فى تشييده بصدد هجرة الرسول ﷺ والمسلمين، تمجيذا لأهل المدينة، وكذلك - عن طريق إقحام العباس فى قصة البيعة - تمجيذا لبنى العباس.

٢- التزييف والاختلاق :

حقيقة أن بيعة الحرب بين الرسول ﷺ وحجاج المدينة الثلاثة والسبعين، التي يقدمها النص على أنها العامل الذي يكمن وراء هجرة الرسول وهجرة مسلمي مكة، لم يكن لها وجود قط، تلغى الصلة التي أراد النص أن ينشئها بين هذه البيعة والهجرة. ويترتب على ذلك أن عرض النص للظروف التي أدت إلى حدوث هاتين الهجرتين لا يعكس الحقيقة التاريخية، ويدل على الاختلاق والتزييف. اختلاق وتزييف يؤكداهما، فيما يتعلق بهجرة الرسول ﷺ، أن القرآن حين يتحدث عن إخراج الرسول يعرض الأمور عرضا مختلفا يوحي بأن الرسول ﷺ كان يريد البقاء في مكة، البلد الذي بنى إبراهيم فيه الكعبة، مع ابنه إسماعيل، إجلالا لله تعالى، ولكي تظل، إلى آخر الزمن، مركزا للحج يقدم الناس فيه الأضحية ويتنسكون لله تعالى. ويفهم من عرض القرآن أيضا أن قريشا، الذين أعجزهم أن يقتلوا الرسول ﷺ، أو الذين لم يريدوا أن يقتلوه، اختاروا أن يحلوا مشكلتهم معه بحظر إقامته على أرض مكة.

ما الذي جعلهم يتخذون هذا القرار؟

ربما ليتفادوا حدوث ثورة دامية في مكة من جانب المسلمين لو أن نبهم قتل؛ وربما لكي يتفادوا تعريض مصالح مكة، أرض السلام، والحج والتجارة، للخطر بقتل أعظم رجالها.

وربما لأن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم، رغم عدائهم لدين محمد وخشيتهم من أبي لهب، عارضوا في قتل محمد ﷺ.

ومن المحتمل، أخيرا، أن يكون الذي أوحى لقريش بهذا الحل هو نجاح سياسة إخراج المسلمين التي اتبعتها القبائل المختلفة. فلاحتمالات عديدة.

ومهما يكن من أمر، ففي الإمكان أن نقول إن قرار الإخراج هذا كان قراراً حكيماً في الظروف التي كانت سائدة في ذلك الوقت. والأمثلة على مثل هذا الحل بالنسبة للزعماء الروحيين، والرؤساء الوطنيين أو السياسيين أو المفكرين، أو المصلحين كثيرة في تاريخ جميع البلاد.

والظاهر أن آيات القرآن التي تتحدث عن إخراج الرسول كانت تعوق رغبة المؤلف في استغلال عملية انتقاله ﷺ من مكة إلى المدينة لمنح مسلمي المدينة فضلاً لم يستحقوه. وهذا هو، فيما يبدو، السبب الذي جعل المؤلف يتجاهل هذه الآيات ويبتدع مكانها دعواه والأحداث التي تتصل بها. وقد لجأ لتأييد هذه الدعوى إلى حيلتين:

أ) سوق آيات قرآنية غير تلك التي تتعلق بالهجرة والإخراج على وجه التحديد.

ب- الالتجاء إلى عنصر ما وراء الطبيعة، هذا العنصر الذي سبق له استخدامه ليرسم صورة لعبد المطلب لا تمت إلى الواقع بصلة، ثم في عدة مناسبات، خلال الفترة الثالثة، حين أعمى الله عنه بصر أم جميل زوجة أبي لهب، التي أرادت أن تلقى عليه فهراً من حجارة؛ وعندما منع أبوجهل من تحطيم رأس الرسول ﷺ في المسجد بظهور جمل مخيف؛ وعندما وجد أبوجهل نفسه، حين فتح باب بيته للرسول ﷺ، الذي ذهب إليه بصحبة رجل يريد أن يقتضى دينه، وجهاً لوجه مع جمل مرعب؛ وحين تسبب الرسول ﷺ، وجبريل إلى جواره، في مصرع أربعة من خصومه القرشيين بمجرد إشارة من يده؛ وأخيراً، بعد عقد بيعة العقبة، عندما صرخ أرب بن أزيب، شيطان العقبة، ليبلغ حجاج مكة أن الرسول ﷺ قد عقد العزم على حربهم.

وفى رواية هجرة الرسول ﷺ ، استخدم المؤلف هذا العنصر بصورة مكثفة، فالنص يتحدث أولا عن اشتراك إبليس شخصيا فى مداولات قريش بشأن محمد ويجعل له الكلمة الأخيرة فى الخيارات المعروضة؛ وهو يجعل جبريل عليه السلام يتدخل فى العملية فيشير على محمد ﷺ بألا يقضى الليل فى فراشه المعتاد؛ وهو يخرج الرسول ﷺ من بيته دون أن يراه فتية قريش الذين كانوا ينتظرون أن ينام لكى ينقضوا عليه ويقتلوه، بجعلهم فى حالة تنويم ، ويثر بعض التراب على رأس كل منهم؛ وهو يجعل رجلا غير مرئى من الجن يسير فى شوارع مكة، بعد ثلاثة أيام من خروج الرسول وهو ينشد ثلاثة أبيات يفهم منها أن الرسول متجه نحو المدينة؛ وهو أخيرا، فى قصة تستغرق صفحة كاملة، يروى حكاية سُرّاقة بن جشعم الذى اقتفى أثر الرسول وأبى بكر ومولاه والدليل، ليفوز بجائزة الناقت المائة التى جعلتها قريش لمن يأتىها بمحمد، لكن سعيه خاب لمعجزة منعه من الوصول إليهم. وحشد كل هذه الأعاجيب التى لا يؤيدها القرآن فى المساحة الصغيرة التى تحتلها قصة الهجرة نموذج من نماذج الاختلاق.

أما فى قصة هجرة مسلمى مكة، فإن التزييف يمس أمرين سبق أن تعرضت لهما هما:

- الصلة الكاذبة التى ربط بها النص بين الهجرة والبيعة.

- دعوى أن جميع مسلمى مكة هاجروا مع الرسول عليه الصلاة والسلام.

٣- الإغفال والفراغات:

هذا الإغفال وهذه الفراغات تشوب مسألتى الإخراج والهجرة كليهما.

(١) الإخراج :

من فصل الإخراج الكبير الذى فتحه القرآن الكريم ، لا يحتوى النص إلا على جزء من جملة تقول إن قريشا «نفوهم من بلادهم» وإنهم «عذبوا ونفوا من عبده ووحده وصدق نبيه واعتصم بدينه» . والفراغات فى هذا الفصل تتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وبمسلمى مكة ، وبمسلمى المدينة ، وأخيرا ، بسكان الجزيرة الآخرين .

(١) الرسول :

النص ، وقد تحدث عن سفر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة باعتباره هجرة طوعية ، لا يقول شيئا ، كما هو منطقى ، عن العملية التى انتهت بإخراج الرسول ، ولا عن ظروف هذا الإخراج . وكم كان بودنا أن نعرف من الذى قرر إخراجه ﷺ : قبيلته ، أو مجلس «حكومة» قريش ؟ ومن الذى كان يؤيد هذا القرار ، ومن الذى كان يعارضه ؟ وما إذا كان الرسول ﷺ قد تلقى تكليفا بمغادرة أرض مكة فورا بأمر من السلطة ، أى مجموع القبائل ، أو أن الخيار ترك له بين العدول عن دعوته وبين النفس ، وماذا كانت ردود الفعل التى أثارها قرار الإخراج عند بنى عبدالمطلب وبنى هاشم (إذا لم يكونوا هم الذين أصدروه) ، وعند أهل بيت الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، أى بناته وابنه بالتبني زيد بن حارثة (الذين خلا منهم حديث النص عن بيت النبى ولم يذكر سوى على) ، وماذا كانت ردود فعل قرار الإخراج عند الصحابة ؟ وهل كان منهم من ثار لهذا الإجراء ومن اقترح مقاومة إخراج الرسول بالسلاح ، أم أنهم قبلوا الأمر الواقع ؟ وماذا كان بالذات رد فعل عمر وحمزة إزاء هذا القرار ؟ وهل ترك الرسول ﷺ أصحابه يخرجون قبله ، كما تقول إحدى روايتى النص ، على ما فى ذلك من تعرض لخطر قريش ، أم أنه سبقهم إلى الهجرة ، وهل لم يكن من بينهم من عرض اصطحابه

لحمايته؟ وماذا كانت ردود فعل أعدائه ، أشراف قريش الذين كانوا يسخرون منه في المسجد وغيرهم؟ ، إلخ ، إلخ .

(٢) مسلمو مكة :

من الغريب أن النص انتظر حتى نهاية الفترة الخامسة ليتحدث عن ظاهرة في أهمية ظاهرة إخراج المسلمين . وكما قلت بصدد الهجرة إلى الحبشة ، التي يمكن تسميتها أيضا بالإخراج ، أو الإبعاد ، كان هذا الإخراج أقصى عقوبة يمكن إنزالها بأى شخص فى إطار النظام القبلى ، فإن القبيلة التى كانت تقطع علاقتها بأحد أعضائها وتخرجه من كنفها ومن أرضها (وهو ما كان يعرف عند العرب بالخلع) كانت فى الواقع تجعله طريدا وتسلمه ، بيدين وقدمين مغلولتين ، لكل مخاطر الحياة .

وقد أسلفت أيضا أن فى تحدث القرآن عن إخراج المسلمين دلالة على أنه كان ظاهرة متفشية . والفراغ الذى يلاحظ فى النص بشأن هذه الظاهرة يشبه ذلك الذى لاحظته فيما يتعلق باضطهاد المسلمين وتعذيبهم فى مكة ، اللذين لم يذكرهما النص إلا فى سطرين واللذين لم يصورهما إلا بمثلين أو ثلاثة أمثلة مر عليها النص مروراً سريعاً : مثل بلال بن رباح ، الذى كان عبداً رقيقاً ، ومثل ثلاثة أفراد من أسرة ياسر كانوا حلفاء ، لا أفراداً ، لإحدى عشائر قريش .

لقد كان مصير مسلمى مكة الذين أخرجوا لاسيما فى السنوات الأولى من الدعوة ، قبل أن تتكون جماعات مسلمة صغيرة فى مناطق أخرى من الجزيرة بوسعها أن تؤويهم ، ولاشك ، مصيراً مفاجئاً ، بل ربما كان أسوأ من مصير من اضطهدوا وعذبوا ، فإن الاضطهاد والتعذيب الجسدى عمليتان مؤقتتان فى معظم الحالات . أما الإخراج فهو عادة طويل الأمد . وإذا كان التعذيب قد أسفر ، كما فى حالة أم ياسر ، عن

موت من تعرض له، فإن هذا الاحتمال قائم أيضا بالنسبة لمن تطبق عليهم عقوبة الإخراج. كم كان عدد المسلمين الذين أخرجتهم قريش، بما في ذلك، على الأرجح، قبيلتا بنى عبدالمطلب وبنى هاشم؟ ماذا كانت أسماؤهم؟ فى أى ظروف أخرجوا؟ ما الذى حدث لأزواجهم وأبنائهم؟ ماذا كان مصيرهم هم؟ هل وصلت بعض أخبارهم أم أنهم اختفوا كلية؟ هل أُسر بعضهم وبيعوا كرقيق؟ هل وقع بعضهم فى أيدي أعداء لدينهم فعذبوا أو قتلوا؟ هل وجد بعضهم ملاذا لدى قبائل غير مكية أو لدى أفراد مسلمين من قبائلهم؟ هل استطاعوا أن يبقوا على اتصال بالرسول ﷺ أو ببعض أصحابهم أو بأفراد من أسرهم؟

النص لا يقول شيئا عن هذه الأمور. بل إنه لا يذكر مثلين أو ثلاثا لمسلمين أخرجتهم قبائلهم كمثلى بلال وأسرة ياسر لحالات التعذيب، ثم إنه حوّل إلى هجرة - وأستطيع أن أقول هذا الآن بمزيد من الاطمئنان - عملية إبعاد ٨٣ من المسلمين إلى الحبشة دون أن يخشى أن يقلل الأحباش - الذين لم يسلم منهم أحد سوى النجاشي - بأية صورة من الصور، من فضل أهل المدينة فيما يتعلق بإسلامهم ولا بالنصرة والحماية التى قدموها للمسلمين.

وصمّت النص عن حالات الإخراج من التمام، وإشارته إلى الإخراج كظاهرة من الاقتضاب بحيث يظن المرء أن مؤلف النص لم يتحدث عنه إلا ليذم قريشا. وإذا قارنا الحيز الذى خصصه له النص ١٢ كلمة تغطى فى حقيقة الأمر عشرات أو ربما مئات من حالات إخراج المسلمين المأساوية - بالعشرين سطرا التى تغطى حالة وهمية هى قبض قريش على سعد بن عباد ثم إطلاق سراحه، بعد عقد بيعة العقبة الثانية، لتبينت لنا علامة، يؤكدّها العديد من العلامات الأخرى، على الاستراتيجية التى اتبعها مؤلف النص للغرض من شأن مسلمى مكة ورفع

شأن مسلمى المدينة. ويمكن تلخيص هذه الاستراتيجية فى النقاط الآتية:

- إدانة قريش كلها فى عبارات عامة.
- بذل كل جهد ممكن لإخفاء شهدائهم وأبطالهم من المسلمين ومن كانوا منهم ضحية للاضطهاد.
- إذا مس القريشيون مدنيا بأذى ، تضخيم العملية إلى أقصى حد وتحديد هوية من مسّه الأذى.
- إذا لم يكن هناك من حدث له ذلك، اختلاق حادثة.
- لا يجب أن يكون هناك عظماء بين مسلمى قريش، إلا فى قبيلة الخليفة العباسى.
- جعل أهل المدينة يظهرون بمظهر الكمال وتحديد ساداتهم وأشرافهم بالاسم.
- إسباغ أبعاد تفخيمية على هؤلاء السادة.
- إذا اقتضى الأمر، جعل الرسول ﷺ يقول كلاما لم يقله، ولسان حالهم يقول: «سيغتفر لنا ذلك، لأننا نحن حزبه لا الآخرون. كذلك فإن كل ما نسعى إليه إنما هو إظهار الحقيقة التى زيفها معاوية وأعوانه من قريش، وقد فعل ذلك أعداؤنا، أى أعداء الإسلام، وفعلوه بمغالة شديدة».

(٣) مسلمو المدينة:

رأينا أن الدعوى المثالية التى يصور بها النص تقدم الإسلام فى المدينة لا تقف على قدميها. ورأينا كذلك أن موقف مشركى المدينة حيال الإسلام والمسلمين لم يكن، غالبا، فى التحليل الأخير، مختلفا عن

موقف مشركى مكة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن المعاملة التى عاملوا بها من اعتنقوا الإسلام من أفراد عشائريهم لم تكن، على الأرجح، تختلف كثيرا عن معاملة قريش لمسلميها. ولا بد لذلك أن مسلمى المدينة تعرضوا على مدى سنوات عديدة لما تعرض له مسلمو مكة من ألوان الكذب والاضطهاد والتعذيب.

وحين تحدث القرآن عن إخراج المؤمنين، فإن ذلك كان ينسحب أيضا على مسلمى المدينة. ولا بد أن من أخرجوا من المدينة كانوا بدورهم يحصون بالعشرات أو بالمئات. لقد كان تغير الديانة أو الإيديولوجية أو النظم أو المبادئ الكبرى فى المجتمعات البشرية يقترن دائما بالاضطهاد والتنكيل. والمقدسات لا يجب أن تمس ومن يمسونها يدفعون دائما ثمنا باهظا لقاء هرطقتهم. والحاصل، أن النص لم يسق سببا واحدا معقولا لكون المدينة قد خرجت على هذه القاعدة.

وقد يتساءل المرء عن السبب الذى جعل مؤلف النص لا يحاول استغلال اضطهاد مسلمى المدينة وإخراجهم على يد مشركى هذه البلدة لإبراز كفاحهم من أجل إعلاء كلمة الإسلام. لماذا لم يحاول أن يثبت أنهم عانوا فى سبيل دينهم مثل ما عانى، أو أكثر مما عانى، إخوانهم المكيون، وأن أبطالهم فى مواجهة المشركين كانوا أعظم وأكبر عددا من أبطال مكة؟

فى الإمكان الإجابة عن هذه الأسئلة، أولا، بأن ذلك كان يقتضى الحديث عن شهداء القرشيين وأبطالهم، الأمر الذى كان يتعين تفاديه مهما كان الثمن. كذلك فإن هذا الاختلاف فى الدرجة لم يكن يكفى مؤلف النص وكان لا يحقق الفكرة التى كان يريد أن يعطيها عن أهل المدينة وعن قريش فى كتابه : فكرة أن أهل المدينة كانوا يمثلون اللون

الأبيض، وأن القرشيين كانوا يمثلون اللون الأسود، أن أهل المدينة يمثلون الخير وأن قريشا يمثلون الشر، أن أهل المدينة ملائكة وقريشا شياطين؛ ولابد أنه كان يخشى أن يكون في اعترافه بوجود حالات من الإخراج عند أهل المدينة ما ينقض دعوى أن الإسلام عرف فيها نجاحا لم يعرفه في أى مكان آخر، وأن هذا ، فضلا على بيعه الحرب التى أظهروا فيها استعدادهم للتضحية بأموالهم ورؤسائهم من أجل الرسول ﷺ ، كان يخولهم الحق، كل الحق، فى دعوى نصرته الرسول ونصرة دينهم. وموقف المؤلف فى هذا الصدد هو موقفه ذاته حيال الأبطال العظماء الثلاثة: على وجعفر وحزمة، من بنى عبدالمطلب. لقد أغفل النص أسباب عظمتهم الحقيقية، أى قدرتهم على تحدى قبيلتهم والمعاناة التى لابد أنهم عانوها فى هذا السبيل خلال أعوام، لئلا يقلل من بهاء الصورة التى أراد أن يصور بها بنى عبدالمطلب وبنى هاشم باعتبارهم حماة ومدافعين عن الرسول ﷺ ، وعن الإسلام بالتالى.

(٤) سائر المسلمين :

ليس هناك، عند النص، مسلمون غير مسلمى مكة والمدينة. وهذا هو التأكيد الذى يتضح من حديثه عن الفترة الرابعة: وما دامت كل القبائل قد رفضت الإسلام، فإن مسألة اضطهادها للمسلمين وإخراجهم لم تكن واردة عنده بالنسبة لهم.

وهذه الدعوى، كما أوضحنا فيما سبق، لا يمكن قبولها. ولابد أن عربا آخرين قد اعتنقوا الإسلام، كما حدث فى مكة وفى المدينة. والحج السنوى والعمرة، والاتصالات التجارية والأسرية وغيرها بين القبائل ومكة، وكذلك الاتصالات فيما بين القبائل، لابد أنها ساعدت، منذ بداية البعثة المحمدية، على انتشار ما نزل من القرآن ومبادئ الإسلام

على نطاق واسع . ولما كان مجموع أفراد هذه القبائل أكبر عدديا بكثير من سكان مكة والمدينة ، فإن من الراجح أن عدد مسلميها كان أكبر بكثير من عدد مسلمي هاتين المدينتين .

وفى الإمكان ، تأييدا لهذا الاحتمال ، أن نذكر بيانين يقدمهما النص عن التطورات العسكرية التى حدثت فى الفترة المدنية :

- بيان يخص غزوة الخندق ، التى حدثت سنة خمس من الهجرة (٦٢٧م) ، يتضح منه أن مكة تحالفت مع اليهود والقبائل العربية المناهضة للإسلام ضد الرسول ﷺ والمسلمين الذين كانوا معه فى المدينة . وطبقا لهذا البيان فإن قريشا لم تستطع أن تتحالف فى هذه الغزوة إلا مع قبيلة واحدة غير يهودية هى غطفان(*) . وهذا يسمح بالقول بأن القبائل العربية الأخرى رفضت الاشتراك مع مكة ، ذات الحول والطول ، فى حربها ضد محمد ، هذه الحرب التى كانت بشائرها تدل على أنها ستحوز فيها نصرا مؤزرا فى لحظة بدا فيها المسلمون ، الذين هزمتهم قبلها بعامين فى غزوة أحد ، فى حالة شديدة من الضعف العسكرى . ومن المحتمل جدا أن هذا الرفض كان يرجع إلى أن هذه القبائل كانت قد أسلمت إلى حد كبير أو أنها كانت ، على الأقل ، قريبة من الإسلام .

- بيان يتعلق بفتح مكة يتضح منه أن جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف من مهاجرى قريش ومن مسلمى المدينة ومن قبائل العرب المختلفة ، أى أكثر من ثلاثة أمثال عدد المهاجرين والأنصار الذين اشتركوا فى غزوة الخندق والذين كان عددهم ثلاثة آلاف .

وإذا كان الأمر كذلك فمن الطبيعى أن تكون ظاهرة الاضطهاد

(*) السيرة ، القسم الأول ، ص ٢١٥ .

والتعذيب والإخراج التي حدثت في مكة والمدينة قد حدثت أيضا لدى بعض، أو ربما غالبية، هذه القبائل في الفترة المكية، على أساس أن الأسباب نفسها تؤدي إلى النتائج نفسها.

وخلاصة القول هي أن النص لم يقل شيئا عن إخراج الرسول ﷺ. لكن أهم من ذلك أن المؤلف، وقد أعمته حزازاته، لم يصف مدى الآلام الجسدية والمعنوية الناتجة عن تدابير الاضطهاد والإخراج التي فرضها الكفار ضد مسلمي مكة والمدينة وأقاليم الجزيرة الأخرى.

(ب) الهجرة؛

لم يكن هناك، من وجهة نظر النص، سوى هجرتين: هجرة ٨٣ من مسلمي مكة إلى الحبشة، وهجرة جزء من هؤلاء، بعد أن عادوا إلى مكة، وسائر مسلمي هذه البلدة، إلى المدينة. وما كان يمكن أن يكون الأمر غير ذلك إذ أن محمدا ﷺ لم يكن له، عند مؤلف النص، تابعون خارج مكة فيما عدا من اتبعوه في المدينة خلال الستين الأخيرتين من الفترة المكية. وقد رأينا أن الأمر لم يكن كذلك عندما حدثت الهجرة الكبرى إلى المدينة. وفي الوسع أن نقول إن جميع قبائل العرب لم ترفض الإسلام، وأنه كان من بينها من استجاب لدعوته، وأن من عرب البادية الذين أتيحت لهم الفرصة، أثناء مواسم الحج والعمرة، والزيارات التي كانوا يقومون بها لمكة للتجارة أو لأسباب خاصة، للقاء الرسول أو أحد أصحابه، من أسلموا وأنهم، بعد أن عادوا إلى بلادهم، أدخلوا في دينهم أشخاصا أو عشرات الأشخاص من أفراد قبائلهم على نحو ما فعل الطفيل بن عمرو الدوسي الذي يتحدث عنه النص. ولا بد أن اجتماعات عقدت بين الرسول ﷺ وحجاج المسلمين الوافدين من جهات متعاطفة مع الإسلام، طلب منهم فيها أن يؤووا نفرا من المسلمين الذين اضطهدتهم قبائلهم أو التي كانت قبائلهم توشك على إخراجهم،

وحصل على موافقتهم فى هذا الشأن. كذلك فليس هناك ما يمنع أن نتصور أن الرسول ﷺ قام بالمسعى ذاته لإيواء مسلمين تعرضوا للاضطهاد أو للإخراج خارج مكة. ومن الجائز أن بعض القبائل التى أسلمت، أو التى كانت متعاطفة مع الإسلام، كانت ملاذاً للمسلمين من المكين. ومن غيرهم، الذين كانوا يقدون إليها أحياناً مع أسرهم، ومعهم رءوس أموال من نقد أو مواشى، أو بلا أموال.

ومن الجائز أن هذه الهجرات تم تمويلها من بعض التجار المسلمين الذين تمكنوا من مقاومة المقاطعة التى قررتها قريش ضدهم، أو من تبرعات قدمها مسلمون آخرون. ومن الممكن أن تكون شبكة من مراكز استقبال المهاجرين قد أنشئت على هذا النحو فى مناطق مختلفة من الجزيرة، وأن تكون الأخوة الإسلامية قد أشركت فى تنظيم جهد تضامنى على مستوى الجزيرة العربية أو أجزاء متفرقة منها.

ولابد أن مصير هؤلاء المهاجرين كان من الشواغل الدائمة للرسول ﷺ ولصحابه فى مكة وللمسلمين فى كل مكان. ولابد أن المسلمين، أينما وجدوا، كانوا يدعون إلى إغاثة من يقول الله تعالى فى حقهم:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآ جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)﴾ [النحل ٤١ و ١١٠]

ولابد أن الرسول ﷺ شرح لمسلمى القبائل كلها أن المساعدة التى يقدمونها لهؤلاء المهاجرين، والاستقبال الحسن الذى يستقبلونهم به تُعدُّ عند الله من أعمال الخير التى سيجزون عنها فى الآخرة أفضل الجزاء.

وإلى جانب هذه الهجرة المنظمة التى تتناول أشخاصا عديدين ، لابد أنه كانت هناك أيضا هجرة فردية لجأ فيها المسلمون الهاربون من الاضطهاد إلى أقاربهم بالدم ، أو إلى أصهارهم ، أو إلى أصدقاء فى غير قبائلهم .

ولابد أنه كان هناك أيضا مسلمون استقبلتهم قبائل عربية لصفاتهم الشخصية أو لمهاراتهم أو لعلاقات كانت تلك القبائل - التى لم تكن بالضرورة مسلمة - تستفيد منها .

وإذا سلمنا بأن الإسلام قد امتد إلى مناطق عديدة فى الجزيرة خلال السنوات الثلاث عشرة الأولى من ظهوره ، وأن بعض القبائل التى كانت تعيش فى هذه المناطق كانت تعاديه وتضطهد المسلمين وتخرجهم أو تضطهرهم إلى الهجرة ، وأن بعضها الآخر قبل رسالته ووفر الملجأ والمساعدة لمن أخرجوا ومن هاجروا - واستحق بهذه الصفة لقب «الأنصار» شأنهم فى ذلك شأن إخوانهم فى المدينة - فإن الهجرات التى يرجح أنها حدثت والتى تركها النص مع ذلك فى منطقة الظل ، كانت :

- هجرة مسلمى مكة إلى المدينة خلال السنوات الإحدى عشرة الأولى من الدعوة .

- هجرة بعض مسلمى المدينة الذين هاجروا ، شأن المهاجرين - الأنصارين الثلاثة الذين وردت أسماؤهم فى قائمة حجاج البيعة الثانية ، إلى مكة أو إلى مناطق أخرى من الجزيرة .

- هجرة المسلمين الذين لم يكونوا مكيين ولا مدنيين إلى مكة أو إلى المدينة أو إلى بعض القبائل الأخرى .

- هجرة المسلمين إلى بلاد نصرانية تتحدث العربية كنجران كان المهاجرون يألفونها أكثر مما يألفون بلاد الحبشة .

ولابد أن هجرة هذه المئات من المسلمين فى أنحاء شبه الجزيرة المختلفة قد نشأت عنها مشكلة جديدة تماما . ولابد أنها كانت من العوامل التى استحثت انتشار الإسلام فى ربوع هذه البلدان وخلقت ظروفًا مواتية لتكوين كيان فوقى ، أعلى من كيان القبيلة ، هو كيان الأمة الإسلامية ، الذى قدر له ، حين اختار رسوله الرفيق الأعلى ، بعد ذلك بعشر سنوات ، أن يضم الجزء الأكبر من شبه الجزيرة .

ملحوظات ختامية

١- السمة الأولى فى حديث الفترة المكية الخامسة فى النص هى تحيز مؤلفه لأهل المدينة . ونظرا - من جهة - إلى أن جميع عناصر التحليل والاستنتاجات المذكورة أعلاه مشبعة بشواهد هذا التحيز ، ومن جهة أخرى- كما سبق القول- إلى أن الفترة الخامسة ، بمكوناتها الثلاثة - أى اعتناق الإسلام وبيعة الحرب والهجرة - معروضة فى النص وكأنها فترة مدنية ، فإننى لم أر من المناسب أن أفرد عنوانا خاصا للتحديث عن تحيز المؤلف لأهل المدينة .

٢- كما أن الفترتين الأولى والثانية كانتا بمثابة إعداد للفترة الثالثة ، فإن فى الإمكان اعتبار أن الفترة الرابعة كانت تُعدُّ للفترة الخامسة . والواقع أن الطريقة التى عولجت بها هذه الفترة توضح بجلاء أن المؤلف أنهى الصفحة القرشية من تاريخه على وفاة أبى طالب بعد أن قفل حساباتها وأعد عنها ميزانية خاسرة إلى حد كبير ، وأنه انتوى أن يُعدَّ عن الفترة الرابعة حسابات خاسرة بالقدر نفسه فيما يتعلق بالقبائل العربية . وهذا هو السبب الذى جعل القرشيين الوحيدين الذين نصادفهم فى هذه الفترة لا يظهرون فى مكة وإنما فى الطائف . وفى هذا رد على السؤال (٥) الذى طرحته فى استنتاجات الفترة الرابعة .

الفصل السادس

الفترتان الرابعة والخامسة (تابع)

الشعر والقرآن

سأحاول فى هذا الفصل ، كما سبق بالنسبة للفترات السابقة ، النظر فيما أورده النص من شعر ، وفى الآيات القرآنية التى استشهد بها المؤلف فى حديثه عن الفترتين الرابعة والخامسة وذلك ، بصفة خاصة ، لمعرفة ما إذا كان هذا الشعر وتقديم هذه الاستشهادات القرآنية يعطيان فكرة صادقة عن الإطار التاريخى الذى تدرج فيه . وسأحاول بعد ذلك أن أقف على محصلة القرآن الذى أنزل خلال الفترتين ولم يشر إليه النص ، لمعرفة ما إذا كانت الصورة التى تستخلص منه تطابق تلك التى تتضح من مكونات النص المختلفة .

ونظرا إلى أن الموضوع المتعلق بحماية الرسول ﷺ يحتل مكان الصدارة فى النص فيما يتعلق بالتطورات التى حدثت خلال الفترة المكية بأكملها ، فقد رأيت من المناسب أن أخصص له بضع صفحات أجمع فيها المعطيات القرآنية التى سبق ذكرها ، بالإضافة إلى معطيات أخرى توجد فى سور الفترتين الرابعة والخامسة .

أخيرا يحين هنا إبداء الرأى ، باختصار ، فى مسألة ما إذا كان الرسول ﷺ قد تلقى ، بصورة مباشرة ، أو غير مباشرة ، إذنا بالقتال فيما نزل من القرآن فى هاتين الفترتين الأخيرتين .

١ - الشعر

الف . ما قيل من الشعر :

يتكون الشعر الذى أورده النص فى حديث الفترتين الرابعة والخامسة

١- قصيدة من خمسة أبيات لسُوَيْد بن صامت يهجو فيها الأصدقاء الذين يقولون مقالة كالشهد لكنهم يذمونك وراء ظهرك^(١).

٢- ثلاثة أبيات للشاعر ذاته يتحدث فيها عن شجار نشب بينه وبين رجل من سُلَيْم صرعه فيه . ويخبر سُوَيْد خصمه في هذه الأبيات بأنه لن يستطيع خداعه كما خدع آخرين قبله^(٢).

٣- قصيدة من ستة أبيات لأبى قيس بن الأسَلْت نظمها بعد الهجرة وبعد مضي بدر وأحد والختنق وبعد إسلامه، يقول فيها:

فَلَوْلَا رَيْنَا كُنَّا يَهُودًا وَلَوْلَا رَيْنَا كُنَّا نَصَارَى

ويحمد الله على أنهم ، أى هو قومه ، من دين حنيف، وأنهم يسوقون الهدى^(٣).

٤- بيت لعَوْن بن أيوب الأنصاري (من المدينة) يفخر فيه بأن أول من صلى في اتجاه الكعبة رجل من قومه؛ ويقول النص إن الشاعر كان يشير في هذا البيت إلى البراء بن معرور^(٤).

٥- قصيدة من أربعة أبيات لشاعر المدينة الكبير كعب بن مالك يقول فيها لأبى بن خلف إن الله الذى يرى ويسمع كل شىء يأبى ما مته به نفسه. وهو يقول ، موجه الكلام إلى أبى سفيان، إنه قد بدا للأنصار بأحمد نور من هدى الله ساطع ، وإن أبا سفيان مهما حشد وألب وجمع

(١) ، (٢) السيرة، القسم الأول ، ص ٤٢٦ .

(٣) المرجع السابق، ص ٤٣٨ .

(٤) المرجع السابق نفسه، ص ٤٤٠ .

الناس، فإن الرهط (ويذكر أسماء لتقبا في بيعة العقبة الثانية) لن يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ (١).

٦- بيتان لشاعر قريش ضرار بن الخطاب كانا، فيما يقول النص، أول شعر قيل في الهجرة، وهما يتعلقان بواقعة قبض قريش على سعد بن عُبادة، أحد النُّقباء في بيعة العقبة الثانية، بعد عقد هذه البيعة، ويأسف الشاعر في هذين البيتين لأن الذي قبض على سعد لم يقبض أيضا على المنذر بن عمرو (الذي كان بصحبته) (٢).

٧- قصيدة من ثمانية أبيات يرد فيها شاعر المدينة الكبير حسان بن ثابت على ضرار بن الخطاب، وهو يهاجمه هجوما عنيفا لأنه جزؤ على قول شعر ضد «الأنصار» (٣).

٨- قصيدة من خمسة أبيات لعمر بن الجُمُوح، الذي كان سيدا من سادات بني سلمة وشريفا من أشرافهم، يذم فيها صنما من خشب كان يتخذه إلها يُعظمه ويُطهره، ويحمد الله الذي أنقذه من الهلاك بأحمد المهدي النبي المُرْتَهَن (٤). ويشرح النص الظروف التي نظمت فيها هذه القصيدة فيقول: كان ابن الشاعر وقوم من قبيلته أسلموا وشهدوا العقبة ويايعوا الرسول بها، وكانوا يدبجون بالليل على صنم عمرو فيحملونه فيطرحونه في بعض حُقَر بني سلمة، وفيها عَذَر الناس - أي فضلاتهم - مُنْكَسًا على رأسه، فإذا أصبح عمرو غدا يَلْتَمِسُه حتى إذا وجدته غسله وطهره وطيبه. وتكرر هذا عدة مرات. وذات يوم، ضاق عمرو ذرعا

(١) السيرة، القسم الأول ص ٤٤٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٥٠ - ٤٥١.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٤٥١.

(٤) المرجع السابق نفسه، ٤٥٢.

بالصنم، فجاء بسيفه فَعَلَّقَهُ عليه ثم قال: «إني والله، ما أعلم مَنْ يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خيرٌ فامتنع، فهذا السيف معك». فلما أمسى ونام عمرو، عدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل، ثم ألقيوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عذَر من عذَر الناس، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجدْه في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر مقرونا بكلب ميت، فلما رآه وأبصر شأنه، وكَلَّمَهُ من أسلم من رجال قومه أسلم برحمة الله، وحَسُنَ إسلامه، فقال القصيدة حين أسلم وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك، وما أبصر من أمره، ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة.

٩- أربعة أبيات لأبي أحمد بن جحش بن رثاب يقول فيها إن قومه كانوا بمكة «حتى عاد غثا سمينا»، وأنهم تركوا مكة ومعهم غنمهم حين أصبح دين رسول الله بالحق دينها؛ ويذكر النص أن هذه الأبيات تشير إلى هجرة بني أسد بن خزيمة وإيعابهم في ذلك^(١).

١٠- قصيدة من خمسة عشر بيتا للشاعر ذاته^(٢) يقول فيها إنه، خلافا لرأى امرأته، قرر الذهاب إلى يثرب، متجها إلى الله والرسول، تاركا وراءه الأصدقاء والحميمين، وأنه أجاب داعي الله كما فعل غيره من قبل. ويقول:

وكنّا وأصحابا لنا فارقوا الهدى أعانوا علينا بالسلاح وأجلّوا

وأنهم طغوا وتمنوا كذبة على الرغم من صلة الرحم التي كانت تربطهم بهم. ويختتم قصيدته بقوله إنهم ورعوا إلى قول النبي محمد

(١) - (٢) السيرة، القسم الأول، ص ٤٧٣.

وأنه سيأتى اليوم الذى يعلم الآخرون فيه أيهم كان أصوب للحق.

١١- ثلاثة أبيات قالها رجل من الجن عبر مكة من أسفلها إلى أعلاها، يقول فيها: جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ رَفِيقَيْنِ حَلًّا خِيَمَتِي أُم مَعْبَدٍ، وأفلح من أمسى رفيق محمد، وأن بنى كعب يجب أن يهناوا لأن لهم قرية يقف عندها المؤمنون. ويشير النص إلى أن أسماء بنت أبى بكر عرفت من هذه الأبيات أن الرسول ﷺ متجه إلى المدينة (١).

١٢- قصيدة من أربعة أبيات لعبدالله بن جحش تنحى باللائمة على أبى سفيان لفعل فعله. ويشرح النص أن هذه القصيدة تشير إلى الواقعة الآتية: حين خرج بنو جحش بن رثاب من دارهم إلى المدينة، عدا عليها أبوسفيان بن حرب فاشتراها من شخص لم يكن صاحبها، وأن عبدالله بن جحش قالها بعد فتح مكة (٢).

باء. ملحوظات

هذا الشعر يثير الملحوظات الآتية:

١- ليس فيه أية إشارة إلى نزول مالا يقل عن ١٢٢٠ آية جديدة من آيات القرآن الكريم أو إلى الأثر الذى أحدثه نزول هذه الآيات فى حياة المجتمع والأفراد فى مكة وفى الجزيرة العربية.

٢- شعر هاتين الفترتين، كشعر الفترة الثالثة، لا يتضمن ما قيل فعلا عن شعر الشعراء الكفار فى سياق حملة الهجوم الذى شنه الكفار فى مكة وفى غيرها ضد الرسول ﷺ وضد الدين الذى جاء به، ومن شعر الشعراء المسلمين الذى قالوه تعييرا عن الشاعر التى أوحى لهم بها هدايتهم إلى الإسلام، أو تعليقا على الأحداث (الدخول فى الإسلام

(١) السيرة، القسم الأول، ص ٤٨٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٠٠.

والاضطهاد والهجرة والمقاطعة .. إلخ) التى شهدتها مجتمعهم، أو للرد على الشعراء الكفار. وإذا كان مفهوما أن ابن إسحاق أو ابن هشام فضلاً إغفال ذكر الشعر المناهض للإسلام حرصاً على عدم جرح مشاعر المسلمين، فمن الصعب إدراك السبب الذى جعل ابن إسحاق يغفل شعر شعراء المسلمين.

٣- قلة هذا الشعر تولد انطباعاً بأن ينابيع الشعر فى مكة نضبت بموت أبى طالب؛ ذلك أن الشعر المكي عن هذه الثلاث سنوات الأخيرة من الفترة المكية لا يجاوز خمسة وعشرين بيتاً قالها ثلاثة شعراء فقط. وكل ما سجله النص من شعر عن هذه الفترة لا يعدو السبعين بيتاً. فإذا طرحنا القصائد ١ و ٣ و ٤ التى قيلت بعد الهجرة انخفض عدد الأبيات إلى ستين بيتاً، أى مالا يزيد على خمس ما قيل من شعر خلال الفترة الثالثة، وهو لا يمثل سوى ٣٦٪ من شعر أبى طالب وحده، وسوى ٧٠٪ مما قيل من شعر فى رثاء عبدالمطلب.

٤- اذا استثنينا ثلاثة أبيات التى قالها رجل الجح، فإن شعر الفترة كله من نظم شعراء مكيين أو مدنيين. ولم تنسب أية قصيدة لأى شاعر ينتمى إلى أية منطقة أخرى فى شبه الجزيرة. نحن إذن، فى هذا الشعر، لانزال أمام محور مكة / المدينة.

٥- سواء تعلق الأمر بعدد الأبيات أو بعدد الشعراء، فإن الشعر المدنى (اثنان وأربعون بيتاً قالها ستة شعراء) يفوق الشعر المكي (خمس وعشرون بيتاً قالها ثلاثة شعراء).

٦- شعر الفترتين الرابعة والخامسة، على غرار العناصر التى وردت فى حديث الفترتين المذكورتين، ينحو إلى مدح أهل المدينة وإلى الغض من قدر أهل مكة. فالقصيدتان ١ و ٢، كما رأينا فى تحليل الفترة

الرابعة، ترميان إلى إظهار الشاعر بمظهر الرجل الكامل؛ والبيت الوارد تحت رقم ٤ يفخر بالبراء بن معرور الذي رجح القرآن - فيما يقول النص - رأيه على رأى النبی ﷺ في موضوع القبلة؛ والقصيدة رقم ٥ تسمى وتمدح نقباء بيعة العقبة الثانية الاثنى عشر؛ والقصيدة رقم ٦ تتعلق بالقبض على سعد بن عباد، أحد النقباء في هذه البيعة؛ وفي القصيدة ٧ يهجو حسان بن ثابت، بأقذع عبارة، الشاعر المكي الذي سَوَّلَتْ له نفسه الإعراب عن أسفه لعدم القبض على نقيب آخر من نقباء البيعة المذكورة؛ والقصيدة رقم ٨، التي تحتل مع شرحها صفحة بأكملها، تحكى قصة إسلام وثني من أهل المدينة؛ والقصيدة رقم ١٠ تتعلق بهجرة عشيرة مكية إلى المدينة وتدم أهل مكة.

٧- أشارت قصيدتان، هما القصيدة رقم ٥ والقصيدة رقم ١٢، إلى أبي سفيان، والد معاوية مؤسس الخلافة الأموية؛ وفي هذه القصيدة الأخيرة، التي تحتل مع شرحها نصف صفحة، يبدو أبو سفيان بمظهر المفتصب.

٨- من الأمور الغريبة أن يقول أبوقيس بن الأسلت، الذي منع ثلاث عشائر مدنية من اعتناق الإسلام، في القصيدة رقم ٣، إنه لولا هداية الله، لكان يهوديا أو نصرانيا، فقد كان وثنيا راسخ الأقدام في الوثنية، ومن ثم فإن الاختيار بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية لم يكن واردا بالنسبة له.

٩- في القصيدة رقم ١٠، يقول أبو أحمد بن جحش إن أصحابهم الذين فارقوا الهدى أعانوا عليهم بالسلاح وأجلبوا. وحاصل الأمر أن تاريخ الفترة ليس فيه ما يدل على أن أحدا أعان على المسلمين بالسلاح.

ويمكن باختصار أن يقال :

- إن شعرا لم يُقَلَّ في مكة أو في المدينة أو في الجزيرة العربية، وفقا للنص، خلال السنة التي تشكل الفترة الرابعة، لصالح الإسلام أو ضده، إذ أن الشعر الوحيد الذي يسجله النص عن هذه الفترة هما القصيدتان ١ و ٢، أي ما مجموعه ٨ أبيات قالها شاعر اعتنق الإسلام فيما يبدو وكان يوصف بالكامل.

- ما من قصيدة شعر قيلت عن المرحلة الأولى من الفترة الخامسة التي تتعلق بإسلام بعض أهل المدينة، هذه الظاهرة التي تشكل غاية الإسلام الرئيسية، قبل عقد بيعة العقبة الثانية، إذ أن القصيدة الوحيدة التي نجدتها في النص، وهي قصيدة عمرو بن الجُمُوح، لم تقبل إلا بعد عودة ابن الشاعر إلى بلده.

- أما المرحلة الثانية من الفترة الخامسة، التي تبدأ بسفر الحجاج المسلمين مع حجاج غير مسلمين إلى مكة وتنتهي بعودة هؤلاء الحجاج إلى المدينة بعد عقد البيعة التي يقدمها النص على أنها كانت النقطة التي انتقلت فيها مسئولية حماية الرسول عليه الصلاة والسلام من بني هاشم إلى الأنصار والتي أدرك شيطان العقبة أهميتها لمستقبل الإسلام فأعلن عنها بصيغة تردد صداها في كل مشاهد الحج، فقد قيلت فيها أربع قصائد، هي القصائد أرقام ٤ و ٥ و ٦ ومجموع أبياتها سبعة عشر بيتا، علاوة على القصيدة رقم ٧ التي تتكون من ثمانية أبيات، التي يرد فيها حسان بن ثابت ردا لاذعا على ضِرار بن الخطَّاب؛ لكن أيا من هذه الأشعار لم يشر إلى هذه البيعة، والإشارات الوحيدة التي تربط بين البيعة وهذه الأشعار هي تلك التي وردت في النص.

- وأما المرحلة الثالثة من الفترة الخامسة، أي تلك التي تتعلق بهجرة المسلمين، فقد قيلت فيها قصيدتان لا أكثر كان مجموع أبياتهما تسعة

عشر ، وكان الذى قالهما شاعر واحد، لكن كلمة «الهجرة» لم ترد فيهما.

- وأما هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام، هذا الحدث الذى اقترن فى النص بسلسلة طويلة من المعجزات والذى تشهد بأهميته حقيقة أن به تُختم الفترة المكية وتُفتح الفترة المدنية لبعثة الرسول ﷺ ، فلم يُقل فيها سوى ثلاثة أبيات، والذى قال هذه الأبيات لم يكن مسلماً من مسلمى مكة أو المدينة ولا كافراً من كفار إحدى البلدين، إنما جن، أى كائن من كائنات ما وراء الطبيعة.

ما الذى جعل هذا الشعر، الذى يتعلق بسلسلة من الأحداث تشكل، حسب تصوير النص، نقطة تحول فى تاريخ رسول الله ﷺ وتاريخ الإسلام، على هذا القدر من الهزال؟ ولماذا لا يمثل سوى ١٨ فى المائة فقط مما قيل عن غزوة بدر وحدها من الشعر (التي خصص لها حسان ابن ثابت أكثر من مائة بيت، أى أكثر بكثير من كل شعر الفترتين الرابعة والخامسة المكيّتين)؟

الشيء الذى يبدو مؤكداً هو أن هاتين الفترتين الأخيرتين، اللتين دخل فيهما التراع بين الكفار والمسلمين، فى مكة وفى غيرها من أنحاء الجزيرة، فى أكثر مراحلهما حسماً، كان إنتاج الشعر فيهما أكبر بكثير من القصائد الاثنتى عشرة التى يقدمها لنا النص. والسبب الذى من أجله لزم النص الصمت بشأنها هو، على الأرجح، السبب ذاته الذى رأيناه بالنسبة لشعر الفترة الثالثة، ألا وهو أن النص لا يورد الشعر الذى قيل حقيقة ، لأن هذا الشعر يعطى عن الفترة التى نُظِم خلالها صورة تختلف كلية عن تلك التى يصورها بها النص. وكان المفروض فى هذا الشعر أن يثبت أن الفترة المكية الخامسة كانت مكية بالفعل لا مدنية، وأن

الفترة الرابعة بدورها كانت مكية حقا لا- كما يستفاد من النص - مجرد تمهيد لظهور أهل المدينة على مسرح الأحداث في مكة لتولى مسئولية حماية الرسول ﷺ. وكان المفروض في شعر الفترتين الرابعة والخامسة أن يصور مختلف نواحي التراع القائم بين الرسول والمسلمين وبين قبائلهم بل وقريش برمتها، وهو نزاع لا بد أنه تقاوم، بعد عشر سنوات من بدء البعثة، إلى حد كبير. ولا بد أن مسلمي مكة تعرضوا لمحن وواجهوا مواقف جاء وصفها فيما قبل من شعر. لذلك حرص النص على إخفاء هذا الشعر وشعر الشعراء غير المكين، كما أخفى شعر الفترة الثالثة الحقيقي.

على أن تصوير الفترتين المكييتين الأخيرتين كفترتي جذب شعري كان يخدم غرضا آخر هو السماح بتصوير الفترة المدنية كفترة إنتاج شعري غزير وفترة مجد شعري. وأى شعر كان يفوق في العظمة، عند المؤلف، ذلك الذى يتحدث عن حروب النبي ﷺ، هذه الحروب التى أدت إلى نصر الإسلام الوحيد الجدير بهذا الاسم: النصر الذى بدأ، فيما يقول النص، فى اليوم الذى لقي الرسول فيه مجموعة الخزرج الست قبل عامين من بيعة العقبة الثانية.

٢- الاقتباسات القرآنية

ألف. النص

١- انصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم - فيما ذكر للمؤلف - سبعة من جن أهل نصيبين، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه ﷺ. قال الله عز وجل: (*)

(١) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾

[الأحقاف: ٢٩ - ٣١]

وقال تبارك وتعالى:

(ب) ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٤٢٢.

ظُنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا
 مُلَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ
 يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي
 الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَا مِنْ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا
 طَرَائِقَ قَدَدًا (١١) وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا
 (١٢) وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا
 رَهَقًا (١٣) وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا
 رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) ﴿ [الجن: ١ - ١٥]

٢- خرج عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي حتى
 قدما المدينة. وخرج أبوجهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن
 أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأُمهما، حتى قدما المدينة،
 ورسول الله ﷺ بمكة، ونجحا في إقناع عياش بالعودة معهما إلى مكة.
 حتى إذا كانوا ببعض الطريق عدوا عليه، فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به
 مكة وفتناه فافتن، وكان المسلمون يقولون: ما الله بقابل ممن افتن صرفا
 ولا عدلا ولا توبة، فلما قدم رسول الله ﷺ، أنزل الله تعالى (*):

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ
 اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ
 وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ
 مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ
 (٥٥) ﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٥]

(*) السيرة، القسم الأول، ص ٤٧٥.

باء . ملحوظات

هذان الاستشهادان يستدعيان الملحوظات الآتية :

١ - خلافا لمعظم استشهادات الفترة الثالثة، لا تتعلق الآيات تحت رقم «١» أعلاه بأقوال قالها سادة قريش أو كفار مكة، بل تتعلق بواقعة. على أن هذه الواقعة تمت إلى عالم ما وراء الطبيعة الذي لا يدركه البشر؛ لذلك فهي لا تصلح عادة في كتاب من كتب التاريخ.

٢ - أيا كان الأمر، فإن كل ما فعله النص، في التقديم لهذا الاستشهاد، هو أن نقل محتوى الآيات المذكورة، أما العناصر الوحيدة الإضافية، أي المكان «نخلة»، واسم وعدد نفر من الجن الذين استمعوا إلى الرسول، وكونهم من جن أهل نصيبين، فغنى عن البيان أنها محض اختراع.

٣ - هذه الآيات، المفروض أنها تتعلق بلحظة معينة في الفترة الرابعة، مستقاة من سورتين نزلتا قبل وبعد الفترة الرابعة، تفصل إحداهما عن الأخرى سنوات، سورة الجن (وترتيبها عند بلاشير ٦٤) التي نزلت في الفترة الثالثة، وسورة الزمر (وترتيبها عند بلاشير ٩٠) التي نزلت في الفترة الخامسة.

٤ - شرح الظروف التي نزلت فيها الآيات المذكورة تحت رقم «٢» أعلاه كان من الممكن أن يُصدَّق لو أن عيَّاشا كان أول من فتن وافتن. لكن الحاصل هو أنه كان هناك بين المسلمين عدة حالات من الافتتان قبل حالته منذ بدء الرسالة الحمديدية، والنص ذاته يعترف بذلك في قوله، في حديث الهجرة، أن من فتنوا ومن حبسوا من مسلمي قريش كانوا يشكلون الفئتين الوحيدتين اللتين لم تهاجرا إلى المدينة.

٥- الآية التي يستشهد بها النص في حالة عيَّاش، ذات طابع عام. وهي لا تشير بالضرورة إلى حالة أشخاص أُجبروا على الارتداد عن دينهم. وقد ذكرت حالة هؤلاء الأشخاص صراحة في الآية ١٠٦ من سورة النحل التي يقول الله تعالى فيها:

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾
[النحل: ١٠٦]

٦- الاقتباسان ١ و ٢ يتعلقان بموقفين يقول النص إنهما حدثا خارج مكة، وكان سادة قريش وأشرافها، الذين صورهم النص طوال الفترة الثالثة، في اجتماعاتهم بالمسجد وهم يتفوهون بكلام يتردد صدهاء فيما ينزل من آيات القرآن، قد كفوا عن الاهتمام بالإسلام. وكان القرآن قد كف فجأة، لأسباب مجهولة، عن النزول في بلد الكعبة.

٧- فيما عدا الآيات التي يدعى النص أنها نزلت في نخلة، في طريق عودة الرسول ﷺ من الطائف، ليس في النص أية آية يستشهد بها على الأخبار التي أوردها عن الفترة الرابعة.

٣- القرآن المنزَّل

ألف. تلخيص

القرآن الذي نزل خلال الفترتين الرابعة والخامسة المكيَّتين، أي منذ وفاة أبي طالب حتى الهجرة، في السور من ٧٨ إلى ٩٢ حسب ترتيب بلاشير، ولم يشر إليه النص، يحتوى على العناصر الآتية:

١- تذكير بمبادئ الإسلام الأساسية وبالأوامر والنواهي التي أبلغت خلال الفترات السابقة.

٢- عودة إلى الاعتراضات التي أثارها الكفار ضد الإسلام وضد رسوله ﷺ ، وهي الاعتراضات ذاتها التي أثرت في الفترات السابقة . وإجابات القرآن عن هذه الاعتراضات هي الإجابات ذاتها ، وإن كانت قد صيغت بطرق مختلفة . والقرآن يقول إن الرسول ﷺ ، لم يكن بدعا من الرسل وأنه بُعث ليصدق رسالات الأنبياء السابقين وليفصل الكتاب . وهو في الآيات ٣١ - ٣٣ من سورة سبأ ينبه الناس إلى أن طاعتهم للمتكبرين لن تعتبر عذرا عن عدم الإيمان ، في قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾

[سبأ: ٣١ - ٣٣]

وهي دعوة صريحة إلى التمرد لابد أنها أمدت قريشا ورؤساء قبائلها بأسباب إضافية لمحاربة الرسول ﷺ واستخدام الشدة مع تابعيه . لكن القرآن الكريم لم يعدم وسائل لتشجيع الناس على الإيمان ، فقد ذكر ، في مقابل غضب الذين استكبروا ، أن الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله . . يستغفرون للذين آمنوا ويدعون الله أن يغفر للذين تابوا واتبعوا سبيله (سورة غافر: ٧) . كذلك فإن القرآن يعد المحسنين بمكافأة قدرها عشرة أمثال ما قدموه ، وعلى مستوى آخر ، يواصل القرآن هجومه على الأغنياء ويشجب صلفهم وكبرياءهم ، ويذكر في هذا الصدد قصة

قارون الذى أتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحة لتنوء بالعصبة أولى القوة،
والذى خسف الله به وبيداره الأرض، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس
يقولون: «وَيَكَّأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ».

٣- نزول عدة آيات عن القرآن ذاته، لا سيما:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠]

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّن دُونِ
اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: ٣٨]

لقد كانت كل آية من آيات القرآن الكريم، كما قلت فيما سبق، تمثل
حدث الأحداث فى مكة وفى الجزيرة العربية كلها منذ بداية البعثة
المحمدية. ولا بد أن نزول هذه الآية الأخيرة كان حدثا مهما من هذه
الأحداث فى الفترة الخامسة. وسواء بين الكفار أو بين المسلمين أو فى
اللقاءات التى كانت تتم بين هؤلاء وهؤلاء، لابد أن هذه الآية أحدثت
ضجة كبرى. ولا بد أن مجلس «الحكومة» فى مكة رأى فيها دليلا قاطعا
على فشل جميع الجهود التى بذلها شعراؤهم وبلغاؤهم ومتعلموهم
الذين كلفوهم، خلال الفترة الثالثة، بقبول التحدى السابق، الوارد بالآية
١٣ من سورة هود التى تدعوهم الى الإتيان بعشر سور مفتريات مثل
سور القرآن، وإلى الاستعانة بمن استطاعوا لهذا الغرض. ولا بد أن
حكومة قريش كالت اللوم للمستولين عن هذا الفشل، وأنها قدمت
جوائز جديدة لكل من يأتى بسورة مثل سور القرآن.

كان الرهان رهانا ضخما، ولا بد أن سورا عديدة تقلد سور القرآن
قدمت أمام جمهور متحفز. ولا بد أن المسلمين ابتهجوا بنزول هذه الآية
التي وجدوا فيها تأكيدا لكون القرآن - كما أعلنت ذلك الآيتان ٤٥

و ٥٠ من سورة العنكبوت - هو آية الآيات، أى المعجزة التى أرسل بها محمد ﷺ التى كان الكفار يطالبون بها منذ سنوات. والقوة المتزايدة التى زود بها الإسلام عجز الكفار عن مقابلة التحدى الذى واجهتهم به الآية ٣٨ من سورة يونس لابد أنها اقنعت نفرا من الناس بالإسلام، وأنها جرت على المسلمين مزيدا من صنوف الاضطهاد.

٤- عناصر جديدة فى قصص الأنبياء السابقين. فقد فصلت العلاقة بين إبراهيم، من جهة وجزيرة العرب والكعبة ومحمد ﷺ، من جهة أخرى، للمرة الأولى، فى الآيات التالية:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) ﴾... ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾... ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) ﴾

[إبراهيم: ٣٥، ٣٧، ٣٩]

﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) ﴾

[الأنعام: ١٦١]

ومن الملاحظ ، بهذه المناسبة أن هذه العلاقة بين إبراهيم والكعبة ذكرت فى القرآن، للمرة الأولى، فى الفترة الخامسة. وحيث أن أيا من الكتب السماوية الأخرى لم يشر إليها، فالمؤكد أن عبدالمطلب كان يستحيل عليه معرفتها. لذلك فإن إجابته فى قصة أبرهة التى قال فيها إن الكعبة بيت إبراهيم ، محض اختراع. وهذا يصدق كذلك على ما جاء فى قصيدة أبى طالب الطويلة عن سيدنا إبراهيم.

وقرآن هذه الفترة يخبرنا أيضا أن فرعون كان يذبح أبناء من آمنوا مع موسى ، وكان يستحيى نساءهم ، وأن الله تعالى أرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم كآيات مفصلات ، وأن الله أراد أن يمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .
ويقرن القرآن الكريم بين موسى ومحمد في الآيتين ٤٨ و ٤٩ من سورة القصص في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) ﴾

[القصص : ٤٨ - ٤٩]

وأخيرا فإن القرآن يقص قصة يوسف بالكامل ؛ وسنعود إلى هذه القصة فيما بعد .

٥- آيات تتحدث عن أهل الكتاب توضح حالة علاقاتهم مع المسلمين :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) ﴾

[العنكبوت : ٤٦ - ٤٩]

والتوجيه العام الذى ورد فى هذه الآيات هو تجنب مجادلة أهل الكتاب والتركيز، فى لقاءات المسلمين معهم، على نقاط الاتفاق «إلهنا وإلهكم واحد» لا على نقاط الخلاف. وعبارتنا «إلا الذين ظلموا»، «وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون» تشيران إلى معارضة بعضهم للإسلام (١).

ولأن الآية ٤٨ تلى آيتين تتحدثان عن أهل الكتاب، فالظاهر أنها ترد على حجة صدرت منهم مؤداها أن القرآن نسخة معدلة من كتاباتهم.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا طَيْسَ تُبَدُّونَهَا وَتُخَفُّونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١]

وهذه الآية بدورها تشير إلى معارضة من جانب اليهود لرسالة محمد ﷺ (٢).

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا... ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ١٤٦ - ١٤٧]

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلُ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ... ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: ٣٦]

(١) يؤكد بلاشير، فى حاشيته عن الآية ٤٦ أن عبارة «ما يجحد بآياتنا إلا الكافرون» هى إضافة لاحقة على القطيعة مع يهود المدينة. وفى رأى أن الممكن جدا أن تكون هذه العبارة قد نزلت بمكة، إذ أن اليهود والنصارى لا بد قد أبدوا من تلقاء أنفسهم أو بناء على طلب قريش رأيهم فى الإسلام منذ بداية البعثة.

(٢) فى رأى - خلافا لبلاشير الذى يرى أنها إضافة لاحقة للهجرة - أن هذه الآية نزلت فى مكة، وذلك للأسباب التى ذكرتها فى الحاشية السابقة.

ودلالة هذه الآيات هي أن أهل الكتاب لم يرفضوا الإسلام كلهم وأن منهم من آمنوا به. لكن الآيات تفيد كذلك أن من أهل الكتاب من كانوا يعارضون الإسلام. وقد كانت مثل هذه المعارضة شيئاً طبيعياً ، كما شرحت في تعليقاتي عن الفترة الثالثة، إذ أن محمداً لم يكن المسيح في نظر اليهود، كما أن مصالح اليهود الاجتماعية والاقتصادية العاجلة كانت تلزمهم بالانضمام إلى مواقف الوثنيين المحافظة، وأنه لم يكن يعترف بالثالوث المقدس الذي يؤمن به النصارى.

٦- هجوم متكرر على من يزيفون القرآن ومن يمنعون الاستماع إليه ويصدون عنه.

باء. حماية الرسول

الموضوع المركزي في الفترة المكية بأكملها هو موضوع حماية النبي ﷺ؛ وفي الإمكان القول، دون خيانة لروح النص، إنه يفيد:

- أن أهم لحظة في الفترة الأولى هي تلك التي وعد فيها أبو طالب بحماية ابن أخيه.

- أن هذه الحماية كانت معلقة خلال الفترة الثانية، إذ أن الرسول ﷺ لم يذكر آلهة قريش ولم يعبها كما لم يذكرهم هم وآباءهم بسوء.

- أن بني عبدالمطلب وبني هاشم حموا الرسول خلال الفترة الثالثة، بناء على دعوة أبي طالب، في وجه قريش كلها، الأمر الذي جعل قريشا تقاطعهم.

- أن الرسول ﷺ سعى خلال الفترة الأخيرة ، ولكن بلا طائل ، إلى الحصول على حماية ثقيف والقبائل غير المكية التي لقي حجاجها في مكة بعد أن شعر بأن رهطه تزعوا عنه حمايتهم بعد موت أبي طالب.

- أن الرسول ﷺ طلب وعدا رسميا غير مشروط بالحماية، في الفترة الخامسة، من مسلمي المدينة، وحصل على هذا الوعد من الحجاج الثلاثة والسبعين الذين عقدوا معه بيعة العقبة الثانية.

وتحليل مكونات النص المختلفة في كل هذه الدراسة يسمع، كما رأينا، بأكبر الشكوك فيما يتعلق بموضوعية هذا العرض.

على أن هذا البحث سيظل ناقصا، فيما يبدو لي، ما لم نتساءل، في مسألة بهذه الأهمية في النص، عما إذا لم يكن في القرآن المتزل خلال الفترة المكية أو بعدها إشارات مباشرة أو غير مباشرة للحماية التي يقول النص إنها منحت لمحمد ﷺ من قبيلته ثم من مسلمي المدينة. وللإجابة عن هذا السؤال، يقتضى ملاحظة ما يأتي:

١- ليس في أي موضع من القرآن أي حديث عن حماية منحت للرسول ﷺ من قبيلته. وما يذكر في هذا الصدد أن سورة هود تقول في الآيتين ٩١ و ٩٢ بشأن شعيب:

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

[هود: ٩١ - ٩٢]

ولو أن مثل هذا الموقف حدث بالنسبة لمحمد ﷺ (على فرض أن رهط شعيب كانوا كفارا، وهو ما لم نقله الآيات) لأشار إليه القرآن.

٢- يتضح من كل قصص كبار الأنبياء الذين تحدث عنهم القرآن - نوح وإبراهيم ولوط وموسى وهود وصالح... إلخ - أن قومهم هددوهم بالقتل أو الحرق أو الرجم، لكن الله تعالى كان يحمي أنبياءه ومن

اتبعوهم ويسلط أشد العذاب على من كانوا يهددونهم. والقرآن لا يكف
عن التذكير بما حاق بهؤلاء الأقوام:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ
مِنْ مَّحِيصٍ﴾ (٢٦) [ق: ٢٦]

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ
مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١١٠) [يوسف: ١١٠]

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)
[يونس: ١٠٣]

٣- القرآن يتحدث عن الله تعالى باعتباره الحامي الوحيد:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) [الشعراء: ٢١٧]

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (٩٥) [الحجر: ٩٥]

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٢)
[الجن: ٢٢]

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (٥٨) [الفرقان: ٥٨]

﴿.. وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٧) ﴿هَٰذَاكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ
الْحَقِّ﴾ (٤٤) [الكهف: ٢٧ و ٤٤]

﴿.. وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (٦٥) [الإسراء: ٦٥]

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ (٥١)
[غافر: ٥١]

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ (٣٦)

[الزمر: ٣٦]

٤- القرآن يحظر صراحة على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين أن يتخذوا الذين كفروا أولياء ويذهب إلى حد تهديدهم بعقاب شديد إن هم فعلوا ذلك :

﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١١٣)

[هود: ١١٣]

٥- لو أن الرسول ﷺ لم يكن يشعر بأنه أقوى من خصومه، ولو لم يكن يعلم أن بوسعه الاستغناء عن كل حماية من جانب الكفار، لتردد في إبلاغهم بالقرآن الذى تخاطبهم آياته بصرامة بالغة، مثل:

﴿ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٤٠)

[الزخرف: ٤٠]

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٤٤)

[الفرقان: ٤٤]

٦- يجد المرء، فيما نزل من القرآن، فى الفترة المكية، آيات يأمر فيها الله سبحانه وتعالى نبيه بتحدى الكفار، وآيات يحدثهم فيها الرسول ﷺ من مركز قوة:

﴿ أَلَمْ يَمْشَوْا بِهَا أَمْ لَمْ يَكُنْ أَيْدِيهِمْ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ يَكُنْ أَعْيُنُهُمْ يَنْظُرُونَ بِهَا أَمْ لَمْ يَكُنْ أُذُنُهُمْ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ (١٩٥) إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (١٩٦)

[الأعراف: ١٩٥ - ١٩٦]

﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ (١٠٢)

[يونس : ١٠٢]

٧- سبق أن لاحظت، فيما يتعلق بالحماية التي يقول النص إن حجاج المدينة الثلاثة والسبعين شملوا بها النبي ﷺ في بيعة العقبة الثانية، أن القرآن لم يرد فيه أية إشارة لمثل هذه الحماية. وواقع الأمر أن في القرآن، على النقيض من ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦٢)

[الأنفال : ٦٢]

وعبارة «هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين» في هذه الآية عبارة في غاية الأهمية، فإنها تذكر في وضوح أن المؤمنين كانوا يمثلون بالنسبة لمحمد ﷺ تأييدا إلهيا كنصر الله عز وجل. لكن هؤلاء المؤمنين، من كانوا؟ حجاج العقبة الثلاثة والسبعين؟ كل مسلمي المدينة؟ إن عدم وجود دلالات أخرى يحمل على الاعتقاد بأنهم مجموع مسلمي مكة، والمدينة، وشبه الجزيرة، الذين آمنوا برسالة الإسلام سواء قبل الهجرة أو بعدها. لكن ما دنا هنا بصدد الفترة المكية، وفي مكة على وجه الخصوص، فإن هؤلاء المؤمنين كانوا ولاشك صحابة رسول الله ﷺ في هذه البلدة. والآية المذكورة تسوغ إذن الفكرة التي أدليت بها في تحليلي لحديث الفترة الثالثة والتي مؤداها أن مسلمي مكة، الذين كانوا أكثر عددا بكثير من بني عبدالمطلب وبني هاشم، والذين كانوا ينتمون لمعظم قبائل قريش، كانوا يمثلون قوة كان على قريش أن تحسب حسابها في صراعها مع محمد ﷺ. إنهم هم - لا بنو عبدالمطلب وبنو هاشم - الذين حموا الرسول إلى جانب الحماية الإلهية.

٨- محمد الرسول، ﷺ، لا يظهر أبدا في قرآن الفترة المكية وهو

خائف من خصومه شأن موسى، الذي أجاب حين دعاه الله إلى الذهاب إلى قوم فرعون:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) ﴾ ﴿ وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) ﴾ [الشعراء: ١٢ و ١٤]

والذى أوجس فى نفسه خيفة حين رأى حبال سحرة فرعون وعصيتهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى [طه: ٦٦ و ٦٧]، وشأن لوط فى هذه الآية:

﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وضاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ .. (٣٣) ﴾ [العنكبوت: ٣٣]

[العنكبوت: ٣٣]

وعلى العكس من ذلك فإننا نجد الآية التالية فى حق محمد ﷺ:

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) ﴾ [الزمر: ٣٦]

وهو ما يعنى أن محمدا ﷺ، لأنه كان واثقا من حماية ربه له، كان، بشكل ما، مُحَصَّنًا ضد خوف البشر.

٩- إذا كان ثمة شعور بالخوف يخامر الرسول ﷺ خلال الفترة المكية فإنما كان ذلك خوفاً على قومه لا على نفسه: ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود: ٣]

١٠- هذا الخوف على قومه كان يملأ نفس محمد ﷺ بالحزن، كما تشهد بذلك الآيات التالية: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الحجر: ٨٨]، ﴿ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يس: ٧٦]، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النمل: ٧٠]، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

[الكهف: ٦] ، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ١٢٧] ، ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ ﴾ [لقمان: ٢٣] ، ﴿ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يونس: ٦٥] ، ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ [فاطر: ٨] ، ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]

ومن المعروف أن الحزن والخوف الذي يدفع صاحبه إلى البحث عن يحميه، شعوران لا يجتمعان.

١١- وفى قرآن الفترة المكية، أخيراً، آيات فيها معان مثل هذه:

- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ (٥٤) [الإسراء: ٥٤]

- ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (١٢) [هود: ١٢]

- ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ بِوَكِيلٍ ﴾ (٤١) [الزمر: ٤١]

- ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِیْظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (٦) [الشورى: ٦]

- ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١٠٨) [يونس: ١٠٨]

- ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (٦٦) ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِیْظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (١٠٧) [الأنعام: ٦٦ و ١٠٧]

والآيات التى وردت فيها هذه العبارات تقول، فى جوهرها، للرسول ﷺ إن مهمته تتحصل فى الإنذار، وإنه لن يكون مسئولاً عن تكذيب

من تلقوا رسالته ولم يصدقوها . وهى تقول له كذلك إنه لا يملك أن
يقى الكفار من عذاب الله ، وتكلفه بإبلاغ ذلك إلى الناس جميعا .
وأغلب الظن أن القرآن الكريم اهتم بتوضيح هذه الأمور تخفيفا للرسول
ﷺ الذى كان الأسى يأخذ بمجامع قلبه للموقف السلبي الذى كان يقفه
قومه من رسالته .

ومهما يكن من أمر ، فإن صورة محمد التى تستنبط من مجموع هذه
الآيات هى صورة النبى الحريص على خلاص قومه ، لا صورة الرجل
المروّع الذى يخشى الغوائل ويلتمس حماية بشرية من اعتداء يتهدد
شخصه .

جيم - الحرب مباحة ؟

إذا تجاوزنا عن آيات القرآن المدنية التى استشهد بها المؤلف لتأييد
حديثه عن بيعة العقبة الثانية ، فقد يكون من المفيد ، فيما يبدو لى ، لفهم
روح الفترة المكية الأخيرة ، أن نطرح السؤال التالى : هل فى القرآن الذى
أنزل بين موت أبى طالب والهجرة إلى المدينة ، آيات تأذن ، صراحة
أوضحنا ، للرسول ﷺ بقتال البغاة وإراقة الدماء ؟

والإجابة عن هذا السؤال هى أنه ليس فى القرآن الذى نزل فى هذه
الفترة أية آيات تتضمن مثل هذا الإذن ، وأن هذا القرآن يدعو المؤمنين ،
على النقيض من ذلك ، إلى تفادى العنف . إنه يأمرهم مثلا بألا يزيدوا
من حدة عداة الكفار للإسلام بالهجوم على آلهتهم فى قوله تعالى :
﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ . أما
الكلمات القاسية ، والنُّعُوتُ المهينة بالصمم والعمى والعُتُو عن أمر الله ،
فإن الله سبحانه وتعالى هو الذى يستخدمها .

ويمكن أن نُلخص الدعوة الكبرى التي يدعو إليها القرآن رسول الله ﷺ والمسلمين في مواجهتهم للمحن التي تعرضوا لها في كلمة واحدة هي: الصبر. فالصبر، في الواقع، هو الوصية التي يوصيهم بها القرآن طوال هذه الفترة بأكبر قدر من الإصرار. إنه يقول للمؤمنين: «الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون»، «ولنجزيَن الذين صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»، «وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُور». ويقول للرسول ﷺ: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ»، «وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رَسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا..»، «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَم يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ».

والجزء الثاني من هذه الآية الأخيرة يستحق التدبر. إن الله تعالى يأمر محمداً ﷺ ألا يستخدم ضد الكفار ما يمكن أن نطلق عليه اسم «سلاح الأنبياء الأعظم»، أي طلب إفنائهم أو معاقبتهم بعقوبة شديدة. وقد استخدم نوح هذا السلاح: «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا»، وكانت النتيجة أن ابتلعت المياه شعباً كاملاً. واستخدمه موسى كذلك حين صاح: «... رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ»، وهي دعوة ترتب عليها غرق فرعون وجيشه كله.

وفي رأيي، أنه ليس فيما نزل من القرآن في هذه الفترة أي ترخيص للرسول ﷺ بقتال الكفار أو البغاة أو يحل له دماءهم. ومع ذلك، ونظراً إلى أن القرآن قد أشار على الرسول ﷺ أن يقتدى بالأنبياء السابقين: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ»، فيقتضى البحث عن إجابة لسؤال المبدئى أيضاً في قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم.

والحاصل أن أحدا من الأنبياء السابقين الذين تحدث عنهم القرآن - سواء في ذلك نوح أو إبراهيم أو لوط أو صالح أو شعيب أو موسى أو عيسى - لم يؤذن له بالحرب ولم يكن لديه جيش. أما حالة سليمان، الذى كان جيشه يتكون من جنود الإنس والجن، فهي حالة لا يقاس عليها.

٤- النتيجة

يتضح من استعراض السور من ٧٨ إلى ٩٢ فى ترتيب بلاشير أن ما نزل من القرآن الكريم فى ثلاث السنوات الأخيرة من الفترة المدنية يشبه، بالنسبة لبعض الموضوعات، ما نزل منه فى الفترات السابقة، وأنه أتى بجديد فى بعض الموضوعات الأخرى. والقرآن يصور حالة النزاع الفكرى بين الديانة القديمة، ديانة الآباء، والإسلام: الديانة القديمة، ديانة الشرك وعبادة الأصنام، التى ليس لها كتاب ولا قانون أخلاقى، والتى تتضمن نواهى لا تخضع لأية قاعدة منطقية، وتسمح بكل الموبقات، وتعتبر أن الموت يضع حدا نهائيا للحياة على الأرض، والإسلام، دين التوحيد، الذى أساسه القرآن، وأوامره ونواهيه، الذى يقول إن الإنسان سيعث بعد الموت وأنه سيحاسب وأنه سيعيش أبد الأبد فى جنة الخلد أو فى جهنم، ويندرج اندراجا كاملا فى رسالات الأنبياء السابقين.

كان هذا النزاع ، خلال هذه الفترة الأخيرة، نزاعا فكريا أضاف إليه الكفار اعتراضات جديدة إلى تلك التى سبق لهم إيدائها ضد الإسلام منذ بداية الدعوة، وإن كان التحدى الخاص بإعجاز القرآن قد جعل الكفة ترجح لصالح المسلمين.

لكن هذا النزاع لم يكن نزاعا فكريا فحسب. لقد حارب الكفار،

الذين كانوا يدركون الميزة التي حققها الإسلام ضدهم، هذا الدين بوسائل مختلفة: بخطة واسعة النطاق لتروير القرآن، وبفرض رقابة تمنع الناس من الاستماع إليه، واستعانتوا لهذا الغرض بنفر من أهل الكتاب. وبهذا فتحت جبهة جديدة في مناهضة الإسلام. ما الذي كان يجب أن يقال لليهود وللنصارى حين يهاجمون الإسلام أو يصفون رسوله بالكذب والافتراء؟ كان هذا سؤالاً كبيراً عرض لمحمد وللمسلمين. وقد أعانهم القرآن على حل هذه المشكلة فزودهم بإجابة محددة عنه.

لكن هذا لم يكن كل شيء. إن من المؤكد أن هزيمة الكفار في مجال الفكر جعلهم يزيدون من ضراوة التدابير القمعية التي كانوا يتخذونها ضد المسلمين. وتكرار الإشارة في القرآن إلى العقوبة التي أنزلت بفرعون وقومه، الذين استعبدوا بنى إسرائيل، وذكر مؤامرات الكفار التي بلغت حداً لا يوصف «وإن كان مكْرُهُمْ لتزول منهُ الجبال»، والإيحاء المستمر للرسول ﷺ وللمسلمين بالصبر، شواهد على أن تنكيل الكفار بالمسلمين أصبح لا يطاق. وهذا هو السياق الذي نزلت فيه، في بداية الفترة المكية الرابعة، سورة يوسف، التي تحكى قصة هذا النبي الكريم.

إن يوسف عليه السلام لم يكن من كبار الأنبياء. ومع ذلك فإن قصته من أطول القصص التي جاءت في القرآن. وهى كذلك القصة الوحيدة من قصص الأنبياء التي حكيت دفعة واحدة. ويمكن أن نقول كذلك إنها القصة الوحيدة من قصص الأنبياء التي لا تنتهى بطامة كبرى والتي صادف النبي فيها نجاحاً. ولهذا فإنها تستحق الوقوف عندها قليلاً.

لقد أوتى يوسف، شأن بعض الأنبياء الآخرين، القدرة على إتيان المعجزات: تفسير الأحلام، والإخبار عن أمور خفية، وإعادة البصر لوالده الأعمى. لكنه أوتى بالإضافة إلى ذلك ملكة لم تكن تتوافر - فيما

يبدو- لنبي غيره هي ملكة الإدارة. ولم يكلف الله يوسف بدعوة الناس إلى الإيمان. وقد هجر ديانة قوم لم يكونوا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، واتبع ملة آباءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب. لكنه، مثل محمد ﷺ، لم يكن محبوبا من ذويه. وكان إخوته يحسدونه لأن آباءهم كان يؤثروهم عليهم. بل إنهم فكروا، في وقت من الأوقات، في قتله، كما كان هناك تفكير في قتل محمد. لكن إخوته اكتفوا، في نهاية الأمر، بإلقائه في بئر وفي تركه لمصيره. وأرادت رحمة الله أن ينجو يوسف من هذه التجربة دون أن يصيبه ضرر. بل لقد فتح له تدير إخوته السيء أبواب مستقبل زاهر.

ولابد أن هذه القصة قد أزعجت للرسول ولأصحابه وللمسلمين المضطهدين في الجزيرة العربية بالأمل في نهاية النكبة التي كانوا يمرون بها وفي اقتراب الفرج. ربما، كما حدث ليوسف، في بلد غير بلدهم. ولابد أن هذه القصة كانت تهز كل أوتار الشاعر لدى من كانت تُقص عليهم: هذا الأب الذلي كان يحب أبناءه؛ هؤلاء الإخوة الذين تجاوز كرههم وحسدهم لأخيههم كل الحدود؛ حزن يعقوب حين أحضر له أبناؤه ثوب يوسف المخرج بالدماء وأبلغوه أن الذئب أكله؛ دهشة رجل القافلة المكلف بإحضار المياه حين اكتشف في قاع البئر فتى هجره ذوه، ومخاوف السيارة الذين أخفوا هذا الغلام ليبيعوه. ولابد أن عرب مكة والمدينة وغيرهم كانوا يتظرون بفارغ الصبر بقية هذه القصة القرآنية الجميلة التي كانت إذاعتها، على حلقات متتابعة، تشوق المستمعين على مدى أسابيع أو حتى شهور. وبعد سنوات من بداية أحداث القصة، لم يعد يوسف ذلك الطفل الذي رأى في المنام أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين له، بل أصبح شابا وسيما بلغ من وسامته أن امرأة نبيل

من نبلاء مصر كان قد اشتراه زاودته عن نفسه، لكن يوسف لم يستمع إلى غواية الشيطان.

لقد انطوت هذه القصة على رسالة أمل وعزاء للرسول ﷺ وللمسلمين، فقد علمتهم أن الشر (الغيرة وكراهية الأقارب والبئر والسجن) قد يقضى إلى الخير. وكان يوسف، في هذه القصة، تجسيدا حيا لكل الفضائل التي تدعو لها الأوامر والنواهي. لقد كان مؤمنا حقا، فامتنع عن ارتكاب السوء والفحشاء. ولم يكن يمارس الغش في المعاملات: «أَنْتَى أَوْفَى الْكَئِيلِ». وكان يحب والديه ويوقرهما. لكنه، على الأخص، كان محبا للعفو، فقال لاختوته «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين». ولأنه كان يستجمع كل هذه الفضائل وكان يتوكل على الله وكان الله يحميه، فقد جزاه الله خير جزاء: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ».

على أن هذه القصة إذا كانت جديدة بالنسبة للعرب، لم تكن كذلك بالنسبة لليهود وللنصارى، فقد كانوا يقرأونها في كتابهم المقدس، ولم يكن يفوتهم أن يخبروا بذلك أصحابهم المسلمين أو المشركين. ولا بد أن مناقشات، ودية أو غير ودية، قد دارت في المدينتين، وفي الصحراء، وأن أشعارا قيلت تصور حجج من كانوا يقولون إن محمدا نقل القصة من الكتاب المقدس ومن كانوا يدافعون عن أصالة الرواية القرآنية. ولا بد أن المسلمين تذكروا قصة يوسف، في وقت لاحق، حين هاجروا من مكة، وحين كان رسولهم ﷺ يدير في المدينة شؤون الأمة الإسلامية كما كان يوسف يدير شئون مصر. ولا بد أن الرسول وصحابته تذكروا يوسف أيضا في وقت متأخر من الفترة المدنية، عند فتح مكة، بمناسبة العفو العام الذي أصدره الرسول ﷺ عن كل من سبق أن وصفوه في

مكة بالكذب واضطهدوا أصحابه ومن شنوا عليه الحرب بعد هجرته .

كانت ثلاث السنوات الأخيرة من الفترة المكية إذن سنوات حافلة بالتزليل القرآنى . والصورة التى تستخلص مما نزل فيها من القرآن هى صورة:

- بلد تزعزعت أركانه نتيجة لظهور الدين الجديد، هذا الدين الذى لم يكف، فى مكة وفى كل مكان تقريبا، عن التشكيك فى القيم التى كان تعتبر من المقدسات على مدى قرون (القبيلة، وعبادة الأوثان، وحقوق الأغنياء والأقوياء المطلقة)، والذى كان يريد أن يفرض قواعد للسلوك لم يعتدها الناس .

- سلطة قبلية عاجزة، على المستوى الفكرى، عن دفع انتقادات القرآن اليومية، وكان السبيل الوحيد أمامها للدفاع عن نفسها فى مواجهة الخطر الذى يمثله الإسلام فى نظرها هو اضطهاد أتباعه .

- تفاقم الظواهر التى نتجت عن ظهور الإسلام فى المجتمع العربى: قبائل تعذب أفرادها أو تنفيهم؛ أفراد يهربون من قبائلهم ويلجأون الى قبائل غيرها تعادى قبائلهم أحيانا؛ إخراج أشخاص من المسجد الحرام، مصادرة أموال الأقارب . . . إلخ .

وهى صورة تختلف كلية عن تلك التى تستخلص من مختلف عناصر النص . والشواهد تدل على أن ثلاث السنوات موضع البحث لم تكن فترة توقف فيها تاريخ الإسلام والجزيرة العربية، وأن أهم أحداثها فى مكة قبل الهجرة لم تكن، كما يقول النص، الساعات القليلة التى قضاها الرسول ﷺ فى ثقيف ومع أربع قبائل عربية فى الفترة الرابعة، ومع أهل المدينة فى الفترة الخامسة . لقد كانت هذه السنوات الثلاث فترة

بلغت فيها حملات «النظام القديم» ضد الدين الجديد ذروتها.

لذلك فمن غير المستغرب ألا يجد المؤلف، الذى كان يريد أن يعرض وجهة نظره الشخصية فى التاريخ، من المصلحة أن يتحدث عن أهم ما نزل من القرآن الكريم. وقد اتبع فى ذلك بالنسبة لهاتين الفترتين المكيّتين الطريقة نفسها التى اتبعها بالنسبة للفترات السابقة.

المحصله العامه

١- «سيرة رسول الله» لابن إسحاق/ ابن هشام، على الرغم من عنوانها ومن قصد مؤلفها المعلن، ليست، فى جزئها المكى، سيرة للرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك للأسباب الآتية:

(أ) هى لم تخصص للقرآن الكريم مكانا مركزيا فى وصف حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وعمله. لكن أليس من الجائز أن يقال، ردا على هذه الملاحظة، أن ابن إسحاق كان يعتبر كتابه تكملة للقرآن الكريم وأن على القارئ أن يبحث فى القرآن عن المعلومات الأساسية عن الرسول عليه الصلاة والسلام التى لا يجدها فى نصه؟ كاتب هذه السطور لا يرى ذلك: أولا لأن ابن إسحاق كان يعلم ولاشك أن محمدا والقرآن، الذى هو رسالته، لا يفصلان، ثم لأن مؤلف سيرتنا لم يحجم عن اقتباس آيات من القرآن حين كان يرى أنها تخدم الآراء التى كان يدافع عنها.

(ب) الرسول عليه الصلاة والسلام لا يظهر فى هذه السيرة وهو يتحدث أو يدعو الناس إلى دينه. وعلى الرغم من أنه صلوات الله عليه كان قبل كل شىء داعيا ونذيرا، فلما فى هذه السيرة نبى أبكم، لم تخرج من فيه سوى جمل معدودة فى النص كله.

(ج) هذه السيرة لا تصور الرسول بأبعاده الحقيقية. لقد أصبح الرسول عليه الصلاة والسلام، بفضل القرآن الكريم، أهم وأبرز شخصية فى مكة وفى بلاد العرب كلها، وكانت عظمته تكبر وتتداد بتوالى نزول السور وياتساع دائرة تابعية. ومع ذلك فإن النص يصوره، من البداية إلى النهاية، على أنه رجل ليس ذا حيثة.

٢- هذه السيرة، فى جزئها المكى، إنما هى فى واقع الأمر، كتاب دعاية، كُتِبَ:

(أ) تمجيدا لبني هاشم، قبيلة الخليفة العباسى الحاكم وقتها.

(ب) تمجيدا لأهل المدينة.

وهى فى الوقت ذاته وسيلة اتخذها المؤلف للثأر من عشيرة القائد العربى الذى أسر جده. وهى أخيرا، لاسيما فى الفترة الخامسة، تصور العقلية العسكرية للقرن الذى كتبت خلاله.

٣- الرسول عليه الصلاة والسلام لا يظهر فى هذه السيرة، المفروض أنها مخصصة له، كأهم شخصية فيها، بل هو مستخدم دائما لصالح هذا الفريق أو ذاك ولا يقوم، كأمر واقع، إلا بدور القرين الذى تبرز به محاسن قرينه.

٤- بنو هاشم وأهل المدينة يلتقيان، فى النص، على أرض مشتركة فى أربعة ميادين هى:

(أ) حماية الرسول والدعوة، التى يتولاها بنو هاشم ويعددهم أهل المدينة.

(ب) المبالغة فى خفض عدد حالات اعتناق الإسلام فى مكة، والتهوين إلى أقصى حد من المحن التى تعرض لها مسلمو مكة والاضطهاد الذى حاق بهم، والتغاضى تماما عما قدموه من تأييد لرسولهم صلوات الله عليه.

(ج) إقصاء العرب غير المكيين وغير المدنيين من مجال الإسلام وإبراز محور مكة/ المدينة، مكة السوداء والمدينة المنورة، على أنهما المحور الوحيد الذى كان يدور حوله الإسلام.

د) الغرض من قدر الخليفة الأول والخليفة الثانى والصمت المزدرى
حيال الخليفة الثالث.

٥- كانت الدعاية العباسية تقتضى:

أ) إظهار عبدالمطلب فى النص على أنه شيخ جليل قريب الشبه
بإبراهيم عليه السلام.

ب) إخفاء حقيقة أن بنى عبدالمطلب وبنى هاشم كانوا كفارا، وأن
ردود فعلهم حيال دعوة الإسلام لم تكن تختلف عن ردود فعل غيرهم
من قبائل قريش.

ج) إظهار أبى طالب، الذى كان كافرا، بمظهر الشخصية التى
تحظى فى مكة بتوقير لا يحظى به غيرها.

د- إظهار بنى هاشم فى حالة صراع مع قبائل قريش الأخرى
بسبب حمايتهم لحمد ﷺ.

٦- كانت الدعاية المدنية تقتضى:

أ) إظهار أن أهل المدينة، فى النص، استجابوا لدعوة الإسلام
استجابة سريعة وساحقة.

ب) زرع أهل المدينة فى الفترة المكية لإثبات فضلهم وأولويتهم فى
ظاهرتين تاريخيتين واعدتين هما:

- هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام والمسلمين من مكة إلى
المدينة.

- انتصارات الرسول عليه الصلاة والسلام الحربية فى المدينة،
والفتوح اللاحقة على وفاة الرسول واتساع رقعة الإسلام اتساعا غير
عادى فى القرن الذى تلا وفاته عليه السلام.

· الوسائل ·

كان لابد لهذه الدعاية من مادة . وقد اتبعت في سيرة ابن إسحاق / ابن هشام وسيلتان لتوفير هذه المادة، هما: الاصطناع المقترون بالتزوير، والتلاعب والإغفال فيما يتعلق بالقرآن.

١- الاصطناع المقترون بالتزوير،

(أ) اصطناع الاجتماعات التي كان أهمها: اجتماع عبدالمطلب بأمره، واجتماعات أبي طالب الأربعة برؤساء قريش، واجتماعات الرسول عليه الصلاة والسلام الثلاثة بالأنصار في العقبة، واجتماع إيليس برؤساء قريش بعد اكتشاف «المؤامرة» المدنية.

(ب) انتحال الشعر: وضع قصائد في رثاء عبدالمطلب لتصوير عظمته كجد لبني العباس؛ وضع الجانب الأكبر، إن لم يكن كل، ما نسب من الشعر لأبي طالب، لتصوير عظمته وجعله شاعر مكة الوحيد خلال الفترة كلها، وكذلك لاستخدام شعره لتحقيق غرضين: تأييد دعوى حماية بني هاشم للرسول، ونقد أبي الخليفة الأموي المقبل، وآباء وأجداد وعشائر الأشخاص الذين لم يكونوا موضع رضا العباسيين أو المؤلف، وأخيرا لإضفاء مصداقية على قصة مقاطعة قريش لبني عبدالمطلب وبني هاشم.

(ج) اصطناع وتزوير عناصر السياق التاريخي: الاختصار الشديد في قوائم من دخلوا الإسلام؛ إخفاء طابع الإبعاد في قصة الهجرة إلى الحبشة، التزوير في قصة المقاطعة، تزوير أسباب عظمة أبطال بني عبدالمطلب المسلمين الثلاثة، اصطناع بيعه الحرب .. إلخ.

(د) اصطناع العجائب: أحلام زمزم، والمياه التي انبجست تحت أقدام راحلة عبدالمطلب، والاكتثار من العجائب في حديث الفترة الخامسة.

٢- التلاعب بالقرآن والإغفال المقصود لبعض آياته،

(أ) النص لم يورد، فيما اقتبس من القرآن، الآيات الأساسية التي تمثل جوهر الإسلام وتعاليمه، بل أورد آيات جانبية، وآيات تتعلق بما وراء الطبيعة ولا تصور الأحداث الواقعية في مكة.

(ب) النص يستخدم معظم اقتباساته القرآنية في الفترة الثالثة، كما هو واضح، بغرض واحد هو اتهام أسلاف من كانوا أعداء لبني هاشم أو للمؤلف.

(ج) الاقتباسات القرآنية كلها تقريباً مصحوبة بشروح يفترضها المؤلف تتعلق بظروف نزولها، ابتداء من أقوال هذا أو ذاك من رؤساء قريش.

(د) لم ترد في النص اقتباسات قرآنية تتعلق بأحداث محسوسة أو بتأثير القرآن الكريم على مجريات الأمور (اعتناق الإسلام، اضطهاد المسلمين... إلخ).

(هـ) ما نزل من القرآن في شجب أحداث وممارسات وأقوال ومواقف محددة (وآد الأطفال، تزوير القرآن، حظر الاستماع إلى القرآن، محرمات الجاهلية) لم يرد له ذكر في النص.

(و) تجاهل النص تماماً قدرة القرآن على هداية أشخاص لم يلتقوا إطلاقاً بالرسول إلى الإسلام وأخفى، بناء على ذلك، انتشار الإسلام خارج حدود مكة، علماً بأن عدد المسلمين غير المكين كان أكبر بكثير من عدد مسلمي هذه البلدة.

ز) سرق النص آيات مدنية فى عبارات ما ادعى أنه بيعة العقبة الأولى.

ح) تلاعب النص بالقرآن الكريم حين استخدم آيات الحرب، التى نزلت فى المدينة فى ظروف خاصة محددة، لاصطناع ما ادعى أنه بيعة الحرب.

ط) أغفل النص الآيات القرآنية التى تتضمن ثناء على مسلمى مكة الذين هاجروا فى سبيل الله.

ى) أغفل النص الآيات المتابعة التى نزلت فى الفترة المدنية والتى تحت المسلمين على الهجرة وتقيم الدليل على أن جانباً فقط من مسلمى مكة هم الذين هاجروا إلى المدينة، كما تقيم الدليل على احتمال حدوث هجرات أخرى غير الهجرة من مكة إلى المدينة.

ك) أغفل النص الآيات التى تتحدث عن إخراج الرسول والمسلمين من المسجد الحرام وعن إخراج بعضهم من ممتلكاتهم ومساكنهم.

ملحوظات ختامية

أولاً

توفى الرسول عليه الصلاة والسلام عام ٦٣٢ م، وتوفى ابن إسحق عام ٧٦٨ م. وعلى الرغم من أوجه النقد التى أوردتها حيال هذا المؤلف، فإن من واجبى أن أعترف بأنه كان من الصعب عليه أن يكتب سيرة للرسول أفضل من تلك التى بين أيدينا، وذلك للأسباب الآتية:

١- لأنه كان من الصعب عليه الحصول على المادة اللازمة، كما كان من الصعب عليه التحقق من صحة ما توافر لديه منها. لقد كان الجزء

الأكبر من هذه المادة روايات شفهية تلقاها من أساتذته في المدينة، ومن المحدثين في مصر أو العراق، ومن أشخاص عادين تلقوها عن مصدر نقلها عن مصدر سابق نقلها بدوره أحيانا عن مصدر أسبق، بعد جيلين أو ثلاثة من رجال الإسناد، بعد أن توفي الله شهود العيان للأحداث الموضوعية بزمان طويل، إما في الحروب التي ثبت بين المسلمين، أو في الحروب الخارجية، أو لكبر السن.

وأيا كان عدد المصادر التي استمد المؤلف منها معلوماته، فإن هذه الروايات الشفهية لم تكن متاحة عن جميع المسائل التي كان عليه أن يتناولها، كما أن المؤلف لم يكن بوسعها دائما أن يتأكد من صحتها. ولم يكن لدى المؤلف وثائق ومادة مكتوبة، كما كان عليه أن يجوب الأقطار بحثا عن المعلومات في فترة كان وضع الأحاديث النبوية وانتحال الشعر واختلاق الأخبار للأغراض السياسية قد أصبحت صناعة حقيقية، وكانت الأحاديث الموضوعية والشعر المتحل والأخبار الكاذبة تحصى فيها بمئات الألف.

لقد كان علم الحديث، الذي يسمح بالتحقق بصورة فعالة من صحة ما كان يروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وقتها، كما قلت في المقدمة، لا يزال في بدايته.

أما الشعر والمعلومات التي لم تكن أحاديث نبوية، فإنها لم تكن موضوعا لعلم كعلم الحديث. ومن هنا كان في وسع كل من يشاء أن يتحل قصائد الشعر أو مادة تاريخية دون قيد. وكانت مهنة المؤرخ في ذلك الوقت أصعب بكثير مما كانت في العصور التالية أو في البلدان التي كان بإمكان المؤرخ فيها أن يخلص على مادة مكتوبة يتوافر فيها حد أدنى من الصحة محليا بتكلفة قليلة.

٢- لأن المصدر الوحيد المكتوب الذى كان فى متناول المؤلف - أى القرآن الكريم - لم يكن وقتها هو المصحف بشكله الحالى، المتضمن بيانا بالسور المكية والسور المدنية يسمح بمعرفة ترتيب نزولها.

٣- لأن المؤلف كان هو نفسه متتيا إلى معسكر الخليفة العباسى، ولأن هذا الخليفة كلفه بكتابة السيرة، ولأنه ولد ونشأ فى المدينة، ولأنه كان حفيد رجل أُسرَ فى صباه فى العراق ثم بيع كرقيق.

ولو أن مؤلفنا قد تأثر فى سيرة الرسول التى كتبها بانتمائيه إلى معسكر من كلفه بكتابتها، وبانتمائيه إلى المدينة، وبحفيظته الشخصية ضد من أسر جده وضد أسرته، فإنه لم يكن أول ولا آخر كتاب التراجم والمؤلفين الذين ينظرون إلى أحداث التاريخ من خلال آرائهم المسبقة.

٤- لقد كان ابن إسحاق مؤرخا علّم نفسه بنفسه. وكان يكتب فى وقت كان فن كتابة التاريخ فيه لا يزال فى بداياته الأولى. ولا يسوغ للمرء أن يلومه لأنه لم يكتب سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام كتابة موضوعية يتحرر فيها من مشاعره الخاصة ومن مشاعر من كان يستظل بظلمهم أو مشاعر مواطنيه، شأن المؤرخين المخضرمين. ومما يدعو للدهشة أنه استطاع، بلا تمرس فى كتابة التاريخ وبلا وثائق وبمجهوده الفردى، أن ينتج كتابا يعتبره البعض أهم كتاب بعد القرآن الكريم كتب باللغة العربية، ومن أهم النصوص الإسلامية.

ثانيا

الآراء التى أبديتها والتائج التى خلصت إليها فى هذه الدراسة لا قيمة لها إلا فى حدود موضوعها لا غير، أى الجزء الذى يتناول الفترة المكية من سيرة ابن إسحاق/ ابن هشام، مع استخدام ترتيب سور القرآن الكريم الذى وضعه «ريجى بلاشير» كأداة عمل.

وعملى هذا لايمس فى شىء قيمة المصنفات الأخرى التى كتبت قديما وحديثا عن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وأعماله. لقد علّقت على وثيقة تاريخية لكننى لم أقم بعمل المؤرخ. ولو كان على أن أكتب سيرة للرسول مع الاستناد إلى جميع السير المتاحة وإلى مجموعات الأحاديث النبوية، أو لو أننى استخدمت فى عملى ترتيب السور التاريخى كما يستخلص من المصحف أو، على سبيل المثال، من ترتيب ف.م. تاريخا، وهو أحدث من ترتيب بلاشير، لترددت قطعا فى اتخاذ بعض المواقف وفى استخلاص بعض النتائج التى تتضمنها هذه الدراسة. لذلك فإن قيمة عملى هذا - كأي عمل من نوعه - قيمة نسبية. وغاية ما أطمح إليه هو أن أكون قد أثبت، خلافا للرأى الذى أبداه بعضهم، أن هناك ما يضاف إلى ما سبق قوله عن السيرة، وأن مجال البحث فى هذا الميدان لايزال جد متسع.

بيليوغرافيا

أ- مرجعا البحث

- ١ - محمد بن إسحاق/ ابن هشام، السيرة النبوية، القسم الأول (الجزء الأول والثاني)، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، الطبعة الثانية، القاهرة، مصطفى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٥٥م.
- 2 - Régis BLACHERE, *Le Coran (Al-Qor'an)*, Paris, G. P. Maisonneuve & Larose, Editeurs, 1980.

ب- مؤلفون

- ١ - عبد العزيز الدوري، دراسة في سيرة النبي ومؤلفها ابن إسحاق، بغداد، ١٩٦٥.
- ٢ - علي العربي، أضواء على كتب السيرة النبوية، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٩١.
- 3 - Roger ARNALDEZ, *Mahomet*, Editions Seghers, 1975.
- 4 - Régis BLACHERE, *Le Problème de Mahomet*, Paris, Presses Universitaires de France, 1952.
- 5 - F. BUHL, *Das Leben Muhammeds*, 1903, trad. allem., Leipzig, 1930, rééd. Heidelberg, 1955, 1961.
- 6 - L. CAETANI, *Annali dell'Islam* - T.I (servant d'introduction à la période antérieure à 622).
- ٧ - محمد عزة دروزة، سيرة الرسول، الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٦٥.
- ٨ - خليل عماد الدين، دراسة في السيرة، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٧٨.
- 9 - J. FÜCK, *Muhammad Ibn Ishâq*, Literarhistorische Untersuchungen (Frankfurt s/M., 1925).
- 10 - Maurice GAUDEFROY-DEMOMBYNES, *Mahomet*, Paris, Albin Michel, 1957 et 1969.
- 11 - J. GOLDZIHHER, *Muhammedanische Studien*, Halle, 1888-90 (Trad. franç. sous le titre *Etudes sur la tradition islamique*, parue en 1954).
- 12 - H. GRIMME, *Mohammed*, Münster, 1892-5; 2 vol.
- 13 - A. GUILLAUME, *The Life of Muhammad (a translation of Ishâq's Sirat Rasûl Allâh)*, Oxford, Karachi, New York, Delhi, Oxford University Press, 1955.

- 14 - Id. *New Light on the Life of Muhammad*, Manchester, Manchester University Press, 1960.
- ١٥ - فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٠.
- ١٦ - محمد حسين هيكل، حياة محمد، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧.
- 17 - H. LAMMENS, *L'âge de Mahomet et la chronologie de la Sîra*. Dans *Journal asiatique*, 10e série (1911), t. XVII, 209-250.
- 18 - Id. *Qoran et tradition., Comment fut composée la "vie" de Mahomet*. Dans *Recherches de science religieuse*, n°1 (1910).
- 19 - Mahmoud MOURAD, *La critique historique occidentale et les biographies arabes du Prophète*. Dans *Les Arabes et l'Occident*, Genève, Labor et Fides, 1982.
- 20 - W. MUIR, *The life of Mahomet*, Londres, 1858-61; 4 vol.
- ٢١ - محمد مصطفى النجار، ومحمد جبر أبو سعدة، دراسة تاريخية في السيرة النبوية، القاهرة، ١٩٧٩.
- 22 - DANIEL NORMAN, *Islam and the West, The Making of an Image*, Edinburgh, The University Press, 1960.
- 23 - R. PARET, "Recent European Research on the Life and Work of Prophet Muhammad" (*Journal of the Pakistan Historical Society*, 6, 1958, pp. 81-96).
- 24 - Maxime RODINSON, *Bilan des études mohammadiennes* (*Revue Historique*, t. 229, fasc. 465, janvier-mars 1963, p. 169-220).
- 25 - Id. *Mahomet*, Paris, Edition du Seuil, 1994.
- 26 - A. SPRENGER, *Das Leben und die Lehre des Muhammads*, Berlin, 1861-5; 2e éd. 1869; 3 vol.
- 27 - W. Montgomery WATT, *Mahomet* (Traduction française), Paris, Payot, 1958, 1959.
- 28 - G. WEIL, *Mohammed der Prophet, sein Leben und seine Lehre*, Stuttgart, 1843.

دائرة المعارف الإسلامية

٨٤ مادة من مواد دائرة المعارف الإسلامية تتعلق بالأعلام والأمم والقبائل والمجموعات والأماكن والغزوات والأحداث والشعائر والأصنام والكتب التي ورد ذكرها في الرسالة .

الفهرس

الصفحة

١	تمهيد
٩	المقدمة

الفصل الأول

عبدالمطلب

٢٦	ألف - النص
٢٦	١- أبرهة
٢٩	٢- زمزم
٣٢	٣- نذر عبدالمطلب ذبح ولده
٣٥	٤- الشعر
٣٦	باء - التحليل
٤٢	جيم - النتيجة

الفصل الثاني

الفترة للكية الأولى

٤٣	ألف - النص
٤٨	باء - التحليل
٤٩	١- الاستخفاء
٥٢	٢- حماية أبي طالب للرسول
٦٣	٣- قائمة من أسلموا
٦٨	٤- آيات القرآن التي أوردتها النص
٧٢	٥- النتيجة
٧٢	جيم - ما نزل من القرآن

الصفحة	
٧٣	١- الله سبحانه وتعالى
٧٤	٢- الرسول
٧٦	٣- القرآن الكريم
٧٧	٤- البعث والحساب
٨٢	٥- الخير والشر
٩١	٦- الثواب والعقاب
٩٥	٧- الكفار
٩٨	٨- المؤامرات
٩٩	٩- الأنبياء السابقون
١٠١	١٠- أصحاب الأخدود
١٠٢	دال - النتيجة

الفصل الثالث

الفترتان الثانية والثالثة

الفرع الأول : الفترة الثانية

١١٢	ألف - النص
١١٢	باء - التحليل
١١٥	جيم - النتيجة

الفرع الثاني : الفترة الثالثة

١١٦	ألف - النص
١١٧	١- أبو طالب، وقريش، ومحمد والمسلمون، والحُجاج
١٢٦	٢- الهجرة إلى الحبشة
١٣٠	٣- المقاطعة
١٣٢	٤- أخبار أخرى
١٣٦	باء - التحليل
١٣٦	١- أقارب الرسول الكفار
١٣٦	(أ) أبو طالب
١٤١	(ب) بنو عبدالمطلب وبنو هاشم

الصفحة

١٤٣	ج) أبولهب
١٤٦	د) النتيجة
١٤٩	٢- على وجعفر وحمزة
١٥٣	٣- المسلمون
١٥٣	أ) إسلامهم
١٦١	ب) الاضطهاد
١٦٨	ج) الهجرة إلى الحبشة
١٧٤	د) هجرات أخرى؟
١٧٦	هـ) المقاطعة
١٨١	و) الإخراج من المسجد الحرام
١٨٦	ر) الخلفاء الثلاثة
١٨٦	١- أبوبكر
١٨٩	٢- عمر
٢٠٣	٣- عثمان
٢٠٤	جيم - النتيجة

الفصل الرابع

الفترتان الثانية والثالثة (تابع)

الشعر والقرآن

الفرع الأول : الشعر

٢١٥	ألف - ما قيل من شعر وتحليله
٢١٦	١- أبوطالب
٢٣٣	ملحوظات
٢٣٧	٢- باقى الشعراء
٢٤٩	باء - النتيجة

الفرع الثانى : الاقتباسات القرآنية

٣٢٢- ٢٥٩	ألف - الاقتباسات (من ١- ٤٠)
٣٢٢	باء - النتيجة

جيم - التجميع	٣٢٤
---------------	-----

الفصل الخامس

الفترتان الرابعة والخامسة

الفرع الأول : الفترة الرابعة

ألف - النص	٣٤١
باء - التحليل	٣٤٤
جيم - المحصلة	٣٥٥

الفرع الثانى : الفترة الخامسة

١- إسلام بعض أهل المدينة

ألف - النص	٣٥٩
باء - التحليل	٣٦٤
١- دعوى النص	٣٦٤
٢- الملاحظات	٣٦٧
٣- نظرة أكثر واقعية	٣٧٧
٤- النتيجة	٣٨٣

٢- بيعة الحرب

ألف - النص	٣٩٤
باء - التحليل	٣٩٩
١- الاستشهادات القرآنية	٣٩٩
٢- أقوال المتحدثين فى الاجتماع	٤٠٤
٣- ملحوظات أخرى	٤١٠
جيم - النتيجة	٤١٥

٣- الهجرة إلى المدينة

ألف - النص	٤٢٥
باء - التحليل	٤٣١
١- هجرة أم إخراج للرسول؟	٤٣١
٢- هجرة المسلمين	٤٣٥

٤٤٣	٣- القرآن والهجرة
٤٤٦	٤- القرآن وإخراج المسلمين
٤٤٩	جيم - النتيجة
٤٤٩	١- التلاعب بالقرآن
٤٥٣	٢- التزييف والاختلاق
٤٦٦	ملحوظات ختامية

الفصل السادس

الفترتان الرابعة والخامسة (تابع)

الشعر والقرآن

١- الشعر

٤٦٧	ألف - ما قيل من الشعر
٤٧١	باء - ملحوظات

٢ - الاقتباسات القرآنية

٤٧٧	ألف - النص
٤٧٩	باء - ملحوظات

٣ - القرآن المنزل

٤٨٠	ألف - تلخيص
٤٨٦	باء - حماية الرسول
٤٩٣	جيم - الحرب مباحة؟

٤٩٥	٤ - النتيجة
-----	-------------

٥٠١	المحصلة العامة
٥٠٤	الوسائل
٥٠٤	١- الاصطناع المقترن بالتزوير
٥٠٥	٢- التلاعب بالقرآن والإغفال المقصود لبعض آياته
٥٠٦	ملحوظات ختامية

رقم الإيداع ١٧٩٤٢/٢٠٠٠

977-07-0742-2

طبع بمطابع دار الهلال

هذا الكتاب

سيرة ابن هشام (التي كتبها ابن إسحاق) هي المصدر الأول لكل ما كتب عن السيرة النبوية حتى الآن.

وقد اتضح لمؤلف الدراسة الحالية - التي اعتمد فيها على القرآن وحده - أكد ما ورد فيها عن: قصة أصحاب الأخدود - عبدالمطلب - فترة الاستخفاء - حماية بنى عبدالمطلب وبنى هاشم للرسول ﷺ - الهجرة إلى الحبشة - مقاطعة قريش لبنى هاشم - بيعة العقبة الثانية - حصار بيت الرسول ﷺ - ظروف الهجرة إلى المدينة - لا يمثل الحقيقة الموضوعية وينطوى على كثير من المغالطات، كما اتضح له أن ما حفلت به سيرة ابن هشام من شعر منحول يدل دلالة قاطعة على نية مبيتة لتزوير السيرة النبوية من طريق انتحال الشعر.

وتُظهر هذه الدراسة أيضا أن الجزء المكى من سيرة ابن هشام ليس سيرة حقيقية للرسول ﷺ، وأنه يفصل الرسول ﷺ عن القرآن الكريم، ويسير في اتجاه مخالف تماما لاتجاه القرآن، وأن مؤلف «السيرة» تأثر في كتابته بعدة عوامل هي: ولاؤه للخليفة العباسي الذي كلفه بكتابتها، وانتماؤه إلى المدينة، وحفيظته الشخصية ضد خالد بن الوليد الذي جده في العراق، وعقلية عصر الفتوح التي كانت تعتبر العسكري هو النص الوحيد الجدير بهذا الاسم.

وقد حاول مؤلف هذه الدراسة أن يصحح أخطاء ابن إسحاق وأن يسد بعض الثغرات التي وردت في حديثه عن الفترة المكية.

